

رِسَالَةُ الْعُقْرَانِ

لِلشَّاعِرِ الْفَيْلَسُوفِ أَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ

شَرِّحَ وَإِجَازَ
كَامِلَ كِسْلَانِي

الجزء الاول



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

رسالة الترافغفراك

للشاعر الفياسونى ابي العلاء المعرى

شرح وابتجاز
كامل كىلانى

الجزء الاول

ملتم طبعه ونشره
مطبعة المعارف وكتبها بمصر



حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

إهداء الكتاب

مولاي :

مُنذُ أَلْفِ عَامٍ - أَوْ قَرِيبٍ - تَعَنَّى صَاحِبُ الْغُفْرَانِ فِي مَنَشُورِهِ وَمَنْظُومِهِ
بِالْمَثَلِ الْأَعْلَى لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَرَاحَ يَنْشُدُهُ - حَيَاتَهُ - عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ .
وَالْيَوْمَ يَتَحَقَّقُ لِشَارِحِ الْغُفْرَانِ فِي عَهْدِكَ الزَّاهِرِ - ذَلِكَ الْحُلْمُ الذَّهَبِيُّ
الْجَمِيلُ الَّذِي عَزَّ عَلَى مُؤَلِّفِ الْغُفْرَانِ أَنْ يظْفَرَ بِهِ .

مولاي :

وَلَقَدْ رَفَعْتُ بِالْأَمْسِ إِلَى سُدَّةِ أَمِيرِنَا الْمَحْبُوبِ - فِي أَوَّلِ نَشَاءَتِهِ
الطَّاهِرَةِ - أَوَّلَ لَبِنَةٍ سَوَّيْتُهَا فِي أُسَاسِ مَكْتَبَةِ الْأَطْفَالِ .
وَالْيَوْمَ يُسْعِدُنِي أَنْ أُرْفَعَ إِلَى سُدَّةِ مَلِيكِنَا الْمُصْلِحِ - وَهُوَ فِي مُقْتَبِلِ
شَبِيبَتِهِ النَّاصِرَةِ - آخِرَ لَبِنَةٍ أُضَعُّهَا فِي صَرْحِ مَكْتَبَةِ الشَّبَابِ .
وَأَنَا فِي هَذِهِ وَتِلْكَ لَا أَتَوَخَّى - بَعْدَ رِضَا اللَّهِ (سُبْحَانَهُ) - غَيْرَ رِضَاكَ ،
رَاجِيًا أَنْ تَظْفَرَ هَذِهِ - مِنْ رِعَايَةِ الْمَلِيكِ - بِمِثْلِ مَا ظَفَرْتَ بِهِ تِلْكَ
مِنْ عِنَايَةِ الْأَمِيرِ .

وَحَسْبِي أَنْ أُرَدِّدَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَا أَسْلَفْتُهُ فِي ذَلِكَ مِنْ مَوْفُورِ الْوَلَاءِ ،

وَصَادِقِ الدُّعَاءِ :

« فَإِذَا قَبِلْتَ هَدِيَّتِي ، وَرَضَيْتَ عَنْ هَذَا الْكِتَابِ
أُخِيَّتَ فِي نَفْسِي الرَّجَا ، فَأَبْدَعْتَ فِي كُلِّ بَابٍ
وَمَلَأْتَ قَلْبِي بِالْيَقِينِ ، فَلَا أُبَالِي بِالصُّعَابِ »

كامل كيراني



أبو العلاء كما تخيله شارح الرسالة

مقدمة

« أكتبُ هذا ، وبين يديّ طبعة لرسالة الغفران ، أذاعها « كامل كيلاني » — منذُ حين — أكتبه ، وأنا أعلمُ أن هذه الطبعة قد ذاعت ، واستبق إليها الناس استباقاً لم يكن منتظراً ولا مرجوياً ، فاغتبط للطبعة نفسها ، وعناية « كامل » بها ، ثم اغتبط لما ظفر به من التشجيع على هذا الجهد ، وهذه العناية ، ثم اغتبط لأن روح أبي العلاء ، وفلسفته ، ومناهجه — في الفهم والتفكير — قد أخذت تتغلغل في طبقات المستنيرين من أهل الشرق العربي ، وليس هذا بالشيء القليل ، وما أشك في أنه سينتج آثاره الحسنة بعد حين .

تلك هي نبوءة الأستاذ العميد^(١) منذ خمس عشرة سنة ، وقد صدّق الزمن نبوءته التي أوحاها إليه رواج الطبعة الأولى من هذا السفر النفيس ، فقد نفذت الطبعة الثانية كما نفذت الطبعة الأولى في زمن يسير ، ومضت نسخهما تطوّف في الآفاق ، فأصبحت كل نسخة منها مدداً في مكتبة لأديب أو متأدب ، وحقق الشباب المفكر تأميلنا فيه ، ورأى في هذا السفر الخالد مصداق ما حدثناه به : فنا من الأدب العالي يفخر به الفكر الإنساني ، ويزهى بروعته الخيال العالی^(٢) ، فأقبل على هذه اللذائذ الفكرية المرتقيات — كما يقول شيخ

(١) انظر مقدمة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية التي صدرنا بها الطبعة الثانية من رسالة الغفران ، وقد أعدنا نشرها في هذه الطبعة الثالثة (ص ٦٦٩ — ٦٧٨) وبما كتبه الاستاذ العميد عن الطبعة الثانية من الغفران في مقدمة كتاب « صور جديدة من الادب العربي » قوله : وقد راجت رسالة الغفران هذه — في مصر والشرق العربي ، بل رأيت من المستشرقين — في أوروبا — من يرضى عنها ، ويعجب بها .

(٢) صدرنا الطبعين الأولى والثانية بما يلي :

الى الشباب المفكر ، الذي أدرك حقيقة الادب الحى ، وعرف قيمته وأثره في احياء النفوس ، وانهاض الشعوب . الى الشباب المفكر الذى اطلع على الآداب الغربية ، فسحرتة أنغامها العديدة ، وهاله خضبها الزاخر ، الجياش بشقى احساسات الحياة وخوالجها ومثلها الرائعة ، وعصف على الآداب العربية فأخرج صدره ما فيها من الخلط وسوء الاختيار ، فعزف عنها مزدرباً ناقماً — وله بعض العذر — واندفع متهافتاً على الادب الغربى الذى وجد فيه لكل خالجة وتراء تشجيه أنغامه ، وتغلاً فراغ نفسه ، وتعلق بها فى أسمى ملكوت أطمع اليه . الى هذه الفئة من الشباب ، أقدم هذا الكتاب الذى أرى فيه فناً من الادب العالی ، أجرؤ فأزعم — لا متحمساً للغتنا ، ولا متعصباً لآدابنا ، ولا مجازفاً فى زعمى — أنه لا يقل عن أجل أثر أخرجه أكبر رأس عربى مفكر ، وهنا نمسك القول حذراً من الاسراف والشطط

المرة - ونفذت الطبعة الثانية منذ عشر سنوات - أو تزيد - ثم شغلتني مكتبة الأطفال عن إظهار هذه الطبعة إثر نفاذ سابقتها حتى أتاح الله هذه الفرصة ، وقدّر لها الظهور في هذا الثوب الأنيق .

ولا يدَهشَن القارئ إذا حدثته بأن إقبال الشباب العربي على هذه الرسالة ، قد أحيا في نفسي ميت الآمال ، وحفزني ذلك النجاح إلى إنشاء مكتبة الأطفال . فقد تحقق لي أن الطفل العربي إذا تهيئناه في أول نشأته بالثقيف العربي ، ويسرنا له سبل البيان العربي ، حسن رأيه في أدبنا ، وصفا تفكيره ، واستقامت فطرته ، وقد أثبتت الأيام صدق ما رأيناه ، ثم بدت في هذه الأيام بشائر طيبة ، فرأينا طائفة من كرام المرين يقتفون أثرنا في هذه الطريق ويتهجون ما رسمناه من خطط ومناهج ، فحمدنا لهم تلك المحاولات المشكورة ، ودعونا لهم بالسداد والتوفيق ، وما زال أملنا معقوداً بنجاحهم القريب ، متى ضاعفوا من عزيماتهم وأخلصوا نياتهم ، وتصدى كل منهم لما يحسنه ، واقتصر الميدان على أهله .
ولئن كانت رسالة الغفران حافزة لنا إلى إظهار مكتبة الأطفال ، لقد كانت تلك المكتبة معوّقة لنا عن المبادرة بإظهار هذه الرسالة إثر نفاذها .

ولقد آثرت الروية ، واخترت التريث ، ولم أدفع بالكتاب إلى المطبعة إلا بعد أن احتفلت له وحشيت - لتجويدة - كل ما أملك ، حتى قربته - ما وسعني الجهد - من الكمال الفنى المنشود ، رغبة في أن أجزى بالشكر لأبناء العروبة على ما بذلوه من تقدير وتشجيع . وإن إقبال شبابنا على الآثار العلائية المبدّعة ، وتزودهم من هذا المنهل الفكرى الصافى ، لدليلا أى دليل ، على أصالة النهضة الأدبية التى يرفع أعلامها أعلام هذا العصر ومفكره ، وإن فى نفاذ الطبقات المتعاقبة من آثار المعرى لفاقلاً صادقاً - كما قلت فى مقدمة الطبعة الثالثة من « اللزوميات » - يبشر بخير النتائج ، وينبئ بأحمد الغايات .

*
* *

ولقد جلونا هذه الطبعة الجديدة وقد أنست بالنص الكامل لرسالة ابن الفارح ، وهى الرسالة التى بعث بها صاحبها إلى أبى العلاء ، فأجابه عليها برسالة الغفران (١) .

(١) انظر (الجزء الأول ص ٢١ و ٢٢) لرى السبب الذى دعا ابن الفارح الى تأليف هذه الرسالة التى حفزت المعرى الى انشاء رسالة الغفران .

وقد أضفنا إليها طائفة صالحة من رسائل المعري ، في فقه اللغة ، وفنون الأدب . وضروب شائقة من طريف الحكمة وجميل المودة ، ثم ذيلنا ذلك بترجمه وسيطة لجحيم « دانتي » إذ كان الباحثون قد أفاضوا - لهذا العهد - في صلتها بفقران « أبي العلاء » .

وقد أخذنا أنفسنا - في إخراج هذه المجموعة من الرسائل المبدعة - بأن تقيّد نصوصها بالشكل الكامل ، وإن يان « أبي العلاء » لجدير أن يضبط كله ، إذ كان ذلك الكاتب المتفرد مغرباً في لفظه وأسلوبه ، على عمق أغراضه ومعانيه .

وما أحوج القارئ - لآثار هذا الفيلسوف الأديب - إلى أن يضاعف يقظته لتفهم معناه البعيد ، ويجبس انتباهه لتقصي مرماه الخفي ، ويجلو فطنته لاكتناه مغزاه المستسر ، ويحشد قواه الفكرية كلها فلا يتوزعها الصواب في إعراب كلمة أو تصريحها أو وجه سياقها .

وقد يكون ذلك أجمع سهل المقادة ، ميسور التآني ، هين الدرك ، للأديب المتمكن ، ولكنه - على ذلك - شديداً ما يكون حجر عثرة في طريق الشدّة من المتأدبين ، فسرعان ما يدركهم الملل ، ويقعد بهم العجز ، ولا يلبثون أن يضجروا بمتابعة القراءة ، وبذلك يفوتهم - على الرغم منهم - أن يستمتعوا بهذه الكنوز الأدبية الجديرة بالجد والمعاناة . واستتبع هذا العمل أن نشرح الألفاظ شرحاً دقيقاً ، ينكشف به المقصود من معانيها في عرض الكلام .

ويسير غاية اليسر هذا العمل ، لو أن الكاتب غير أبي العلاء من كتاب الغريب المنصوص عليه صراحة في المعجمات ، فإن امتلاك أبي العلاء لناصية اللغة ونوادرها ، وسعة محفوظته من جزل النظم والنثر ، وتمرسه بمختلف أساليبها ، وغوصه على فرائدها ، وتهديده لأبكار المعاني وعيون الكلام ، وتوفقه في ابتداع الصورة الفنية الرائعة . وحشده أفانين مختلفة من مُعجب التصاوير وبارع الصيغ ، وتبحره في التاريخ ، إلى حد أن قال - وصدق - :

« ما مرّ في هذه الدنيا بنوز من إلا وعندي - من أخبارهم - طرف »

كل أولئك قد أجرى لسانه بالكثير الأكثر من صور ألفاظ تدل - بعد الروية ، ومد البحث - على غير المعروف الظاهر من معانيها ، مما توسعت به اللغة ، وتشعب التصريف ، فصار واجباً أن نجد المراد من اللفظ في سياق الجملة حداً دقيقاً ، وأن نفسره

بما يقتضيه ذلك السياق ، معتمدين - في ذلك - على ما يقع لأيدينا من أجلاد اللغة ،
وكتب الألفاظ ، باذلين الوسع في التحرز والتخير والتحقيق .

*
* *

وقد توخينا - على ذلك - أن نترجم لمن وردت أسماءهم - في هذه المجموعة -
من الكتاب والشعراء وكلّ ذى فن .

وضاعف الجهد في هذا الصنيع ، أن أبا العلاء كان بعلمه مُدلاً ، ولوفرة معارفه مستخدماً ،
فكان يشير إلى الكاتب أو الشاعر أو العالم باسمه ، وهو معروف بلقبه ، أو ينعته بكنيته ،
وهو معروف بنسبته ؛ مما أثبت له في صدور معاصريه عظيم المنزلة ، وشديد الإعجاب ؛
فلقينا في كشف هذه المعميات - بالصدر الرحب - بعض العناء . ومما رسمناه لأنفسنا
في الترجمة أن تكون شرحاً لما أشار إليه أبو العلاء حين عرض لأولئك الأعلام ، حتى يغنى
القارئ عن المراجعة والاستعانة بغير الكتاب الذي بين يديه ، فيجد كفايته من توضيح
الإشارات بأدنى نظر ، وأيسر جهد . ورأينا ألا نخلى هذه المجموعة من دراسة لفلسفة
أبي العلاء وتفصيل لآرائه في الحياة والناس وما وراء الكون ؛ فالزمنا أنفسنا ألا يعرض
أبو العلاء لمعنى فلسفيّ ، أو يلمح إلى فكرة من خواص فكره ، إلا ألحقنا بها ما يماثلها فيما نقل
عنه ؛ ولا جرم أن شعر أبي العلاء ونثره يفسر بعضه بعضاً ، فهو يلمح إلى الفكرة في بيت ،
ويوضحها في بيت آخر ، ويزيدها إبانة وتوضيحاً في متناثر أبيات أخرى . فلا متدح لمن
يتناول بالبحث إحدى نواحي أبي العلاء من أن يستقرى شعره ونثره ، ويتفطن إلى النظائر
والأشباه ، وما يتداخل من أفكاره ، وما يرجع من بعضها على بعض ؛ حتى تنفسح أمامه
سُبُل الموازنة والمقابلة والترجيح . وفي أضعاف هذه المجموعة حمل لبعض العبء عن
الباحثين ، فلقد فصلنا فيها أبواباً من فلسفة أبي العلاء ، وعمرّناها بمختلف أقواله في كل منها ،
وكشفنا الغطاء عن مستورها ، وجلوناها مواد مهياة للفائدة والانتفاع ؛ آملين أن يكون
الباحثون بها في أمنٍ من الخطأ في الحكم ، والخطل في الاستشهاد .

وثمة جانب من العمل في هذه المجموعة ما كان أحرانا أن نمسك عن القول فيه ، إذ كان القول أياً كان لا يصف على الحقيقة ما عايناه منه . ذلك هو جانب التصحيح لنصوص الرسائل التي حفلت هذه المجموعة بها . ويشهد الله لقد تفشأها التحريف والتصحيف ، بل المسخ والتشويه ؛ فأحال الكثير من جملها أعقد من ذنب الضب ؛ سواء في ذلك الرسائل التي سبق طبعها ، والرسائل التي ظلت مخطوطة حتى إعداد هذه المجموعة للطبع . وقد آلينا على أنفسنا ألا ندخر في تصحيحها من جهد ولا كد ؛ فصبرنا للجامح حتى سلس ، وتأثينا للمستعصى حتى انقاد . وتوسلنا إلى ذلك بما اتسع له الامكان من وسائل المراجعة للكتب ، والتقليب للرأى ، والإذكاء للفطنة ، والحدّ للذهن ، والتوطين للنفس - مهما بعدت الشقة - على بلوغ الغاية .

وقد انقسمت هذه المجموعة من الرسائل لذلك الجانب من التصحيح إلى قسمين : قسم حوى مباحث من فقه اللغة ، ورواية الشعر ، وعلم الأدب ، فكان من ههنا في هذه المباحث أن نتصيدا في مظانها ، ثم نعارض ما في المظان بما أثر عن أبي العلاء ، مستأنسين بما نجد من هذه المباحث في استقامة الجمل ، وسلامة الألفاظ ، وصحة السياق . فأما القسم الثانى ، فهو نثر أبى العلاء الذى أملاه إنشاءً ، لا مرجع عنه إلا إليه ، ولا بديل منه إلا مرآته . فكنا نقف منه موقف الأناة والتروى ، لا تنفع في تصويبه بعفو الخاطر ، ولا نرضى فيما يظهر لنا من وجوه التصويب بأن يسير الكلام على وجه الصحة ، مؤدياً حق الإفهام . ولكننا كنا نستعين بما خبرنا من أساليب أبى العلاء ، وما استظهرنا من ألفاظه الدائرة ، وما عرفنا من ديباجته وطابعه في نسج العبارات . وما نزال في بحث وتقصٍ ، ووزن وتفضيل ؛ حتى تنقش سحائب التحريف عن لفظ لائق بالنسق ، جارٍ من ألفاظ أبى العلاء على عرق ؛ فيأخذ اللفظ مكانه بين ما قبله من الألفاظ وما بعد ، مأخذ الدرّة من العقد ؛ لا اجتلاب ثمّ ولا تكلف ، ولا استكراه ولا تعسف .

وما نحب أن نفيض القول في تفصيل ما بذلنا من جهد في إخراج هذه المجموعة الحافلة ، فها هي ذى بين يدي القارئ تصف نفسها بنفسها ، وتدل بيومها على أمسها . وفي مكنة

المنصفين أن يمثّلوا لأنفسهم وهم يقبلون من أوراقها المثين ، أننا وقفنا من كل كلمة في كل سطر في كل صفحة منها وقفة التحقيق والتفتيش والتحري ، في غير ضنّانة بالجهد ، ولا إيثار للذة . مجتهدين ألا نخرج من فصل إلى فصل قبل إيفائه حقه من العناية والتعهد ؛ محاذرين في مباحث التاريخ وعلوم العربية المقتضبة في مطاوي الرسائل أن ندعها متعبة للراغبين في البحث ، مضية لوقتهم في الرجوع إلى المصادر ؛ عامدين في أمثال هذه المباحث إلى إضاءة ما حولها ، والافاضة في بيانها ، والاستطراد إلى لبابها ، تمكينا للدارس المستقصى من آرايه في دراسته واستقصائه . واضعين نصب أعيننا ألاّ يشعر قارئٌ بحاجة إلى شرح غريب ، أو تفسير غامض ، أو تجلية إشارة ، أو تفصيل مجمل ؛ إلا وجد قضاءها على حبل الذراع .

*
* *

« أما بعد » فهذا جهد — بل جهاد — بذلناه ، لا نريد به إلاّ وجه الأدب وحده ، وهو — كما قلنا في مقدمة ديوان ابن زيدون — زكاة الأديب ، وإنما امتثلنا مثلال الأسلاف ، الذين بذلوا من ذات أنفسهم لتظل حياة الأدب موصولة على الزمن عصرا بعد عصر ، وجيلا بعد جيل . وما رأينا كالأدب : على صاحبه الغرم إذا أخذ ، وعليه مثل ذلك الغرم إذا أعطى . فالأديب يشقى تعلما ، كما يشقى تعلما ، والأدب يضنى صاحبه في حاله ، فهو يبلى من يخدمه ، كما يبلى من يستخدمه .

على أننا قد رضينا — من قبل ومن بعد — بالشقاء والضنى ، فهل رضى الأدب عما أدينا ونؤدى ؟ ذلك غاية ما نأمله ، فلا والله ما يعيننا من شيء إلا أن نجيب تلك النزعة الفنية الصادقة التي نزلت منا منزل الشغاف — منذ نعومة الظفر — فحبت إلينا الأدب ، وحفزتنا إلى التفاني له وفيه .

فإن بلغنا — بهذا الصنيع — غاية من الرضا ، فهي حسبنا ، وعند الله ثواب المحسنين .

طامل كيملاني

المشاعر

حدث علي بن الجهم ، قال :

كان الشعراء يجتمعون - في كل جمعة - في القبة المعروفة بهم في جامع « بغداد » ينشدون الشعر ، ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم في الجمعة التي قبلها . فبينما أنا في جمعة من تلك الجمع ، ودعبل ، وابن أبي الشيص ، وابن أبي فنن ، والناس مجتمعون ، يسمعون إنشاد بعضهم ، أبصرت شابا في أخريات الناس جالسا في زى الأعرابي :
فلما فرغ كل منهم وقطع إنشاده ، التفت الشاب إلينا وقال :

« قد سمعت إنشادكم - منذ اليوم - فاسمعوا إنشادي »

قلنا : « هات » فأنشد : « فحواك عين^١ - على نجواك - يا مذل^(١) »

ثم مر فيها منشداً ، حتى أتى قوله :

« تغاير الشعر^٢ فيه - إذ سهرت له - حتى حسبت قوافيه ستقتل^٣ »

فمقد « ابن أبي الشيص » - عند هذا البيت - خنصره ، ثم مر^٤ فيها الشاب إلى أن

أتى على آخرها ، ثم أنشد أخرى . قلنا له : « لمن هذا الشعر ؟ »

فقال : « لمن أنشدكموه » .

قلنا له : « ناشدتك الله ! من تكون ؟ » قال : « أنا أبو تمام الطائي ! »

قال ابن أبي الشيص : « فرفنا مجلسه - حينئذ - وعظمناه تعظيما كبيرا . »

(١) المذل : هو الذي يفهم السر ، والشطر الثاني قوله : « حتام لا يتقضى قولك الخطل » ، والقصيدة

في مدح المعتصم ، ومن أروع ما فيها قوله :

« له رياض ندى ، لم يكب زهرتها خلف ، ولم تبخر - بينها - العلل »

وقوله : « يحميه للأوه ، أو لودعيته من أن يذال : بمن ، أو : بمن الرجل ؟ »

فهل عرف القارىء: ماذا كان من أثر هذا البيت الرائع^(١) الذى عقد « ابن أبي الشيص »
 خنصره عند سماعه؟ وكيف أوحى إلى ذهن المعرى قصة هذه القوافى المتوثبة إلى القتال؟
 لقد وعى أبو العلاء هذا المعنى، كما وعاه « ابن أبي الشيص » وأصحابه، وعقد خنصره
 عند سماعه، وأكبر من « أبي تمام » هذا الخيال البارع الذى مثل قوافيه كائنات حية،
 توشك أن تقتتل لتظفر بشرف الخلود فى شعر أبي تمام، واختزن المعرى هذه اللفتة البارعة،
 كما يختزن القاص الموهوب كل مشهد رائع من مشاهد الحياة، وكل معنى مجود مبتكر،
 ليعرضه - أبهى عرض - فى مكانه الجدير به من قصصه المتخير المبدع.

فلما أتحت للمعرى فرصة الكلام عن « أبي تمام » تمثل قوافيه كائنات حية، توشك
 - لو علمت نبأ مصابه - أن تولول عليه نادبات^(٢).

ولم يقف خيال المعرى عند تخيل هذه القوافى كائنات حية، تأسف وتحنن وتسير فى
 الجنائز، فتخيل أبيات لبيد قد نقلت فى الجنة قصوراً فخمة^(٣).

ومتى أعجب المعرى بأبيات « لبيد » فتمثلها قصوراً فاخرة، فلا عجب إذا دفعه تحقيره
 الرجز إلى تمثل أبيات الرجاز قد نحولت بيوتاً حقيرة^(٤). ولا غرو أن يتمثل بيت الخنساء فى
 أخيها صخر، وقد أصبح - فى الدار الآخرة - حقيقة راهنة، وبدا أخوها - فى الجحيم
 كالجبل الشامخ، والنار تضطرم فى رأسه، وهو يقول لأخته: « لقد صح مزعمك فى ».
 وإنما يعنى قولها:

« وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار^(٥) »

كما يتمثل معلقة امرئ القيس كلها عجوزاً فاجرة، فيقول فى رسالة الإغريض^(٦):

(١) المفهوم من القصة أن هذا البيت كان بدء التعارف بين أبي تمام وابن الجهم، ثم تمت الألفة بعد ذلك حتى قال فيه أبو تمام.

« إن يكدر مطرف الاخاء، فأوتنا نغدو، ونسرى فى إخاء تالد
 أو يختلف ماء الوصال، فأوتنا عذب، تحدر من غمام واحد
 أو يفترق نسب، يؤلف بيننا أدب، أقناه مقام الوالد. »

(٢) انظر (ص ٢٦٨) . (٣) انظر (ص ٨٦) . (٤) (انظر ص ١٨٩) .

(٥) انظر (ص ١٣٤) (٦) انظر (ص ٥٨٩)

« وإن « قفانك » على حسنها وقدم سنها — لتقر بما يبطل شهادة العدل الرضى، فكيف
بالبنى الأنثى؟ قاتلها الله عجزاً لو كانت بشرية، كانت من أغوى البرية »

ثم يتخيل أعمارنا ومنايانا، كأنهن الآيات في النثر، والمنايا فواصلهن، وكأنهن الآيات
في الشعر، والمنايا قوافيهن، فيقول في الأولى :

« إن أعمارنا كآى أينت والمنايا هن مثل الفواصل »

ويقول في الثانية :

« وأعمارنا آيات شعر، كأنما أواخرها للمنشدين قوافى »

ولا يفوته حين يعرض لذكر أعلام النحو والصرف أن يقول :

« أتت علل المنون فما بكاهم — من اللفظ - الصحيح، ولا العليلُ

ولو أن الكلام يحس شيئاً كان له — وراءهم — أليل »

ولو شئنا أن نقصى هذا اللون — وحده — من خيال المعرى — وهو ضروب وأفانين

لا تحصى، لضاق بنا المقام الرحيب، فكيف بهذه اللمحة العاجلة .

وإنما عنانا — في هذه الومضة الخاطفة — أن نعرض للقارىء مثلاً من سعة خيال المعرى،

ولوناً من ألوان تفننه وابتداعه، وانفساح أفاقه، وأصالة الروح القصصى في نفسه، وقد

اخترنا هذا المثل من بين مئات من أشباهه ونظائره المبتوثة في نظمه ونثره لنرى القارىء

كيف أصبح الخيال القصصى في نفس المعرى متين الأواصر، عميق الأغوار، تكاد كل

كل ملاحظة تمن له تتحول قصة، أو مشهداً من قصة، أو منظرًا من مشهد قصصى، أو

إيجاء بقصة، أو خلاصة لها، أو موجزاً لأقصوصة، أو إشارة — بعيدة أو قريبة — إليها .

وسيان — في عالم الفن الصادق — أن تطول القصة أو تقصر الأقصوصة، فإن في

البذرة — على ضآلتها — كل عناصر الدوحة السامقة، ولن يضير المعرى أن يوجز بعد أن

أصاب الهدف ولم يخطئ الصميم، كما لا ينفع غيره أن يسهب ويطنل ما دام قد تنكب

السييل، ولم يصب الأهداف البعيدة .

ولم يقف خيال أبي العلاء القصصى عند تمثل القوافى كائنات حية ، فلقد طالما تمثل المعرى أشباه ذلك ، فتخيل الزمن كله وليدًا لاهيًا فقال :

« أظن زمانى : كونه وفساده وليدًا يبطن الأرض يلهو ويلعب »
كما تمثل الليل والنهار خيطى باطل ، فقال :

« نهار وليل عوقبا ، أنا فيهما — كأتى بنحيطى باطل — أتثبت »
وتخيل النجوم — كما تخيل القوافى — كائنات حية ، ثم أبعده في خياله فأراها كالأناسى متنافرة ، متخالفة في أديانها ، بعد أن تمثلها مفعمة بالإحساس موفورة العواطف فقال :

فهل الكواكب مثلنا — فى ديننا — لا يتفقدن ، فهائد ، أو مسلم
ولعل مكة فى السماء كمكة وبها نضار ، ويدبل ، ويسلم
ثم تعمق فى تصورهِ ، وأوغل فى تخيله ، فقال من قصيدة :

وإن صح أن النيرات محسة
لعل سهيلًا ، وهو فحل كواكب
يقولون : « تأتى فوقنا مثل ما أتى
فيا ليت شعرى ! هل ترع من الردى
وتكذب ؟ إن المين فى آل آدم
ثم قال من قصيدة أخرى :

سبحان خالقهن لست أقو
لا ، بل أفكر : هل رزقن حجى
أم هل لأشاهها الحصان ، بذى الت
أم ينحطب العوى السماء ويه
ل : الشهب كايبة مع الدهر
نجسًا يميزن به من الطهر ؟
ذكير ، من قربى ومن صهر ؟
طيها الذى ترضاه من مهر ؟

ألا يرى القارئ المنصف أن هذا التفكير الجبار قد اجتاز آفاقًا من الخيال قل أن يرتادها أحدث القصاصين ؟ وكيف يرى القارئ قصة الشيخ أبي هدرش^(١) وقصة

(١) النظر جنة الغاريت (ص ١٠٣)

الخورية^(١) وما إليهما من روائع القصص العلامية الخلاب . وثم لون من الأفاصيص تفيض به رسائل المعري وأشعاره ، وقد نبهنا إليه في مواطنه ، نجتزئ منه بقوله^(٢) :

« وابتك على طائر ، رماه فتى لاه ، فأوهى بفهره^(٣) اكتفا
أو صادفته حباله نُصبت ، فظل فيها كأنما كتفا
بكر يبغى المعاش مجتهداً فقصّ - عند الشروق - أو نتفا
كأنه - في الحياة - ما فرع الفصن ، فغنى عليه ، أو هتفا »

ومن يدري كم قصة رائعة من قصص المعري لم تصل إلينا لضياها فيما ضاع من كتبه الكثيرة الخالدة ؟ وثم أبيات لخص فيها المعري قصصاً عالية - قبل أن يولد مؤلفوها - أبرع تلخيص ، كتلك الأبيات الثلاثة التي قدمنا بها ترجمة « جلقر » وقد لخص في البيتين الأولين قصة « جلقر في بلاد الأقرام والعمالقة » ثم لخص في البيت الثالث مغزى القصة وروحها ومرعى مؤلفها البعيد ، حتى خيل إلينا أن « سويقت » - مؤلف هذه القصة - قد استوحى خيال المعري حين كتبها ، واستلهم قوله :

« زعموا رجالا ، كالنخيل جسومهم ومعاشراً ، قاماتهم أشبار
إن يصغروا ، أو يعظموا ، فبقدره ، ولربنا الإِعظام والإِكبار
يُستصغر الحى الحقير ، وتحتته أم توهم أنه جبار »
ومن العجائب أننا حين ترجمنا قصة : « القول يبقى^(٤) » ليقول إرفيه ، لم نجد مقدمة أجدر بتلخيصها من قول أبي العلاء :

« إن شئت إبليس أن تلقاه منصلاً بالسيف يضرب ، فاعمد للجباة
تجدهم في أقاويل مخالفة وجه الصواب ، وأسرار مذاعات
يباكرون بالباب - وإن خلصت - معصية ، وبأهواء مطاعات
قالوا ، وقلنا : دعاو ، ما تفيد لنا إلا الأذى ، واختصاماً في المداعة »

(١) الظر (ص ١٠١) (٢) ومن أمثلة ذلك ما تراه في (ص ٥٨٣ - ٥٨٦) وغيرها من صفحات الكتاب (٣) بحجره (٤) ارجع إلى كتاب : « روائع من قصص الغرب »

ولو شاء « برنارد شو » أن يمهد لقصته : « الزنجية باحثة عن الله » لما رأى في تلخيصها أروع من الأبيات المنسوبة إلى المعري^(١) :

« عجبت لكسرى وأشياءه وغسل الوجوه بيول البقر » الخ

*
* *

أما بعد ، فإن في أبي العلاء — من المزايا القصصية الباهرة — ما يكاد يفرد من بين شعراء العربية وكتابتها ، وقد كدنا نقول : من بين شعراء الدنيا وكتابتها قاطبة . ولا غرو في ذلك ، فإن أكبر ميزات القاص الموهوب موفورة عنده ، تزخر بها نفسه الحاشدة ، « ويتم بها بآءه الرحيب » ، فهو — فيما يعرف قراؤه وناقده — مستوفز الحس ، واسع الخيال ، رحب الأفق ، شديد التنبيه ، وقد عاش في عصر ازدهرت فيه القصة ، وبلغت شأواً عظيماً . وهو — إلى ذلك — دائم التقلب لوجوه الرأي المتباينة ، كثير المقابلة والموازنة بين فروضها المختلفة وخصائصها المنسجمة والمتفاوتة ، ساحر الأداء ، بارع السخرية ، خلاق معان ، ومستحدث أخيلة . وقل أن تجتمع هذه المزايا كلها في علم من أعلام القصة ، إلا سمت به إلى أرفع ذروة فنية .

وقد رأى القارئ — في هذه اللوحة العابرة — أمثلة من براعته القصصية ، وتطلعته الدائم إلى الرحلات الفكرية ، وعرف كيف سرى بفكره في مجازات معنوية شاسعة ، يتيه فيها جيابرة العقول . ولم يكن بين المعري وبين أن يملأ الدنيا قصصاً مطولة خالدة ، إلا أن تهيأ له الفرص ، وتخلق لأدبه المناسبات الحافزة ، كمناسبة رسالة الغفران التي أظفرت الأدب العربي منه بهذا الكنز الحافل بأروع الذخائر الفنية العالية ، الباقية — على الدهر — ما بقي الفن وأهله .

طاهر كبداني

(١) ارجع إلى هذه الأبيات في تاريخ : أبي الفداء (ج ٢ ص ١٧٦)

الجزء الثاني

القسم الأول من الرسالة

الغفران كوميديا إلهية مسرحها الجنة والنار

الغُفْرَانُ كَوْمِيدَا إِلَهِيَّة مَسْرُوحَهَا الْجَنَّةُ وَالنَّارُ

تحييد

وصلت الرسالة^(١) التي بحرُّها بالحكم مسجور^(٢)، ومن قرأها لا شك مأجور^(٣)، إذ كانت تأمرُ بتَقْيِيلِ الشَّرْعِ^(٤)، وتعيبُ من تركَ أصلاً إلى فرع؛ وَغَرِقَتْ في أمواج بدعها الزاخرة، وعجبتُ من اتساق عقودها الفاخرة؛ ومثلها من شفع ونفع، وقرب عند الله. وفي قدرة ربنا - جلَّتْ عَظَمَتُهُ - أن يجعل كلَّ حَرْفٍ منها شبح نور، لا يمتزج بمقال الزور؛ ولعله - سبحانه - قد نصب لسطورها المنجية من اللهب، معاريج^(٥) من الفضة أو الذهب، تعرجُ بها الملائكة من الأرض الرائدة إلى السماء، بدليل الآية:

«إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنوية بقوله: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.»

وفي تلك السطور كلمٌ كثيرة، كلُّه عند الباري - تقدَّسَ - أثير^(٦)

(١) يعني رسالة ابن القارح (٢) مملوء (٣) مثاب (٤) تَقْيِيلُ الشَّرْعِ : اتباعه

(٥) جمع معراج وهو: السلم والمصعد (٦) مقبول، أو مفضل

لفصل الأول

الفردوس

وقد عُرسَ لمولايَ الشيخِ الجليلِ - إن شاء الله - بذلكِ الشَّاءِ ، شجرٌ في الجنةِ لذيذٌ اجْتِناءُ ، كلُّ شجرةٍ منه تأخذُ ما بين المشرقِ إلى المغربِ بظلِّ غاطٍ^(١) .
والولدانُ المُخَلَّدونَ في ظلالِ تلكِ الشجرِ قيامٌ وقعودٌ ؛ يقولون - واللهُ القادرُ على كلِّ شيءٍ عزيزٌ - : « نحنُ وهذه الشجرِ صِلَةٌ من اللهِ لِعَلِيِّ بنِ منصورٍ^(٢) ، نُخبأُ له إلى نَفِخِ الصورِ » وتجري في أصولِ ذلكِ الشجرِ : أنهارٌ تُخْتَلِجُ^(٣) من ماءِ الحيوانِ^(٤) ، وَالكَوْثُرُ يَمُدُّهَا فِي كُلِّ أَوَانٍ ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا النَّعْبَةَ^(٥) فَلَا مَوْتَ ، قَدْ أَمِنَ هُنَاكَ الْفَوْتَ ؛ وَسُعْدٌ^(٦) مِنَ اللَّبَنِ مُتَخَرِّقَاتٌ^(٧) ، لَا تَغَيِّرُ بَأْنَ تَطْوَلَ الْأَوْقَاتُ ؛ وَجَعَاظِرٌ^(٨) مِنَ الرَّحِيقِ^(٩) الْمُخْتومِ ، كَمَا قَالَ عَلْقَمَةُ^(١٠) :

(١) ظليل (٢) هو ابن القارح (٣) تُنْتَزَعُ (٤) الحياة (٥) الجرعة (٦) جمع سعيد ، وهو النهر (٧) متفجرات ، ولعل المعنى تخرقت فيها الرياح : أي ليست براكدة ، أولعله يعنى أنها متسعة ، من تخرق في الكرم : اتسع فيه (٨) أنهار صغيرة فوق الجداول (٩) أطيب الخمر

(١٠) علقمة الفحل

توفي سنة ٥٦١ م

هو علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة التميمي ، شاعر جاهلي لم يدرك الإسلام . وقد سمي : علقمة الفحل ، من أجل أن يتميز في الأخبار من شاعر آخر في قبيلته يسمى : « علقمة الخصى ابن سهل » أدرك الإسلام وأسلم . وقيل : إنما سمي الفحل لأنه خلف امرأ القيس على زوجه بعد أن طلقها لتفضيلها علقمة عليه ، حين حكماها في أيهما أشعر ؛ وهي قصة تروى كثيراً في كتب الأدب ببعض الاختلاف ، ونحن نثبتها هنا محررة عن الأغاني ، وموشح المرزباني ، وفيها مثل من حرية النساء ومنزلتهن من الأدب في الجاهلية :

تَشْفِي الصُّدَاعَ وَلَا يُؤْذِيهِ صَالِبُهَا (١) وَلَا يُخَالِطُ (٢) مِنْهَا الرَّأْسَ تَدْوِيمًا (٣)

لما نزل امرؤ القيس في طيء ، تزوج امرأة منهم يقال لها أم جندب . وكان مُفْرَكًا : تبغضه النساء إذا وقع عليهن . فأتى أم جندب من الليل ، فأبغضته ، فجعلت تقول : « أصبح ليل ، يا خير الفتيان أصبحت ، أصبحت ، فقم » فقام ينظر ، فإذا الليل كهيئته ، فقال لها : ما حملك على ما صنعت ؟ قالت : لا شيء ! قال : لتخبرني ، قالت : « كرهتك ، لأنك ثقيل الصدر ، خفيف العجز ، سريع الهراقة ، بطيء الإفاقة » فلم تزل عنده . فأتاه علقمة بن عبدة ، وكان صديقاً له . فقال أحدهما لصاحبه : أينما أشعر ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ؛ فتنازعا وتلاحيا . فقال علقمة : قد رضيت بامرأتك أم جندب حكماً بيني وبينك . فحكماها . فقالت أم جندب لها : قولاً شعراً تصفان فيه الصيد ، على قافية واحدة ، وروى واحد . فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

« خيلِي مُرًّا بِي عَلِيَّ أُمِّ جُنْدَبٍ نُقِضَ لِبَانَاتِ الْفَوَادِ الْمَعْدَبِ »

فنتت فيها فرسه والصيد ، حتى فرغ منها .

وقال علقمة : ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً طول هذا التجنب

فقالت أم جندب لامرئ القيس : « فرس ابن عبدة أجود من فرسك . علقمة أشعر

منك ! قال لها : وكيف ؟ قالت : لأنك قلت :

فلسوط أهوب ، وللساق درة ولزجر منها وقع أخرج مهذب

(أهوب : يعني أهب جريه حين زجره ، وللساق درة : أي إذا عُمز در بالجري . والخرج

بياض في سواد ، وبه سمى الأخرج وهو ذكر النعام . ومهذب : أي مسرع في عدوه)

فزجرت فرسك بصوتك ، وجهدته بسوطك ، ومريته فأتعبته بساقلك .

وقال علقمة : « فأدر كهن ثانياً من عنانه يمر كمر الراح المتحلب »

فأدر ك فرسه الصيد ثانياً من عنانه ، لم يضربه بسوط ، ولم يتعبه .

فغضب امرؤ القيس ، وقال : ليس كما قلت ، ولكنك هويته . ثم طلقها . فخلفه عليها علقمة .

وقد غنى ابن سريج لعلقمة أبياتاً مطلعها :

« هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم جليها — إذ نأتك اليوم — مصروم »

وسيمر بك حديثه الخيالي مع ابن القارح في هذا الجزء . وفيه طائفة من رائع شعره

(١) صالِبها : حُمياها (٢) لا يخامر (٣) التدويم : الثوار يعقب السكر .

وَيَعْمِدُ إِلَيْهَا الْمُغْتَرِفُ بِكُوَيْسٍ مِنَ الْعَسْجِدِ^(١) ، وَأَبَارِيقَ خُلِقَتْ مِنَ
الزَّبْرِجَدِ ؛ لَوْ رَأَاهَا أَبُو زَيْدٍ^(٢) لَعَلَّمَ أَنَّهُ مَا تَشَبَّهَ بِخَيْرٍ ، وَهَزَىَّ بِقَوْلِهِ :

(١) الذهب

(٢) أبو زيد

هو حرملة بن المنذر الطائي ، كان نصرانياً ، ومات على دينه ، وهو ممن أدرك الجاهلية
والإسلام ، فعد في المخضرمين .

واسمه (أبو زيد) . وقد يسمى (زبدًا) للتمليح ، قال يخاطب أمه :
نفسى فداء أبى وهب وقل له يا أم زيد ، فحلى اليوم أو سيرى
وقد جاء فى الأغاني : يا أم زيد ، وهو تحريف .
ونظير هذا التلميح (الزبير) فقد يسمى (زبرا)

وكانت صفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام ترقص ولدها الزبير ، وتنشد :
« كيف رأيت زبرا
أأقطا أو تمرا ؟
أم قرشياً صقرا ؟ »

ويروى أن طول أبي زيد كان ثلاثة عشر شبراً ، وأنه كان ممن إذا دخل مكة دخلها
متنكراً لجماله . وكان من زوار الملوك ، وخاصة ملوك العجم ، عالماً بسيرهم .

وقد اشتهر بوصفه للأسد ، فإنه لقيه أثناء خروجه فى صِيَابَةِ من أشراف قبائل العرب .
فأكثر من وصفه بعد ذلك فى شعره ، حتى لأمه قومه ، وقالوا له : قد خفنا أن تسبنا العرب
بوصفك له ، فلم يعرض له بعد ذلك حتى مات . وقد قص على عثمان بن عفان قصة لقائه
للأسد ، وهى قطعة أدبية من رائع البيان .

وكان أبو زيد يشرب الخمر ، ونادم الوليد بن عقبة أيام ولايته الكوفة لعثمان بن عفان .
فلما شهد الناس على الوليد بالسكر عند عثمان ، عزله عن الكوفة ، فخرج منها ، فقال أبو زيد
من قصيدة طويلة :

« وَأَبَارِيْقُ ، مِثْلُ أَعْنَاقِ طَيْرِ السَّمَاءِ ، قَدْ جِيبَ (١) فَوْقَهُنَّ خَنِيْفٌ (٢) »
ولو نظر إليها عَلَقَمَةُ لَبْرِيقَ (٣) وَفَرِقَ (٤) ، وَعَلِمَ أَنَّهُ قَدْ طَرِقَ (٥) .
مَا ابْنُ عَبَدَةَ وَمَا فَرِيْقُهُ ؟ قَدْ خَسِرَ وَكُسِرَ إِبْرِيْقُهُ . نَظْرَةٌ إِلَى تِلْكَ الْأَبَارِيْقِ
خَيْرٌ مِنْ بِنْتِ الْكِرْمَةِ الْعَاجِلِيَّةِ ، وَمِنْ كُلِّ رِيْقٍ ضَمِنْتُهُ هَذِهِ الدَّارُ الْخَادِعَةُ .
وَلَوْ بَصُرَ بِهَا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ (٦) ، لَشَغِلَ عَنِ الْمُدَامِ وَالصَّيْدِ ، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ

من يخنك الصفاء أو يتبدل أو يزل مثل ما تزول الظلال
فاعلمن أننى أخوك أخو الو د حياتى حتى تزول الجبال
ليس بخلاً عليك عندى بمال أبدأ ما أقل نعلأ قبال
ولك النصر باللسان وبالكَف إذا كان لليدين مصال
وله مع الوليد أقاصيص ، ويروى أنه أوصى بأن يدفن إلى جنبه .

وترجمته الوافية منشورة فى الجزأين الحادى عشر ، والثالث عشر من الأغانى .

(١) شق أو قد (٢) ثوب غليظ أبيض من الكتان (٣) تحير ، دهش
(٤) اشتد فزعه (٥) ضعف عقله

(٦) عدى بن زيد العبادى

شاعر جاهلى نصرانى ، قبيلته تميم ، وموطنه الحيرة ؛ دخل الأرياف ، فثقل لسانه .
ومن مختار شعره قوله :

« أعاذل ما يدريك أن منيتى الى ساعة فى اليوم ، أوفى ضحى الغد
ذرينى ، فإنى إنما لى ما مضى أمامى من مال - إذا خفت عودى
وحمت لبيقات الى منيتى وغودرت - ان وسدت أولم أوسد -
وللوارث الباقى من المال . فاتركى عتابى ، فإنى مصلح ، غير مفسد »
وقوله من قصيدة أخرى له :

« أيها الشامت المعير بالدهر ! أنت المبرأ الموفور ؟ »

أَبَارِيْقٌ مُدَامِهِ أَمْرٌ هَيِّنٌ لَا يُعَدَّلُ بِنَابِتٍ مِنْ حَمَصِيصٍ^(١) ، أَوْ مَا حُقِّرَ مِنْ
خَرْبَصِيصٍ^(٢) . فَأَمَّا الْأَقْيِشِرُ السَّعْدِيُّ^(٣) ، فَإِنَّهُ قَالَ - وَلَعَلَّهُ سَيَنْدُمُ - :
أَفْنَى تَلَادِي^(٤) وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَشَبٍ^(٥) قَرَعُ الْقَوَازِينِ^(٦) أَفْوَاهَ الْأَبَارِيْقِ

الى أن يقول :

« وتبين رب الخورتق إذ أشرف يوماً ، وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه ؛ فقال : « وما غبطة حى - إلى المات - يصير ! »

*
* *

ثم بعد القلاع والملك والأمة وارثهم هناك قبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فآلوت به الصبا والذبور . «

(١) بقلة رملية حامضة (٢) هنة فى الرمل لها بصيص كأنها عين الجراد ، أو نبات له
حب يتخذ منه طعام ، والغرض هنا التحقير

(٣) الأقيشر

كنيته أبو معرض . موطنه الكوفة . كان أحمر الوجه فسعى الأقيشر ، وكان خليعاً ماجناً
سكيراً ، وهجاء مقذعاً . يفضب إذا قيل له « يا أقيشر » . ومن أحسن شعره قوله :
« وصهباء جرجانية لم يطف بها حنيف ، ولم تنفر بها ساعة قدر
أتانى بها يحيى ، وقد نمت نومة وقد غابت الشعرى ، وقد خفق النسر
فقلت : اصطبجها ، أو لغيرى فاهدها فما أنا بعد الشيب - ويحك - والخمر
إذا المرء وفى الأربعين ، ولم يكن له دون ما يأتى حياء ولا ستر -
فدعه ، ولا تنفس عليه الذى أتى وإن جر أرسان الحياة له الدهر . «

(٤) قديمى (٥) مال (٦) جمع قازوزة وهى قدح الشرب

ما هو وما شرابه؟ تَقَضَّتْ في الخائنة آرابه^(١) لو عين تلك الأباريق
لأيقن أنه فُتِنَ بالغرور، وَسُرَّ بغير موجب للسرور. وكم على تلك الأنهار
من آنية زبرجدٍ وياقوتٍ، بين أصفر وأحمر وأزرق، يُخَالُ - إن لميس -
أحرق، كما قال الصنوبري:

تَخَيَّلُهُ سَاطِعًا وَهَجُهُ فَتَأْتِي الدُّنُوَّ إِلَى وَهَجِهِ

وفي تلك الأنهار أوان على هيئة الطير السابحة^(١)، والغانية عن الماء^(٢) السائحة،
فمنها ما هو على صور الكراكي، وأخر تُشَاكِلُ المَكَاكِي؛ وعلى خلق طواويس
وَبَطِّ، فبعض في الجارية وبعض في الشط؛ ينبع من أفواها شراب، كأنه
- من الرقة - سراب، لو جرع منه جرعة الحكمي^(٣) لحكم بأنه الفوز، وشهد

(١) المائة (٢) البرية

(٣) ترجمة الحكمي «أبي نواس»

سنة ١٤٥ - سنة ١٩٩ هـ

الحسن بن هاني «الحكمي» ويكنى أبا نواس، مولده بالأهواز، ونشأته في البصرة
(انتقل إليها قبل أن يتجاوز الثانية من عمره)

أسلمته أمه إلى عطار، ولكن نفسه كانت لا تميل إلى هذه الصناعة، لميله الشديد
إلى الشعر، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلم والأدب - حتى مر به الشاعر الماجن الظريف
«والبه بن الحباب» - وكان أبو نواس معجباً به على السماع - فصحبه، وسار معه
إلى بغداد، وسنه أكثر من ثلاثين سنة، فلقى العلماء والشعراء، حتى نبه اسمه وطار صيته،
وقد اتصل بالرشيد ثم بابنه الأمين

ومن مختار شعره قوله في رثاء الأمين:

طوى الموت ما بيني وبين محمد وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل إلا عبرة تستدعيها أحاديث نفس - ما لها الدهر - ذاكر

له كلُّ وَصَافٍ لِلخمر - من مُحدَثٍ وَعَتِيقٍ - أن أصنافَ الأشربة المنسوبة إلى
الدار الفانية ، كخمرِ عانةٍ وَأذرعَاتٍ وَغزَّةٍ وَيَتِ رَاسٍ ، وما جُلِبَ من بُصْرَى ،
وما اعتَصِرَ بَصْرُخِدٍ أو أرضِ شامٍ ، وما تردد ذكره من كُمَيْتِ بَابِلَ وَصُرَيْفِينَ ،

لئن عمرت دور بمن لا أحبهم ، لقد عمرت بمن أحب المقابر
وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

ومن شعره الذي يمثل نفسه اللاهية الماجنة قوله :

وداهريِّ سما في فرع مكرومة من معشر خلقوا - في الجود - غايات
ناديته بعد ما مال النجوم ، وقد صاح الدجاج - يبشرى الصبح - مرات
فقلت - والليل يجلوه الصبح كما يجلو التبسم عن غر الثنيات - :
« يا أحمد المرتجى في كل نائبة ! قم سيدى ! نعص جبار السموات ! »

*
* *

وهاكها قهوة صفراء صافية منسوبة لقرى هيت وعانات
صدمته بحمياها لأبسطة بالين طوراً ، وبالتشديد تارات
حتى تغنى - وما تم الثلاث له حلو الشائل محمود السجيات :
« يا ليت حظي من مال ومن ولد أنى أجالس لبني بالعشيات »

ومن غزله في الأمين قوله (١) :

أصبحت صبباً ، ولا أقول بمن من خوف من لا يخاف من أحد
ان أنا فكرت في هواي له حسبت رأسى قد طار عن جسدى
انى - على ما ذكرت من فرق - لا أمل أن أناله ييدى

(١) روي أنه كان يشرب يوماً مع الأمين ، فنشط للسباحة فلبس ثياب ملاح . ولبس كوتر (خادم
الأمين) مثل ذلك . ووقعا في البركة . فنظر أبو نواس الى بدن محمد . فرأى ما لم ير مثله ، فلما كان من
غد ، جاء الحسين بن المنذر مسالماً عليه . فلما سأله الحسين عن خبره مع الأمين قال له أبو نواس : « ويلك !
رأيت الفتنة ! » ثم حدثه بخبره وأنشد تلك الايات ، فقال له : « ويحك اتقى الله في رأسك . فإنه إن بلغه
ذلك قتلك » فأمسك أبو نواس بعد ذلك .

وما هَمَلَ من أجناسِ المُسَكَّرَاتِ وما وُلِدَ من النَّخِيلِ : إِذَا كَانَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ^(١) مَلِكَةً ، لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ بِرَعَايَاهَا مُسْتَبَكَةً^(٢) . وَيُعَارِضُ تِلْكَ الْمُدَامَةَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ؛ مَا كَسَبَتْهُ النَّحْلُ الْغَادِيَةَ إِلَى الْأَنْوَارِ ، وَلَا هُوَ فِي مُومٍ^(٣) مُتَوَارٍ ، وَلَكِنْ قَالَ لَهُ الْعَزِيزُ الْقَادِرُ : « كُنْ » فَكَانَ .

وَاهَا لَذَلِكَ عَسَلًا لَوْ جَعَلَهُ الشَّارِبُ الْمَحْرُورُ غِذَاءً طَوَّلَ الْأَبَدَ ، مَا قُدِّرَ لَهُ عَارِضُ مُومٍ^(٤) ، وَلَا لَبَسَ ثَوْبَ الْمَحْمُومِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِدَلِيلِ الْآيَةِ : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ^(٥) وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ » فَلَيْتَ شِعْرِي عَنِ النَّمْرِ بْنِ تَوْلَبِ الْعُكْلِيِّ^(٦) ، هَلْ يُقَدِّرُ لَهُ أَنْ يَذُوقَ ذَلِكَ الْأَرَى^(٧) ، فَيَعْلَمَ أَنَّ شُهَدَاءَ الْفَائِيَةِ إِذَا قِيسَ إِلَيْهِ

(١) الماء القليل (٢) متصلة بها أو منسوبة إليها ، والمقصود أن هذه الخمر على جودتها واختلافها لا تمت بصلة إلى خمر الجنة (٣) شمع (٤) مرض شديد الوطأة (٥) آجن : متغير الطعم واللون

(٦) النمر بن تولب العكلي

شاعر جاهلي أدرك الاسلام ، قبيلته عكل ، وقد وفد على النبي ومدحه بشعره ، وكان جواداً ، واسع العطاء ، وهو صاحب البيت المشهور :

أهيم بدعد ما حيت - فان أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

وفي رواية أخرى : « فيا ليت شعري من يهيم بها بعدى ؟ » والبيت ينسب إلى سواه أيضاً

وله مجموعة جميلة يرجع إليها من شاء في جهرة أشعار العرب « ص ٢١٦ »

(٧) العسل

وَجَدَ يُشَاكِرُهُ (١) الشَّرِيَّ (٢) ، وَهُوَ مَا وَصَفَ أُمَّ حِصْنٍ (٣) ذَكَرَ حُوَّارَى (٤)
بِسْمَنِ ، وَعَسَلًا مُصَنِّفِي ، قَالَ :

« أُمَّ بَصُحْبَتِي وَهُمْ هُجُوعٌ خَيَالٌ طَارِقٌ مِنْ أُمَّ حِصْنٍ
لَهَا مَا تَشْتَهِي عَسَلًا مُصَنِّفِي - إِذَا شَاءَتْ - وَحُوَّارَى بِسْمَنِ »

وَلَوْ خَالَطَ مَنْ (٥) مِنْ عَسَلِ الْجِنَانِ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ الْخَادِعَةِ
كَالصَّبَابِ وَالْمَقْرِ (٦) ، لَعُدَّ مِنَ اللَّذَائِدِ الْمُرِّ تَقِيَاتٍ .

*
* *

وَإِذَا مَنْ اللَّهْ - تَبَارَكَ اسْمُهُ - بَوْرُودِ تِلْكَ الْأَنْهَارِ ، صَادَ فِيهَا الْوَارِدُ
سَمَكٌ حَلَاوَةٌ - لَمْ يَرِ مِثْلُهُ - لَوْ بَصَرَ بِهِ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ (٧) لَأَحْتَقَرَ الْهَدِيَّةَ الَّتِي

(١) يشابه (٢) الحنظل (٣) حبيته (٤) دقيق ينقى من لباب البر
(٥) المن : كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف
الصمغ ، والمن كيل أو ميزان يبلغ رطلين وقيل المن شرعاً مائة وثمانون مثقالاً وعرفاً مائتان
وثمانون . والمقصود مكيال صغير (٦) المر

(٧) أحمد بن الحسين « المتنبى »

٣٠٣ - ٣٥٤ هـ

اسمه أحمد بن الحسين ، لقبه المتنبى ، كنيته أبو الطيب ، ولادته بالكوفة ، وكان أبوه سقاء
نشأ أبو الطيب محباً للعلم والأدب ، قوى الحافظة ، فلما ترعرع حمله أبوه إلى الشام يتنقل به
من باديتها إلى حاضرتها ، واستمر في تلقي العلم ، فأتقن اللغة وتعمق في معرفة حواشيتها وحفظ
الكثير من شعر الجاهلية وغيره

نشأ بعيد الهمة ، كبير النفس ، فلم يقنع بالشهرة الأدبية ، بل طمحت نفسه إلى السيادة بالفتح !
فدعا إلى بيعته قوماً من مريديه من أبناء سنه فبايعوه ، وما كاد يتم له ذلك ، حتى وصل
خبره إلى والي البلدة ، فقبض عليه وحبسه ؛ ثم أطلقه الوالي بعد حين .

أُهِدِيَتْ إِلَيْهِ ، فَقَالَ فِيهَا :

فيقال انه خرج الى بني كلب ، وأقام فيهم وادعى أنه علوي ، ثم ادعى النبوة - وفي هذا كلام كثير ربما عدنا الى مناقشته

قالوا : « ولما شاع أمره بين الناس خرج عليه لؤلؤ ، أمير حمص من قبل الأخشيدية ، فقاتله وأسر من كان معه من بني كلب وغيرهم من قبائل العرب ، وحبسه في السجن دهرًا طويلاً ، حتى كاد يتلف ، فسئل في أمره ، فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام ؛ وأطلقه . فكان المتنبي كلما ذكر له قرآنه بعد ذلك حاول التنصل من تبعته »

*
* *

ثم اشتهر بالشعر ، فتسابق الملوك الى استدئائه بالجوائز . ومنهم سيف الدولة بن حمدان فقدم عليه المتنبي سنة ٣٣٧ هـ ، ومدحه بكثير من غرر قصائده ، ثم وقع بين المتنبي وابن خالويه النحوي المشهور قول في مجلس سيف الدولة ، فوثب على المتنبي ، فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشججه ، ولم يدافع سيف الدولة عنه .

فغضب المتنبي ، ورحل الى مصر . وتقرب من عدو بني حمدان كافور الإخشيدي سنة ٣٤٦ هـ وامتدحه انتقاماً من سيف الدولة ، فأكرمه كافور ، ثم ارتاب فيه لما رأى من كبره وتعاليه ، وقال : « يا قوم ! من ادعى النبوة بعد محمد (صلعم) ، ألا يدعى الملك مع كافور ؟ »

فأم أبو الطيب بغداد ، ثم فارس ، حيث امتدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي ، فأجزل عطاءه ، وعاد من فارس قاصداً بغداد حيث قتل في طريقه .

ومن أجل ما نختاره من شعره قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

لأتركن وجوه الخليل عابسة والحرب أقوم من ساق على قدم

بكل منصلت ما زال منتظري حتى أدلت له من دولة الخدم :

أَقْلُ مَا فِي أَقْلَهَا سَمَكٌ يَلْعَبُ فِي بَرَكَةٍ مِنَ الْعَسَلِ (١)

وقوله من قصيدة أخرى :

« تمرست بالآفات حتى تركتها
وأقدمت إقدام الأتى كأن لي
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها
ولا تحسبن المجد زقا. وقينة
وتضريب أعناق الملوك ، وأن ترى
وتركك في الدنيا دويا ، كأنما
وفيها يقول :

« ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر ، فالذي فعل الفقر »

* * *

وقوله من قصيدة طويلة :

« يا ساقبي ! أخطر في كؤوسكما
أصخرة أنا ؟ مالي لا تغيرني
ماذا لقيت من الدنيا ، وأعجبه
أم في كؤوسكما هم وتسهيده
هذي المدام ، ولا هذي الأغاريد
أنى بما أنا باك منه محسود »

وقد ذكرنا نخبة مختارة من شعره الرائع في كتاب نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي
بمناسبة المقارنة التي عقدناها بينه وبين ابن هانيء الشاعر الأندلسي الذي كان يعاصره ،
وفي كتابنا « صور جديدة من الأدب العربي » إلمامة تعني المستزيد فليرجع إليهما من شاء .

(١) هذا البيت من قصيدة له ارتجلها في صباح حين أهدى إليه عبيد الله بن خلكان هدية

فيها سمك من سكر ولوز من عسل ، وأولها :

« قد شغل الناس كثرة الأمل وأنت بالمكرمات في شغل »

ومنها :

« هدية ما رأيت مهديها
أقل ما في أقلها سمك
الا رأيت العباد في رجل
يسبح في بركة من العسل »

فَأَمَّا الْأَنْهَارُ الْخَمْرِيَّةُ ، فَتَلْعَبُ فِيهَا أَسْمَاكُ - هِيَ عَلَى صُورِ السَّمَكِ -
بَحْرِيَّةٌ وَنَهْرِيَّةٌ ؛ فَإِذَا مَدَّ الْمُؤْمِنُ يَدَهُ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْ ذَلِكَ السَّمَكِ شَرِبَ مِنْ
فِيهَا عَذَابًا لَوْ وَقَعَتِ الْجُرْعَةُ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ مَاءُهُ الشَّارِبُ ،
حَلَّتْ مِنْهُ أَسَافِلُ وَغَوَارِبُ (١) ،

ندامى الفردوس

وَكَأَنِّي بِهِ - وَقَدْ اسْتَحَقَّ تِلْكَ الرَّثْبَةَ - وَقَدْ اصْطَفَى لَه نِدَامِي مِنْ أَدْبَاءِ
الْفِرْدَوْسِ ، كَأَخِي ثُمَالَةَ (٢) ، وَأَخِي دَوْسٍ (٣)

(١) الغارب هو الكاهل ، أو ما بين السنام الى العنق ، والمقصود به هنا سطح البحر

(٢) أخو ثُمالة « المبرد »

اسمه محمد بن يزيد ، ويكنى أبا العباس ، وأخا ثُمالة ؛ ويلقب بالمبرد ، صاحب كتاب الكامل
الدائع الصيت ؛ وهو الذى يقول فيه الشاعر :

سألنا عن ثُمالة كل حى ، فقال القائلون : « ومن ثُماله ؟ »

فقلت : « محمد بن يزيد منهم » فقالوا : « الآن زدتهم جهاله ! »

(٣) أخو دوس « ابن دريد »

٢٢٣ - ٣٢١

اسمه محمد بن الحسن ، كنيته أبو بكر ، وموطنه البصرة - ولد ونشأ بها ، وأخذ من علمائها
كالرياشى والسجستانى - ثم غادرها الى عمان أثناء فتنة الزنج التى حدثت بها « ارجع الى
ديوان ابن الرومى (ج ٣ من ص ٤١٩ - ٤٢٧) » فأقام بها اثنتى عشرة سنة آخذاً اللغة
والشعر عن الأعراب ، ورجع إلى البصرة شاخصاً الى فارس منتجعاً الشاه بن ميكال وولده ،
وألف لها كتاب الجمهرة - فى اللغة - فقلدها الديوان ، وقد أبدع فى مدحهما فى مقصورته
الخالدة حين قال من كلام رائع :

.....

ها اللذات أثبتا لي أملا قد وقف اليأس به على شفا
تلافيًا العيش - الذي رنقه صرف الزمان - فاستساع ، وصفا
وأجريا ماء الحيا لي رغداً ، فاهتز غصني بعد ما كان ذوى
ها اللذات سموا بناظري من بعد إغضائي على لدغ القذى
ها اللذان عمرا لي جانبا من الرجاء ، كان قدما قد عفا

إلى أن يقول :

إن ابن ميكال - الأمير - انتاشني من بعد ما قد كنت كالشيء اللقي
ومد ضبعي أبو العباس ، من بعد انقباض الدرع والباع الوزى

ولما عزلا عن عمالة فارس ، وانتقلا إلى خراسان ، ذهب ابن دريد إلى بغداد سنة ٣٠٨ هـ
فاحتفى به أهلها ، وأجرى عليه الخليفة « المقتدر » خمسين ديناراً في كل شهر ، حتى أصيب
بالفالج ، ومات سنة ٣٢١ .

ومن الملح التي يرويها عنه بعض من حضر مجالسه ، أنه كان يتضجر ممن يخطيء في
قراءته ، فحضر غلام وضىء ، فجعل يقرأ ويكثر الخطأ - وابن دريد صابر عليه - فتمجّب
أهل المجلس ، فقال رجل منهم : « لا تعجبوا ، إن في وجهه غفران ذنوبه » فسمعها ابن
دريد ، فلما أراد الرجل أن يقرأ قال ابن دريد : « هات يامن ليس في وجهه غفران ذنوبه ! »
قالوا : « فمعجبوا من صحة سمعه مع علوسه » .

وقال بعضهم فيه :

« من يكن للطباء صاحب صيد فعليه بمجلس ابن دريد

إن فيه لأوجها قيدتى عن طلاب الملا بأوثق قيد »

ويروون عنه أنه كان مولعاً بآلات الطرب ، وقد بلغ من حبه الخمر أن سائلاً سأله شيئاً ،
فلم يجد ما يعطيه إلا دن نبيذ ، فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به ، فقال : « ليس عندي
سواه » وقرأ قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »

قالوا : وأهدى إليه بعد ذلك عشرة دنان ، فقال لغلامه : أخرجنا دنا فجاءنا عشرة ! » .

وأخباره طويلة وحياته حافلة وشعره رائع ؛ وهو جدير أن يعنى الأدباء بأدبه وتفهم شخصيته الجذابة، عناية خاصة ؛ ومقصودته الطويلة من آيات الشعر العربي . وليس يتسع هذا المقام الضيق إلى التوسع في ترجمته أو التمثل بشعره الجميل ، غير أننا نكتفي من ذلك بأبيات قلائل تعد بمثابة إشارات إلى خطره العظيم وشاعريته الباهرة ، فمن ذلك قوله - وهو يعد في رأينا انتباهاً إلى أحد الأسس الثلاثة التي بنى عليها النقاد الفرنسي تين (Taine) نظريته في تفهم حياة الأدباء ، وهي : « الزمن والبيئة والجنس » - قال :

وكل قرن ناجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا

ومن أبدع معانيه قوله في تلك المقصورة أيضاً :

لو كانت الأحلام ناجتني بما ألقاه يقظان ، لأصماني الردى
منزلة ، ما خلتها يرضى بها لنفسه ، ذو أدب ولا حجا
شيم سحاب خلب بارقه وموقف بين ارتجاء ومنى
في كل يوم منزل مستوبل يشتف ماء مهجتي ، أو مجتوى
ما خلت أن الدهر يثني على ضراء - لا يرضى بها ضب الكدى
أرمق العيش على برض ، فان رمت ارتشافا، رمت صعب المنتشى

أراجع لي الدهر حولاً كاملاً إلى الذي عود ، أم لا يرتجى ؟
يا دهر ! إن لم تك عتبي ، فأتد ، فان إرودك والعتبي سوا
رفه على طالما أنصبتني واستبق بعض ماء غصن ملتحي

وهنا يقول ويبدع :

لا تحسبن يا دهر أنى ضارع لنكبة تعرقني عرق المدى
مارست من لوهوت الأفلاك من جوانب الجو عليه ما شكا
لكنها نفثة مصدر - إذا جاش لغام من نواحيها - غما
رضيت قسراً ؛ وعلى القسر رضى من كان ذا سخط على صرف القضا

وَابْنِ مَسْعَدَةَ الْمُجَاشِعِيِّ^(١) ، وَيُونُسَ بْنِ حَبِيبِ الضَّبِيِّ^(٢) ، فَهَمَّ - كَمَا جَاءَ فِي

إِنِ الْجَدِيدِينَ - إِذَا مَا اسْتَوْلِيَا عَلَى جَدِيدٍ - أَدْنِيَاهُ لِلْبَلِي
مَا كُنْتُ أَدْرِي - وَالزَّمَانَ مَوْلَعٌ بَشْتِ مَلُومٍ ، وَتَنْكِيثِ قَوِي -
أَنَّ الْقَضَاءَ قَازِفِي فِي هَوَاةٍ لَا تَسْتَبِلُ نَفْسٌ مِنْ فِيهَا هَوَى الْخِ الْخِ

ونختم هذه المختارات بقوله من قصيدة طويلة ، فيأضه بالشاعرية العالية :

وَبِالشَّعْرِ يَبْدَى الْمَرْءُ صَفْحَةَ عَقْلِهِ فَيَعْلَنُ مِنْهُ كُلُّ مَا كَانَ يَكْتُمُ
وَسِيَانٍ مَنْ لَمْ يَمْتِطِ اللَّبَّ شَعْرَهُ فَيَمْلِكُ عَطْفِيهِ وَأَخْرَ مَفْحَمُ
جَوَانِبِ أَرْجَاءِ الْبِلَادِ مَطْلَةٌ تَبِيدُ اللَّيَالِي ، وَهِيَ لَا تَتَخْرَمُ
أَلَمْ تَرِ مَا أَدَّتِ الْبِنَا وَسِيرَتِ عَلَى قَدَمِ الْأَيَّامِ عَادَ وَجَرْتُهُمْ
هَمْ اقْتَضَبُوا الْأَمْثَالَ صَعْبًا قِيَادَهَا فَذَلْ لَهِمْ مِنْهَا الشَّرِيسُ الْغَشْمَشْمُ
وَقَالُوا : الْهَوَى يَقْظَانُ ، وَالْعَقْلُ رَاقِدٌ وَذُو الْعَقْلِ مَذْكُورٌ ، وَذُو الصِّمْتِ أَسْلَمُ
وَمَا جَرَى كَالْوَسْمِ فِي الدَّهْرِ قَوْلُهُمْ : عَلَى نَفْسِهِ يَجْنِي الْجَهُولُ وَيَجْرَمُ
وَكَالنَّارِ فِي يَدِ الْهَشِيمِ مَقَالُهُمْ : أَلَا إِنَّ أَصْلَ الْعُودِ مِنْ حَيْثُ يَقْضَمُ
فَقَدْ سَيَرُوا مَا لَا يَسِيرُ مِثْلَهُ فَصِيحٌ عَلَى وَجْهِ الزَّمَانِ وَأَعْجَمُ

وأحب أن يرجع القارئ إلى رثائه في الجزء الثالث من كتاب الأملاني لأبي علي القالي (ص ٢٢٩) ليتبين مكانه في قلوب معاصريه . ولقد أصاب أبو العلاء وأحسن كل الإحسان حين لقبه بشيخ الأزدي ، أثناء استشهاده بشعره في الجزء الثالث من هذا الكتاب ؛ وسيمر بك ذلك في حينه

(١) الأَخْفَشُ الْأَوْسَطُ

نحوي ، عالم باللغة والأدب ، أخذ العربية عن سيديويه ، وصنف كتباً كثيرة ، منها :
كتاب تفسير معاني القرآن

(٢) يُونُسُ بْنُ حَبِيبِ الضَّبِيِّ

أخذ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء ، وحامد بن سلمة ؛ وغلب عليه النحو ، حتى أخذ
عنه أبو زيد الأنصاري النحو ، وخلف الأحمر

الكتاب العزيز - : « وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ، إِنْخَوَانًا عَلَى سُرْرِ
مُتَقَابِلِينَ ، لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ »
فصدرُ أحمد بن يحيى^(١) هنالك قد غُسل من الحقدِ على محمد بن يزيد^(٢) ،
فصارا يتصافيان ويتوافيان ، وأبو بشرٍ عمرو بن عثمان « سيبويه »^(٣) قد رُحِضت^(٤)
سويداء قلبه من الضغنِ على علي بن حمزة الكسائي^(٥) وأصحابه لما فعلوا به في

وقد عرف عنه شدة التعصب لرؤية بن العجاج ، حتى إنه كان لا يبالي أن يسيء الى
بعض ذوى الرفعة والجاه في سبيل الذود عن أستاذه رؤبة ، ومن أدلة تعصبه له ، أنه سئل
 يوماً : « من أشعر الناس ؟ » فقال : « العجاج ورؤية » فقيل : « لم نعن الرجاز » فقال :
« هما أشعر أهل القصيد ، وإنما الشعر كلام ، وأجوده أشعره ! »

ومن مؤلفاته كتاب : « معاني القرآن » وكتاب : « اللغات » وكتاب : « الأمثال »

(١) هو المشهور بثعلب النحوى اللغوى ، وكان بينه وبين المبرد منافاة

(٢) هو أبو العباس المبرد « وقد مرت ترجمته في ص (١٦) »

(٣) سيبويه

توفى سنة ١٨٣ هـ

اسمه عمرو بن عثمان مولى الحارث بن كعب ، وكنيته أبو بشر ، ولقبه سيبويه - وهى كلمة
فارسية معناها « رائحة التفاح » - ونشأته بالبصرة ، وقد أصبحت شهرته فى النحو مضرب الأمثال ،
وذاع صيته ونبه شأنه ، ولا سيما بعد كتابه الذى ألفه فى النحو واستبق اليه الناس استباقاً ،
وبلغ من إجلال شأنه وإكبار خطره أن أبا عثمان المازنى قال فيه : « من أراد أن يعمل كتاباً
كبيراً فى النحو - بعد كتاب سيبويه - فليستح ! » وقول أبى العباس المبرد - لكل من
أراد دراسة هذا الكتاب - : « هل ركب البحر ؟ » تعظيماً لشأنه

وسيبويه أشهر من أن يحتاج الى ترجمة أو تعريف (٤) غسلت

(٥) الكسائى (توفى سنة ١٨٩ هـ)

اسمه على بن حمزة ، ولقبه الكسائى ، وأصله فارسى . وهو أشهر نحاتة الكوفة ، أخذ عن

مجلس البرامكة، وأبو عبيدة^(١) صافي الطوية لعبد الملك بن قريب^(٢). «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» وهو معهم كما قال البكري^(٣):

الخليل بن احمد؛ واستقدمه خلفاء بني العباس والبرامكة إلى بغداد لتعليم أبنائهم. اشتهر بعدائه لسبيويه وكثرة التعريض به. ومما يذكر لها منازعتها في مسألة الزبور والنحلة وتعصب الأمين للكسائي - مع أن الحق مع سبيويه - لأنه معلمه. وقد فصلنا هذه القصة في كتابنا «صور جديدة من الأدب العربي» فلا حاجة لذكرها هنا

(١) أبو عبيدة - توفي سنة ٢٠٩ هـ.

اسمه: معمر، اسم أبيه: المتنبى التيمي، كنيته: أبو عبيدة

انفرد عن بقية الرواة بسعة حفظه لأخبار العرب وأنسابهم وعلومهم وآدابهم، واشتهر بمناظراته مع الأصمعي في مجلس الرشيد

وكان متعصباً على العرب؛ وكان يرى رأى الخوارج، وكان لحاناً سباً، وقد أولع بالمثالب حتى إنه ألف فيها كتاباً، ولم ينبج من طعنه شريف. وكان شديد الثقة بنفسه، وقد بلغ من مغالاته في الاعتداد بها، ما أثر عنه من قوله: «ما التقي فرسان في جاهلية أو إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسهما»

وهذا كلام يدل على الغرور والخيلاء، على أنه حفظ لنا كثيراً من أخبار العرب التي كانت تضيع: لولا ما تركه من المؤلفات العديدة، وإن كان لم يصلنا منها إلا النزر اليسير

(٢) الأصمعي - توفي سنة ٢١٤ هـ

اسمه عبد الملك بن قريب، ولقبه الأصمعي، وقبيلته قيس، وموطنه البصرة، وقد قدم إلى بغداد في أيام الرشيد. كان واسع الرواية، حاضر المحفوظ، متبحراً في اللغة؛ ولا أدل على ذلك من الكتب التي أفردتها خاصة بأسماء الوحوش والإبل والخيول والنبات والشجر، إلى غير ذلك

(٣) أعشى قيس - توفي سنة ٦٢٩ م

اسمه ميمون بن قيس، وكنيته أبو بصير، ولقبه الأعشى، وقبيلته بكر بن وائل، ومسكنه الحيرة، ومن أكبر ما امتاز به شعره أن العرب كانوا يتغنون به - كما كان هو يتغنى بشعره أيضاً -

ومن ثم دعوه « صناجة العرب » وهو لقب كبير الخطر يدل على ما أحرزه من صيت ورفعة شأن ولعل أكبر عيوبه أنه كان — فيما يقول مؤرخو الآداب — أول من سن للشعر طريقاً غير محمودة لتكسبه به ، ونحن ننقم عليه هذه الخلة المقوتة إذا صحت عنه .

أما شعره فرائع فياض بأسمى العواطف والإحساسات ، وهو يمتاز بموسيقية خاصة وروح خفيفة ، وأسلوب مشرق بالحياة والقوة . وقد اشتهر بوصفه للخمر ، وكان يشتريها من نصارى الحيرة الذين كان يكثر التردد عليهم والاختلاط بهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في عقيدته ، فقد قالوا عنه : إنه كان قدرى المذهب ، واستدلوا على ذلك بقوله :

« استأثر الله بالوفاء وبالعد ل ، وولى الملامة الرجلا »

وهذا بيت جامع دقيق يصح أن يكون خلاصة مذهب فلسفي — على إيجازه !

*
* *

أما خطره ، وأثر شعره في نفوس معاصريه الجاهليين ، فقد وصل إلى أبعد حد ، فقد كان لا يمدح أحداً إلا رفعه ، وأكبر دليل على ذلك حكايته المشهورة مع الملق ، فقد كانت القافية التي امتدحه الأعشى بها سبباً في تزويج بناته الثماني

ولم يغفل أعداء النبي عن هذه الميزة الباهرة التي امتاز بها شعر الأعشى ، فحشوا أن يسلم فيمدح النبي فيذيع أمره ويقبل الناس على دينه ، وعرفوا من الأعشى حبه المال وحرصه عليه ؛ فعزم أبو سفيان وقومه على إغرائه بالرجوع ورصدوه في طريقه ، فلما وصل إليهم قالوا له : « أين أردت يا أبا بصير ؟ » فقال : « أردت صاحبكم هذا لأسلم » فقالوا : « إنه ينهك عن خلال ويحرمها عليك ، وكلها لك موافق » قال « وما هن ؟ » فقال أبو سفيان بن حرب : « القمار » قال : « لعلني أن أصبت منه عوضاً عن القمار ! ثم ماذا ؟ » قالوا : « الربا » قال : « ما دنت ولا أدنت ! ثم ماذا ؟ » قالوا : « الخمر » قال : « أوه . أرجع إلى صباية قد بقيت لي في المهراس فأشربها ! » فقال له أبو سفيان : « وهل لك في خير مما همت به ؟ » قال : « وما هو ؟ » قال : « نحن وهو الآن في هدنة ، فتأخذ مائة من الإبل ، وترجع إلى بلدك — سنئك هذه — وتنتظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه ، كنت قد أخذت خلفاء ،

نَازَعْتَهُمْ قُضْبَ الرَّيْحَانِ مُرْتَفَقًا (١) وَقَهْوَةً (٢) مِرْزَةً (٣) رَاوُوقَهَا (٤) خِضْلًا (٥)
لَا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهِيَ رَاهِنَةٌ (٦)
يَسْعَى بِهَا ذُو زُجَاجَاتٍ لَهُ نُطْفٌ (٧)
وَمُسْتَجِيبٌ (٨) تَخَالَ الصَّنْجِ (٩) يُسْمِعُهُ (١٠)
وَإِذَا تَرَجَّعَ (١١) فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضْلُ (١٢)
وَأَبُو عَيْدَةَ يُذَكِّرُهُمْ بِوَقَائِعِ الْعَرَبِ ، وَمَقَاتِلِ الْفَرَسَانِ ، وَالْأَصْمَعِيِّ يُنْشِدُهُمْ
مَا أَحْسَنَ قَائِلُهُ .

وَتَهَشُّ نَفُوسُهُمْ لِلْعَبِّ ، فَيُقَذِّفُونَ تِلْكَ الْآنِيَةَ فِي أَنْهَارِ الرَّحِيقِ ، وَيُصَفِّقُهَا (١٢)
الْمَازِي (١٣) الْمَعْتَرِضُ أَيُّ تَصْفِيقٍ ؛ وَتَقْتَرِعُ (١٤) تِلْكَ الْآنِيَةَ ، فَيُسْمَعُ لَهَا أَصْوَاتٌ ،
تُبْعَثُ (١٥) بِمِثْلِهَا الْأَمْوَاتُ ، فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « آه لِمُضْرَعِ الْأَعْشَى مَيْمُونِ ! وَدِدْتُ أَنَّهُ

وَإِنْ ظَهَرَ عَلَيْنَا ، أَتَيْتَهُ » فَقَالَ : « مَا أَكْرَهُ ذَلِكَ » فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ : « يَا مَعْشَرَ قَرِيشِ !
هَذَا الْأَعْشَى ، لَنْ أَتَى مُحَمَّدٌ أَوْ أَتَبَعُهُ ، لِيُضْرَمَ عَلَيْكُمْ نِيرَانُ الْعَرَبِ بِشَعْرِهِ ، فَاجْمَعُوا لَهُ مِائَةَ
مِنَ الْإِبِلِ » فَفَعَلُوا ، فَأَخَذَهَا ، وَانْطَلَقَ إِلَى بَلَدِهِ ، فَلَمَّا قَرِبَ مِنَ الْيَمَامَةِ سَقَطَ عَنْ نَاقَتِهِ ،
فَدَقَّتْ عُنُقَهُ ، وَوَدْفَنَ بِهَا .

(١) متلطفًا - مترفقًا ، وقيل المترفق هو المتكىء على المرفق (٢) خمرًا (٣) لذينة الطعم
- فيها مزازة (٤) إناؤها ، وقيل الراوق هو ما يخرج من ثقب الدن (٥) مبتل - ند ،
فهو يترشف نداء (٦) معدة ، دائمة لا تنقطع (٧) النطف واحدتها نطف ، وهو القرط ؛
أما المعتيل فالدائب الخفيف الحركة (٨) قيل هو العود ، تظن أن الصنج أسمعه صوته ، فأجابه
العود (٩) نوع معروف من آلات الطرب (١٠) تصرفه من شدة إلى لين (١١) هي المتفضلة
في ثوب واحد أي المتوشحة به مخالفة بين أطرافه على عاتقها - وقيل هي التي عليها ثوب بلا
درع أو التي تحت درعها إزار (١٢) يصفقها : يلطمها ، ويمتزج بها . والمعنى أن الماذي الذي
يعترض أنهار الرحيق يلطم الآنية ويمتزج بما فيها (١٣) العسل الأبيض (١٤) يصك
بعضها بعضًا (١٥) تحيا بعد الموت

ما صدته قریش لما توجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم^(١)، ولو أنه أسلم لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس فيُنشِدنا غريب الأوزان، مما نُظِم في دار الأحران، ويُحدِّثنا حديثه مع هُوذة بن علي^(٢)، وعامر بن الطفيل^(٣) ويزيد بن مُسهر، وغيرهم ممن مدحه أو هجاه، وخافه في الزمن أو رجاه.

(١) ذكرنا قصة ذلك عند ترجمة الأعشى في الصفحتين ٢٢ و ٢٣ من هذا الجزء

(٢) هُوذة بن علي

كان ملكاً على اليمامة، وكان نصرانياً فأسلم، ثم ارتد، وذلك أنه قال: « إن جعل لي محمد الأمر من بعده أسلمت ونصرته » فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): « لا، ولا كرامة، اللهم اكفنيه » فمات بعد قليل

(٣) عامر بن الطفيل

فارس قيس، وابن عم لبيد، كان أعور عقياً. أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له: « أتجعل لي نصف ثمار المدينة وتجعلني ولي الأمر من بعدك وأسلم؟ » فقال - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اكفني عامراً واهد بني عامر » فانصرف وهو يقول: « لأملأنها خيلاً جرداً ورجالاً مرداً، ولأر بطن بكل نخلة فرساً » فطعن في طريقه فمات. ومن مختار شعره قوله:

وإني وإن كنت ابن فارس عامر وسيدها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن ورائة أبي الله أن أسمو بأب ولا أب
ولكنني أحى حماها، وأتقى أذاها، وأرمى من رماها بمنكب

ومن أجل شعره قوله:

قضى الله في بعض المسكاره للفتى برشد، وفي البعض الهوى، ما يحاذر
ألم تعلمي أني - إذا الإلف قاذي إلى الجور - لا أنقاد، والإلف جائر

نزهة ابن القارح

ثم إنه - أدام الله تمكينه - يخطر له حديثٌ شئٌ كان يُسمى « النزهة »
في الدار الفانية ، فيركبُ نجيباً^(١) من نُجُبِ الْجَنَّةِ ، خُلِقَ من ياقوتٍ وُدْرٍ ، في
سَجَسِجِ^(٢) بعدَ عن الحرِّ والقرِّ ؛ فيسيرُ في الجنةِ على غيرِ منهجٍ ، ومعه شئٌ من
طعامِ الخلود ، فإذا رأى نجيبه يُملعُ^(٣) بين كُشبانِ العنبرِ ، رفعَ صوته مُتمثلاً
بقولِ البكري^(٤) :

لَيْتَ شِعْرِي مَتَى تَحُبُّ^(٥) بَنَاتِنَا قَةَ بَيْنَ الْعُذَيْبِ فَالصَّيْبُونَ^(٦)
مُحِبِّبًا^(٧) زُكْرَةً^(٨) وَخُبْزَ رَقَاقٍ وَحِبَابًا^(٩) وَقِطْعَةً مِنْ نُونٍ^(١٠)

حديث الأعشى

فِيهِتِفُ هَاتِفٌ : « أَتَشْعُرُ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمَغْفُورُ لَهُ ، لِمَنْ هَذَا الشُّعْرُ ؟ »
فيقول الشيخ : « نعم ، حدثنا أهلُ ثِقَاتِنَا عن أَهْلِ ثِقَاتِهِمْ ، أَنَّ هَذَا الشُّعْرَ
لِمَيْمُونِ بْنِ قَيْسِ بْنِ جَنْدَلٍ » فيقول الهاتِفُ : « أَنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ ، مَنْ اللَّهُ عَلَيَّ »

(١) جملاً كريماً (٢) جو معتدل (٣) يسير سيراً سريعاً وخفيفاً (٤) هو الأعشى
وقد مرت ترجمته في ص ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من هذا الجزء (٥) الخبب : نوع من سير الإبل
(٦) العذيب والصيبون مكانان ببلاد العرب (٧) واضعاً في الحقيبة (٨) زقا صغيراً للخمر
(٩) الحباق : الحزمة من القوت . وقد شرحها أبو العلاء بقوله : « جرزة البقل » ، ومنه قول الشاعر :
فأتونا بدرمق وحباق وشواء مرعبل وصناب

(١٠) النون : السمك ، ومعنى الأبيات أنه يبدي شوقه الشديد إلى ركوب ناقته مسرعة به
في رحلتها نحو العذيب والصيبون ، وقد وضع في حقيبته زقاً صغيراً وخبز رقاق وحزمة
من القوت وقطعة من السمك ، وهذا هو كل زاده الشهي في تلك الرحلة الجميلة التي يتوق إليها

بعد ما صرْتُ مِنْ جَهَنَّمَ عَلَى شَفِيرٍ ، وَيَسْتُ مِنْ الْمَغْفِرَةِ « فَيَلْتَفِتُ إِلَيْهِ
 الشَّيْخُ هَشًّا بِشًّا مُرْتَاحًا ، فَإِذَا هُوَ بِشَابِّ غُرَانِقٍ ^(١) ، وَقَدْ صَارَ عِشَاءُ حَوْرًا ،
 وَأُنْحِنَاءُ ظَهْرِهِ قَوَامًا ، فَيَقُولُ : « سَحَبْتَنِي الزَّبَانِيَةَ إِلَى سَقَرٍ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا فِي
 عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ يَتَلَاؤُ وَجْهَهُ تَلَاؤُ الْقَمَرِ ، وَالنَّاسُ يَهْتَفُونَ بِهِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ^(٢) :
 « يَا مُحَمَّدُ ! يَا مُحَمَّدُ ! الشَّفَاعَةَ ! الشَّفَاعَةَ ! نَمْتُ بِكَذَا وَنَمْتُ بِكَذَا » فَصَرَخْتُ فِي
 أَيْدِي الزَّبَانِيَةِ : « يَا مُحَمَّدُ ، أَغْنِنِي ، فَإِنَّ لِي بِكَ حُرْمَةً ! » فَقَالَ : « يَا عَلِيُّ ! بَادِرْهُ
 فَانظُرْ مَا حُرْمَتُهُ » فَجَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - وَأَنَا أُعْتَلُّ ^(٣)
 كُنْتُ أَلْقَى فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، فَزَجَرَهُمْ عَنِّي ، وَقَالَ : « مَا حُرْمَتُكَ ؟ »
 فَقُلْتُ : « أَنَا الْقَائِلُ :

فَإِنَّ لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدًا	أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمَّتْ
وَلَا مِنْ حَنِّي حَتَّى تُتَلَّقِي مُحَمَّدًا	فَأَلَيْتُ لَا أُرِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ
تُرِيحِي وَتَلْقَى مِنْ فَوَاضِلِهِ نَدَا	مَتَى مَا تُنَاخِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ
نَبِيِّ الْأَلِيلِ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا	أَجْدَكَ ^(٤) لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ
وَأَبْصَرْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا	إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بَزَادٍ مِنَ الثُّقَى
وَأَنَّكَ لَمْ تُرْصِدْ ^(٥) لِمَا كَانَ أَرْصَدَا ^(٦)	نَدِمْتُ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ

(١) جميل (٢) الأوب : الطريق ، ومن كل أوب أى من كل طريق أو من كل جهة

(٣) يُجْرُّ بعنف (٤) أجذك - بفتح الجيم وكسرها - أى : أبجد منك هذا ، وهو منصوب

على نزع الخافض (٥) أرصد الرقيب أى نصبه على الطريق (٦) معنى الأبيات : أيها

السائلي أين تذهب بي ناقتي ، إنها ذاهبة إلى يثرب ، إلى محمد بن عبد الله ، وقد أقسمت
 لا أريحها ولا أشفق عليها مهما تجدد من الإعياء والتعب حتى تبلغ أعتاب هذا النبي الكريم ،

وقد كنتُ أؤمنُ باللهِ وبالْحِسابِ ، وَأُصدِّقُ بالبعثِ وَأَنَا في الجَاهِلِيَّةِ الجُهَلَاءِ «
فذهبَ عَلِيٌّ إلى النبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال : « يَا رَسُولَ اللهِ ، هذا
أَعشى قَيْسٍ : قد رُوِيَ مدْحُهُ فيكَ ، وَشَهِدَ أَنَّكَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ » فقال :
« هَلَّا جَاءَ في الدارِ السَّابِقَةِ ؟ » فقال عَلِيٌّ : « قد جَاءَ ، وَلَكِنْ صَدَّتْهُ قُرَيْشٌ
وَحُبُّهُ لِلخَمْرِ ^(١) » فشفعَ لي ، فَأَدْخِلْتُ الْجَنَّةَ على أَنْ لَا أَشْرَبَ فيها خمرًا ،
فَقَرَّتْ عَيْنَايَ بذلكَ . وَإِنَّ لي مَنَادِحَ ^(٢) في العسلِ وماءِ الحيوانِ ^(٣) ، وكذلكَ
مَنْ لَمْ يَثْبُ من الخمرِ في الدنيا لَمْ يُسْقَهَا في الآخرةِ .

حديث زهير بن أبي سلمى

وَيَنْظُرُ الشَّيْخُ في رِياضِ الْجَنَّةِ ، فَيَرَى قَصْرَيْنِ مُنِيفَيْنِ ^(٤) فيقولُ في نفسه :
« لَا بُلْغَنَ هَذَيْنِ القَصْرَيْنِ ، فَأَسْأَلُ : لِمَنْ هُمَا ؟ » فَإِذَا قُرْبَ مِنْهُمَا ، رَأَى عَلِيَّ
أَحَدِيهِمَا مَكْتُوبًا : « هَذَا القَصْرُ لَزُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلَمَى المُرِّيِّ ^(٥) » وَعَلَى الآخَرِ :

فإذا انتهت إلى بابها رأت من كرمه وفواضله ما ينسيها كل ما لقيته من الجهد والنصب . وأنت ،
ألم يبلغك بربك ما أوصى به هذا النبي لتدرك السبب الذي حفزني إلى لقائه ، لقد حث على
التزود من التقى والعمل بما أتى به من التشريع السامع ؛ وبين مآل المتهاونين في تنفيذ تلك
الوصايا الحكيمة ومقدار ما يلحق المفرطين من الندم الشديد حين يرون ما يزف من الخير - في
الدار الآخرة - إلى من أطاعه وعمل بنصائحها في الدار الأولى

(١) ارجع إلى ص ٢٢ و ٢٣ (٢) جمع مندوحة ، أي سعة أو غنية (٣) ماء الحياة (٤) عالين

(٥) زهير بن أبي سلمى

توفي سنة ٦٣١ م أي قبل البعثة بسنة

هو من مزينة - إحدى قبائل مضر - وقد اشتهرت أسرته بالشعر ، واشتهر بمدحه هرم
ابن سنان ، كما اشتهر بالتفوق في إجادة الحكم ، مع الصدق وعدم المبالغة ، والبعد عن المعاظلة

« هذا القصرُ لعبيدِ بنِ الأبرصِ »

في الكلام ، وتجنب حوشى اللفظ ، ومن خير شعره قوله من معلقته :
سألنا فأعطيتم ، وعدنا فعدتم ،
وكائن ترى من صامت لك معجب
• لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعيش
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله
رأيت المنايا خبط عشواء ، من تصب
ومن لم يصانع في أمور كثيرة
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
ومن يوف لا يذم ، ومن يهد قلبه
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه
ومن يعص أطراف الزجاج ، فإنه
ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه
ومن يغترب يحسب عدواً صديقه
وهما تكن عند امرئ من خليفة
وقوله من قصيدة أخرى :

أرونا خطة لا ضيم فيها
فإن ترك السواء ، فليس بيني
فإن الحق مقطعه ثلاث :

وقوله :

ألا ليت شعري أهل يرى الناس ما أرى
من الأمر؟ أو يبدو لهم ما بدا ليا ؟

بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم
وأنى متى أهبط من الأرض تلة
أراني - إذا أمسيت - أمسيت ذاهوي
إلى حفرة أهوى إليها مصمة
وأموالهم ، ولا أرى الدهر فانيا
أجد أثراً قبلي جديداً وعافيا
فتم - إذا أصبحت - أصبحت غاديا
يحث إليها سائق من وراثيا •

بدا لي أن الله حق فزادني
بدا لي أنى لست مدرك ما مضى
وما إن أرى نفسى تقيها منيتي
وقوله :
إلى الحق تقوى الله ، ما كان باديا
ولا سابق شيئاً إذا كان جائيا
وما إن تقي نفسى كرائم ماليا

ولا تكثر على ذى الضغن عتبا
ولا تسأله عما سوف يبدى
متى تك فى صديق أو عدو
وقوله :
ولا ذكر التجرم للذنوب
ولا عن عيبه لك فى المغيب
تخبرك الوجوه عن القلوب

وذى نسب ناء بعيد وصلته
وذى نعمة تمتها وشكرتها
دفعت بمعروف من القول صائب
وذى خطل فى القول ، يحسب أنه
عبأت له حلاماً وأكرمت غيره
وقوله :
بمال ، وما يدرى بأنك واصله
وخصم يكاد يغلب الحق باطله
إذا ما أضل الناطقين مفاصله
مصيب ، فما يلم به فهو قائله
وأعرضت عنه وهو باد مقاتله

إن كنت لا ترهب ذمى ، لما
فاخش سكوتى - إذ أنا منصت
السامع الهم شريك له
مقالة السوء إلى أهلها
تعرف من صفحى عن الجاهل
فيك لمسموع خنا القائل
ومطعم المأكول كالأكل
أسرع من منحدر سائل

الأسدي^(١) « فيعجب من ذلك ويقول : « هذان ماتا في الجاهلية ، ولكن

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
فلا تهيج - إن كنت ذا إربة - حرب أخى التجربة العاقل
فإن ذا العقل - إذا هجته - هجت به ذا خبل خابل
تبصر من عاجل شداته عليك غب الضرر الآجل

وهذه القصيدة تنسب لزهير مرة ، ولمحمد بن حازم الباهلي أخرى

(١) عبيد بن الأبرص الأسدي

توفي سنة ٥٥٥ م

قبيلته مضر ، وهو من بني أسد ، عمر طويلا حتى قتله المنذر بن ماء السماء حين ورد عليه في يوم بؤسه . وتفصيل ذلك أن المنذر غضب يوما ، فقتل نديمين له من بني أسد ؛ فلما أصبح ندم ، فبنى على قبريهما ضرب يمين أسماهما : الغريين ، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما هناك - أسى أحدهما يوم النعيم والآخر يوم البؤس ؛ فكان أول من يطلع عليه في يوم النعيم يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه في يوم البؤس يقتله ويطلق بدمه الغريين . وقد اتفق أن جاءه عبيد في يوم بؤسه فقتله

ومن مختار شعره قوله :

لكل ذي غيبة إياب وغائب الموت لا يؤوب

وقوله :

من يسأل الناس يجرمه وسائل الله لا يخيب

وأكثر أبيات معلقته غير جار على الوزن العربي المعروف ، واختلال الوزن فيها واضطرابه ظاهرا . كقوله :

أفلح بما شئت قد يبلغ بالضعف وقد يخذع الأريب

وقد أشار أبو العلاء إلى ذلك فقال :

وقد يخطيء الرأي امرؤ - وهو حازم - كما اختل في وزن القريض عبيد

رَحْمَةً رَبَّنَا وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَسَوْفَ التَّمِسُّ لِقَاءَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، فَاسْأَلُهُمَا :
« بِمِ غُفْرَ لهُمَا؟ » فَيَتَدَيُّ بَزْهِيرٍ ، فَيَجِدُهُ شَابًا كَالزَّهْرَةِ الْجَنِّيَّةِ ، كَأَنَّهُ مَا لَبَسَ
جِلْبَابَ هَرَمٍ ، وَلَا تَأْفَفَ مِنَ الْبَرَمِ^(١) ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ فِي الْمَيْمَةِ :

« سَيِّمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَالِكَ - يَسَامٍ »

وَلَمْ يَقُلْ فِي الْآخِرَى :

« أَلَمْ تَرِنِي عُمِّرْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً وَعَشْرًا تَبَاعًا عِشْتَهَا وَثَمَانِيَا »

فَيَقُولُ : « جَيْرٍ ، جَيْرٍ^(٢) ، أَنْتَ أَبُو كَعْبٍ وَبُجَيْرَا » فَيَقُولُ : « نَعَمْ »

فَيَقُولُ « بِمِ غُفْرَ لَكَ ، وَقَدْ كُنْتَ فِي زَمَانِ الْفِتْرَةِ وَالنَّاسِ هَمَلٌ ، لَا يَحْسُنُ مِنْهُمْ

الْعَمَلُ؟ » فَيَقُولُ : « كَانَتْ نَفْسِي مِنَ الْبَاطِلِ نَفُورًا ، فَصَادَفْتُ مَلَكًا غَفُورًا ، وَكُنْتُ

مَوْثَمًا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَرَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ جِبَلًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَمِنْ تَعَلَّقَ بِهِ مِنْ

سَكَانِ الْأَرْضِ سَلِمَ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، فَأَوْصَيْتُ بَنِيَّ وَقُلْتُ لَهُمْ عِنْدَ

الْمَوْتِ : « إِنْ قَامَ قَائِمٌ يَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فَأَطِيعُوهُ » وَلَوْ أُدْرِكْتُ « مُحَمَّدًا »

لَكُنْتُ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْتُ - فِي الْمَيْمَةِ - وَالسَّفَةُ ضَارِبٌ بِالْجِرَانِ^(٣) - :

وتعليل هذا الاختلال والاضطراب في نظرنا ، أنه كان - فيما نظن - يوقع القصيدة على

نعمة خاصة به ، غير تلك التي كان يوقع عليها سواء من العرب ، فلو اهتمدنا إلى طريقة

إنشاده الخاصة ، والأسلوب الذي كان يغني به هذا الوزن الجديد ، لما أحسنا في معلقته بشيء

من الشذوذ الذي نحسه فيها اليوم

ومما يمثّل به من شعره بيته الرائع قوله :

لا أعرفك بعد الموت تندبني . وفي حياتي ما زودتني زاداً

(١) الضجر (٢) نعم ، نعم (٣) الجران : مقدم عنق الناقة ، والضرب بالجران

كناية عن الإقامة

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ
لِيَخْفَى، وَمَهْمَا يُكْتَمَ : اللَّهُ يَعْلَمُ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ
لِيَوْمِ حِسَابٍ، أَوْ يُقَدَّمُ فَيُنْتَقَمُ (١)

فيقول : أَلَسْتَ الْقَائِلَ :

وَقَدْ أَغْدُو عَلَى ثُبَّةٍ (٢) كَرَامٍ
نَشَاوَى (٣) وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ
يَجْرُونَ الْبُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ
حَمِيًّا (٤) الْكَأْسِ فِيهِمْ وَالْغِنَاءُ (٥)

أفأطلقت لك الخمر كثير من أصحاب الخلود، أم حرمت عليك مثلما حرمت على أعشى قيس؟ « فيقول زهير: « إن أخا قيس أدرك محمداً، فوجبت عليه الحجة، لأنه بعث بتحريم الخمر وحظر ما قبح، وهلكت أنا والخمر كثيرها من الأشياء، يشربها أتباع الأنبياء. فلا حجة على » فيدعوه الشيخ إلى المنادمة، فيجده من ظراف الندماء، فيسأله عن أخبار القدماء .

حديث عبيد

ثم ينصرف إلى « عبيد » فاذا هو قد أعطى بقاء التأيد (٦)، فيقول: « السلام عليك يا أخا بني أسد » فيقول: « وعليك السلام - (وأهل الجنة أذكيا) - لعلك تريد أن تسألني بـم غفر لي؟ » فيقول: « أجل . وإن في ذلك لعجبا »

(١) يقول : اتركوا الرياء فلا فائدة منه ، ولا تخفوا ما تضمرون ، فإن الله عليم بذات الصدور ، وهو مجاز كل إنسان بما يضمه عاجلاً أو آجلاً (٢) جماعة (٣) سكارى (٤) حميا الكأس : سورتها وشدتها ، أو إسكارها وأخذها بالرأس (٥) معنى البيتين : ويا رب مجلس أنس غدوت اليه فنعمت فيه بمنادمة إخوان كرام صفا بهم وقتنا ، واكتمل بجمعهم أنسنا ، ولم ينقصنا شيء من جالبات السرور ، وقد تمكنت سورة الخمر من رموس هؤلاء الندامى ، فمشوا مترنحين يختالون في أبرادهم (٦) التأيد : الخلود

فيقول عبيدٌ: «إني دخلتُ الهاويةَ، وكنتُ قلتُ في أيام الحياة :
من يسألُ الناسَ يَحرموه وسائلُ الله لا ينجبُ
وسارَ هذا البيتُ في آفاقِ البلادِ ، فلم يزلُ يُنشدُ ويخفُّ عنى العذابُ ،
حتى أُطلقتُ من القيودِ والأصفادِ ؛ ثم كررتُ إلى أن شملتني الرحمةُ ببركة هذا
البيتِ . « وَإِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »
فإذا سمعَ الشيخُ ما قالَ ذاكِ الرَّجُلانِ ، طمِعَ في سلامةِ كثيرٍ من
أصنافِ الشعراءِ .

حديث عدى بن زيد^(١)

فيقولُ لعبيدٍ : « ألكَ علمٌ بعديِّ بنِ زيدِ العباديِّ ؟ فيقولُ : « هذا منزلهُ
قريباً منك . » فيقفُ عليه ، فيقولُ : « كيفَ كانتَ سلامتكَ على الصراطِ ؟ »
فيقولُ : « إني كنتُ على دينِ المسيحِ ، ومن كانَ من أتباعِ الأنبياءِ قبلَ أن
يُبعثَ « محمدٌ » فلا بأسَ عليه ، وإنما التَّبعةُ على من سجدَ للأصنامِ . »
فيقولُ الشيخُ : « لقد هممتُ أن أسألكَ عن بيتِكَ الذي استشهدَ
به سيبويه وهو قولك :

أرواحٌ مودَّعٌ أم بُكورُ أنتَ فانظرِ لأيِّ حالٍ تصيرُ
فإنه يزعمُ أنَّ (أنتَ) يجوزُ أن تُرفعَ بفعلٍ مُضمرٍ يفسره قولك : فانظرُ ،
وأنا أستبعدُ هذا المذهبَ ولا أظنُّكَ أردتَهُ » فيقولُ عديُّ بنُ زيدٍ : « دعني من
هذه الأباطيلِ ! »

(١) انظر ترجمته في ص ٨

« ولكنى كنتُ فى الدار الفانيةِ صاحبَ قنصٍ ، فهل لك أن تزكبَ فرسينِ من خيلِ الجنةِ ، فتبعتهما على صيرانها^(١) ، وخيطانِ^(٢) نعامها ، وأسرابِ ظبائها ، وعاناتِ^(٣) حمرها ، فإن للقنيصِ لذةً ! » فىقول الشيخ : « إنما أنا صاحبُ قلمٍ ، ولم أكن صاحبَ خيلٍ ! وما يؤمننى إذا زكبتُ طرفاً — وأنا كما قال القائلُ :

لَمْ يَزَكِبُوا الْخَيْلَ إِلَّا بَعْدَ مَا كَبُرُوا فَهَمْ ثِقَالٌ عَلَى أَكْتافِهَا عُنفُ
 أن يُلحِقَنى ما لِحِقَ صاحبَ المُتَجَرِّدَةِ لَمَّا حُمِلَ على اليَحْمومِ ؟ ويجوز أن يَقدِّفَنى السَّابِحُ^(٤) على صخورِ زُمُرْدٍ ، فيكسِرُ لى عَضُدًا أو ساقًا ، فأصيرُ ضُحَكَةً فى أهلِ الجنانِ ! » فيبتسمُ عديٌّ ، ويقولُ : « وَيَحْكُ ! أما علمتَ أن الجنةَ لا يَرُهبُ لديها السَّقمُ ، ولا تَنزِلُ بسَكَنِها البُقمُ ؟ » فيزكبانِ سابحينِ من خيلِ الجنةِ ، مَرَكَبُ كلِّ واحدٍ منهما لو عُدِلَ بِمَالِكِ العاجلةِ مِنْ أوَّلها إلى آخرها لَرَجَحَ بها^(٥) ، وزاد فى القيمةِ عليها ، فإذا نظر إلى صِوارٍ^(٦) ترتعُ فى رياضِ الفِرْدَوْسِ ، صَوَّبَ الشيخُ الرَّمحَ لِأَخْنَسِ^(٧) ذِيالٍ^(٨) ، فإذا لم يبقَ بين السَّنَنِ وبينه إلا قِيدُ ظُفْرٍ ، قال : « أَمْسِكْ — رَحِمَكَ اللهُ — فَإِنى لَسْتُ مِنْ وَحْشِ الجنةِ التى أَنشأها اللهُ سبحانه ، ولم تكن فى الدارِ الزائلةِ ، ولكنى كنتُ أروضُ فى

(١) الصيران جمع صيار وهى لغة فى صوار ، والصوار بالضم (ويكسر) : القطيع من بقر

الوحش (٢) جماعات النعام (٣) العانة : القطيع من حمر الوحش (٤) الحصان الذى إذا

جرى صار كأنه يسبح (٥) فى اللغة : رجح الشيء فى الشيء : زاد وزنه عليه . وفيها أيضاً :

راجحه فرجحه ، أى وازنه فكان أكبر منه وزناً . ولم نجد رجح به فيما بين أيدينا من كتب اللغة -

فعله تجوز فى التعدية (٦) جماعة من بقر الوحش (٧) ثور وحشى (٨) طويل الذيل

بعض القفار، فرَّبى ركبٌ مؤمنون قد أكرى^(١) زادهم، فصرعوني، واستعانوا
بى على السفر، فعوضنى الله بأن أسكننى فى الخلود». فىكف عنه الشيخ، ويعمد
لعلاج^(٢) وحشى، ما التفتُ عنده بمحشى؛ فإذا صار الخرص^(٣) منه بقدر أنملة
قال: «أمسك يا عبد الله، فإن الله أنعم علىّ ورفع عنى البؤس؛ وذلك أنى
صادنى صائدٌ بمخلب، وكان إهابى^(٤) له كالسلب^(٥)؛ فباعه فى بعض الأمصار،
فاتخذ منه غرب^(٦)، شفى بمائه الكرب، وتطهر بنزيعه^(٧) الصالحون،
فشملتنى بركة من أولئك، فدخلت الجنة أرزق فيها بغير حساب» فىقول
الشيخ: «فىنبغى أن تتميزن، فمن كان منكناً دخل الفانية، فما يجب أن يختلط
بوحوش الجنة» فىقول ذلك الوحشى: «لقد نصحتنا نصح الشفيق، وسوف
نتمثل ما أمرت» .

حديث الهذلى^(٨)

وينصرف مولاى الشيخ وصاحبه عدى، فإذا هما برجلٍ يحتلب ناقةً فى إناء
من ذهب، فىقولان: «من الرجل؟» فىقول: «أبو ذؤيب الهذلى»،

(١) أكرى: زاد ونقص - ضد - والمراد هنا نقصان (٢) العالج: الحمار

(٣) الخرص - بفتح الخاء وكسرهما - : السنان أو الرمح القصير (٤) جلدى

(٥) ما يسلبه الرجل من قرنه (٦) الغرب: اللو العظيمة (٧) ما ينتزع من الماء

(٨) أبو ذؤيب الهذلى

اسمه خويلد بن خالد، وهو شاعر جاهلى إسلامى، خرج مع عبد الله بن الزبير فى غزوة فمات
ومما يروونه عنه أنه كان يهوى امرأة من قومه؛ وكان قد وجه رسولا إليها من قومه
يقال له خالد بن زهير، فخانه، فقال:

فيقولان : « حَيِّتَ وَسَعِدْتَ ، أَتَحْتَلِبُ مَعَ أَنْهَارِ مِنْ لَبْنِ ! » فيقول :
« لا بأس . إنما خَطَرَ لِي ذلِكَ ، مِثْلَمَا خَطَرَ لِكُما الْقَنْصُ ، وَإِنِّي ذَكَرْتُ قَوْلِي
فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ :

تريدين كيا تجميعيني وخالدا
أخالد ! ما راعيت مني قرابة
وهل يجمع السيفان - ويحك - في غمد
فتحفظني في الغيب أو بعض ما تبدى
ومن غريب المصادفات أن أبا ذؤيب هذا كان قد خان في هذه المرأة ابن عمه « مالك بن
عويمر » فاتهمز خالد هذه المناسبة ليعيره بها ، ويتخذ منها تكأة يبرر بها خيائه ، فقال :
فلا تجزعن من سنة - أنت سرتها -
وأول راض سنة من يسيرها
وكنت إماماً للعشيرة ، تنتهى
إليك - إذا ضاقت بأمر صدورها
ألم تنتقذها من ابن عويمر وأنت صفي نفسها ووزيرها ؟
وفي هذه الأبيات تهكم لاذع وسخرية قاتلة ؛ وفيها أيضاً مهارة وافتنان في إظهار هذا
التهكم ، وفيها حجة مفحمة لا تقبل النقض . وأتى يتنصل ، وبأى حق يجزع من معاملة الناس
بمثل ما عاملهم به ؟ أليس من أصدق الصديق قوله : « وأول راض سنة من يسيرها » ! نعم
ولا نحسب القارىء في حاجة إلى تنبيهه إلى ما في البيتين الآخرين من الجمال والفن !
ومن مختار شعر أبي ذؤيب قوله لخالد بن زهير هذا ، وهو من أجود الشعر :

فما حمل البخقى - عام غياره -
عليه الوسوق برها وشعيرها
بأكثر مما كنت حملت خالداً ،
وشر أمانات الرجال غرورها !

إلى أن يقول :

فإن حراماً أنت أخون أمانة
وأمن نفساً ليس عندي ضميرها
أحاذر - يوماً - أن تبين قرونتي
ويسلمها إخوانها ونصيرها
وما يحفظ المكتوم من سر أهله
إذا عقد الأسرار ضاع كبيرها
من الناس ، إلا ذو وفاء يعينه
على ذلك منه صدق نفس وخيرها

*
*
رعى خالد سرى ليالى نفسه *
توالى على قصد السبيل أمورها *

وَإِنْ حَدِيثًا مِنْكَ لَوْ تَعَامَيْنَهُ جَنَى النَّحْلِ فِي أَلْبَانِ عُوذٍ (١) مَطَافِلِ
مَطَافِلِ أَبْكَارِ حَدِيثٍ تِتَاجُهَا ، تُشَابُ بِمَاءٍ مِثْلِ مَاءِ الْمَفَاصِلِ (٢)

فَقَيَّضَ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ لِي هَذِهِ النَّاقَةَ مُطْفِلًا ، فَقُمْتُ أُحْتَلِبُ عَلَى الْعَادَةِ .
وَأُرِيدُ أَنْ أَشُوبَ ذَلِكَ بِضَرْبِ (٣) نَحْلِ . « فَإِذَا امْتَلَأَ إِيَّانَاؤُهُ مِنَ الرَّسْلِ (٤) ، كَوَّنَ
الْبَارِيُّ - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ - خَلِيَّةً مِنَ الْجَوْهَرِ ، رَتَعَ ثَوْلَهَا (٥) فِي الزَّهْرِ ؛ فَاجْتَنَى
ذَلِكَ أَبُو ذُوَيْبٍ وَمَزَجَ حَلِيبَهُ ، فَيَقُولُ : « أَلَا تُشْرَبَانِ ؟ » فَيَجْرَعَانِ مِنْ ذَلِكَ
الْمِحْلَبِ (٦) جُرْعًا لَوْ فُرِّقَتْ عَلَى أَهْلِ « سَقَرِ » لَفَازُوا بِالْخُلْدِ ، فَيَقُولُ عَدِيٌّ :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ
رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ . وَنُودُوا : أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

حديث النابتين

ويعضى في نزهته تلك بشابيين يتحاذيان ، كل واحدٍ منهما على باب قصرٍ
من دُرٍّ ، قد أعفى من البؤس والضرِّ ؛ فَيُسَلِّمُ عليهما ويقولُ : « مَنْ أَنْتَ ؟ »

فلما تراماه الشباب وغيره - وفي النفس منه غدرة وفجورها -
لوى رأسه عنى ، ومال بوده أغابح خود كان قدما يزورها
تعلقه منها دلال ومقلة تظل لأصحاب السقام تديرها

(١) جمع عائد، وهي القرية العهد بالنتاج (٢) ماء المفاصل: هو الماء بين جبلين من رمل
ورضراض ، وهو من أصفى أنواع المياه وأعذبها ، ومعنى البيتين : إن لأحاديثك الجميلة لذة
عظيمة أجدها في نفسى ، وعدوبة لا يماثلها إلا عدوبة الشهد امتزج بأصفى ألبان الإبل
(٣) الضرب : العسل (٤) اللبن (٥) الثول : جماعة النحل (٦) إناء اللبن

— رَحِمَكُمَا اللَّهُ — وَقَدْ فَعَلَ^(١) « فَيَقُولَانِ : « نَحْنُ النَّابِغَتَانِ : نَابِغَةُ بَنِي جَعْدَةَ^(٢) وَنَابِغَةُ بَنِي ذُبْيَانَ »

(١) أى قد رحمهما الله بإدخالهما الجنة

(٢) النابغة الجعدى — توفى سنة ٥٨ هـ بأصبهان

كنيته أبو ليلي ، ولقبه النابغة الجعدى ، وهو قيس بن عبد الله الجعدى ، شاعر مخضرم ، اشتهر بوصف الخليل وإنكار الخمر في الجاهلية وهجر الأزلام والأوثان ، وقد عمر في الاسلام حتى شهد مع عليٍّ وقائع صفين ، وظاهره بيده ولسانه وشخصية الجعدى من الشخصيات الجذابة ، وشعره جميل يزينه الصدق والدقة وعزة النفس . ومن أجمل ما نختاره منه رائيته المشهورة التي مدح بها النبي (ص) حين وفد عليه ، وفيها يقول :

ولا خير في حلم ، إذا لم يكن له بوادر ، تحمى صفوه أن يكذرا

ولا خير في جهل ؛ إذا لم يكن له حلیم - إذا ما أورد الحلم أصدرًا

وهذا أبرع وأشمل من بيت المتنبي الذي اقتبس فيه هذا المعنى فقال :

ووضع الندى - في موضع السيف - بالعلی مضر ، كوضع السيف في موضع الندى

وما أروع ما قاله الجعدى في تلك القصيدة :

وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه فلا تجزعا مما قضى الله ، واصبرا

ألم تريا أن الملامة نفعها قليل ، إذا ما الشيء ولى وأدبرا

تهيج البكاء والندامة ، ثم لا تغير شيئاً غير ما كان قدرا

إلى أن يقول :

وإنا لقوم ، ما تعود خيلنا - إذا ما التقينا - أن تحيد وتنفرا

*

**

وعند ما تولى معاوية الخلافة ، كتب إلى مروان أن يأخذ أهل النابغة وماله ، فدخل النابغة

على معاوية - وعنده مروان - وأنشد أبياتاً ؛ من أروعها وأدناها على إباته وشجاعته ،

وأدقها في تصوير نفسه العالية وشاعريته الفياضة - قوله :

فيقول - ثبَّتَ اللهُ وَطَأْتَهُ - :

« أَمَا نَابِغَةُ بَنِي جَعْدَةَ ، فَقَدْ اسْتَوْجَبَ مَا هُوَ فِيهِ بِالْحَنِيفِيَّةِ^(١) ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا أَمَامَةَ^(٢) فَمَا أَدْرِي مَا جَهْتُكَ ؟ » فيقولُ الذُّيَّانِيُّ^(٣) : « إِنِّي كُنْتُ مُقِرًّا بِاللَّهِ ، وَحَجَجْتُ الْبَيْتَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلِي :

وَإِن تَأْخِذْنَا أَهْلِي وَمَالِي بِظَنَّةٍ فَإِنِّي لِحِرَابِ الرِّجَالِ مُحْرَبٌ
صَبُورٌ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَرْءُ كُلَّهُ سِوَى الظُّلْمِ ، إِنِّي - إِن ظَلَمْتُ - سَأَغْضِبُ
فَارْتَاعَ مَعَاوِيَةَ ، وَالتَفَتَ إِلَى مِرْوَانَ ؛ فَقَالَ : « مَا تَرَى ؟ » قَالَ . « أَرَى الْأَتْرَدَ عَلَيْهِ
شَيْئًا » قَالَ : « مَا أَهْوَنَ وَاللَّهِ عَلَيْكَ أَنْ يَنْجَحِرَ هَذَا فِي غَارٍ ، ثُمَّ يَقَطِعَ عَرْضِي عَلَى ، ثُمَّ تَأْخِذَهُ
الْعَرَبُ فَتُرْوِيهِ ، أَرُدُّدُ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ أَخَذْتَهُ ! »
وَسَتَمُرُ بِكَ تِلْكَ الْمَشَاجِرُ « الْخِيَالِيَّةُ » الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَعَشَى فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ
تَمَثَّلُ شَجَارًا عَنِيْفًا بَيْنَ شَخْصِيَّتَيْنِ مِنْ أَكْبَرِ شَخْصِيَّاتِ الْعَرَبِ إِذْ يَقُولُ الْأَعَشَى لِلْجَعْدِيِّ :
« وَإِنْ بَيْتًا مِمَّا بَنَيْتَ لِيَعْدِلَ بِمِائَةِ مِنْ بَنَائِكَ ! وَإِنْ أَسْهَبْتَ فِي مَنْطِقِكَ . فَإِنَّ الْمَسْهَبَ
كَطَابِطِ اللَّيْلِ ؛ وَإِنِّي لِنِي الْجُرْثُومَةَ مِنْ رِبِيعَةِ الْفَرَسِ ، وَهَلْ جَعْدَةُ إِلَّا رَائِدَةٌ ظَلِيمٌ نَفُورٌ ! »
« أَتُعِيرُنِي مَدْحَ الْمُلُوكِ يَا جَاهِلٌ : وَلَوْ قَدَرْتَ عَلَى ذَلِكَ لَهَجَرْتَ إِلَيْهِ أَهْلَكَ وَوَالِدَكَ ؟
وَلَكِنَّكَ خَلَقْتَ جَبَانًا لَا تَدْخُلُ فِي الظُّلْمَاءِ الدَّاجِيَةِ ، وَلَا تَهْجُرُ فِي الْوَدِيقَةِ الصَّاحِدَةَ »
فِيجِيبُهُ الْجَعْدِيُّ - مَغْضَبًا - :

« اسْكُتْ يَا ضَلُّ بْنُ ضَلٍّ ، فَأَقْسِمُ بِإِنْ دَخَوْلِكَ الْجَنَّةَ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ ؛ وَلَكِنْ الْأَقْضِيَّةُ جَرَتْ
كَمَا شَاءَ اللَّهُ ! لِحَقِّكَ أَنْ تَكُونَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ! وَلَقَدْ صَلَّى بِهَا مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ !
وَلَوْ جَازَ الْغُلَطُ عَلَى رَبِّ الْعِزَّةِ ، لَقَلَّتْ إِنْكَ قَدْ غُلَطَ بِكَ الخ الخ »

(١) بالإسلام (٢) يعني النابغة الذبياني

(٣) النابغة الذبياني (توفي سنة ٦٠٤ م)

هو زياد بن معاوية بن ضباب ، ويكنى : أبا أمامة ، وأبا عقرب ، وأبا ثمامة ، كان يضرب
له قبة بسوق عكاظ يحكم فيها بين الشعراء ، وكان نديم النعمان وقد مدحه بكثير من القبهائد الجميلة

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي قَدْ زُرْتُهُ حِجَجًا^(١) وَمَا هُرَيْقٌ^٢ عَلَى الْأَنْصَابِ^٣ مِنْ جَسَدٍ
وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِدَاتِ^(٥) الطَّيْرِ تَمْسَحُهَا^(٦) رُكْبَانُ مَكَّةَ يَنْعَالِ الْغَيْلِ وَالسَّعْدِ^(٧)

وقولى :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَهَلْ يَا ثَمَنَ ذُو إِمَّةٍ^(٨) وَهُوَ طَائِعٌ

ثم غضب عليه النعمان لوشاية المنخل الشاعر به في وصفه المتجردة امرأة النعمان ، فهرب
النايعة الى بني غسان ، ونزل بعمر بن الحارث الأصغر ، ملك الغساسنة ، فمدحه بقصيدته
الشهيرة التي افتتحها بهذه الأبيات الثلاثة الرائعة :

كِلِينِي لَمْ يَا أَمِيَّةَ نَاصِبٍ وَلَيْلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلُ حَتَّى قَلْتُ : « لَيْسَ بِمَنْقُضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِآئِبٍ »
وَصَدْرُ أَرَاخِ اللَّيْلِ عَازِبٌ هَمُّهُ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

ثم رضى عنه النعمان ، فعاد اليه . ومن أجمل شعره قوله :

قَامَتْ تَرَاوِي بَيْنَ سَجْفِي كَلَّةٍ كَالشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعِهَا بِالْأَسْعَدِ
سَقَطَ النِّصِيفُ - وَلَمْ تَرُدْ إِسْقَاطَهُ - فَتَنَاوَلْتَهُ وَاتَّقِنَا بِالْيَدِ

وقوله :

نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا نَظَرَ السَّقِيمِ إِلَى وَجْهِ الْعُودِ
وَسَتَمَرُ بِكَ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْ شَعْرِهِ وَأَخْبَارِهِ فِي مَوْضِعِهَا

(١) الحجج : السنين . ويروى : « فلا لعمر الذي مسحت كعبته » (٢) أريق وصب

(٣) هي الحجارة التي كانوا يذبحون عليها القرابين حول الكعبة ، ومفردتها نُصْبُ (٤) دم

(٥) اللائذات . أى الطير اللائذات (٦) تتبعها وتمر أيديها عليها بلطف (٧) الغيل

والسعد هنا موضعان ؛ وخلاصة معنى البيتين أنه يقسم بالله الذي حج إلى بيته مراراً ، ويقسم

بما أريق على حجارة الكعبة المقدسة من دماء القرابين ، وبمن أمن طيور تلك الناحية التي

يلاطفها ركبان مكة بين الغيل والسعد ؛ ليثبت للنعمان أنه صادق فيما يقول . (٨) الشريعة والدين

بِمُصْطَحِبَاتٍ مِنْ لَصَافٍ وَثَبْرَةٍ^(١) يَزُرُّنَ الْأَلَا^(٢) سَيْرُهُنَّ تَدَافِعُ^(٣)

وَلَمْ أُذْرِكِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَتَقَوْمَ الْحُجَّةِ عَلَيَّ بِخِلَافِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ - تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - يَغْفِرُ مَا عَظُمَ وَقَلَّ

فَيَقُولُ: « يَا أَبَا سَوَادَةَ وَيَا أَبَا أَمَامَةَ وَيَا أَبَا لَيْلَى ! اجْعَلُوهَا سَاعَةً مُنَادِمَةٍ ، فَإِنْ مِنْ قَوْلِ شَيْخِنَا الْعِبَادِيِّ :

أَيُّهَا الْقَلْبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنْ إِنْ هَمِّي فِي سَمَاعٍ وَأُذُنٌ^(٤)

وَشَرَابٍ خُسْرَوَانِيٍّ إِذَا ذَاقَهُ الشَّيْخُ تَغْنَى وَارْجَحَنَّ^(٥)

فَكَيْفَ لَنَا بِأَبِي بَصِيرٍ^(٦) ؟ » فَلَا تَتِمُّ الْكَلِمَةُ إِلَّا وَأَبُو بَصِيرٍ قَدْ خَمَسَهُمْ^(٧) ، فَيَسْبِغُونَ اللَّهَ وَيُقَدِّسُونَهُ وَيَحْمَدُونَهُ عَلَى أَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمْ ، وَيَتَلَوُّ^(٨) هَذِهِ الْآيَةَ : « وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » فَإِذَا أَكَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ الْجَنَّةِ ، وَشَرِبُوا مِنْ شَرَابِهَا الَّذِي خَزَنَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ ، قَالَ الشَّيْخُ : « يَا أَبَا أَمَامَةَ إِنَّكَ لَخَصِيفٌ^(٩) الرَّأْيِ لَيِّبٌ ، فَكَيْفَ حَسَنَ لَكَ لُبُّكَ أَنْ تَقُولَ لِلنُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ :

(١) لصف وثره ماءان بناحية الشواجن في ديار ضبة بن أد (٢) جبل يعرفات
(٣) المعنى انه يقسم للنعمان ليزيل ما علق بنفسه من الريبة ويمحو منها الأثر السيء الذي خلفته وشايات أعدائه ويؤكد له أنه بار في نفسه وأنه غير حاث في يمينه (٤) اللدن أو اللد : اللهو أو اللعب . والأذن : الاستماع في إعجاب (٥) اهتز وتمائل ، والمعنى : أله أيها القلب وانس همومك فإني مولع بسماع الغناء ومعاقرة ذلك الشراب الخسرواني الذي ينسى الشيخ - حين يشربه - وقار شيخوخته فيتمائل من النشوة راقصاً مغنياً . وقد مرت ترجمة العبادي هذا في ص ٨ (٦) الأعشى ، وقد مرت ترجمته في ص ٢١ (٧) صار خامسهم (٨) أي الشيخ ابن القارح (٩) سديد أو محكم

زَعَمَ الْهُمَامُ بَأْسَ فَأَهَا بَارِدٌ عَذْبٌ ، إِذَا مَا ذُقْتَهُ قُلْتِ : اَزْدَدِ
زَعَمَ الْهُمَامُ - وَلَمْ أَذُقْهُ - بِأَنَّهُ يُشْفِي بِبَرْدِ لَثَائِهَا الْعَطْشَ الصِّدْيَ (١)

ثم استمر بك القول حتى أنكروه عليك خاصة وعامة فيقول النابغة
- بَدَا كَاءٌ وَفَهْمٌ - : « لقد ظلمني من عاب علي ، ولو أنصفتني لعلم أنني اخترت
أشدَّ اخترازا ، وذلك أن النعمان كان مُسْتَهْتَرًا (٢) بتلك المرأة ، فأمرني أن
أذكرها في شعري ، فأدرت ذلك في خلدي ، فقلت : « إن وصفتها وصفاً
مطلقاً ، جاز أن يكون غيرها مُعلَقاً » وَخَشِيتُ أَنْ أَذْكَرَ اسْمَهَا فِي النِّظْمِ
فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مُوَافِقًا لِلْمَلِكِ ، لِأَنَّ الْمُلُوكَ يَأْتِقُونَ مِنْ تَسْمِيَةِ نِسَائِهِمْ ؛ فَرَأَيْتُ
أَنْ أُسْنِدَ الصِّفَةَ إِلَيْهِ ، فَأَقُولُ : (زَعَمَ الْهُمَامُ) إِذْ كُنْتُ لَوْ تَرَكْتُ ذِكْرَهُ لظنَّ
السامعُ أن صفتي على المشاهدة ؛ والأبيات التي جاءت بعدُ داخلة في وصف
الهُمَامِ ، فَمَنْ تَأَمَّلَ الْمَعْنَى وَجَدَهُ غَيْرَ مُخْتَلٍ . وَكَيْفَ يُنْشِدُونَ : « وَإِذَا نَظَرْتُ
رَأَيْتَ أَقْمَرَ مُشْرِقًا » وَمَا بَعْدَهُ ؟ » فيقول الشيخ : « يُنْشِدُ : وَإِذَا نَظَرْتُ ،
وَإِذَا لَمَسْتُ ، وَإِذَا طَعَنْتَ ، وَإِذَا نَزَعْتَ ، عَلَى الْخُطَابِ » فيقول النابغة :
« قَدْ يَسُوعُ هَذَا ، وَلَكِنَّ الْأَجُودَ أَنْ تَجْعَلُوهُ إِخْبَارًا عَنِ الْمُتَكَلِّمِ ، لِأَنَّ قَوْلِي :
« زَعَمَ الْهُمَامُ » يُوَدِّي مَعْنَى قَوْلِنَا : « قَالَ الْهُمَامُ » فَهَذَا أَسْلَمٌ ، إِذْ كَانَ الْمَلِكُ إِنَّمَا يَحْكِي

(١) الشديد الظأ ؛ والمعنى أن الملك النعمان حكى لنا أن رضاب زوجه المتجردة لذيذ
حلو الطعم ، كلما ارتشفته ازددت هيأماً به واندفاعاً إلى رشفه ، فإذا تذوقته وقد أجهدك
العطش أزال ظمأك وأثلج صدرك ، ذلك هو ما يحكيه لنا المليك أرويه عنه ، وإن كنت
لم أذقه (٢) متفانياً في حبها .

عن نفسه . وإذا جعلتموه على الخطاب قبح ؛ إن نسبتموه إلى فهو مندية^(١) ،
وإن نسبتموه إلى الثعمان فهو إزرال وتقص^(٢) .

فيقول : « لله درك يا كوكب بني مرة ! ولقد صصف عليك أهل العلم
من الرواة ، وكيف لي بأبوي عمرو المازني والشيباني ، وأبي عبيدة ،
وعبد الملك وغيرهم من النقلة ، لأسألهم كيف يزؤون ، وأنت شاهد ؛ لتعلم
أني غير المتخرض^(٣) ولا الولاغ^(٤) » فلا يقر هذا القول في حذنة^(٥)
أبي أمامة^(٥) إلا والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر من غير مشقة نالهم ،
ولا كلفة في ذلك أصابهم ؛ فيسامون بلطف ورفق ، فيقول :

« من هذه الشخوص الفردوسية ؟ »

فيقولون : « نحن الرواة الذين شئت إحصارهم آفأ » فيقول : « لا إله إلا الله !
كيف تزؤون قول النابغة في الدالية : وإذا نظرت ، وإذا لمست ، وإذا طعنت ،
وإذا نرعت : أفتح التاء أم بضمها ؟ » فيقولون : « بفتحها » فيقول : « هذا شيخنا
أبو أمامة يختار الضم ، ويخبر أنه حكاة عن الثعمان » فيقولون : « هو كما جاء في
الكتاب الكريم : « والأمر إليك ، فانظري ماذا تأمرين ؟ »

فيقول الشيخ : « مضى الكلام في هذا يا أبا أمامة ، فأنشدنا كلكم
التي أولها :

(١) المندية : الكلمة يعرق منها الجبين (٢) الكاذب (٣) الذي لا يبالي بالمذام

(٤) أذن (٥) النابغة الديباني وقدمت ترجمته في ص ٣٩

أَقَامَتْ بِهَا فِي الْمَرْبِيعِ (٣) الْمُتَجَرِّدَةَ (٤)
بِدُرٍّ وَيَأْقُوتِ لَهَا مُتَقَلِّدَةً
مُجَابَجَةً (٦) نَحَلٌ فِي كُمَيْتٍ (٧) مُبَرَّدَةً
لَهُ نِعْمَةٌ فِي شَكْلِ يَوْمٍ مُجَدِّدَةٍ (٨)

أَيُّهَا عَلَى الْمَطْوُورَةِ (١) الْمُتَأَبِّدَةِ (٢)
مُضْمَخَةٌ بِالسِّكِّ مَخْضُوبَةٌ الشَّوَى (٥)
كَأَنَّ ثَنَائِيهَا - وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهَا -
لِيَقْرُرَ بِهَا النُّعْمَانُ عَيْنًا ، فَإِنَّهَا

فَيَقُولُ أَبُو أَمَامَةَ : « مَا أَذْكَرُ أَنِّي سَلَكْتُ هَذَا الْقَرِيَّ (٩) قَطُّ » فَيَقُولُ مَوْلَايُ
الشَّيْخُ : « إِنَّ ذَلِكَ لَعَجَبٌ ! فَمِنَ الَّذِي تَطَوَّعَ فَتَسَبَّهَا إِلَيْكَ ؟ » فَيَقُولُ : « إِنَّهَا
لَمْ تُنْسَبْ إِلَيَّ عَلَى سَبِيلِ التَّطَوُّعِ ، وَلَكِنْ عَلَى مَعْنَى الْغَلَطِ وَالتَّوَهُّمِ ؛ وَلَعَلَّهَا لِرَجُلٍ
مِنْ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدٍ » فَيَقُولُ نَابِغَةُ بِنِي جَعْدَةَ : « صَحْبِنِي شَابٌّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
وَنَحْنُ نَزِيدُ الْحَيْرَةِ ، فَأَنْشَدَنِي هَذِهِ الْقَصِيدَةَ لِنَفْسِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ ابْنُ ثَعْلَبَةَ ،
وَصَادَفَ قُدُومَهُ شَكَاةً (١٠) مِنَ النُّعْمَانِ ، فَلَمْ يَصِلْ بِهَا إِلَيْهِ » فَيَقُولُ نَابِغَةُ بِنِي ذِيانَ :
« مَا أَجْدَرَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ! »

(١) الأَرْضُ الَّتِي أَصَابَهَا مَطَرٌ (٢) الَّتِي سَكَنَهَا الْوَحُوشُ (٣) مَحَلُّ الْإِقَامَةِ فِي الرَّبِيعِ
(٤) اسْمُ امْرَأَةِ النُّعْمَانِ (٥) الْأَطْرَافُ ، وَمَخْضُوبَةٌ الشَّوَى أَيُّ مَلُونَةٍ أَطْرَافُهَا بِالْحِنَاءِ (٦) رِيقُ
(٧) خَمْرٌ (٨) الْمَعْنَى : عَرَجًا عَلَى تِلْكَ الْأَرْضِ الَّتِي جَادَهَا الْغَيْثُ بِسَقْيَاهُ ، حَيْثُ تَقِيمُ الْمُتَجَرِّدَةُ
زَوْجَ النُّعْمَانِ الَّتِي يَنْعَمُ بِحَسَنِهَا الدَّائِمِ التَّجَدُّدِ كُلِّ يَوْمٍ وَالَّتِي تَضْمَخَتْ بِالسِّكِّ ، وَخَضِبَتْ أَطْرَافَهَا
بِالْحِنَاءِ ، وَتَقَلَّدَتْ بِاللُّرِّ ، وَمِثْلُ طَعْمِ رَيْقِهَا - وَإِنْ كُنْتَ لَمْ أَذْقه - شَهْدًا مِمزُوجًا بِخَمْرٍ بَارِدٍ .
وَهَذِهِ آيَاتٌ تَبْدُو عَلَيْهَا مَسْحَةُ التَّكْلِيفِ وَالبَعْدِ عَنِ الْأَسْلُوبِ الْجَاهِلِيِّ لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِأَدْنَى
تَأَمُّلٍ ، وَنَرَجِّحُ أَنَّهَا مِنْ مَخْتَلِقَاتِ الرَّوَاةِ - وَمَا أَكْثَرُهَا - وَهِيَ عِنْدَنَا تَقْلِيدٌ غَيْرُ مَتَقِنٍ لِلدَّالِيَةِ
النَّابِغَةِ الَّتِي وَصَفَ فِيهَا الْمُتَجَرِّدَةَ زَوْجَ النُّعْمَانِ ، وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي ص (٤٢) مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
(٩) قَرِيٌّ الْمَاءُ : مَسِيلُهُ . وَالْمُرَادُ هُنَا : الطَّرِيقُ أَوِ الْمَذْهَبُ (١٠) الشَّكَاةُ : الْمَرَضُ ، أَوْ أَهْوَنُهُ

مجلس غناء

ويُرُّ رَفٌّ^(١) من إوز الجنة، فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة، ويقف وقوف منتظر لأمر، ومن شأن طير الجنة أن يتكلم.

فيقول: « ما شأنكنا ا » فيقلن: « ألهمنا أن نسقط في هذه الروضة فنغني لمن فيها من شرب » فيقول: « على بركة الله القدير » فينتفضن فيصرن جوارى كواعب، يرقلن^(٢) في وشي^(٣) الجنة، وبأيديهن المزاهر^(٤) وأنواع ما يلمس به الملاحى؛ فيعجب - وحق له العجب - وليس ذلك ببديع من قدرة الله جلّت عظمتة. فيقول لإحداهن على سبيل الامتحان: « اعملى قول أبي أمانة - وهو هذا القاعد - :

أَمِنْ أَلِ مِيَّةٍ رَائِحٍ^(٥) أَوْ مُغْتَدٍ^(٦) عَجْلَانَ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مُزَوِّدٍ

ثَقِيلًا أَوَّلَ » فتصنعه، فتجىء به مطرباً، وفي أعضاء السامع متسرباً؛ ولو نُحِتَ صَمٌّ من أحجار، ثم سمع ذلك الصوت لرقص، فيقول: « هلم خفيف الثقيل الأول » فتبعث فيه بنغم لو سمعه الغريض^(٧)، لآقر أن ما ترنم به مريض؛ فإذا أجادته، قال: « عليك بالثقيل الثاني » فتأتى به، فإذا رأى ذلك قال: « سبحان الله! كلما كشفت القدرة بدت لها عجائب، فصيرى إلى خفيف الثقيل الثاني، فإنك لمجيدة محسنة » ثم يقترح عليها الرمل وخفيفه، وأخاه الهزج،

(١) سرب (٢) يتخيلن أو يتبخترن (٣) حرير (٤) جمع مزهر، وهو نوع من آلات الطرب (٥) عائد وقت المساء (٦) ذاهب وقت الغداة أى الضحى (٧) المغنى الحاذق. وهو هنا اسم مغن معروف

فإذا تيقن لها حذاقةً ، وعرف منها بالعودِ لباقةً ، هَلَلَّ وَكَبَّرَ ، وَأَطَالَ حَمْدَ رَبِّهِ
وَاعْتَبَرَ ، وقال : « وَيْحَكَ ! أَلَمْ تَكُونِ السَّاعَةَ إِوْزَةً طَائِرَةً ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ
هَذَا الْعِلْمُ ؟ لَوْ نَشَأْتَ بَيْنَ مَعْبِدٍ وَابْنِ سُرَيْجٍ ، لَمَا هِجَبْتَ السَّامِعَ بِهَذَا الْهَيْجِ !
فَكَيْفَ نَفَضْتَ عَنْكَ بَلَهَ الْإِوْزِ ؟ » فتقولُ : « وما الذي رَأَيْتَ مِنْ قُدْرَةِ
بَارِئِكَ ؟ إِنَّكَ عَلَى سَيْفٍ ^(١) بَحْرٍ ، لَا يُدْرِكُ لَهُ عِبرٌ ^(٢) ، سُبْحَانَ مَنْ يُحْيِي
الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ! »

حديث لبيد ^(٣)

فإنما هم كذلك ، إذ مرَّ شابٌ

(١) السَّيْفُ : الشَّاطِئُ ^(٢) العبر : الساحل الآخر

(٣) لبيد

توفي سنة ٦٨٠ م .

هو من بني عامر بن صعصعة ، وأمه عبسية .

عاش نحو ١٤٥ سنة ، أكثرها في الجاهلية ، وأسلم وهو في التسعين من عمره ، وصحب
النبي (ص) في هجرته إلى المدينة ، ومات - في أواخر خلافة معاوية - بالكوفة .

كان بين قبيلته وبنو عبس أخواله عداوة شديدة ، فاجتمع وفداهما عند النعمان ابن المنذر ،
وكان على العبسين الربيع بن زياد ، وعلى العامريين ملاعب الأسنه ، عم لبيد ؛ وكان
الربيع مقرَّباً عند النعمان يؤاكله ويناديه ؛ فأوغر صدره على العامريين ، فلما دخل وفداهم على
النعمان ، أهملهم ؛ فخرجوا غضاباً ، فسألهم لبيد عن أمرهم - وكان يومئذ صغيراً يرعى إبلهم
ويسرحها - فاحتقروه لصغرهم ، فلما ألح عليهم أشركوه معهم ، فوعدهم بالانتقام لهم
ثم هجا الربيع بأبيات مشهورة كرهت فيه النعمان .

*

**

وقد هجر الشعر في الإسلام ، واستعاض عنه بقراءة القرآن ، ومن مختار شعره قوله في رثاء
أخيه لأمه ، وكان اسمه أربد - وقد بكى المعتصم حين سمع هذه القصيدة - :

..... في يده

وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
ففارقني جار بأربد نافع
فكل امرئ يوما له الدهر فاجع
يحور رمادا - بعد ما هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع
يتبر ما يبنى ، وآخر رافع
ومنهم شقى بالمعيشة قانع
لزوم العصا تمنى عليها الأصابع
أدب كأني كلما قت راع
تقدم عهد القين . والنصل قاطع
علينا ، فدان للطلوع وطالع
إذا رحل السفار ، من هو راجع
وأى كريم لم تصبه القوارع ؟
ولا زاجرات الطير ، ما الله صانع

بلينا ، وما تبلى النجوم الطوالع
وقد كنت في أكناف دار مضمنة
فلا جزع - إن فرق الدهر بيننا -
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ،
وما المرء إلا مضمرات من التقى
وما الناس إلا عاملان ، فعامل
فمنهم سعيد أخذ بنصيبه
أليس ورأى - إن تراخت منيتي -
أخبر أخبار القرون التي مضت
فأصبحت مثل السيف - أخلق جفته
فلا تبعدن ، إن المنية موعد
أعاذل ! ما يدريك - إلا تظنيا -
أتمجزع مما أحدث الدهر بالفتى ؟
لعمرك ، ما تدري الضوارب بالحصى

وقوله :

أنحب فيقضى ؟ أم ضلال وباطل ؟
ويقتي إذا ما أخطأته الجبائل
قضى عملا ، والمرء - ما عاش - عامل
أما يعظك الدهر ؟ أمك هابل !
ولا أنت مما تحذر النفس وائل
لعلك تهديك القرون الأوائل
وذيون معد ، فلتزعك العواذل
بلى كل ذي رأى إلى الله واسل

الا تسألان المرء ، ماذا يحاول ؟
جبائله مبثوثة في سبيله
إذا المرء أسرى ليلة ، خال أنه
فقولا له - إن كان يقسم أمره -
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم :

وكل نعيم - لا محالة - زائل
دويهيّة تصفر منها الأنامل
إذا كشفت عند الإله الحصائل

وصال عقد حبال جدامها
أو يعتلق بعض النفوس حمامها
طلق لذيذ طوها وندامها
وافيت إذ رفعت وعز مدامها

منا ليزازُ عظيمة جسامها
ومغذمر لحقوقها هضامها
ولكل قوم سنة وإمامها
اذ لا يميل مع الهوى أحلامها
قسم الخلائق بيننا علامها
سمح كسوب رغائب غنامها
أوفى بأوفر حظنا قسامها
فما إليه كهلهما وغلماها
وهم فوارسها ، وهم حكامها
والمرمات إذا تطاول عامها

وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر؟
فلا تخمشا وجهاً ، ولا تحلقا شعر
مضاعاً ، ولا خان الصديق ولا غدر»

ألا كل شيء ما خلا الله - باطل
وكل أناس سوف تدخل بينهم
وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه

وقوله من معلقته الرائعة :

أو لم تكن تدري « نوار » بأننى
تراك أمكنة إذا لم أرضها
بل أنت لا تدريين كم من ليلة
قد بت سامرها ، وغاية تاجر

إننا - إذا التقت الجماع - لم يزل
ومقسم يعطى العشيّة حقها
من معشر سنت لهم آباؤهم
لا يطبعون ولا يبور فعالمهم
فانقع بما قسم المليك فإنما
فضلا وذو كرم يعين على الندى
وإذا الأمانة قسمت فى معشر
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه
وهم السعاة إذا العشيّة أفضعت
وهم ربيع للمجاور فيهم

وقوله :

تمنى ابتئى أن يعيش أبوهما
إذا حان يوماً أن يموت أبوكا
وقولا : « هو المرء الذى ليس جاره

مُحَجَّنٌ^(١) ياقوت، فيسلم عليهم، فيقولون: « مَنْ أَنْتَ ؟ » فيقول: « أنا لبيدٌ
ابنُ ربيعة بنِ مالك بنِ جعفر بنِ كليبٍ » فيقول: « أَكْرَمْتَ، أَكْرَمْتَ،
لو قلتَ لبيدٌ وسكتَ، لَشَهَرْتَ بِاسْمِكَ، فما بالكَ في مغفرةِ رَبِّكَ ! » فيقول:
« أنا بِحَمْدِ اللَّهِ في عيشٍ قَصَرَ أن يصفهُ الواصفونَ، لا هَرَمَ ولا بَرَمَ ! »
فيقولُ الشيخُ: « تَبَارَكَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ، ومن لا تدركُ يقينَهُ الخُدُوسُ^(٢)،
كَأَنَّكَ لم تَقُلْ في الدارِ الفانيَّةِ:

« وَلَقَدْ سَمِمْتُ مِنْ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ: كَيْفَ لَيْدٌ ؟ »
ولم تَقُ بِقَوْلِكَ:

« فَتَى أَهْلِكَ فَلَا أَحْفَلُهُ^(٣) بَجَلِي^(٤) الْآنَ مِنَ الْعَيْشِ بِجَلٍ
مِنْ حَيَاةٍ قَدْ مَلَلْنَا طُولَهَا وَبَجْدِيرٍ طُولُ عَيْشٍ أَنْ يُمَلَّ^(٥) »
فَأَنشِدْنَا مِيمَتِكَ المعلقةَ، فيقولُ: « هيهاتَ، إِنِّي تركتَ الشَّعْرَ في الدارِ
الخادعةِ، ولن أعودُ إليه في الدارِ الآخرةِ، وقد عُوِّضْتُ ما هو خَيْرٌ وَأَبْرُّ »
فيقولُ: « أَخْبَرَنِي عن قَوْلِكَ:

تَرَكَ أُمَّكِنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضَ النُّفُوسِ حَمَامَهَا

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر
وسيمر بك طرف من أخباره وأشعاره في الرسالة .

(١) العصا المنعطفة الرأس كالصولجان

(٢) الظنون (٣) أي فلا أبالي (٤) بَجَلِي : حسبي وكفاني

(٥) خلاصة معنى البيتين هو: « متى وافاني أجلى لم أكرث له، فقد طالت

حياتي، فمليت العيش » .

هل أَرَدْتَ بعضٍ معنى كلِّ؟» فيقولُ لبيدٌ: «كلا . إنما أَرَدْتُ نفسي ، وهذا كما تقولُ لِلرَّجُلِ : إذا ذهبَ مالُكَ ، أعطاكَ بعضُ الناسِ مالاً . وأنتَ تعني نفسك في الحقيقة . وظاهرُ الكلامِ واقعٌ على كلِّ إنسانٍ ، وعلى كلِّ فِرقةٍ تكونُ بعضاً للناسِ »

فيقولُ : « أخبرني عن قولك : « أَوْ يَرْتَبِطُ » هل مقصِدُك : إذا لم أرضها أو لم يرتبط ؟ أم غرضك أترك المَنازلَ أو يرتبط ، فيكون « يرتبط » كالمحمولِ على قولك تَرَكَ أَمَكْنَةً ؟ » فيقولُ لبيدٌ : « الوجهُ الأولُ أَرَدْتُ »

غناء الحور

ويخطرُ له غِناءُ القِيانِ بالفُسطاطِ ومدينةِ السلامِ ، ويذكرُ ترَجيعَهنَّ بِمِيميَّةِ المخبَلِ السعدِيِّ ، فتندفعُ تلكَ الجوارى التي تَقَلتْهُنَّ القُدرةُ من خَلقِ الطيرِ إلى خَلقِ الحورِ ، تُلحِّنُ قولَ المخبَلِ السعدِيِّ :

« ذَكَرَ الرَّبَّابَ ، وَذَكَرْهَا سَقَمٌ وَصَبَا ، وَوَلَيْسَ لِمَنْ صَبَا عَزَمٌ

وَإِذَا أَلَمَّ خَيْالُهَا طَرِفتُ عَيْنِي فَمَا شُئُونِهَا (١) سَجَمٌ (٢)

كَالْوُلُوِّ الْمَسْجُورِ (٣) تُوبِعَ فِي سِلَكِ النَّظَامِ نَفَانَهُ النَّظْمِ (٤) »

فلا يمرُّ حرفٌ ولا حركةٌ إلا ويوقعُ مَسْرَةً لو عُدِلَتْ بِمَسراتِ أهلِ العاجلةِ — منذ خلقَ اللهُ آدمَ إلى أن طوى ذُرِيَتَهُ — لكانت الزائدةُ على ذلك زيادةً

(١) الشئون : مجازي الدموع (٢) مسكوب (٣) المنظوم (٤) تذكر الرباب فشجاه ذكرها ، وحن إليها فخارت قواه ووهن عزمه ، وألم به خيالها فسحت عيناه بالدموع كما انفردت عقد من اللؤلؤ المنظوم فتساقط متتابعاً

اللُّجُّ المَتَمَوِّجُ على دَمْعَةِ الطِّفْلِ ، وَالهَضْبُ (١) الشَّامِخُ على الهَبَاءِ (٢) المُتَفَضِّضَةِ .
وَيَقُولُ لِنُدْمَائِهِ : « أَلَا تَسْمَعُونَ قَوْلَ السَّعْدِيِّ (٣) :

« وَتَقُولُ عَاذِلَتِي - وَلَيْسَ لَهَا بَعْدِي وَلَا مَا بَعْدَهُ عِلْمٌ :

(١) الهضب : المرتفع من الأرض ، أو الجبل المنبسط ، أو كل جبل خلق من صخرة واحدة .
(٢) الهباءة : القطعة من الهباء ، وهو الغبار يشبه الدخان ويرى منبثاً في ضوء الشمس .
وقد وهم بعض الكتاب فظن أن المراد بالهباءة هنا : الأرض ، ومنها هباءة غطنان .
والصواب ما ذكرنا ، ويؤيده قول المعري : المتفضضة ، فهذا يقطع الشك

(٣) الخبيل السعدي

اسمه ربيعة بن مالك ، وقبيلته بنو شماس من ولد أنف الناقة ، ومما رواه صاحب كتاب
« الشعر والشعراء » عن الخبيل هذا أنه هجا الزبرقان بن بدر ، وذكر أخته خليدة ، ثم مر بها
- بعد حين - وقد أصابه كسر ، وهو لا يعرفها ، فأوته وجبرت كسره ، فلما عرفها قال :

« لَقَدْ ضَلَّ حَلْمِي فِي خَلِيدَةَ ضَلَّةً سَأَعْتَبَ نَفْسِي - بَعْدَهَا - وَأَتُوبُ

وَأَشْهَدُ - وَالْمُسْتَغْفِرُ اللَّهَ - أَنِّي كَذَبْتُ عَلَيْهَا ، وَالْهَجَاءُ كَذُوبٌ »

وهذا ندم حار يدل على توبة صادقة وضمير شريف يتأثر بالصنيع ويعترف بالجميل ،
وقل من الناس من يخلص في ندمه ، ويعترف بخطئه

ومن خير ما اختاره له « ابن قتيبة » صاحب ذلك الكتاب النفيس « الشعر والشعراء » قوله :

« فَإِنْ يَكُ غَضَنِي أَصْبَحَ الْيَوْمَ ذَاوِيَا وَغَضَنُكَ مِنْ مَاءِ الشَّبَابِ رَطِيبٌ

فَأِنِّي حَتَّى ظَهَرِي حَوَانُ تَرَكْنَاهُ عَرِيشًا ، فَمَشِي فِي الرِّجَالِ دَيْبٌ

وَمَا لِلْعِظَامِ الرَّاجِفَاتِ مِنَ الْبَلِي دَوَاءٌ ، وَمَا لِلرِّكْبَتَيْنِ طَبِيبٌ

إِذَا قَالَ أَصْحَابِي : « رَيْعٌ ! أَلَا تَرَى ؟ » أَرَى الشَّخْصَ كَالشَّخْصِينَ وَهُوَ قَرِيبٌ (١)

فَلَا يَعْجَبُكَ الْمَرْءُ ، إِنْ كَانَ ذَا غَنَى سَتَرَكَ الْأَيَّامُ - وَهُوَ حَرِيبٌ

وَكَأَنَّ تَرَى - فِي النَّاسِ - مِنْ ذِي بَشَاشَةٍ وَمَنْ شَأْنُهُ الْإِقْتَارُ - وَهُوَ نَجِيبٌ

(١) انظر الى افتنان ابن الرومي في أداء هذا المعنى في داليتة الرائعة التي رثى بها شبابه ، فقال :

وبورك طرفي ، فالشخوص حباله قرأتين ، من أدنى مدى ، وهي فرد

« ارجع الى ديوان ابن الرومي » ج ٣ من ص ٣٩٠ - ٣٩٤ « وانظر ص ٦٤ من هذا الجزء

« إِنَّ الثَّرَاءَ ^(١) هُوَ الْخُلُودُ وَإِنَّ
الْمَرْءَ يَكْرُبُ ^(٢) يَوْمَهُ الْعُدْمُ »
وَلَتُنَّ بَنِيَّتِ لِي الْمَشْقَرِ ^(٣) فِي
عَنْقَاءِ ^(٤) تَقْصُرُ دُونَهَا الْعُصْمُ ^(٥)
لَتَنْقِبَنَّ عَنِّي الْمُنِيَّةُ ، إِنَّ
اللَّهَ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمٌ ^(٦) »

فيقول : « إِنَّهُ الْمِسْكِينُ قَالَ هَذِهِ الْأَيَّاتُ وَبَنُو آدَمَ فِي دَارِ الْمَحْنِ وَالْبَلَاءِ ،
وَالْوَالِدَةُ تَخَافُ الْمُنِيَّةَ عَلَى الْوَلَدِ ، وَالْفَقْرُ يُرْهَبُ وَيُتَّقَى ، وَالْمَالُ يُطْلَبُ وَيُسْتَبَقَى .
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحُزْنَ ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ
الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ، لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ^(٧) . فَتَبَارَكَ اللَّهُ
الْقُدُّوسُ ، نَقَلَ هَؤُلَاءِ الْمُسْمِعَاتِ ^(٨) ، مِنْ زِيِّ رَبَّاتِ الْأَجْنَحَةِ ^(٩) ، إِلَى زِيِّ رَبَّاتِ
الْأَكْفَالِ الْمُرْجِحَةِ ^(١٠) ، ثُمَّ أَلْهَمُنَّ بِالْحِكْمَةِ حِفْظَ أَشْعَارٍ لَمْ تَمُرُّ قَبْلُ بِمَسَامِعِنَّ ،
فَجِئْنَا بِهَا مُتَقَنَةً ، مَحْمُولَةً عَلَى الطَّرَائِقِ مُلَحَّنَةً ! . وَلَقَدْ كَانَتْ الْجَارِيَةُ فِي الدَّارِ
الْعَاجِلَةِ إِذَا تُفْرِسَّتْ فِيهَا النَّجَابَةُ ، وَأَحْضَرَتْ لَهَا الْمُلَحَّنَةَ لِيُتَلَّقَى إِلَيْهَا مَا تَعْرِفُ

(١) فِي نَسْخَةِ الْبِيَازِجِيِّ : « إِنَّ الثَّوَاءَ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ ظَاهِرٌ ! (٢) يَدْنِي أَجْلَهُ
وَيَقْرَبُ يَوْمَهُ (٣) هُوَ مَكَانٌ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ (٤) سَامِقَةٌ شَدِيدَةُ الْعَلْوِ ، وَهِيَ صِفَةٌ
لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ هُوَ كَلِمَةٌ « قَنَّةٌ » (٥) جَمْعُ أَعْصَمٍ ، وَهُوَ الْوَعْلُ (٦) مَعْنَى الْأَيَّاتِ :
تَلْحَانِي عَادَلْتِي عَلَى كَرَمِي ، لِأَنَّهَا تَرَى فِي الْغَنَى كُلَّ مَعَانِي الرَّاحَةِ وَالْخُلُودِ ، وَتَرَى الْإِنْسَانَ إِذَا
صَفَرَتْ يَدَهُ مِنَ الْمَالِ أَسْوَدَ عَيْشِهِ وَارْتَبَكَ أَمْرَهُ ، وَهَذَا لِعَمْرِي رَأَى مَا فَوَّنَ دَفَعَهَا إِلَيْهِ قَصْرَ
نَظَرِهَا وَجَهْلَهَا بِالْغَدِّ ، وَلَوْ أَنَّهَا رَشِدَتْ لَعَلِمَتْ أَنَّ كُلَّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ زَخْرَفٍ وَزِينَةٍ عَبَثٌ
وَضَلَالٌ ، وَأَنَّ الْمَوْتَ سَيَبْخُمُ هَذِهِ الْحَيَاةَ الْخَادِعَةَ ، فَلَا تَصْدَهُ عِنَّا قَنَّةٌ سَامِقَةٌ نَلُودُ بِهَا فِي كَنْفِ
جَبَلِ شَاهِقٍ ، وَلَا تَفْلَتُنَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ حِيلَةً ، وَإِذْنِ فَمَا قِيَمَةُ الْمَالِ نَدْخَرُهُ وَنَبْخُلُ بِهِ ؟ ؟ وَمَنْ
لِعَادَلْتِي بِأَنْ تَدْرِكَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فَتَعْذِرْنِي وَتَكْفِ عَن لَوْمِي ! (٧) اللُّغُوبُ : شِدَّةُ التَّعَبِ
وَالْإِعْيَاءِ (٨) الْمَغْنِيَّاتِ (٩) الطَّيُورِ (١٠) النِّسَاءِ

من ثقيلٍ وخفيفٍ ، تُقيمُ معها الشهرَ والشَّهْرَيْنِ قبلَ أن تُلقنَ بيتًا من الغزلِ
أو بيتينِ ، ثم تُعطى المِائَةَ أو المِائَتَيْنِ ، فسبحان القادرِ ! » .

مشاجرةُ الجعديِّ والأعشى

ويقولُ نابغةُ بنى جَعْدَةَ - وهو جالسٌ يَسْتَمَعُ - : « يَا أَبَا بَصِيرٍ ! أهذه
الرَّ بَابُ التي ذكرها السَّعْدِيُّ هي رَبَّابُك التي ذكرتها في قولك :

« بِعَاصِيِ الْعَوَازِلِ طَلَقِ الْيَدَيْنِ يُعْطَى الْجَزِيلَ وَيُرْخِي الْإِزَارَا
فَمَا نَطَقَ الدِّيكُ حَتَّى مَلَا تِ كُوبَ الرَّبَّابِ لَهُ ، فَاسْتَدَارَا
إِذَا انْكَبَّ ازْهَرُ^(١) بَيْنَ الشَّقَا ةِ ، تَرَامُوا بِهِ غَرَبًا أَوْ نُضَارَا^(٢) »

فيقولُ أبو بَصِيرٍ^(٣) : « قد طالَ عُمرُكَ يَا أَبَا لَيْلَى ، وَأَحْسَبُكَ أَصَابَكَ
الْقَنْدُ^(٤) ، فَبَقِيتَ عَلَيَّ فَتَدِيكَ إِلَى الْيَوْمِ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَوَاتِي يُسَمَّيْنَ بِالرَّبَّابِ
أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَيْنَ ؟ أَفَتَظُنُّ أَنَّ الرَّبَّابَ هَذِهِ هِيَ التي ذكرها القائلُ :

(١) الأزهر : إبريق الخمر ، قال عنتره :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر في الشمال المقدم

أى شربت الخمر بعد أن سكن قيظ الهواجر الشديد ، بالقدح الجلو المنقوش بزجاجة صفراء
مخططة قرنتها بإبريق مسدود الرأس بالفدام (٢) الغرب : الفضة ، أو القدح أو الجام الفضي
أو الذهب . ومعنى الأبيات أنه حل بساحة كريم ينفق المال غير مصيخ لعذل اللاتمات ويمشى
متبخرًا ، وأنه نادمه وقت السحر فما أذن ديك الصباح حتى دارت الكؤوس ، وكان الندامى
لفرط سروره بالخمر لا يكاد يوضع إبريق مدامة حتى يتراموا به متهافتين على الشراب .

(٣) كنية الأعشى وتقدمت ترجمته في ص ٢١ من هذا الجزء (٤) الخرف : أفن الرأي والضلال

مَا بَالُ قَوْمِكَ يَا رَبَّابُ خُزْرًا^(١) كَأَنَّهُمْ غِضَابُ
فَارُوا عَلَيْكَ ، وَكَيْفَ ذَا لِكَ وَدُونِكَ الْخُرْقُ^(٢) الْيَبَابِ^(٣)
أَوِ الَّتِي ذَكَرَهَا امْرُؤُ الْقَيْسِ فِي قَوْلِهِ :
دار لهندٍ والربابِ وفرتني ولَمَيْسٍ ، قبل حوادث الأيام «

فَيَقُولُ نَابِغَةُ بِنْتُ جَعْدَةَ : « أَتَكَلَّمُنِي بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ يَا خَلِيعَ بِنْتُ ضُبَيْعَةَ ،
وَقَدِ مِتَّ كَافِرًا وَأَقْرَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْفَاحِشَةِ ، وَأَنَا لَقِيتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَنْشَدْتُهُ كَلِمَاتِي الَّتِي أَقُولُ فِيهَا :

« بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاوُنَا^(٤) وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا^(٥) »

فَقَالَ لِي : « إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَى ؟ » فَقُلْتُ : « إِلَى الْجَنَّةِ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! »
فَقَالَ : « لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَالَكَ ! »

أَغْرَكَ أَنْ عَدَّكَ بَعْضُ الْجُهَّالِ رَابِعَ الشُّعْرَاءِ الْأَرْبَعَةِ — وَكَذَبَ مُفَضِّلَكَ —
وَإِنِّي لَأَطُولُ مِنْكَ نَفْسًا ، وَأَكْثَرُ تَصَرُّفًا ، وَلَقَدْ بَلَغْتُ — بَعْدَ الْبُيُوتِ —
مَا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ قَبْلِي ، وَأَنْتِ لَاهٍ بِعَفَارَتِكَ^(٦) تَفْتَرِي عَلَى كِرَائِمِ
قَوْمِكَ ، وَإِنْ صَدَقْتَ نِحْزِيًّا لَكَ وَلِمُقَارِكَ^(٧) «

(١) الخزر: ضيق العين (٢) الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح (٣) اليباب: الخراب
حيث لا يقيم أحد ، ومعنى البيتين : « ما الذي أسخط قومك فضاقت أعينهم من الغضب
والنظر الشزر ، أيغارون عليك من الأعداء والمغيرين وبينك وبين الناس تلك الصحراء
الواسعة التي لا يسكنها إنسان وهي وحدها كفيلة بحمايتك منهم ؟ » (٤) رفعتنا (٥) مكاناً
نصعد إليه (٦) العفارة: الخبث والسكر ، وهي أيضاً تلقيح النخل وإصلاحه ، والمقصود هنا
المعنى الأول ، أي أنك كنت لاهياً بأضاليلك وأعمالك الخبيثة (٧) مُخَالِطِكَ

فيغضب أبو بصير، فيقول: « أتقول هذا، وإن بيتا مما بنيت ليعدل بمائة من بنائك؟ وإن أسهبت في منطقك، فإن المسهب كحطب الليل. وإني لفي الجرثومة^(١) من ربيعة الفرس، وهل جعدة إلا رائدة ظليم^(٢) تفور؟ أتعيرني مدح الملوك يا جاهل؟ ولو قدرت على ذلك لهجرت إليه أهلك وولدك. ولكنك خلقت جباناً، لا تدليج^(٣) في الظماء الداجية، ولا تهجر^(٤) في الوديقة^(٥) الصاخدة^(٦) »

فيقول الجعدي: « اسكت يا ضل بن ضل، فأقسم إن دخولك الجنة من المنكرات، ولكن الأفضية جرت كما شاء الله! لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار، ولقد صلى بها من هو خير منك. ولو جاز الغلط على رب العزة، لقلت: إنك غلط بك، ألسنت القائل:

« فدخلت - إذ نام الرقيب - فبت دون ثيابها

حتى إذا ما استرسلت للنوم بعد لعابها^(٧)

قسمها نصفين كمل مسود^(٨) يرمي بها^(٩)

فثنت جيد غريرة^(١٠) ولمست بطن حقاها^(١١)

كاللحقة^(١٢) الصفراء صا كعبيرها^(١٣) عبيرها^(١٤) بملاها^(١٥)

(١) الصميم (٢) ذكر النعام (٣) لا تسير ليلاً (٤) لا تسير في الهاجرة

(٥) الوديقة: شدة الحر، والمراد هنا وقت الهاجرة والحر الشديد (٦) الشديدة القبيظ

(٧) ملاحظتها (٨) سيد (٩) يحرزها، أو يظن به الظنون من أجلها (١٠) الجميلة،

أو التي لا تجربة لها (١١) وسطها (١٢) الحقة وعاء من خشب أو عاج (١٣) امتزج

- اختلط - لصق (١٤) العبير: أخلاط من الطيب (١٥) الملاب: نوع من العطر

أو الطيب قيل هو الزعفران

وَإِذَا لَهَا تَامُورَةٌ^(١) مَرْفُوعَةٌ لِشَرَابِهَا^(٢) «
 وَاسْتَقَلَّتْ^(٣) بِنِي جَعْدَةَ، وَلَيَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِمْ يَرْجِعُ بِمَسَاعِي قَوْمِكَ أَوْ زَعَمْتَنِي
 جَبَانًا وَكَذَبْتَ، لَأَنَا أَشْجَعُ مِنْكَ وَمِنْ أَيْبِكَ، وَأَصْبَرُ عَلَى إِدْلَاجِ الْمُظْلِمَةِ ذَاتِ
 الْإَرِينِ^(٤)، وَأَشَدُّ إِدْلَاجًا فِي الْمَاهِجَةِ أُمُّ الصَّخْدَانِ^(٥) ! «
 وَيَثِبُ نَابِغَةُ بِنِي جَعْدَةَ عَلَى أَبِي بَصِيرٍ، فَيَضْرِبُهُ بِكُوزٍ مِنْ ذَهَبٍ
 فَيَقُولُ الشَّيْخُ - أَصْلَحَ اللَّهُ بِهِ - : «لَا عَرَبِدَةَ^(٦) فِي الْجَنَانِ، إِنَّمَا يُعْرِفُ ذَلِكَ
 بَيْنَ السُّفْلَةِ وَالْمُهْجَاجِ^(٧)، وَإِنَّكَ يَا أَبَا لَيْلَى لَمُسْتَرَعٌ^(٨). وَلَوْلَا أَنْ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ:
 «لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ» لَطَنَّكَ أَصَابِكَ نَزْفٌ فِي عَقْلِكَ». وَيُرِيدُ
 أَنْ يُصْلِحَ بَيْنَ النَّدْمَاءِ. فَيَقُولُ: «يَجِبُ أَنْ يُحْذَرَ مِنْ مَلِكٍ يَعْبُرُ، فَيَرَى هَذَا
 الْمَجْلِسَ، فَيَرْفَعُ حَدِيثَهُ إِلَى الْجُبَّارِ الْأَعْظَمِ، فَلَا يَجْرُ ذَلِكَ إِلَّا إِلَى مَا تَكْرَهُانِ.

(١) التامورة: الوعاء فيه الخمر أو الإبريق أو اللبن (٢) معنى الأبيات: تحينت غفلة
 الرقيب فدخلت عليها، وما زلت بها حتى استسلمت للنوم بعد أن أخذت حظها من اللعب،
 فطويتها تحتي كما يفعل كل سيد جليل القدر بخليته التي حامت حوله الظنون من أجلها،
 ونعمت بضمها وعناقها؛ وامتعت نفسي بلمس بطنها وخاصرتها، فكأنما لمست حقا من العاج
 امتزج بطيبه زعفرانه، ثم حضر إبريق الخمر ورفع متهيئاً للشراب (٣) رأيتهم قلة،
 فاستخففت بهم. وما أبدع قول السموءل في مثل هذا المعنى من لاميته المشهورة:
 «تعرنا أنا قليل عديدا فقلت لها: «إن الكرام قليل!
 وما قل من كانت بقاياها مثلنا شباب تسمى للعلا وكهول
 وما ضرنا أنا قليل، وجارنا عزيز، وجار الأكثرين ذليل!»

(٤) الصقيع أو البرد الشديد (٥) الصخدان: اليوم الشديد الحر (٦) العربدة:
 الإيذاء وسوء الخلق (٧) الحمقى (٨) نزاع إلى الشر، أو مسرع إلى ما لا ينبغي.

وَاسْتَعْنَى رَبَّنَا أَنْ تَرْفَعَ الْأَخْبَارُ إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ جَرَى ذَلِكَ مَجْرَى الْحَفَظَةِ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ . أَمَّا عَامِتًا أَنْ « آدَمَ » خَرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبِ حَقِيرٍ ^(١) ! فَغَيْرُ آمِنٍ مَنْ وُلِدَ أَنْ يُقَدَّرَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ! فَسَأَلْتُكَ يَا اللَّهُ يَا أَبَا بَصِيرٍ : هَلْ يَهْجُسُ لَكَ تَمَنِّي الْمُدَامِ ؟ » فَيَقُولُ : « كَلَّا وَاللَّهِ ، إِنَّهَا عِنْدِي كَمِثْلِ الْمُقِرِّ ، لَا يَخْطُرُ ذِكْرُهَا بِاخْتِلَادٍ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَقَانِي عَنْهَا ^(٢) السُّلْوَانَةَ ^(٣) »

*
* *

فيقولُ :

« يَا أَبَا لَيْلَى ! إِنْ اللَّهُ - جَلَّتْ قَدْرَتُهُ - مِنْ عَلَيْنَا بِهِؤْلَاءِ الْخُورِ الْعَيْنِ اللَّوَاتِي حَوَّاهُنَّ عَنْ خَلْقٍ ^(٤) الْإِوَزِّ ، فَأَخْتَرَتْ لِنَفْسِكَ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ ، فَلْتَذْهَبْ مَعَكَ إِلَى مَنْزِلِكَ تُلَاخِحُكَ أَرْقُ اللَّحَانِ ، وَتُسْمِعُكَ ضُرُوبَ الْأَلْحَانِ . »
فيقولُ لبيدُ بْنُ ربيعةَ ^(٥) : « إِنْ أَخَذَ أَبُو لَيْلَى قَيْنَةً ، وَأَخَذَ غَيْرُهُ مِثْلَهَا ، أَلَيْسَ يَنْتَشِرُ خَبَرُهَا فِي الْجَنَّةِ ؟ فَلَا يُؤْمِنُ أَنْ يُسَمَى فَاعِلُو ذَلِكَ : أَزْوَاجَ الْإِوَزِّ ؟ » .

فَتَضْرِبُ الْجَمَاعَةَ عَنِ اقْتِسَامِ أَوْلِيكَ الْقِيَانِ ^(٦) .

(١) ومن أجل هذا الذنب أنمى عليه « المتنبى » بقوله - مخاطباً أبناء آدم :

« أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان »

(٢) بدلني منها (٣) العسل (٤) فطرة (٥) مرت ترجمته في ص ٤٦ من هذا الجزء

(٦) انظر إلى ما في هذه الجملة الرشيقية من الدعابة الحلوة والفن الدقيق ، فهي تمثل سداجة

القوم وطيبة قلوبهم أبدع تمثيل

حسان بن ثابت (١)

وَيَمُرُّ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ، فيقولونَ : « أَهْلًا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ! أَلَا تَحَدَّثُ مَعَنَا

(١) حسان بن ثابت

توفى سنة ٥٤ هجرية

هو حسان بن ثابت الأنصاري ، وكنيته أبو الوليد ، ولد بالمدينة ، وعاش في الجاهلية والاسلام ، وتكسب بالشعر ، فقد مدح المناذرة والغساسنة ، وازدحت عنده صلوات آل جفنة (من ملوك غسان) الذين غالى في مدحهم ، وقد بلغ من حبهم إياه أنهم لم ينكروه بعد إسلامه ، بالرغم من نصرانيتهم

أسلم حسان مع الأنصار — حين هاجر الرسول إلى المدينة — فلما اشتد إيذاء قريش للنبي بالهجاء وقال لأصحابه : « ما يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ — لباه حسان قائلاً : « أنا لها ! » وضرب بلسانه أرنبة أنفه وقال : « والله ما يسرنى به مقول ما بين بصرى وصنعاء ! والله لو وضعت على صخر لقلقه ، أو على شعر لقلقه ! » فقال له النبي : « كيف تهجوهم ؟ وأنا منهم ! » فقال : « أسلكت منهم كما تسلك الشعرة من العجين ! » فقال : « اهجوهم وروح القدس معك ! » ثم وقف شعره على مناصرته ، وانقطع إلى مدحه والنضح عنه .

وقد اشتهر حسان بأنه كان جباناً ، مخلوع القلب ؛ وسترى في هذه المناقشة « الخيالية » التي دارت بينه وبين ابن القارح ما يؤيد ذلك :

ومن أروع ما قال ، بيته الفذ :

وإني أمراً أمسى وأصبح سالماً من الناس — إلا ما جنى — لسعيد

وقد حكى أحدهم أنه سمعه — في جوف الليل — وهو ينوه بأسمائه ، ويقول : « أنا حسان ابن ثابت ! أنا ابن الفريعة ! أنا الحسام ! » فلما أصبح سأله عن السبب في ذلك وعما أعجبه ، فقال له حسان : « عالجت بيتاً من الشعر فلما أحكمته ، نوهت بأسمائي ؛ وذكر له ذلك البيت :

سَاعَةً ؟ « فَإِذَا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا : « أَيْنَ هَذِهِ الْمَشْرُوبَةُ مِنْ سَيِّئَتِكَ ^(١) » الَّتِي ذَكَرْتَهَا فِي قَوْلِكَ :

كَأَنَّ سَيِّئَةً مِنْ يَدِ رَأْسِ ^(٢) يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ
عَلَى أَنْيَابِهَا . أَوْ طَعْمَ غَضٍّ مِنْ الشَّفَاحِ هَصْرَهُ اجْتِنَاءُ
عَلَى فِيهَا ؛ إِذَا مَا اللَّيْلُ قَلَّتْ كَوَاكِبُهُ ، وَمَالَ بِهَا الْغِطَاءُ
إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ - يَوْمًا - فَهِنَّ لِطَيْبِ الرَّاحِ الْفِدَاءِ ^(٣)

وسواء أصححت هذه الرواية أم لم تصح ، فإن للبيت روعة وجمالاً لا يقفان عند حد ، وهو إلى ذلك يحوى حكمة أصيلة لا يتردد منكر في إكبارها وإكبار الذهن الذي أخرجها !

ومثل حسان ، جدير أن يفخر بهذا البيت الخالد !

وستمر بك في هذا الحديث بضع أبيات جميلة من شعره .

(١) خمر ك (٢) اسم قرية بالشام مشهورة بجودة الخمر ، وهي إحدى الأماكن التي أحرزت شهرة كبيرة في ذلك ، وهو يصف في هذه الأبيات ريق امرأة (٣) هذه الأبيات الأربعة من قصيدة طويلة لحسان قالها في مدح النبي - قبل فتح مكة - وهجا فيها أبا سفيان - قبل أن يسلم - لأنه هجا النبي ، وقد ورد قبل هذه الأبيات قوله :

ديار من بني الحسحاس قفر تعفُّها الروامسُ والسماءُ
وكانت لا يزال بها أنيس خِلالَ مَرُوجِهَا - نَعْمَ وَشَاءُ
فَدَعَ هَذَا ، وَلَكِنْ مِنْ لَطِيفِ يُوْرَقِنِي - إِذَا ذَهَبَ الْمِشَاءُ
لشعنا التي قد تيمته فليس لقلبه منها شفاء

كأن سيئة من بيت رأس الخ .

وقد ورد بعدها قوله :

نوليها الملامة إن المنا إذا ما كان مَفْتُحٌ أَوْ رِحَاءُ
ونشر بها فتركنا ملوكا وأسدًا ، ما ينهنها اللقاء

وَيَحْكُ ! مَا اسْتَحْيَيْتَ أَنْ تَذَكَرَ هَذَا فِي مِدْحَتِكَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ »
فَيَقُولُ : « إِنَّهُ كَانَ أَسْجَحَ خُلُقًا مِمَّا تَظُنُّونَ . وَلَمْ أَقُلْ إِلَّا خَيْرًا ، لَمْ أَذْكَرْ أَنِّي
شَرِبْتُ خَمْرًا ، وَلَا رَكِبْتُ - مِمَّا حُظِرَ - أَمْرًا ، وَإِنَّمَا وَصَفْتُ رَيْقَ امْرَأَةٍ : يَجُوزُ
أَنْ تَكُونَ حِلَالِي ، وَيُمْكِنُ أَنْ أَقُولَهُ عَلَى الظَّنِّ ! وَقَدْ شَفَعَ فِي أَبِي بِصِيرٍ بَعْدَ
مَا تَهَتَّكُمُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَمَا سَمِعَ بِأَكْرَمٍ مِنْهُ . لَقَدْ أَفِكَتُ جِلْدَتِي مَعَ مِسْطِجٍ ،
ثُمَّ وَهَبْتُ لِي أُخْتًا مَارِيَّةَ ، فَوَلَدَتْ لِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، وَهِيَ خَالَةٌ وَلَدَهُ « إِبْرَاهِيمَ »
وَهُوَ ^(١) - زَيْنَ اللَّهِ الْآدَابِ بَيْقَاتِهِ - يَخْطُرُ فِي ضَمِيرِهِ أَشْيَاءُ يَرِيدُ أَنْ
يَذَكَرَهَا لِحَسَانٍ وَغَيْرِهِ ، ثُمَّ يَخَافُ أَنْ يَكُونُوا لَمَّا طَلَبَ غَيْرَ مُحْسِنِينَ ، فَيُضْرَبُ
عَنْهَا إِكْرَامًا لِلْجَلِيسِ .

وَيَقُولُ قَائِلٌ مِنَ الْقَوْمِ : « كَيْفَ جُبُنْتُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؟ »
فَيَقُولُ : « أَلِي يُقَالُ هَذَا - وَقَوْمِي أَشْجَعُ الْعَرَبِ - أَرَادَ سِتَّةَ مِنْهُمْ أَنْ
يَمِيلُوا عَلَى أَهْلِ الْمَوْسِمِ بِأَسْيَافِهِمْ ، وَأَجَارُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَلَى أَنْ
يُحَارِبُوا مَعَهُ كُلَّ عَنُودٍ ^(٢) ، فَرَمْتَهُمْ رَيْعَةً وَمُضَرُّ وَجَمِيعُ الْعَرَبِ عَنِ قَوْسِ
الْعَدَاوَةِ ، وَأَضْمَرُوا لَهُمْ ضِغْنَ الشَّنَآنِ .

وفي هذه القصيدة يقول بعد أبيات :

« أَلَا أَبْلُغُ أَبَا سَفِيَانَ عَنِي فَأَنْتَ مَجُوفٌ نَجْبٌ هَوَاءُ
بِأَنَّ سَيْوْفَنَا تَرَكَّتْكَ عَبْدًا وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتَهَا الْإِمَاءُ
هَجَوْتُ مُحَمَّدًا ، فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجِزَاءُ
أَتَهَجُّوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكَفَاءٍ فَشَرَكَا لَخِيرَكَا الْفِدَاءُ . » الخ الخ

والقصيدة طويلة مشهورة وهي في أول ديوانه ، فليرجع إليها من شاء .

(١) أي ابن القارح (٢) جائر عن القصد

وَإِنْ ظَهَرَ مِنْ تَحَرُّزٍ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى طَرِيقَةِ الْحَزْمِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : « وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »
ويفترق أهل ذلك المجلس ، بعد أن أقاموا فيه كعمر الدنيا أضعافاً كثيرة .

عُورَانُ قَيْسٍ

فبينما هو^(١) يطوف في رياض الجنة ، لقيه خمسة نفر على خمسة أبنق ، فيقول :
« مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْ عَيُونِكُمْ فِي أَهْلِ الْجَنَانِ ، فَمَنْ أَنْتُمْ خَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ النَّعِيمَ ؟ »
فيقولون : « نحن عوران^(٢) قيس : تميم بن مقبل العجلاني^(٣) ، وعمرو بن أحمـ^(٤)
الباهلي ، والشماخ معقل بن ضرار ، وراعي الإبل عبيد بن الحصين الثميري ،
وحميد بن ثور الهلالي »

فيقول للشماخ بن ضرار^(٥) : « لقد كان في نفسي أشياء من قصيدتك التي
على الزاي ، وكلتك التي على الجيم ، فأنشدنيهما لا زلت مخلداً كريماً ! »

(١) أي ابن القارح (٢) جمع أعور (٣) ستمر بك ترجمته بعد صفحات

(٤) ترجمته في صفحة ٦٣

(٥) الشماخ معقل بن ضرار

شاعر مخضرم ، رجاز على البديهة ، ميال إلى الهجاء ، ذاع صيته في وصف القوس والحر ،
وقد بلغ من إعجاب الخطيئة (الشاعر المشهور وسمتم بك ترجمته) به ، أنه قال : « أبلغوا الشماخ
أنه أشعر غطفان كلها ! » ولعل السر في إعجاب الخطيئة به هو اشتراكه معه في النزوع إلى الشرا
والشماخ هذا هو صاحب البيتين المشهورين في مدح عرابة الأنصاري . وهما قوله :

« رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمن »

فيقول: « لقد شغلني عنهما النعيمُ الدائمُ ، فما أذكرُ منهما بيتاً واحداً » فيقولُ لِفِرَاطِ حُبِّهِ بِالْأَدَبِ : « لقد غفلتَ أيها المؤمنُ وأضعتَ ! أما علمتَ أن كلمتيك أنفعُ لك من ابنتيك ؟ ذُكِرَتَ بهما في المواطنِ ، وشهرتَ عند ركبِ السفرِ والقاطنِ . وإن القصيدةَ من قصائدِ النَّابِغَةِ لَأَنْفَعُ له من ابنتِهِ « عَقْرَبَ » ولعل تلك شانتُهُ وما زانتُهُ ، وأصابها في الجاهلية سِبابٌ^(١) ، وما وفرَّ لِأَجْلِهَا الجِباءُ^(٢) . وإن شئتَ أن أنشدَكَ قصيدَتَيْكَ ، فإن ذلك ليس بِمُتَعَذِّرٍ عَلَيَّ » فيقولُ : « أنشدني - صفتَ عليك نعمةُ الله - » فينشدُهُ :

« عَفَا مِنْ سُلَيْمَى بَطْنُ قَوْ ، فَعَالِزُ ، فَذَاتُ الْغَضَى ، فَالْمُشْرِفَاتُ النُّوَاشِرُ^(٣) »
 فيجِدُهُ بها غيرَ عليمٍ ، ويسألهُ عن أشياء منها فيُصادفُهُ بها غيرَ بصيرٍ .
 فيقولُ : « شغلتنى لذائذُ الخلودِ عن تعهدِ هذه المنكراتِ ، إنَّ المُتَّقِينَ في ظلالِ
 وَعُيُونٍ ، وَفَوَاكِهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .
 إِنَّمَا كُنْتُ أُسِيقُ^(٤) هَذِهِ الْأُمُورَ وَأَنَا آمِلٌ أَنْ أَفْقَرَ^(٥) بِهَا نَاقَةً ، أَوْ أُعْطَى

(١) أسر (٢) العطاء (٣) « بطن قو » و « عالز » و « ذات الغضى » أسماء
 أما كن ببلاد العرب - والمشرفات النواشر الجبال الشديدة الارتفاع ؛ ومعنى البيت :
 أن كل تلك الأما كن - التي ذكرها - قد أفقرت من سليمان !
 وهذا البيت مطلع قصيدة له . قالها في وصف القوس ومنها قوله :

« وذاق فأعطته من اللين جانباً كفى ! ولها - أن يفرق السهم - حاجز
 إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم شكلى أوجعتها الجنائز »
 وما أبدع قول ابن الرومي في تشبيهه برنين القوس :

« تصبى المحب ، وتلغى - الدهر - شاكية كالقوس ؛ تصبى المنايا ، وهي مرنان »
 (٤) أجمع (٥) أعطى وأمنح

كَيْلَ عِيَالِي سَنَةً، وَأَنَا الْآنَ فِي تَفَضُّلِ اللَّهِ، أُعْتَرِفُ فِي مَرَاوِدِ الْعَسْجَدِ مِنْ أَنْهَارِ
اللَّبَنِ، فَتَارَةً أَلْبَانَ الْإِبِلِ، وَتَارَةً أَلْبَانَ الْبَقْرِ، وَإِنْ شِئْتُ لَبَنَ الضَّأْنِ فَإِنَّهُ كَثِيرٌ
جَمًّا، وَكَذَلِكَ لَبَنُ الْمَعِيزِ؛ وَإِنْ أَحْبَبْتُ وَرَدًا مِنْ رِسْلِ الْأَرَاوِي^(١)، فَرُبَّ نَهْرٍ
مِنْهُ كَأَنَّهُ دِجْلَةٌ أَوْ الْفُرَاتُ! وَلَقَدْ أَرَانِي فِي دَارِ الشَّقْوَةِ أَجْهَدُ أَخْلَافَ شِيَاهِ
لِجَبَاتٍ^(٢) لَا يَمْتَلِي مِنْهُنَّ الْقَعْبُ^(٣)! « فَيَقُولُ الشَّيْخُ: « فَأَيْنَ عَمْرُو بْنُ أَحْمَرَ^(٤) »
فَيَقُولُ عَمْرُو: « هَا أَنْدَا » فَيَقُولُ: أَنْشِدْنِي قَوْلَكَ:

« بَانَ الشَّبَابُ، وَأَخْلَفَ الْعَمْرُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ وَالذَّهْرُ »

فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي تَفْسِيرِ الْعَمْرِ - بِالْفَتْحِ - فَقِيلَ: إِنَّكَ أَرَدْتَ الْبَقَاءَ،

(١) ابن الوعول (٢) قليلة اللبن (٣) القدح الغليظ الضخم

(٤) عمرو بن أحمَر

في الموشح وغيره من كتب الأدب: عمرو بن أحمَر.

وقال العسقلاني في الإصابة: عمرو بن الأحمَر الباهلي.

وقال المرزباني: مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، فأسلم وغزا مغازي في الروم، وأصيب

بإحدى عينيه هناك. ونزل الشام، وتوفي على عهد عثمان بعد أن بلغ سنًا عالية. وهو صحيح

الكلام، كثير الغريب.

وقال أبو الفرج: قال عمرو بن أحمَر في الإسلام شعراً كثيراً، ومدح الخلفاء الذين أدركهم

وخالد بن الوليد. وكان في حبسة الشام. ولم يلق أبا بكر، ومدح عمر فمن دونه.

* *

قال صاحب الموشح صفحة ٨٠:

أقوى عمرو في بيتين متقارنين من أبيات أولها:

ما للكواكب يا عيساء قد جعلت تزور عني وتطوي دوني الحجر

فقال فيها:

وكنت أمشى على رجلين مثدأً فصرت أمشى على أخرى من الشجر

وقيلَ : إنك أردتَ الواحدَ من عُمُورِ الأَسنانِ ، وهوَ اللّحمُ الذي بينَها »
فيقولُ عَمْرُو مُمَثِّلاً :

ثم قال بعده :

فقد جعلت أرى الشخصين أربعة والواحد اثنين مما بورك البصر (١)

وأتبعه بقوله :

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلني ردى فأنهض نهض الشارب السكر

وقال صاحب الموشح أيضاً في صفحة ٨٨ :

قال ابن أحر :

غادرني سهمه أعشى وغادره سيف ابن أحر يشكو الرأس والكبدا

أراد غادرني سهمه أعور ، فلم يمكنه ، فقال : أعشى .

قلنا : ولعل ابن أحر لم يرد التصريح بما أصابه ، ورغب في تهوينه ، فعدل عن العور إلى العشاء ، لأنه أخف ضرراً ، وأنجح في الموازنة بين ما فعل به خصمه ، وما فعل هو بخصمه .
فإذا حَسُنَ هذا التوجيه ، بطلت نقدة المرزباني . ولكلِّ وجهة .

*
* *

ويستشهد اللغويون كثيراً على الألفاظ بشعر عمرو هذا ، وكثيراً ما تجد هناك قولهم :
« قال ابن أحر » وذلك لفصاحة عمرو ، وإكثاره من الغريب في شعره ؛ فمن ذلك ما في اللسان
في استشهاده على أن العمور منابت الأسنان ، واحداً عمراً ؛ بهذا البيت الذي أورد المعري .
ومن ذلك ما في الكتاب للصولي ، قال : العرب تسمى أول ليلة من الشهر : النخيرة ،
لأن الهلال نحرها ، أي رؤى في نحرها ومطلعها ، قال ابن أحر :

ثم استمر عليها واكف همع في ليلة نحرت شعبان أوجبا

(١) أخذ ابن الرومي هذا المعنى كما نبهنا على ذلك في هامش صفحة ٥١ تعليقاً على قول الخجل السعدي :
« أرى الشخص كالشخصين وهو قريب »

خُذَا وَجْهَ هَرَشَى^(١) أَوْقَفَاهَا ، فَإِنَّهُ كِلَا جَانِبِي هَرَشَى لَهْنٌ صَرِيْقٌ
وَلَمْ تَتْرُكْ فِي أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ غُبْرًا^(٢) لِلْإِنْسَادِ ، أَمَا سَمِعْتَ الْآيَةَ :
« يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ
حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ »
وَقَدْ شَهِدْتَ الْمَوْقِفَ ، فَالْعَجَبُ لَكَ إِذْ بَقِيَ مَعَكَ شَيْءٌ مِنْ رِوَايَتِكَ .

*
* *

فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « إِنِّي كُنْتُ أُخْلِصُ الدُّعَاءَ فِي أَعْقَابِ الصَّلَوَاتِ - قَبْلَ أَنْ
أَتَقَلَ مِنْ تِلْكَ الدَّارِ - أَنْ يُمَتِّعَنِي اللَّهُ بِأَدَبِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . فَأَجَابَنِي إِلَى
مَا سَأَلْتُ ، وَهُوَ الْحَمِيدُ الْمَجِيدُ . »

ثم يذكر له أشياء من شعره ، فيجده ، عن الجواب مستعجباً .

ومن شعر ابن أحر ما أثبتته صاحب الإصابة :

« متى تطلب المعروف في غير أهله تجد مطلب المعروف غير يسير

وإن أنت لم تجعل لعرضك جنة من الدم سار الدم كل مسير »

(١) هرشى : ثنية في طريق مكة قريبة منها ، والمراد من التمثيل بهذا البيت أن كلا

التأويلين صحيح ، فليأخذ من يأخذ بأيهما شاء (٢) غير كل شيء : بقيته

حكاية تميم بن أبي

فيقول « أَيُّكُمْ تَمِيمُ بْنُ أَبِي؟ »^(١) فيقول رَجُلٌ مِنْهُمْ : « هَآنَذَا ! » فيقول :
« أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِكَ :

يَا دَارَ سَمَى خَلَاءٍ لَا أَكَلْفَهَا إِلَّا الْمَرَانَةَ حَتَّى تَسَامَ الدِّينَا
مَا أَرَدْتَ بِالْمَرَانَةِ ؟ فَقَدْ قِيلَ إِنَّكَ أَرَدْتَ اسْمَ امْرَأَةٍ ! وَقِيلَ هِيَ اسْمُ

(١) تميم بن أبي

في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة : « تميم بن أبي مقبل » . وفي بلوغ الأرب
للألوسي : « تميم بن مقبل » . وفي خزانة الأدب : « تميم بن أبي بن مقبل » . وقال :
« وأبي - بالتصغير وتشديد الياء - » . وهو يوافق ما بين أيدينا من نسخ رسالة الغفران .

*
* *

وتميم هذا شاعر مخضرم ، معدود في الفحول ، لما أدرك الإسلام كان يبكي أهل الجاهلية .
وقد عاش نحو مائة وعشرين سنة .

قال البغدادي : كان تميم يهاجى النجاشي الشاعر ، فهجاه النجاشي ؛ فاستعدى عليه تميم
عمرَ رضى الله عنه . فقال : يا أمير المؤمنين ، هجاني ! فقال عمر : يا نجاشي ، ما قلت ؟
قال : يا أمير المؤمنين ، قلت ما لا أرى فيه عليه بأساً .
وأنشده :

إذا الله جازى أهل لؤم بدمه فجازى بنى العجلان رهط بن مقبل
فقال عمر : إن كان مظلوماً استجيب له ، وإن لم يكن مظلوماً لم يستجب له .
قالوا : وقد قال أيضاً :

قبيلته لا يغدرون بدمه ولا يظلمون الناس حبة خردل
فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك !
قالوا : فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل

أُمَّةٌ ، وَقِيلَ الْعَادَةُ » فيقول : تميمٌ « وَاللَّهِ مَا دَخَلْتُ مِنْ بَابِ الْفِرْدَوْسِ وَمَعِيَ

فقال عمر : ذلك أقل للزحام .

قالوا : فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل
فقال عمر : يكفي ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه !

قالوا : فإنه قال :

وما سمي العجلان إلا لقوله خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم خادمهم !

قال تميم : فسله يا أمير المؤمنين عن قوله :

أولئك إخوان اللعين وأسوة الـ هجين ورهط الواهن المتذلل

فقال عمر : « أما هذا فلا أعذرك عليه » . فحبسه ، وقيل جلده .

قال الحصري القيرواني في زهر الآداب :

كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ، إذ كان عبد الله بن كعب جدهم إنما سمي العجلان

لتعجيله القرى للضيغان ، وذلك أن حيا من طيء نزلوا به ، فبعث إليهم بقراهم عبداً له ،

وقال له : أعجل عليهم . ففعل العبد ، فأعتقه لعجلته .

فقال القوم : ما ينبغي أن يسمى إلا العجلان ، فسمى بذلك . فكان شرفاً لهم ، حتى

قال النجاشي هذا الشعر ، فصار الرجل (من رهط بن مقبل) إذا سئل عن نفسه . قال :

كعبى . ويرغب عن العجلان .

*
* *

ومن غرر شعر تميم ما أنشد له دعبل :

« فأخلف وأتلف إنما المال عارة وكله مع الدهر الذي هو آكله

وأيسر مفقود ، وأهون هالك على الحى من لا يبلغ الحى نائله »

ومن شعره :

« خليلي لا تستعجلا وانظرا غدا عسى أن يكون الرفق في الأمر أرشدا »

كَلِمَةً مِنَ الشُّعْرِ وَلَا الرَّجَزِ ، وَذَلِكَ أَنِّي حُوسِنْتُ حِسَابًا شَدِيدًا . وَقِيلَ لِي :
 « كُنْتَ فِي مَنْ قَاتَلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ » وَانْبَرَى إِلَى النَّجَاشِيِّ الْحَارِثِيِّ ، فَمَا
 أَفَلَتْ مِنَ اللَّهَبِ حَتَّى سَفَعَنِي ^(١) سَفَعَاتٍ . وَإِنَّ حِفْظَكَ لِمَبْقَى عَلَيْكَ ، كَأَنَّكَ
 لَمْ تَشْهَدْ أَهْوَالَ الْحِسَابِ ، وَمُنَادَى الْحَشْرِ يَقُولُ : « أَيْنَ فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ »
 وَالشُّوسُ ^(٢) الْجَبَابِرَةُ مِنَ الْمُلُوكِ تَجْذِبُهُمُ الزَّبَانِيَّةُ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَالنِّسْوَةُ ذَوَاتُ
 التَّيْجَانِ يَصِرْنَ بِالسِّنَةِ مِنَ الْوَقُودِ ، فَتَأْخُذُ فِي فُرُوعِهِنَّ وَأَجْسَادِهِنَّ ، فَيَصِحْنَ :
 « هَلْ مِنْ فِدَاءٍ ؟ هَلْ مِنْ عُذْرٍ يُقَامُ ؟ » وَالشَّبَابُ مِنْ أَوْلَادِ الْأَكَاْسِرَةِ يَتَضَاغُونَ ^(٣)
 فِي سَلْسِلِ النَّارِ ، وَيَقُولُونَ : « نَحْنُ أَصْحَابُ الْكُنُوزِ ، نَحْنُ أَرْبَابُ الْفَانِيَةِ ،
 وَلَقَدْ كَانَتْ لَنَا إِلَى النَّاسِ صِنَاعٌ وَأَيَادٍ ، فَلَا فَادِيَ وَلَا مُعِينَا »

فَهَتَفَ دَاعٍ مِنْ قِبَلِ الْعَرْشِ : « أَوْلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ،
 وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » لَقَدْ جَاءَتْكُمْ الرُّسُلُ فِي
 زَمَانٍ بَعْدَ زَمَانٍ ، وَبَدَلَتْ لَكُمْ مَا وَكَّدَ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَقِيلَ لَكُمْ فِي الْكِتَابِ :
 « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »
 فَكُنْتُمْ فِي لَذَاتِ السَّاخِرَةِ ^(٤) وَاغْلِينَ ^(٥) ، وَعَنْ أَهْمَالِ الْآخِرَةِ مُتَشَاغِلِينَ .
 فَالآنَ ظَهَرَ النَّبَأُ « لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ »

وقد استشهد الرضى فى شرح الكافية على أن سراويل غير منصرف عند الأكثرين
 بقول تميم يصف الثور الوحشى :

أنى دونها ذب الرياد كأنه فتى فارسى فى سراويل راح
 (١) لطنى (٢) الشجعان الجريئون على القتال (٣) يتضورون ، أو يصيحون
 صياح الضعفاء المستخذين (٤) الدنيا (٥) ممعنين ومسرفين ، أى منغمسين فى لذائذها

لفصل الثاني

يوم الموقف

حكاية ابن القارح

فيقول (١) : « أَنَا أَقْصُ عَلَيْكَ قِصَّتِي :

لَمَّا نَهَضْتُ أَنْتَفِضُ مِنَ الرَّيْمِ (٢) ، وَحَضَرْتُ حَرَصَاتِ (٣) الْقِيَامَةِ ، ذَكَرْتُ
الآيَةَ : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ،
فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » فَطَالَ عَلَيَّ الْأَمَدُ ، وَاشْتَدَّ الظَّمَا ، وَأَنَا رَجُلٌ مَهْيَافٌ (٤) ،
فَأفْتَكِرْتُ (٥) فَرَأَيْتُ أَمْرًا لَا قِوَامَ لِمِثْلِي بِهِ ، وَلَقِينِي الْمَلَكُ الْحَفِيظُ بِمَا زُبِرَ (٦)
لِي مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ ، فَوَجَدْتُ حَسَنَاتِي قَلِيلَةً كَأَنَّهَا فِي الْعَامِ الْأَرْمَلِ (٧) ، إِلَّا أَنْ
التَّوْبَةَ فِي آخِرِهَا كَأَنَّهَا مِصْبَاحُ أُيَيْلٍ (٨) ، رُفِعَ لِسَالِكِ السَّبِيلِ .

(١) أى ابن القارح (٢) القبر (٣) ساحات (٤) الرجل المهياف : السريع
المعش ، كما شرحها المعري نفسه ، وزاد غيره : أو شديده . ومثله : المهتاف

(٥) فى نسخ الرسالة : افكرت ، وكذلك يقول أبو العلاء فى لزومياته :

قال افكار فى الحوادث صادق جعل الصعاب من الحذار مذله :

« هفت الحنيفة ، والنصارى ما اهتبت ويهود حارت ، والمجوس مضله

اثنا أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له »

أما ما فى المعاجم المعتمدة ، فهو : فكر فى الشيء وأفكر وفكر وتفكر ، وليس فيها افكر .

على أن المعاجم ذكرت أن الفكرة اسم من « الافكار » كالرحلة من الارتحال .

(٦) كُتِبَ (٧) النفاً : الرياض ، والعام الأرملة : قليل المطر (٨) الأييل

— كأمير — كلمة معربة ، ومعناها رئيس النصارى ، أو الراهب

حديثه مع رضوان

فَلَمَّا أَقَمْتُ فِي الْمَوْقِفِ زُهَاءَ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ ، وَخِفْتُ مِنَ الْعَرَقِ ، فِي الْعَرَقِ ، زَيَّنْتُ لِي النَّفْسُ الْكَاذِبَةُ أَنَّ أَنْظِمَ آيَاتًا فِي رِضْوَانَ ، خَازِنِ الْجِنَانِ ، عَمِلْتُهَا فِي وَزْنٍ : « قِفَا نَبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبِ وَعِرْفَانِ » وَوَسَمْتُهَا بِرِضْوَانَ ، ثُمَّ ضَانَكْتُ (١) النَّاسَ حَتَّى وَقَفْتُ مِنْهُ بِحَيْثُ يَسْمَعُ وَيَرَى ، فَمَا حَفَلَ بِي ، وَلَا أَظُنُّهُ أَبَةً لِمَا أَقُولُ ، فَغَبَرْتُ (٢) بُرْهَةً نَحْوَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الْفَانِيَةِ ، ثُمَّ عَمِلْتُ آيَاتًا فِي وَزْنٍ :

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَوْ طُورِغَتْ مَا بَانَ وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانًا (٣)

(١) ضايقت . زاحمت (٢) مكثت (٣) الخليط : الركب ، والأقران ، جمع : قرن ؛ ومعناه في الأصل : الحبل يجمع به البعيران . والمراد في هذا البيت أنهم قطعوا ما كان يجمع بينه وبين حبيبه من أسباب اللقاء

وهذا البيت مطلع قصيدة لجرير الخطفي ، يهجو بها الأخطل ، ومن رقيق آياتها الغزلية :

قالت : أَلِمَّ بِنَا إِنْ كُنْتَ مِنْطَلِقًا	ولا إخالك بمد اليوم تلقانا
يا طيب هل من متاع تتمعين به	ضيفاً لكم باكرأ يا طيب عجلانا
ما كنت أول مشتاق أخى طرب	هاجت له غدوات البين أحرانا
يا أم عمرو جزاك الله مغفرة	ردى على فؤادى كالذى كانا
قد خنت من لم يكن يخشى خيانتكم	ما كنت أول موثوق به خاننا
لقد كتمت الهوى حتى تهيبني	لا أستطيع لهذا الحب كتماننا
لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت	أسباب دنياك من أسباب دنيانا
إن العيون التي في طرفها مرض	قتلنا ثم لم يحين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به	وهن أضعف خلق الله أركاننا

وَوَسَّمْتُهَا بِرِضْوَانَ ، ثُمَّ دَنَوْتُ مِنْهُ ، فَفَعَلْتُ كِفْعَلِي الْأَوَّلِ ، فَكَأَنِّي أُحْرِكُ

وهو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي ، وكنيته أبو حزره .
وقد ولد باليمامة في خلافة عثمان ، ونشأ بدوياً يرعى غنمه ، وكان هو وأهله فقراء يغلب عليهم الشعر يهجون به أعداءهم ، وقد هجا جرير البعيث ، وهو من قوم الفرزدق ، فانتصر الفرزدق لقومه ، فاشتبك جرير والفرزدق في مهاجاة دامت عشر سنين
وقد رحل جرير إلى البصرة وظل يهاجي الفرزدق ومن يتدخل في شأنه كالأخطل ، فاتصل بولاية العراق ، كبشر بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ثم اتصل بعبد الملك بن مروان ، ومن بعده من خلفاء بني أمية ، وزاحم الفرزدق على أبوابهم فزحهم .
ويمتاز شعر جرير بمتانة القافية ، والبعد عن التعقيد ، والسلامة من التكلف . وامتاز نسيبه بالركة والعدوبة ، على أنه لم يعشق قط ، وقد قال : « لو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه المعجوز فتبكي على شبابها »

وقد قيل : أمدح بيت قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
وأهجى بيت قوله :

ففض الطرف إنك من نير فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وأغزل بيت قوله :

إن العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يحين قتلانا
وأخر بيت قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
وأبلغ بيت في التهم قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع
وأخبار جرير لا يتسع لها هذا المقام ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

ثَبِيرًا^(١) وَالتَّمِيسُ مِنَ الْعِضْرِمِ^(٢) عَبِيرًا ، فَلَمْ أَزَلْ أَتَّبِعُ الْأَوْزَانَ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُوسَمَ بِهَا رِضْوَانٌ حَتَّى أَفْنَيْتُهَا ، وَأَنَا لَا أَجِدُ عِنْدَهُ مَعْوِثَةً ، وَلَا ظَنَنْتُهُ فَهَمَّ مَا أَقُولُ ، فَلَمَّا اسْتَقْصَيْتُ الْغَرَضَ فَمَا أَنْجَحْتُ ، دَعَوْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي : « يَا رِضْوَانُ ! يَا أَمِينَ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الْأَعْظَمِ عَلَى الْفَرَادِيسِ ! أَلَمْ تَسْمَعْ نِدَائِي بِكَ ، وَاسْتِغَاثِي إِلَيْكَ ؟ » فَقَالَ : « لَقَدْ سَمِعْتُكَ تَذَكَّرُ رِضْوَانًا وَمَا عَلِمْتُ مَقْصِدَكَ ، فَمَا الَّذِي تَطْلُبُهُ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ ؟ فَأَقُولُ : « أَنَا رَجُلٌ لَا صَبْرَ لِي عَلَى اللُّوَابِ^(٣) ، وَقَدْ اسْتَطَلْتُ مُدَّةَ الْحِسَابِ ، وَمَعِيَ صِكٌّ^(٤) بِالتَّوْبَةِ ، وَهِيَ لِلذُّنُوبِ كُلِّهَا مَاحِيَةٌ ، وَقَدْ مَدَحْتُكَ بِأَشْعَارٍ كَثِيرَةٍ وَوَسَمْتُهَا بِاسْمِكَ » فَقَالَ : « وَمَا الْأَشْعَارُ ؟ » فَقُلْتُ : « الْأَشْعَارُ جَمْعُ شِعْرِ ، وَالشُّعْرُ كَلَامٌ مَوْزُونٌ تَقْبَلُهُ الْغَرِيزَةُ عَلَى شَرَائِطٍ إِنْ زَادَ أَوْ نَقَصَ أَبَانَهُ الْحُسُّ ، وَكَانَ أَهْلُ الْعَاجِلَةِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى الْمُلُوكِ وَالسَّادَاتِ فَجِئْتُ بِشَيْءٍ مِنْهُ إِلَيْكَ ، لَعَلَّكَ تَأْذَنُ لِي بِالدُّخُولِ فِي هَذَا الْبَابِ ، فَقَدْ اسْتَطَلْتُ مَا النَّاسُ فِيهِ ، وَأَنَا ضَعِيفٌ مَنِينٌ^(٥) وَلَا رَيْبَ أَنِّي مِمَّنْ يَرْجُو الْمَغْفِرَةَ ، وَتَصِيحُ لَهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى » فَقَالَ : « إِنَّكَ لَغَبِينُ الرَّأْيِ ، أَتَأْمَلُ أَنْ آذَنَ لَكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! وَابْنِي لَهُمُ التَّنَاوُشُ^(٦) مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ! »

حديثه مع زُفَرَ

فَتَرَكْتُهُ وَانصَرَفْتُ بِأَمَلِي إِلَى خَازِنٍ آخَرَ يُقَالُ لَهُ زُفَرٌ ، فَعَمِلْتُ كَلِمَةً وَوَسَمْتُهَا بِاسْمِهِ ، فِي وَزْنِ قَوْلِ لَبِيدٍ :

(١) اسم جبل (٢) قال أبو العلاء : العضم : تراب يشبه الجص (٣) العطش قالوا : « إذا طافت الإبل على الحوض ، ولم تقدر على الماء لكثرة الزحام ، فذلك اللواب . » (٤) إذن أو وثيقة (٥) المنين : الضعيف (والقوى) - ضد - والمراد هنا أنه ضعيف (٦) التناول أو الاختلاط

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَيْعَةٍ أَوْ مُضَرٍّ (١)
 وَقَرُبْتُ مِنْهُ، فَأَنْشَدْتُهَا، فَكَأَنِّي إِنَّمَا أَخَاطِبُ رَكُوداً صَمَاءً، لِأَسْتَنْزِلَ (٢) أَبُوداً
 عَصَمَاءَ (٣)، وَلَمْ أَتْرُكْ وَزَنًا مُقَيِّدًا وَلَا مُطْلَقًا يَجُوزُ أَنْ يُوسَمَ بِزُفْرٍ إِلَّا وَسَمِيئُهُ بِهِ،
 فَمَا نَجَعَ، فَقُلْتُ: «رَحِمَكَ اللَّهُ! كُنَّا فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ نَتَقَرَّبُ إِلَى الرَّئِيسِ
 وَالْمَلِكِ بِالْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ فَنَجِدُ عِنْدَهُ مَا نُحِبُّ، وَقَدْ نَظَمْتُ فِيكَ مَا لَوْ جُمِعَ
 لَكَانَ دِيوانًا وَكَأَنَّكَ مَا سَمِعْتَ لِي!» فَقَالَ: «لَا أَشْعُرُ بِالَّذِي حَمَمْتَ (٤)،
 وَأَحْسَبُ هَذَا الَّذِي تَجِدُنِي بِهِ قُرْآنَ إبْلِيسَ الْمَارِدِ، وَلَا يَنْفِقُ (٥) عَلَى الْمَلَائِكَةِ،
 إِنَّمَا هُوَ لِلْجَانِّ، وَعَلَمُوهُ وَلَدَ آدَمَ. فَمَا بُعِثْتَ؟» فَذَكَرْتُ لَهُ مَا أُرِيدُ، فَقَالَ:
 «وَاللَّهِ مَا أَقْدِرُ لَكَ عَلَى نَفْعٍ، وَلَا أَمْلِكُ لِخَلْقٍ مِنْ شَفْعٍ، فَمِنْ أَيِّ الْأُمَمِ أَنْتَ؟»
 فَقُلْتُ: «مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فَقَالَ «صَدَقْتَ. ذَلِكَ
 نَبِيُّ الْعَرَبِ، وَمِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ أُتَيْتَنِي بِالْقَرِيضِ، لِأَنَّ إبْلِيسَ اللَّعِينَ نَفَثَهُ فِي
 إِقْلِيمِ الْعَرَبِ فَتَعَلَّمَهُ نِسَاءُ وَرِجَالٌ، وَقَدْ وَجَبَ عَلَيَّ نُصْحُكَ، فَعَلَيْكَ بِصَاحِبِكَ.
 لَعَلَّهُ يَتَوَصَّلُ إِلَى مَا ابْتَغَيْتَ»
 فَيُسْتُ مِمَّا عِنْدَهُ.

(١) مر ذكر هذا البيت في أبيات في ترجمة لبيد (صحيفة ٤٦ من هذا الجزء)
 (٢) في نسخ الرسالة: لأستنزل، ويصح به الكلام، على أنه قد يكون تحريفاً،
 صوابه: لأستنزل. واستزله: حمله على أن يزل، فيتصيد، وبذلك تتساوق الجملة، إذ تتحقق
 المقابلة بين الزلل والاعتصام (٣) المراد بالركود الصماء، الأرض الغليظة، أو الجبل.
 والمراد بالأبود العصماء: البهيمة المتوحشة المستعصمة بالجبل (٤) حممت: قصدت
 (٥) يروج

حديثه مع حمزة بن عبد المطلب^(١)

فَجَعَلْتُ أَمْخَلَّ الْعَالَمَ ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ عَلَيْهِ نُورٌ يَتَلَأَأُ ، فَقُلْتُ : « مَنْ هَذَا الرَّجُلُ ؟ » فَقِيلَ : « هَذَا حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ صَرِيحٌ وَحَشِيٌّ ، وَهُوَ لِأَهْلِ الدِّينِ حَوْلهُ مَنْ اسْتَشْهَدُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدٍ » فَقُلْتُ لِنَفْسِي الْكَذُوبِ : « الشُّعْرُ عِنْدَ هَذَا أَنْفَقَ^(٢) مِنْهُ عِنْدَ خَازِنِ الْجَنَانِ ، لِأَنَّهُ شَاعِرٌ وَإِخْوَتُهُ شُعْرَاءُ ، وَكَذَلِكَ أَبُوهُ وَجَدُّهُ ، وَلَعَلَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ إِلَّا مَنْ نَظَّمَ شَيْئًا مِنْ مَوْزُونٍ ، فَعَمِلْتُ أَيْبَاتًا عَلَى مَنْهَجِ آيَاتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ^(٣) الَّتِي رَأَيْتُ بِهَا حَمْزَةَ ، وَأَوَّلَهَا :

صَفِيَّةٌ قَوْمِي وَلَا تَعْجِزِي وَبِكِي النِّسَاءَ عَلَى حَمْزَةَ

وَجِئْتُ حَتَّى وَلَيْتُ^(٤) مِنْهُ ، فَنَادَيْتُ : « يَا سَيِّدَ الشَّهَدَاءِ ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ

(١) حمزة بن عبد المطلب هو عم النبي ، وكان أسن منه بأربع سنوات أو أقل ، وقد أسلم فاعتز به الإسلام ، وشهد غزوتي بدر وأحد ، وقتله في الثانية وحشي بن حرب (٢) أروج - أجدى

(٣) كعب بن مالك

هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين البدوي الأنصاري الخزرجي ، وهو أحد رجال الصحابة ، وكان من كبار الشعراء ، مشهوراً في الجاهلية . فلما جاء الإسلام كان من شعراء النبي صلوات الله عليه ، وشهد الغزوات . ثم كان من شيعة عثمان ، وأغاثه يوم الثورة . وكف بصره في أخريات أيامه . وعاش سبعاً وسبعين سنة

قال روح بن زنباع : أشجع بيت وصف به رجل قومه ، قول كعب بن مالك :

نصيل السيوف - إذا قصرن - بخطونا يوماً ونلحقها إذا لم تلحق

(٤) أي دنوت وقربت . وليس فيما بين أيدينا من كتب اللغة إلا ، ولي فلان فلاناً ، أي

دنا منه ، فعمل أبا العلاء ضمن ولي معنى دنا . فقال : ولي منه ، كما يقال : دنا منه . وهو سائغ .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ ! « فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ ، أَنْشَدْتُهُ
الْأَيَّاتَ ، فَقَالَ : وَيْحَكَ ! أَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ تَجِيئُنِي بِالْمَدِيحِ ؟ أَمَا سَمِعْتَ
الْآيَةَ ؟ « لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ يُؤْتَى بِشَأْنِهِ يُعْنِيهِ »

فَقُلْتُ : « بَلَى ، قَدْ سَمِعْتُهَا وَسَمِعْتُ مَا بَعْدَهَا « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ،
صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ^(١) أُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ »

فَقَالَ : « إِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى مَا تَطْلُبُ ، وَلَكِنْ أَنْفِذْ مَعَكَ تَوْرًا ^(٢) إِلَى ابْنِ
أَخِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، لِيُخَاطِبَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَمْرِكَ «
فَبَعَثَ مَعِيَ رَجُلًا ، فَلَمَّا قَصَّ قِصَّتِي عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : « أَيْنَ يَبْنُوكَ ؟ ^(٣) »

مقابلة أبي علي الفارسي ^(٤)

وَكَنتُ قَدْ رَأَيْتُ فِي الْمَحْشَرِ شَيْخًا لَنَا كَانَ يَدْرُسُ النُّحُوَّ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ،
يُعْرَفُ بِأَبِي عَلِيِّ الْفَارِسِيِّ ، وَقَدْ امْتَرَسَ ^(٥) بِهِ قَوْمٌ يُطَالِبُونَهُ وَيَقُولُونَ : « تَأَوَّلْتَ

(١) غبرة (٢) التور : الرسول (٣) صحيفة حسناتك

(٤) أبو علي الفارسي : ٢٨٨ - ٣٧٧ هـ

اسمه : الحسن ، وكنيته : أبو علي الفارسي : واسم أبيه أحمد بن عبد الغفار ، اشتهر في
علم النحو ، وأقام بجلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، وجرت محاضرات بينه وبين
أبي الطيب المتنبي ، وانتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة بن بويه ، وعلت منزلته هناك
ومات في بغداد سنة ٣٧٧ هـ . وقد مر في ترجمة ابن القارح - في الجزء الأول - أنه كان
تلميذاً لأبي علي الفارسي ، وأنه درس عليه النحو ، ومن ثم ترى حسن المناسبة في هذا
لحديث ، إلى روعة الخيال وجمال التمثيل (٥) تعرّضوا له ، ولجّوا معه

عَلَيْنَا وَظَلَمْتَنَا « فَلَمَّا رَأَى أَشَارَ إِلَى يَدَيْهِ ، فَجِثَّهُ ، فَإِذَا عِنْدَهُ طَبَقَةٌ ، مِنْهَا
يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ الْكِلَابِيُّ^(١) وَهُوَ يَقُولُ : « وَيْحَكَ ، أَنْشَدْتَ عَنِّي هَذَا
الْبَيْتَ بِرَفْعِ الْمَاءِ ، يَعْنِي قَوْلَهُ :

« فَلَيْتَ كَفَافًا كَانَ شَرُّكَ سُكُّهُ وَخَيْرُكَ عَنِّي مَا ارْتَوَى الْمَاءُ مَرَّتَوَى^(٢) »
وَلَمْ أَقُلْ إِلَّا الْمَاءَ ، وَكَذَلِكَ زَعَمْتُ أَنِّي فَتَحْتُ الْمِيمَ فِي قَوْلِي :
« تَبَدَّلْ خَلِيلًا بِي ، كَشَكِّكَ شَكْلَهُ ، فَإِنِّي خَلِيلًا صَالِحًا بِكَ مَقْتَوَى^(٣) »

(١) يزيد بن الحكم الكلابي

هو يزيد بن الحكم الثقفى ، شاعر جاهلى من بنى كلاب بن ربيعة بن صعصعة . ومن
مختار شعره قوله :

دفعناكم بالقول ، حتى بطرتم وبالراح ، حتى كان دفع الأصابع
فلما رأينا جهلكم غير منته وما كان من أحلامكم غير راجع
مسسنا من الآباء شيئاً ، وكلنا إلى حسب فى قومه غير واضح
فلما بلغنا الأمهات ، وجدتم بنى عمكم كانوا كرام المضاجع^(١)

بنى عمنا لا تشتمونا ، ودافعوا على حسب - مافات قيد الأكارع
وكنا بنى عم - نزا الجهل بيننا - فكل يوفى حقه غير وادع

وستمر بك - بعد أسطر قلائل - قصيدته الرائعة التى تعد من غرر الشعر العربى

(٢) ما ارتوى الماء مرتوى ، أى دائماً أبداً ، ومعنى البيت : « ليت خيرك يعادل شرك
فيكف هذا عنى ذاك ، وأصبح آمناً منك أبداً »

(٣) مقتو أى متبدل به ، ومعنى البيت : « اختر لنفسك صديقاً آخر يشبهك وتشبهه ؛
فانى متبدل بك خليلاً صالحاً » وهو يخاطب ابن عمه ويقرعه على سوء سلوكه معه ، و يعلن
إليه ضيق ذرعه بما تحمله منه من الإساءة المتكررة ، ونفور طبعه من خطته الجائرة .

وَإِنَّمَا قُلْتُ : « مُقْتَوِي » بِضَمِّ الْمِيمِ ا «

وهذا البيت والذي يليه من قصيدة رائعة له - هي من أجمل الشعر العربي وأجوده وأدقه في شرح النفوس وتحليلها مع براعة الأداء وقوة الشاعرية - وهي :

تكاشرني كُرْهاً كأنك ناصح
لسانك ماذى^(١) ، وغيبك علقم
فليت كفافاً كان خيرك كله
عدوك يخشى صوتي - إن لقيته -
تصافح من لاقيت لي ذا عداوة
أراك إذا لم أهو أمراً هويته
أراك اجتويت الخير مني ، وأجتوي^(٢)
وكم موطن - لولاي - طمحت كما هوى
إذا ما ابنتي المجد ابن عمك لم تمن
فإنك - إن قيل ابن عمك غانم -
تملأت من غيظ علي^٣ ؛ فلم يزل
وما برحت نفس حسود حسبها
وقال النطاسيون : « إنك مُشعر^٤
جمعت ، وفحشاً ، غيبة ونميمة ،
أفحشاً وجبناً ، واختناء^(٥) عن الندى
فيدحو بك اللاحي إلى كل سواة
بدا منك غش طال ما قد كتتمته

وعينك تبدى أن صدرك لي دوى
وشرك مبسوط ، وخيرك منطوي
وشرك عني ، ما ارتوى الماء مرتوي
وأنت عدوي ، ليس ذاك بمستوي
صفاحاً ، وغبي بين عينيك منزوي
ولست لما أهوى من الأمر يلهوي
أذاك ، فكل يجتوي قرب مجتوي^(٦)
بأجرامه من قلة النيق^(٤) منهوي
وقلت : « ألا ياليت بنيانه خوي »
شج أو عميد أو أخو مغلة لوي
بك الغيظ حتى كدت بالغيظ تنشوي
تذبيك ، حتى قيل : هل أنت مكتوي ؟
سلالا « ألا بل أنت من حسد دوى
خصالاً ثلاثا لست عنها بمرعوي
كأنك أفهي كدية فر محجوي^(٦)
فيا شر من يدحو بأطيش مدحوي
كما كتتمت داء ابنها أم مدوي^(٧)

(١) غسل أبيض (٢) أكره (٣) كاره (٤) أرفع موضع في الجبل ، ومعنى البيت « كم موقف آزرتهك فيه لميتك من التلف ، ولو لم أفل لهويت كما يهوى الشيء من أعلى قمة في الجبل »
(٥) الاختناء التقبض (٦) منطوي (٧) المدوي الذي يأخذ الدواية ، وهي جلدة رقيقة تركب اللبن ، يقال دوى اللبن يدوي فهو مدو . وأقبل الصبيان على اللبن يدوونه ، أي يأخذون ما عليه من الجلدة .
ولأم مدو قصة طريفة ، فانظرها في الأمالي .

وَإِذَا جَمَاعَةٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ ، كُلُّهُمْ يَلُومُونَهُ عَلَى تَأْوِيلِهِ .
فَقُلْتُ : « يَا قَوْمِ إِنَّ هَذِهِ أُمُورٌ هَيِّنَةٌ ، فَلَا تُعْمِسُوا^(١) هَذَا الشَّيْخَ ، فَإِنَّهُ
مَا سَفَكَ لَكُمْ دَمًا ، وَلَا احْتَجَنَ^(٢) عَنْكُمْ مَالًا » .
فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ . وَشُغِلْتُ بِمُخَاطَبِهِمْ ، وَالنَّظَرَ فِي حَوِيرِهِمْ^(٣) ، فَسَقَطَ مِنِّي
الْكِتَابُ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ التَّوْبَةِ ، فَرَجَعْتُ أَطْلُبُهُ ، فَمَا وَجَدْتُهُ

حَدِيثُهُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ^(٤)

فَظَهَرَتْ الْوَلَةُ وَالْجَزَعُ ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : « لَا عَلَيْكَ^(٥) أَلَّا شَاهِدُ
بِالتَّوْبَةِ ؟ » فَقُلْتُ : « نَعَمْ ! قَاضِي حَلَبَ وَعَدُوهَا^(٦) » فَقَالَ : « بِمَنْ يُعْرَفُ
ذَلِكَ الرَّجُلُ ؟ » فَأَقُولُ : « بَعْبِدِ الْمُنْعِمِ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ ، قَاضِي حَلَبَ - حَرَسَهَا
اللَّهُ - فِي أَيَّامِ سَيْبِ الدَّوَلَةِ » فَأَقَامَ هُنَاكَ هَاتِفًا يَهْتِفُ فِي الْمَوْقِفِ : « يَا عَبْدَ الْمُنْعِمِ
ابْنَ عَبْدِ الْكَرِيمِ قَاضِي حَلَبَ فِي زَمَانِ سَيْبِ الدَّوَلَةِ أَهْلَ مَعَكَ عِلْمٌ مِنْ تَوْبَةِ
عَلِيِّ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ طَالِبِ الْحَلَبِيِّ ؟ » فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، فَأَخَذَنِي الْهَلَعُ^(٧) وَالرُّعْدَةُ ،
ثُمَّ هَتَفَ الثَّانِيَةَ ، فَلَمْ يُجِبْهُ مُجِيبٌ ! فَطُرِحْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ نَادَى الثَّلَاثَةَ ، فَأَجَابَهُ
قَائِلٌ يَقُولُ : « نَعَمْ قَدْ شَهِدْتُ تَوْبَةَ عَلِيِّ بْنِ مَنْصُورِ ، وَذَلِكَ بِأَخْرَةِ^(٨) مِنَ
الْوَقْتِ ، وَحَضَرَتْ مَتَابَهُ عِنْدِي جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَدُولِ ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَاضِي حَلَبَ
وَأَعْمَالُهَا . »

(١) لا ترهقوه، وترفقوا به (٢) ضم إلى نفسه (٣) محاورتهم (٤) ستمربك ترجمته
وطرف من أخباره في الجزء الثالث من هذا الكتاب (٥) لاضير عليك (٦) جمع عدل،
وهو العادل الذي ترضى شهادته (٧) شدة الجزع (٨) جاء أخرة، وبأخرة : أى
آخر كل شيء .

فَعِنْدَ ذَلِكَ نَهَضْتُ وَقَدْ أَخَذْتُ الرَّمَقَ^(١) ، فَذَكَرْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
— عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَا أَلْتَمِسُ ، فَأَعْرَضَ عَنِّي ، وَقَالَ : « إِنَّكَ لَتُرُومُ مُمْتَنِعًا ، وَلَكَ
أُسْوَةٌ بَوْلِدِ أَيْكَ آدَمَ »

وروده الحوض

وَهَمَمْتُ بِالْحَوْضِ ، فَكِدْتُ لَا أَصِلُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ نَعَبْتُ مِنْهُ نَعَبَاتٍ^(٢) لَا ظَمًا
بَعْدَهَا ، وَإِذَا الْكُفْرَةُ يَحْمِلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْوُرُودِ ، فَتَذُودُهُمْ^(٣) الزَّبَانِيَةُ بِعِصَى
تَضْطَرِمُ نَارًا ، فَيَرْجِعُ أَحَدُهُمْ وَقَدْ اخْتَرَقَ وَجْهَهُ أَوْ يَدُهُ ، وَهُوَ يَدْعُو بَوَيْلٍ وَبُورٍ^(٤)

حديثه مع فاطمة

فَطَفْتُ عَلَى الْعِثْرَةِ الْمُتَشَجِّينَ ، فَقُلْتُ : « إِنِّي كُنْتُ فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ إِذَا
كُتِبَتْ كِتَابًا وَفَرَعْتُ مِنْهُ قُلْتُ فِي آخِرِهِ : « وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ
النَّبِيِّينَ ، وَعَلَى عِثْرَتِهِ الْأَخْيَارِ الطَّيِّبِينَ » وَهَذِهِ حُرْمَةٌ لِي وَوَسِيلَةٌ »

فَقَالُوا : « مَا نَصْنَعُ بِكَ ؟ » فَقُلْتُ : « إِنَّ مَوْلَاتِنَا فَاطِمَةَ^(٥) — عَلَيْهَا السَّلَامُ —
قَدْ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ مِنْذُ دَهْرٍ . وَإِنَّهَا تَخْرُجُ فِي كُلِّ حِينٍ مِقْدَارُهُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ
سَاعَةً مِنْ سَاعَاتِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ ، فَتُسَلِّمُ عَلَيَّ أَيْهَا وَهُوَ قَائِمٌ لِشَهَادَةِ الْقَضَاءِ . ثُمَّ
تَعُودُ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا فِي الْجَنَانِ ، فَإِذَا هِيَ خَرَجَتْ كَالْعَادَةِ فَاسْأَلُوهَا فِي أَمْرِي

(١) بقية الروح (٢) جرجا (٣) تطردهم وتدفعهم (٤) هلاك

(٥) فاطمة الزهراء : توفيت سنة ١١ هـ

هي بنت رسول الله صلوات الله عليه ، وقد تزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ،
فولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، وكانت فصيحة عاقلة . وقد توفيت بعد أبيها
بسته أشهر ، ويروى عنها بعض الأحاديث النبوية .

بأجمعكم ، فلعلها تسأل أباهما في « فلما حان خروجها ، ونادى الهاتِفُ أن غُضُوا
أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبرَ فاطمة بنت محمد - صلى الله عليه -
اجتمع من آل أبي طالب خاق كثير من ذكور وإناث ممن لم يشرب خمرًا ،
ولاعرف قط مُنكرًا ، فلقوها في بعض السبيل . فلما رأيتهم قالت : « ما بال
هذه الزرافة؟ ^(١) ألكم حالٌ تُذكر؟ » فقالوا : « نحن بخير . إنا نلتذُّ بتحف
أهل الجنة . غير أننا محبوسون للكلمة السابقة ، ولا نريد أن نتسرع إلى الجنة
قبل الميقات ، إذ كنا آمينين ناعمين ، بدليل قوله « إن الذين سبقت لهم منا
الحسنى أولئك عنها مُبعدون لا يسمعون حسيبها ^(٢) وهم فيما اشتهت أنفسهم
خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي
كنتم تُوعدون » . وكان فيهم علي بن الحسين ^(٣) ، وأبناه محمد ^(٤)

(١) الجماعة (٢) صوتها الخفي

(٣) علي بن الحسين : ٥٣٨ - ٥٩٤ هـ

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الملقب بزین العابدين . كان يضرب
به المثل في الحلم والورع ، ولد بالمدينة وتوفي بها . ومن شواهد نبه أنه أحصى بعد موته من
كان يقوتهم سرًا فإذا هم نحو مائة بيت ، حتى قال بعض أهل المدينة : « ما فقدنا صدقة السر
إلا بعد موت زين العابدين . »

(٤) محمد بن علي : توفي سنة ١١٤ هـ

هو محمد بن علي زين العابدين بن الحسين ، وقد مرت ترجمة أبيه في هذه الصفحة ويلقب
محمد بن علي بأبي جعفر الباقر ، وكان ناسكًا عابدًا ، ويروى له في تفسير القرآن آراء وأقوال ،
ولد بالمدينة ، وتوفي خارجها ، فنقلت جثته إليها ، ودفن بها .

وَزَيْدٌ^(١) ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأَبْرَارِ الصَّالِحِينَ ، وَمَعَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ امْرَأَةً
أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَاهَا فِي الشَّرَفِ وَالْجَلَالَةِ ، فَقِيلَ : « مَنْ هَذِهِ ؟ » فَقِيلَ :
« خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أُسْدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيِّ^(٢) » وَمَعَهَا شَبَابٌ عَلَى أَفْرَاسٍ
مِنْ نُورٍ ، فَقِيلَ : « مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ » فَقِيلَ : « عَبْدُ اللَّهِ ، وَالْقَاسِمُ ، وَالطَّيِّبُ ،
وَالطَّاهِرُ ، وَإِبْرَاهِيمُ^(٣) ، بَنُو مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »

(١) زيد بن علي : توفي سنة ١٢٢ هـ

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، أقام بالكوفة ، وقرأ على واصل بن عطاء
رأس المعتزلة ، واقتبس منه علم الاعتزال ، وخرج على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٠ هـ
داعياً إلى العمل بالكتاب والسنة ، ورد المظالم ، والعدل في القسمة . وكان عامل العراق
آنئذ يوسف بن عمر الثقفي ، فكتب يوسف إلى الحكيم بن أبي الصلت يأمره بقتال زيد ، ففعل ،
ودارت معارك ختمت بقتل زيد ، فحمل رأسه إلى الشام ونصب على باب دمشق . وإلى
زيد بن علي تنسب الطوائف الزيدية الباقية إلى يومنا هذا في اليمن وغيرها .

(٢) خديجة بنت خويلد : توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ، أول زوجة للرسول صلوات الله عليه ،
وكانت أسن منه بخمس عشرة سنة ، ولدت بمكة ، ونشأت في بيت شرف ويسار ،
وتزوجت برجل مات عنها ، وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام ، فتستأجر
لذلك الرجال . وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تجارة لها إلى الشام فربحت
ربحاً عظيماً ، فأرسلت إليه من يعرض عليه زواجه منها ، فلما تزوجها ولدت له القاسم وعبد الله
(وهو الطاهر والطيب) وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، وكان بين كل ولدين سنة . ولما
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاها إلى الإسلام ، فأسلمت ، ومكثا يصليان سراً إلى
أن ظهرت الدعوة الإسلامية . وتوفيت خديجة بمكة .

(٣) هكذا في جميع النسخ . والذكور من أولاد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة :

عبد الله ، والقاسم ، وإبراهيم . أما الطيب والطاهر فلقبان ، قيل إنهما لقباً عبد الله .

فَقَالَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَةُ الَّتِي سَأَلْتُ: « هَذَا وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَائِنَا قَدْ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ،
وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ تَوَسَّلَ بِنَا إِلَيْكَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ - فِي أَنْ
يُرَاحَ مِنْ أَهْوَالِ الْمُتَوَقِّفِ، وَيَصِيرَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَتَعَجَّلَ الْفَوْزَ »
فَقَالَتْ لِأَخِيهَا إِبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - : « دُونَكَ الرَّجُلَ » فَقَالَ لِي :
« تَعَلَّقْ بِرِكَابِي » وَجَعَلَتْ تِلْكَ الْخَيْلُ تَمَخَّلُ النَّاسَ؛ وَتَنَكَّشِفُ لَهَا الْأُئُمَّ
وَالْأَجْيَالَ^(١). فَلَمَّا عَظُمَ الزَّحَامُ، طَارَتْ فِي الْهَوَاءِ، وَأَنَا مُتَعَلِّقٌ بِالرِّكَابِ

حديثه مع النبي

فَوَقَفْتُ عِنْدَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: « مَنْ هَذَا الْآتَاوِي^(٢)؟ »
فَقَالَتْ: « هَذَا رَجُلٌ سَأَلَ فِيهِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ » وَسَمَّتْ جَمَاعَةً مِنَ الْأُمَّةِ
الطَّاهِرِينَ، فَقَالَ: « حَتَّى يُنْظَرَ فِي عَمَلِهِ » فَسَأَلَ فِي عَمَلِي، فَوَجَدَهُ فِي الدِّيْوَانِ
الْأَعْظَمِ. وَقَدْ خُتِمَ بِالتَّوْبَةِ؛ فَشَفَعَ لِي، فَأُذِنَ لِي فِي الدُّخُولِ

عبور الصراط

فَلَمَّا خَلَصْتُ مِنْ تِلْكَ الطُّمُوشِ^(٣) قِيلَ لِي: « هَذَا الصَّرَاطُ، فَاعْبُرْ عَلَيْهِ »
فَوَجَدْتُهُ خَالِيًا لَا عَرِيبَ^(٤) عِنْدَهُ، فَبَلَوْتُ نَفْسِي فِي الْعُبُورِ، فَوَجَدْتَنِي
لَا أَسْتَمْسِكُ، فَقَالَتِ الزُّهْرَاءُ^(٥) - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهَا - لِجَارِيَةٍ مِنْ جَوَارِيهَا:

فلعله سهو من أبي العلاء، إذ اشتبهت عليه الأسماء بالألقاب، فعد الذكور خمسة.
وجل من لا يسهو، فالعصمة لله وحده.

(١) الأجيال: أجناس الناس، كالترك، والروم، والزنج (٢) الغريب

(٣) جمع طمش، وهو الناس (٤) لا أحد (٥) هي السيدة فاطمة، وقد تقدمت ترجمتها

« يَا فُلَانَةُ ، أَجِيزِيهِ ^(١) » فَجَعَلَتْ تُمَارِسُنِي ^(٢) وَأَنَا أَتَسَاقَطُ عَنْ يَمِينِ وَشِمَالِ
فَقُلْتُ لَهَا : « يَا هَذِهِ ! إِنْ أَرَدْتَ سَلَامَتِي ، فَاسْتَعْمِلِي مَعِيَ قَوْلَ الْقَائِلِ
فِي الدَّارِ العَاجِلَةِ :

« سِتِّ إِنْ أَعْيَاكَ أَمْرِي فَاحْمِلِي زَقْفُونَهُ »

فَقَالَتْ : « وَمَا زَقْفُونَهُ ؟ » قُلْتُ : « أَنْ يَطْرَحَ الإِنْسَانُ يَدَيْهِ عَلَى كَتِفِي
الْآخَرَ ، وَيُمْسِكَ يَدَيْهِ ، وَيَحْمِلُهُ وَبَطْنُهُ إِلَى ظَهْرِهِ . أَمَا سَمِعْتِ قَوْلَ
الْجَحْجَجُولِ مَنْ أَهْلَ كَفْرِ طَابِ :

صَلَحَتْ حَالَتِي إِلَى انْخَلْفِ حَتَّى صِرْتُ أَمْشِي إِلَى الْوَرَى زَقْفُونَهُ ^(٣) »

فَقَالَتْ : « مَا سَمِعْتِ بِزَقْفُونَةٍ وَلَا الْجَحْجَجُولِ وَلَا كَفْرِ طَابٍ إِلَّا السَّاعَةَ ! »
فَتَحْمِلُنِي ، وَتَجُوزُ كَالْبَرْقِ الْخَاطِيفِ . فَلَمَّا جُرْتُ ، قَالَتْ الزَّهْرَاءُ - عَلَيْهَا
السَّلَامُ - : « قَدْ وَهَبْنَا لَكَ هَذِهِ الْجَارِيَةَ ، فَخُذْهَا كَتَى تَخْدُمُكَ فِي الْجَنَانِ . »

حواره مع رضوان

فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، قَالَ رِضْوَانٌ : « هَلْ مَعَكَ مِنْ جَوَازٍ ؟ »
فَقُلْتُ : « لَا » فَقَالَ : « لَا سَبِيلَ إِلَى الدُّخُولِ إِلَّا بِهِ »

(١) اجعليه يجوز ، أى يعبر (٢) تعالجنى (٣) كفر طاب قرية من قرى الشام ،
وفيهما يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أرى كفر طاب أمجز الماء حفره وبالس أغناها الفرات عن الحفر
كذلك مجرى الرزق ، واد به ندى ، وواد به فيض ، وآخر ذو جفر

وبالس قرية بالشام

فَبَعَلْتُ^(١) بِالْأَمْرِ ، وَعَلَى بَابِ الْجَنَّةِ - مِنْ دَاخِلٍ - شَجَرَةٌ صَفْصَافٌ ،
قُلْتُ : « أُعْطِنِي وَرَقَةً مِنْ هَذِهِ الصَّفْصَافَةِ ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى الْمَوْقِفِ ،
فَأُخَذَ عَلَيْهَا جَوَازًا » فَقَالَ : « لَا أُخْرِجُ شَيْئًا مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ الْعَلِيِّ
الْأَعْلَى - تَقَدَّسَ وَتَبَارَكَ »

فَلَمَّا دَجَرْتُ^(٢) بِالنَّازِلَةِ ، قُلْتُ : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لَوْ أَنَّ لِلْأَمِيرِ
أَبِي الْمَرْجِيِّ خَازِنًا مِثْلَكَ ، لَمَا وَصَلْتُ أَنَا وَلَا غَيْرِي إِلَى دَرِّهِمْ مِنْ خَزَائِنِهِ ! »

دخوله الجنة

وَأَلْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - فَرَأَى وَقَدْ تَخَلَّفَتْ عَنْهُ ، فَرَجَعَ
إِلَى ، فَجَذَبَنِي جَذْبَةً حَصَلَنِي بِهَا فِي الْجَنَّةِ ، وَكَانَ مُقَامِي^(٣) فِي الْمَوْقِفِ مُدَّةَ
سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ شُهُورِ الْعَاجِلَةِ ، فَلِذَلِكَ بَقِيَ عَلَى حِفْظِي ، مَا نَزَفْتُهُ^(٤) الْأَهْوَالُ ،
وَلَا نَهَكُهُ تَدْقِيقُ الْحِسَابِ .

(١) وصلت حيرتي وخوفي وسأمتي الى حد لم أدر معه ما أصنع

(٢) حيرت (٣) إقامتي (٤) ما أذهبتته

الفصل الثالث

نَعِيمُ الْفِرْدَوْسِ

حديثه مع حميد بن ثور^(١)

وَيَنْصَرِفُ عَنْهُ رَشِيداً إِلَى حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ ؟ فَيَقُولُ :
« إِيهَ يَا حُمَيْدُ ! لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي قَوْلِكَ :

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَابَنِي - بَعْدَ صِحَّةٍ - وَحَسْبُكَ دَاهٍ أَنْ تَصِحَّ وَتَسَامَا^(٢)
وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ^(٣) يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا ، أَنْ يُدْرِكَ مَا تَيْمَمَا^(٤)

فَكَيْفَ بَصْرُكَ الْيَوْمَ ؟ » فَيَقُولُ : « إِنِّي لَا كُونُ فِي مَغَارِبِ الْجَنَّةِ ، فَأَلْمَحُ
الصَّبِيقَ مِنْ أَصْدِقَائِي وَهُوَ بِمَشَارِقِهَا ، وَيَبْنِي وَيَبْنِي مَسِيرَةَ الْوُفِّ أَعْوَامٍ

(١) حميد بن ثور الهلالي .

شاعر إسلامي من عامر بن صعصعة ، ينسبون إليه البيت المشهور الذي جرى مجرى
المثل ، وهو قوله :

ينام بإحدى مقلتيه ، ويتقى بأخرى الأعدى ، فهو يقظان نائم

(٢) في هذا المعنى يقول أبو العلاء في لزومياته :

يداوى المريض لكيما يصح وهل صحة الجسم إلا مرض ؟

(٣) الليل والنهار (٤) تيممه : قصده ، ومعنى البيتين : ضعف بصري بعد أن

كان صحيحاً ، وكفى بالصحة منذراً بالمرض ، فقد آلى الزمن ليستقمن كل صحيح ، وليس
يعجز الزمن الدائر بأيامه ولياليه أن يدرك غايته وشيكاً .

لِلشَّمْسِ الَّتِي عَرَفْتَ سُرْعَةَ سَيْرِهَا فِي الْعَاجِلَةِ ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ بَدِيعٍ ^(١)»

فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي الدَّالِيَةِ الَّتِي فِيهَا - :

تَتَابَعَ أَعْوَامٌ عَلَيْهَا هَزَلَتْهَا وَأَقْبَلَ حَامٌ ، يُنْعَشُ النَّاسَ ، وَاحِدٌ »

فَيَقُولُ حَمِيدٌ : « لَقَدْ شَغِلْتُ بِمَا وَهَبَ لِي رَبِّي الْكَرِيمُ ، وَلَا خَوْفَ

عَلَيَّ وَلَا حَزْنَ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُعْمَلُ فِكْرُهُ السَّنَةَ وَالْأَشْهُرَ فِي الرَّجُلِ

قَدْ آتَاهُ اللَّهُ الشَّرْفَ وَالْمَالَ ، فَرُبَّمَا رَجَعَ بِالْخَيْبَةِ ، وَإِنْ أُعْطِيَ فَعَطَاءٌ زَهِيدٌ ،

وَلَكِنَّ النَّظْمَ فَضِيلَةُ الْعَرَبِ »

حديثه مع لبيد ^(٢)

وَيَعْرِضُ لَهُمْ لَبِيدُ بْنُ رَيْبَعَةَ ، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَيُقْسِمُ عَلَيْهِمْ لِيَذْهَبْنَ

مَعَهُمْ ، فَيَمْشُونَ قَلِيلًا ، فَإِذَا هُمْ بِأَيَّاتٍ ثَلَاثَةٍ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ نَظِيرُهَا بَهَاءٌ

وَحُسْنًا . فَيَقُولُ لَبِيدٌ : « أَتَعْرِفُ أَيُّهَا الْأَدِيبُ الْحَلْبِيُّ هَذِهِ الْأَيَّاتُ ؟ إِنَّهَا قَوْلِي :

إِنَّ تَقْوَى ^(٣) رَبِّنَا خَيْرٌ نَفَلٌ ^(٤) . وَإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلٌ

أُحْمَدُ اللَّهِ ، فَلَا نِدَّ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلٌ

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ ، وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ ^(٥)

(١) البديع - هنا - ما اخترع على غير مثال سابق

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٤٦ (٣) خشية (٤) غنيمة (٥) معنى

الأيات : أربح غنم يصيبه الإنسان هو خشية الله مصرف الأمور ، فله الحمد ، لا كفوله ،

بيده الخير ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو على ما يشاء قدير

صَيَّرَهَا رَبِّي أُنْيَاتًا فِي الْجَنَّةِ أَسْكُنُهَا أُخْرَى الْأَبَدِ «
فَيَعَجَبُ هُوَ وَأَوْلِيكَ الْقَوْمُ ، وَيَقُولُونَ : « إِنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ عَلَى مَا أَرَادَ ! »

مأدبة في الجنة

وَيَبْدُو لَهُ (١) أَنْ يَصْنَعَ مَأْدِبَةً فِي الْجَنَانِ ، يَجْتَمِعُ فِيهَا مَنْ أَمَكَّنَ مِنْ شُعْرَاءِ
الْخَضْرَمَةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَالَّذِينَ أَصْلُوا كَلَامَ الْعَرَبِ ، وَجَعَلُوهُ مُحْفُوظًا فِي الْكُتُبِ ،
وغيرِهِمْ مِمَّنْ يَتَأَنَسُ بِقَلِيلِ الْأَدَبِ ، وَيَخْطُرُ لَهُ أَنْ تَكُونَ كَمَا دَبِ الدَّارِ
الْعَاجِلَةِ ، إِذْ كَانَ الْبَارِي لَا يُعْجِزُهُ - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ - أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِجَمِيعِ
الْأَغْرَاضِ مِنْ غَيْرِ كُفَّةٍ وَلَا إِبْطَاءٍ ، فَتُنشَأُ أَرْحَاءُ (٢) عَلَى الْكُوْثَرِ ، تُجْمَعُ
لِطَحْنِ بُرٍّ (٣) الْجَنَّةِ ، وَإِنَّهُ لَأَفْضَلُ مِنْ بُرِّ الْهُدَلِيِّ (٤) الَّذِي قَالَ فِيهِ :
« لَا دَرٌّ دَرِي (٥) إِنْ أَطْعَمْتُ رَائِدَكُمْ قِرْفَ الْحَتَّى (٦) وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزٌ (٧) »

بِمِقْدَارِ تَفْضُلِ بِهِ السَّمَوَاتِ الْأَرْضِيْنَ

* * *

وَيَجِسُّ (٨) فِي صَدْرِهِ أَرْحَاءُ تَدُورُ فِيهَا الْبَهَائِمُ ، فَيَمَثُلُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا شَاءَ
مِنَ الْبُيُوتِ فِيهَا أَحْجَارٌ مِنْ جَوَاهِرِ الْجَنَّةِ ، تُدِيرُ بَعْضَهَا جِمَالَ تَسُومُ فِي عِضَاهِ (٩)
الْفِرْدَوْسِ ، وَأَيْنُقُ ، وَصُنُوفٌ مِنَ الْبِغَالِ وَالْبَقَرِ

(١) أى ابن القارح (٢) الأرحاء ، جمع رحي ، وهى المعروفة (٣) قمح (٤) هو أبو

ذؤيب ، وقد مرت ترجمته فى ص ٣٥ (٥) لا در درى . أى لا كثر خيرى ، ولا زكا عملى .

(٦) القرف : القشر ، والحتى : قشر الردىء من ثمار شجر اللوم (٧) معنى البيت :

لا برك الله فى مالى إذا أطعمت نازلكم قشر اللوم ، مع وفرة ما لدى من القمح الزائد عن

حاجتى (٨) يجس : يقع فى ضميره ، أى يكون فى خاطره على وجه التمنى ، ولعل اللفظ :

يهجس ، أى يمر بباله ، والمعنى لا يتغير على كلا اللفظين (٩) شجر ذو شوك

فَإِذَا اجْتَمَعَ مِنَ الطَّحْنِ مَا يُظَنُّ أَنَّهُ كَافٍ لِمَادِبَةٍ ، تَفَرَّقَ خَدَمُهُ مِنْ
الْوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِينَ ، فَجَاءُوا بِالْجِدَاءِ وَضُرُوبِ الطَّيْرِ الَّتِي جَرَتْ الْعَادَةُ بِأَسْكَهَا .
وَسَيِّقَتِ الْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، وَالْإِبِلُ ، لِتُعْتَبَطَ ؛ فَارْتَفَعَ يُعَارُ الْمَعِينِ وَتُوجُّ الضَّانِ
وَصِيَاخُ الدِّيَكَةِ لِعِيَانِ الْمُدْيَةِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي ابْتَدَعَ خَلْقَهُ مِنْ غَيْرِ
رَوِيَّةٍ^(١) ، وَصَوْرَةٌ بِلَا مِثَالٍ

فَإِذَا حَصَلَتِ النُّحُوضُ^(٢) فَوْقَ الْأَوْفَاضِ^(٣) ، قَالَ : « أَحْضَرُوا مِنَ الْجَنَّةِ
الطُّهَاءَ السَّارِكِينَ بِحَلَبٍ عَلَى مَرِّ الْأَزْمَانِ » فَتَحَضَّرُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ ، فَيَأْتُرُهُمْ
بِاتِّخَاذِ الْأَطْعِمَةِ ، وَتِلْكَ لَدَى يَهَبَهَا اللَّهُ - عَزَّ سُلْطَانُهُ - بِدَلِيلِ قَوْلِهِ :
« وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ
الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؛ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ »
فَإِذَا آتَتِ الْأَطْعِمَةُ افْتَرَقَ غِلْمَانُهُ الَّذِينَ كَانَتْهُمْ الْوُلُوءُ الْمَسْكُونُ لِإِحْضَارِ
الْمَدْعُوعِينَ ، فَلَا يَتْرُكُونَ فِي الْجَنَّةِ شَاعِرًا إِسْلَامِيًّا وَلَا مُخَضَّرَمًا ، وَلَا قَائِمًا بِشَيْءٍ
مِنْ أَصْنَافِ الْعُلُومِ ، وَلَا مُتَادِّبًا إِلَّا أَحْضَرُوهُ ، فَيَجْتَمِعُ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، فَتُوضَعُ
أُخُونٌ^(٤) مِنَ الذَّهَبِ ، وَالْفَوَاثِيرُ^(٥) مِنَ اللُّجَيْنِ^(٦) ، وَيَجْلِسُ عَلَيْهَا الْأَكْلُونَ ،
وَتُنْقَلُ إِلَيْهِمُ الصِّحَافُ^(٧)

(١) الروية : النظر والتفكير ، والمراد أن خلق الله لم يحتاج منه سبحانه إلى جهد ومشقة

(٢) النحوض جمع نحوض ، وهو المكتنز من اللحم (٣) الأوفاض جمع وفض ، وهو

ما يُقَطَّعُ عَلَيْهِ اللحم مثل الوضم (٤) جمع خوان (بكسر الخاء أو ضمها) وهو ما يوضع

عليه الطعام ليؤكل (٥) جمع فاتور ، وهي الأخونة أيضاً ، أو الطسوت (٦) الفضة

(٧) جمع صحفة ، وهي قصعة أقل من الجفنة

مجلس أنس و غناء

فَإِذَا قَضَوْا الْأَرْبَ مِنَ الطَّعَامِ ، جَاءَتِ السُّقَاةُ بِأَصْنَافِ الْأَشْرِيَةِ ،
وَالْمُسْمِعَاتُ بِالأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ ، وَيَقُولُ^(١) : « عَلَى بَنِّ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْمُغْنِيَنِ
وَالْمُغْنِيَّاتِ ، يَمْنُ كَانُوا فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ، فَقَضِيَتْ لَهُ التَّوْبَةُ » . فَتَحْضُرُ جَمَاعَةٌ
كثيرةٌ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ ، فِيهِمُ الْغَرِيضُ ، وَمَعْبُدٌ ، وَابْنُ سُرَيْجٍ ، إِلَى أَنْ
يَحْضُرَ إِبْرَاهِيمُ الْمُوَصِّلِيُّ ، وَابْنَةُ إِسْحَاقَ

حديث الجرادتين^(٢)

فَيَقُولُ قَائِلٌ مِنَ الْجَمَاعَةِ ، وَقَدْ رَأَى أُسْرَابَ^(٣) قِيَانٍ قَدْ حَضَرْنَ :
« مِنْ الْعَجَبِ أَنَّ الْجَرَادَتَيْنِ فِي أَقْصَى الْجَنَّةِ ! »
فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ^(١) قَالَ : « لَا بُدَّ مِنْ حُضُورِهِمَا » فَيَرْكَبُ بَعْضُ الْخُدَمِ نَاقَةً
مِنْ نُوقِ الْجَنَّةِ ، وَيَذْهَبُ إِلَيْهِمَا - عَلَى بُعْدِ مَكَانِهِمَا - فَتُقْبِلَانِ عَلَى نَجِيْبَيْنِ
أَسْرَعَ مِنَ الْبَرْقِ

فَإِذَا حَصَلَتَا عَلَى الْمَجْلِسِ ، حَيَّاهُمَا وَبَشَّ بِهِمَا ، وَقَالَ : « كَيْفَ خَلَصْتُمَا إِلَى
دَارِ الرَّحْمَةِ بَعْدَ مَا خَبَطْتُمَا فِي الضَّلَالِ ! » فَتَقُولَانِ : « قُدِّرَتْ لَنَا التَّوْبَةُ ، وَمِتْنَا
عَلَى دِينِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ »

(١) أي ابن القارح (٢) الجرادتان - فيما زعموا - مغنيتان غنتا لوفد عاد الجرهمي بمكة ،
فشغلا عن الطواف بالبيت ، وسؤال الله فيما قصدوا له ، فهلكت عاد وهم لاهون
(٣) جمع سرب ، أي قطع من النساء

فَيَقُولُ : « أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمَا ، أَسْمَعَانَا شَيْئًا مِنَ الْقَصِيدَةِ الْحَائِيَّةِ الَّتِي
تُرْوَى لِعَبِيدٍ مَرَّةً ، وَلِأَوْسٍ أُخْرَى ، وَمَا سَمِعْنَا قَطُّ بِعَبِيدٍ وَلَا أَوْسٍ ^(١) . فَتُلْهُمَا نِ
أَنْ تُغْنِيَا بِالْمَطْلُوبِ ، فَتُلْحَنَانِ :

هَبَّتْ تَلُومٌ وَلَيْسَتْ سَاعَةَ اللَّاحِي ^(٢) هَلَّا انْتَهَرْتَ بِهَذَا اللَّوْمِ إِصْبَاحِي
قَاتَلَهَا اللَّهُ : تَلْحَانِي وَقَدْ عَامَتْ
أَنْيُّ لِنَفْسِي إِفْسَادِي وَإِصْلَاحِي
إِنْ أَشْرَبِ الْخُمْرَ أَوْ أَرْزَأُ لَهَا ثَمْنَا
فَلَا مَحَالَةَ يَوْمًا أَنْبِي صَاحِي
وَلَا مَحَالَةَ مِنْ قَبْرِ بِمَحْنِيَّةٍ ^(٣) أَوْ فِي مَلِيْعٍ ^(٤) كَظَهَرَ التُّرْسِ وَصَّاحِ

فَتُطْرَبَانِ مَنْ سَمِعَ ، وَتَسْتَفْزِانِ الْأَفْتِدَةَ بِالسُّرُورِ .
وَيَكْتُرُ حَمْدُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - كَمَا أَنْعَمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالتَّائِبِينَ ،
وَخَلَّصَهُمْ مِنْ دَارِ الشَّقْوَةِ إِلَى مَحَلِّ النِّعَمِ .

(١) يعني أن الجاريتين تغنيانهم بما يطلبون بالرغم من أنهما لم تسمعا بهذه القصيدة
ولا بالذين تنسب إليهما من قبل (٢) اللأم (٣) محنية أو محنوة أو محناة ، جمعها محان ،
وهي معاطف الأودية (٤) المليع : طريق ضيقة ذاهبة في الأرض إلى مسافة قريبة ،
قاعها أقل من قامة ، أو هو الأرض المستوية ، أو الأرض التي لا نبات فيها

حديث جرّان العود النّميرى

وَيَلْتَفِتُ، فَإِذَا هُوَ بِجِرَّانِ الْعَوْدِ^(١) النّميرى، فَيُحَيِّيه وَيُرْحَبُ بِهِ، وَيَقُولُ
لِبَعْضِ الْقِيَانِ : « أَشْمَعَانَا قَوْلَ هَذَا الْمُحْسِنِ :
حَمَلَنَ جِرَّانَ الْعَوْدِ حَتَّى وَضَعْنَهُ^(٢) بَعْلِيَاءَ^(٣) فِي أَرْجَائِهَا الْجُنُّ تَعْرِفُ^(٤)
وَقُلْنَ : « تَمَتَّعَ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَذِهِ^(٥) فَإِنَّكَ مَرَجُومٌ^(٦) غَدًا أَوْ مُسِيفٌ^(٧) »

(١) جِرَّانُ الْعَوْدِ

الجِرَّانُ : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منخره ، والعودُ : البعير المسن .
وجرّان العود لقب هذا الشاعر ، وإنما لقب بذلك لقوله مخاطباً امرأته - وقد أغضبته :
خذا حذراً يا جارتى ، فأننى رأيت جرّان العود قد كان يصلح
يعنى بذلك أنه كان قد اتخذ سوطاً من جرّان العود يضرب به نساءه فهو يخيفهما به ،
وكان قد لقي منهما مكروها ، فقال فى ذلك أبيتاً جميلة منها :
ألا لا تغرنّ امرأً نوفلية على الرأس بعدى أو ترائب وضّح
الى أن قال :

خذا نصف مالى ، واتركالى نصفه ، وبيننا بدم ، فالتغربّ أروح
وأوجز ما يوصف به هذا الشاعر هو كلمة « محسن » التى وصفه بها أبو العلاء ، فإن أظهر
ميزة لشعره - وهو مجموع فى ديوان صغير مخطوط بدار الكتب - هى الإحسان . وقد اقترحنا
فى الطبعتين السابقتين من هذه الرسالة على دار الكتب أن تطبع هذا الديوان النفيس ، فلبت
اقتراحنا متفضلة ، وأخرجته فى أبهى حلة وأجمل رواء (٢) العلياء : رأس الجبل ، أو المكان
العالى ، والمعنى أنهم وضعنى موضعاً لا يوصل إليه (٣) تصوّت (٤) مرمى بالحجارة
(٥) مقتول بالسيف . ومعنى البيت : قلن لى : « انتهز فرصة هذه الليلة وتمتع بنا ،
فر بما كانت آخر لياليك من الدنيا ، لأنك قد ترجم غدا بالحجارة ، أو تقتل بالسيف »

وَأَحْرَزَنَ مِني^(١) سُكْلَ حُجْزَةٍ^(٢) مِثْرٍ^(٣) لَهْمَنَ^(٤) ، وَطَاحَ^(٥) النُّوفِلي^(٦) المِزخْرَفِ

(١) ممن عنى (٢) الحجة معقد الإزار ، أو موضع التكة من السراويل .
(٣) سقط (٤) شيء من صوف تختمر به نساء العرب ، وقيل : هو ضرب من الحلى يدرنه على رؤوسهن تحت الخمار . والنوفلي أيضاً ضرب من الامتشاط ، وهو ما نذهب إليه هنا ، فيكون المعنى أن شعورهن المنسقة المزخرفة قد تهدلت .
ويروى هذا البيت قبل سابقه في النسختين الخطية والمطبوعة من رسالة الغفران ، ولكننا آثرنا رواية الأبيات كما هي في ديوان الشاعر ، لأن المعنى ينتظم على هذه الصورة ، فالغواني يبحن له معابثهن ؛ ويشتد المزح والمغازلة ، حتى تهدل شعورهن ، فإذا أراد المزيد منعه ؛ فأحرزن منه حجز مآزرهن بالعفة .

أما تفسير الأبيات على الرواية الأخرى ، فيحتاج إلى تكاف

*
* *

وهذه الأبيات الثلاثة من قصيدة مطولة لهذا الشاعر باغت في الإجابة شأوا بعيداً ، وإذا استشهد بعض الأدباء بوضع أبيات قلائل لعمر بن أبي ربيعة أو جميل أو غيرها ، على وجود شيء من محاولة العرب للشعر القصصي ؛ فإن في هذه القصيدة وحدها مثلاً واضحاً لتلك المحاولة ، لعنا لا نجد له شبيهاً آخر في كل ما نقرأ من شعر العرب . وتنيف أبيات هذه القصيدة على السبعين بيتاً .

ونحب أن نحيل القارئ إلى ديوان ذلك الشاعر المحسن ، ونكتفي هنا بإيراد بضعة أبيات متفرقة منها ؛ تعطى فكرة موجزة عن أغراض القصيدة وهي :

ذَكَرَتِ الصِّبَا فَانْهَلَتِ العَيْنَ تَدْرِفُ وَرَاجَعَكَ الشُّوقَ الَّذِي كُنْتَ تَعْرِفُ
وَكَانَ فُؤَادِي قَدْ صَحَا ، ثُمَّ هَاجَنِي حَمَامٌ وَرَقٌ ، بِالْمَدِينَةِ هَتَفُ

*
* *

فَتُصِيبُ الْقَيْنَةَ وَتُجِيدُ

وقالت لنا والعيس صُعرٌ من البرى
وأحجافها بالجندل الصم تقذف
فمعدك الشط الذي بين أهلنا
وأهلك ، حتى نسمع الديك يهتف
فلما علانا الليل أقبلت خفية
لموعدها ، أعلو الأكام وأظلف
فأقبلن يمشين الهوينا تهاديا
قصار الخطا ، منهن راب ومزحف
فلما هبطن السهل واحتلن حيلة
ومن حيلة الإنسان ما يتخوف
حملن جرّان العود حتى وضعنه
بعلياء - في أرجائها الجن تعزف
ولما رأين الصبح ، بادرن ضوءه
وأدركن أعجازا من الليل بعد ما
وما أبّن حتى قلن : « يا ليت أننا
فإن ننج من هذى ولم يشعروا بنا
فأصبحن صرعى في الحجال وبيننا
يبلغهن الحاج كل مكاتب
ومكونة رمداء لا يحدرونها
ويقول في ختامها
فأصبحت غريد الضحى قد ومقنى
بشوق ، ولمات المحبين تشغف
أى أصبحت فرحا طروبا قد شغفن بي ، واللقاء يهتاج الشغف

فَإِذَا أُعْجِبَتِ الْجَمَاعَةُ مِنْ إِحْسَانِهَا وَإِصَابَتِهَا، قَالَتْ: « أَتَدْرُونَ مَنْ أَنَا؟ »
فَيَقُولُونَ: « لَا وَاللَّهِ! » فَتَقُولُ: « أَنَا أُمُّ عَمْرٍو الَّتِي يَقُولُ فِيهَا الْقَائِلُ:
تَصُدُّ الْكَأْسَ عَنَّا أُمُّ عَمْرٍو وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا
وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْبِحِينَا ^(١) »
فَيَزِدَادُونَ بِهَا عَجَبًا، وَلَهَا إِكْرَامًا، وَيَقُولُونَ: « لِمَنْ هَذَا الشَّعْرُ؟ الْعَمْرُ
ابْنِ عَدِيٍّ اللَّخْمِيِّ، أُمُّ لِعَمْرٍو بْنِ كَلْثُومِ التُّغَلْبِيِّ؟ »
فَتَقُولُ: « أَنَا شَهِدْتُ نَدْمَانِي جَدِيمَةً: مَالِكًا وَعَقِيلًا، وَصَبَّحْتُهُمَا الْخَمْرَ
الْمُشَعَّشَةَ ^(٢)، لَمَّا وَجَدَا عَمْرٍو بْنَ عَدِيٍّ، فَكُنْتُ أُصْرِفُ الْكَأْسَ عَنْهُ، فَقَالَ
هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، فَلَعَلَّ عَمْرٍو بْنَ كَلْثُومٍ حَسَّنَ بِهِمَا كَلَامَهُ، وَاسْتَزَادَهُمَا
فِي آيَاتِهِ ^(٣) »

رقص الحور

وَيَذْكَرُ الْآيَاتَ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ، وَالْخَلِيلُ يَوْمَئِذٍ فِي
الْجَمَاعَةِ، وَأَنَّهَا تَصْلُحُ لِأَنَّ يُرْقَصَ عَلَيْهَا، فَيُنشِئُ اللَّهُ الْقَادِرُ بِلُطْفِ حِكْمَتِهِ
شَجَرَةً مِنَ الْجُوزِ، فَتُورَعُ لَوَقْتِهَا، ثُمَّ تَنْفُضُ عَدَدًا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللَّهُ
- سُبْحَانَهُ - وَتَنْشَقُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُ عَنْ أَرْبَعِ جَوَارٍ يَرْقِنُ الرَّائِينَ، يَرْقُصْنَ

(١) صَبَّحَهُ، كَمَعَهُ: سَقَاهُ صَبُوحًا، وَهُوَ مَا أُصْبِحَ عِنْدَ الْقَوْمِ مِنْ شَرَابٍ

(٢) الْمَرْزُوجَةُ بِالْمَاءِ (٣) أَيْ فِي مَعْلَقَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ الَّتِي مَطْلَعُهَا:

الْأَهْبِي بِصَحْنِكَ فَأَصْبِحِينَا وَلَا تَبْقِ خُورَ الْأَنْدَرِينَا

عَلَى الْأَيَّاتِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى الْخَلِيلِ ، وَأَوَّلُهَا :

« إِنَّ الْخَلِيْطَ تَصَدَّعَ ^(١) فَطِرٌ بِدَائِكَ أَوْ قَعٌ
لَوْ لَا جَوَّارٍ حِسَانٌ مِثْلُ الْجَاذِرِ ^(٢) أَرْبَعٌ
لَقُلْتُ لِلظَّاعِنِ : « اظْمَنْ ^(٣) إِذَا بَدَا لَكَ ، أَوْ دَعْ »
فَهَتَزُّ أَرْجَاءَ الْجَنَّةِ .

*
*
*
وَيَقُولُ : « لِمَنْ هَذِهِ الْأَيَّاتُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؟ » فَيَقُولُ الْخَلِيلُ :
« لَا أَعْلَمُ ! » فَيَقُولُ : « إِنَّا كُنَّا فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ نَرَوِي هَذِهِ الْأَيَّاتَ لَكَ ! »
فَيَقُولُ الْخَلِيلُ : « لَا أَذْكَرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا قِيلَ حَقًّا »
فَيَقُولُ : « أَنْسَيْتَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَأَنْتَ أَذْكَى الْعَرَبِ فِي عَصْرِكَ ؟ »
فَيَقُولُ الْخَلِيلُ : « إِنَّ عُبُورَ الصَّرَاطِ يَنْفُضُ الْخُلْدَ ^(٤) مِمَّا اسْتُوْدِعَ ! »

*
*
*
وَيَمْبُرُ طَاوُسٌ مِنْ طَوَاوِيسِ الْجَنَّةِ ، يَرُوقُ مِنْ رَأْيِهِ حُسْنًا ، فَيَشْتَهِيهِ
أَبُو عُبَيْدَةَ مَصُوصًا ^(٥) ، فَيَتَكَوَّنُ كَذَلِكَ فِي صَحْفَةٍ مِنَ الذَّهَبِ . فَإِذَا قَضَى
مِنْهُ الْوَطَرَ ، انْضَمَّتْ عِظَامُهُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ تَصِيرُ طَاوُسًا كَمَا بَدَأَ ^(٦) ،
فَتَقُولُ الْجَمَاعَةُ : « سُبْحَانَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » ، هَذَا كَمَا جَاءَ فِي

(١) تفرق (٢) جمع جوذر وهو ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه
(٣) ارحل أو سر ، والمعنى : قد تفرق الجمع فإذا أنا صانع بعد نأى من أحب ، ولو
خلا الركب من هؤلاء الحسان الأربع لتساوى عندي إقامته ورحيله (٤) القلب أو البال
أو النفس ، والمعنى : أن عبور الصراط ينسى المرء ما علم ، من شدة الهول والفرع
(٥) المصوص : طعام من لحم الطير ، يطبخ وينقع في الخل (٦) أى كما كان

الكتاب الكريم : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْحِي الْمَوْتَى . قَالَ : أَوْلَمْ تُؤْمِنُ ؟ قَالَ : بَلَى . وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ ^(١) إِلَيْكَ ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تُيُنُوكَ سَمِيًّا . وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «
وَيَفْتَرِقُ أَهْلُ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ ، وَهُمْ نَاعِمُونَ .

حديثه مع الحوريتين

وَيَخْلُو ^(٢) بِحُورٍ يَتَيْنِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، فَإِذَا بَهَرَهُ مَا يَرَاهُ مِنَ الْجَمَالِ ،
قَالَ : « أُعْزِزْ عَلَيَّ بِهَلَاكِ الْكِنْدِيِّ ^(٣) :

(١) أحضرهن وقطعهن (٢) أى ابن القارح

(٣) الكندى « امرؤ القيس » : توفى سنة ٥٦٠ م

هو ابن حجر بن عمرو الكندى ، بلده نجد ، وأبوه أحد ملوك بني أسد .
كان امرؤ القيس ماجناً لاهياً ، فطرده أبوه ، فظل على لوهو وتبطله حتى قتل بنو أسد
أباه لظلمه ، فصمم على الأخذ بثأر أبيه ، وحاربهم فقهرهم مراراً ، ولكنه أبى أن يكتفى
بما أحرزه من الفوز على أعدائه ، ولم يقنع بما أدركه من الثأر ، وطلب المزيد ، فسم أصحابه
وخذلوه ؛ فاستنجد بقيصر ملك الروم على أعدائه ، فاحتفى به ، ولكن وشاية دنيشة
من أعداء امرئ القيس غيرت عليه قلب القيصر ، فأهلكه .

ويعدّه جمهور مؤرخى الآداب أفل شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين ، ويقولون :
إنه أول من وصف النساء وشبههم بالظباء والمها ، وإنه أول من ابتكر المعانى الجميلة الدقيقة ،
وأجاد الاستعارة والتشبيه ، إلى آخر تلك الأوصاف التى أفاض فى سردها نقاد الأدب الأقدمون
على أن لشعره روعة يشعر بها كل من تذوق الأدب ، وفيه سحر لا تراه إلا فى شعر
القليل من فحول الشعراء ، كالأعشى والذبيانى ، وقليل من أضرابهما .

..... إلى لَأَذْكَرُ بِكُمَا

انظر إلى دقته مثلاً في وصف الليل وتبرمه بطوله - إذ يقول في معلقته الخالدة :
فيا لك من ليل كأنَّ نجومه بكل مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ يَبْذِلُ
وانظر إلى ضيق ذرعه بذلك الليل الذي أمله طوله وأضجره ، فأصبح يترقب طلوع
الصباح بفارغ الصبر ، لينقذه من سأمته التي سببها طوله . ثم التفاتته المملوءة بالفطنة ودقة
الملاحظة ، وانتباهه الى أن ذلك الصباح الذي يترقبه بلهف وشوق ليس خيراً من ليله المضجر .
فإنك لتمثل تلك الصورة جلية شديدة الوضوح في البيت التالي - على إيجازه - :

ألا أيها الليل الطويل ! ألا انجل بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل

*
* *

وانظر إلى ابداعه وافتنانه ، وقدرته العظيمة على تحليل أدق خواجه في لاميته الساحرة
التي يقول فيها :

لقد زعمت « بسباسة » اليوم أني
ويا رب يوم قد لهوت وليلة
تنورتها من أذرعات ، وأهلها
نظرت إليها - والنجوم كأنها
سموت إليها بعد ما نام أهلها
فقلت : « سبأك الله ! إنك فاضحي
فقلت : « عيين الله أبرح قاعداً
حلفت لها بالله حلفة فاجر :
فأصبحت معشوقاً ، وأصبح بعلمها
ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة
ولكنما أسعى لمجد مؤثّل
وما المرء - ما دامت حُشاشة نفسه -

كبرت ، وأن لا يحسن اللهو أمثالي
بأنسة ، كأنها خط تمثال
ييثرب ، أدنى دارها نظر عال
مصاييح رهبان ، تُشَبُّ لُقُفَال
سمو حباب الماء ، حالاً على حال
ألست ترى السُّمَار والناس أحوالي ؟
« لو قطعوا رأسي لديك وأوصالي »
« لنأموا ، فما إن من حديث ، ولا صالي »
عليه القتام - سيء الظن والبال
كفاني - ولم أطلب - قليل من المال
وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي
بمدرك أطراف الخطوب ولا آلي

قَوْلُهُ :

وما أجمل قوله في معلقته :

كأني غداة البين ، يوم ترحلوا
وقوفاً بها صبحي على مطيهم
وإن شفتي عبرة مهراقة
كدأبك من أم الحُوَيْرِثِ قبلها
إذا قامتا تَصَوِّعُ المسك منهما
ففاضت دموع العين مني صباية
ألا رب يوم لك منهن صالح
ويوم دخلت الخدر ، خدرَ عُنَيْزَةَ
تقول - وقد مال الغبيط بنا معاً - :
فقلت لها : « سيري - وأرخي زمامه
أفاطمُ مهلاً ، بعضَ هذا التدلل
أغركِ مني أن حبك قاتلي
فشلكِ حبلي قد طرقت ومرضع
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي
ويضة خدر لا يرام خباؤها
تسلت عمايات الرجال عن الصبا
وليل كموج البحر أرخى سدوله
فقلت له - لما تمطى بصلبه ،
- لدى سمرات الحى - ناقف حنظل
يقولون : « لا تهلك أسي ، وتجمل »
فهل عند رسم دارس من معول
وجارتها أم الرباب بمأسل
نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل
على النحر حتى بل دمي محلي
ولا سيما يوم بدارة جلجل
فقلت : « لك الويلات ! إنك مُرْجَلِي »
« عقرت بعيري يا امرأ القيس ، فانزل »
ولا تبعديني عن جنائك المعلل
وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى
وأنتك مهما تأمرى القلب يفعل
فألهيتها عن ذي تمامٍ مُحْوَلِ
بشق - وتحتي شقها لم يحول
بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مقتل
تمتعت من هو بها غير مُعْجَلِ
وليس فؤادي عن هواك مُنْسَلِ
على بأنواع . اللهم ليبتلى
وأردف أحجازاً ، وناء بكلكل : -

كَدَأَبِكَ (١) مِنْ أُمِّ الْحَوِيرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمُّ الرَّبَابِ بِمَا سَأَلَ (٢)
إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ (٣) الْمِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بَرِيًّا (٤) الْقَرْنَفُلُ (٥)
وَإِنَّ صَاحِبَتَاهُ مِنْكُمَا ، لَا كَرَامَةَ لَهُمَا وَلَا نِعْمَةً ؟ لَجَلَسَةَ مَعَكُمَا بِمِقْدَارِ
دَقِيقَةٍ مِنْ دَقَائِقِ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ مُلْكِ بَنِي آكَلِ الْمُرَارِ وَبَنِي النَّضْرِ بِالْحَيْرَةِ .
وَأَلِ جَفْنَةَ مُلُوكِ الشَّامِ !

وَيُقْبَلُ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يَتَرَشَّفُ رُضَابَهَا ، وَيَقُولُ : « إِنَّ امْرَأَةَ الْقَيْسِ
لِمِسْكِينَ مَسْكِينَ ، تَحْتَرِقُ عِظَامُهُ فِي السَّعِيرِ ، وَأَنَا أَتَمَثَّلُ بِقَوْلِهِ :

« أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ ! أَلَا انْجَلِ بِصَبْحِ ، وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمَثَلِ
فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ ! كَأَنَّ نَجُومَهُ بِكُلِّ مَغَارِ الْفَتْلِ شَدَّتْ بِيذْبَلِ
كَأَنَّ الثَّرِيَا عَلَقَتْ فِي مَصَامِهَا بِأَمْرَاسِ كَتَانٍ إِلَى صَمِّ جَنْدَلِ «
وَقَدْ أَغْتَدَى ، وَالطَّيْرُ فِي وَكِنَاتِهَا بِمَنْجَرِدٍ ؛ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هِيكَلِ
مَكْرٍ مَفْرٍ مَقْبَلِ مَدْبَرٍ مَعَا كَجَمُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلِ
وَنَحْتُمْ هَذِهِ النَّخْبَةَ بِقَوْلِهِ :

إِذَا قَلْتُ : هَذَا صَاحِبٌ قَدْ رَضِيْتَهُ وَقَرْتُ بِهِ الْعَيْنَانَ ، بَدَلْتُ آخِرَا
كَذَلِكَ جَدِي (١) مَا أَصَاحِبٌ صَاحِبَا مِنْ النَّاسِ ، إِلَّا خَانِي وَتَغْيِرَا

وسيمر بك طرف من أخباره وشعره في هذا الجزء ، فلنكتف بهذا القدر اليسير الآن :

(١) كعادتك (٢) اسم جبل (٣) انتشرت فبجته (٤) الريا : هي الرائحة الطيبة
(٥) المعنى « عادتك في حب هذه ، كعادتك من قبل في حب أم الحويرث وأم الرباب
وقد كانتا : يعبق منهما المسك أنى ذهبنا ، كما انتشر عطر القرنفل الذكي ، حملته ريح الصبا »
ويوضح هذين البيتين قوله في البيت الذي قبلهما من معلقته

وإن شغلتني عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول ؟

كَانَ الْمُدَامَ وَصَوَّبَ الْغَمَامِ وَرِيحَ الْخَزَامِي وَنَشَرَ الْقَطْرُ
يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنْبَاهَا إِذَا غَرَّدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَجِرُ^(١)

فَتَسْتَعْرِبُ^(٢) إِحْدَاهُمَا ضِحْكًا؛ فَيَقُولُ: «مِمَّ تَضْحِكِينَ؟» فَيَقُولُ: «فَرَحًا
بِتَفَضُّلِ اللَّهِ! أَتَدْرِي مَنْ أَنَا يَا عَلِيُّ بْنُ مَنْصُورٍ؟» فَيَقُولُ: «أَنْتِ مِنْ حُورِ
الْجَنَانِ اللَّوَاتِي خَلَقَهُنَّ اللَّهُ جَزَاءَ الْمُتَّقِينَ، وَقَالَ فِيكُنَّ: «كَأَنَّهِنَّ الْيَاقُوتُ
وَالْمَرْجَانُ» فَيَقُولُ: «أَنَا كَذَلِكَ بِإِنْعَامِ اللَّهِ الْعَظِيمِ عَلَيَّ أَنِّي كُنْتُ فِي الدَّارِ
الْعَاجِلَةِ أُعْرِفُ بِحَمْدُونَةَ، وَأَسْكُنُ فِي بَابِ الْعِرَاقِ بِحَلَبَ، وَأَبِي صَاحِبُ
رَحَى، وَتَزَوَّجَنِي رَجُلٌ يَبِيعُ السَّقَطَ^(٣)، فَطَلَّقَنِي لِرَاحِمَةٍ كَرِهَهَا مِنْ فَيٍّ؛ وَكُنْتُ
مِنْ أَقْبَحِ نِسَاءِ حَلَبَ، فَلَمَّا عَرَفْتُ ذَلِكَ زَهَدْتُ فِي الدُّنْيَا، وَتَوَفَّرْتُ عَلَى
الْعِبَادَةِ، وَأَكَلْتُ مِنْ مِغْزَلِي وَمِرْدَنِي^(٤)، فَصَيَّرَنِي ذَلِكَ إِلَى مَا تَرَى!»

*
* *

وَتَقُولُ الْآخَرَى: «أَتَدْرِي مَنْ أَنَا يَا عَلِيُّ بْنُ مَنْصُورٍ؟ أَنَا تَوْفِيقُ السَّوْدَاءِ
الَّتِي كَانَتْ تَخْدُمُ فِي دَارِ الْعِلْمِ بِيَعْدَادَ، عَلَى زَمَانِ أَبِي مَنْصُورٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ
الْخَازِنِ، وَكُنْتُ أُخْرِجُ الْكُتُبَ إِلَى النُّسَاجِ»

(١) استجر: أي صاح في السحر (٢) استعرب في الضحك، واستعرب - بالبناء
للمجهول - : بالغ وأغرق، وكذلك أعرب. وهذا هو المقصود، وليس المراد أنها تظهر
الغرابية في صورة الضحك، وإن كان الكلام يحتمله، ولكن الأول أدخل في باب الفصاحة،
وأشبهه بأسلوب أبي العلاء في هذه الرسالة (٣) ردى المتاع: والخسيس الرذل من كل شيء،
وبأثمه السقطي (٤) المردن: المغزل

فَيَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ! لَقَدْ كُنْتُ سَوْدَاءً ، فَصِرْتُ أَنْصَعَ مِنَ
الْكَافُورِ ! » فَتَقُولُ : « أَتَعْجَبُ مِنْ هَذَا ، وَالشَّاعِرُ يَقُولُ لِبَعْضِ الْمَخْلُوقِينَ :
لَوْ أَنَّ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالَ خَرْدَلَةٍ فِي السُّودِ كُلِّهِمْ ، لَا يَبْضُتِ السُّودُ »

حدائق الحور

وَيَمُرُّ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَيَقُولُ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْحُورِ
الْعَيْنِ ، أَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ، جَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا
عُرْبًا أَثْرَابًا ، لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ »

فَيَقُولُ الْمَلَكُ : « هُنَّ عَلَى ضَرْبَيْنِ ، ضَرْبِ خَلْقَةِ اللَّهِ فِي الْجَنَّةِ لَمْ يَعْرِفْ
غَيْرَهَا ، وَضَرْبِ نَقْلِهِ اللَّهُ مِنَ الدَّارِ الْعَاجِلَةِ لِمَا عَمِلَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةَ »

فَيَقُولُ - وَقَدْ عَجِبَ مِمَّا سَمِعَ - : « فَأَيْنَ اللَّوَاتِي لَمْ يَكُنَّ فِي الدَّارِ الْفَانِيَةِ ؟
وَكَيْفَ يَتَمَيِّزْنَ مِنْ غَيْرِهِنَّ ؟ »

فَيَقُولُ الْمَلَكُ : « أَقِفْ أُتْرَى »

فَيَتْبَعُهُ ، فَيَجِيءُ بِهِ إِلَى حَدَائِقِ لَا يَعْرِفُ كُنْهَهَا إِلَّا اللَّهُ .

فَيَقُولُ الْمَلَكُ : « خُذْ ثَمْرَةً مِنْ هَذَا الثَّمَرِ ، فَاكْسِرْهَا ، فَإِنَّ هَذَا

الشَّجَرُ يُعْرَفُ بِشَجَرِ الْحُورِ »

فَيَأْخُذُ سَفْرَجَةً أَوْ رُمَانَةً أَوْ تَفَاحَةً ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الثَّمَرِ ، فَيَكْسِرُهَا ،

فَتَخْرُجُ مِنْهَا جَارِيَةٌ حَوْرَاءٌ عَيْنَاءُ . تَبْرُقُ^(١) لِحُسْنِهَا حُورِيَّاتُ الْجَنَانِ ، فَتَقُولُ :

(١) برق - هنا - : دهش وتبحر

« مَنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ » فَيَقُولُ : « أَنَا مُفْلَانُ ابْنِ مُفْلَانٍ » فَتَقُولُ :
« إِنِّي أُمِّي بِلِقَائِكَ ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ الدُّنْيَا بِأَرْبَعَةِ آلَافِ سَنَةٍ »
فَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْجُدُ إِعْظَامًا لِلَّهِ الْقَدِيرِ ، وَيَقُولُ : « هَذَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ :
أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، بَلَّه^(١) مَا أَطَّلَعْتُمْ عَلَيْهِ »

*
* *

وَيَحْطُرُ فِي نَفْسِهِ ، وَهُوَ سَاجِدٌ ، أَنَّ تِلْكَ الْجَارِيَةَ - عَلَى حُسْنِهَا -
صَاوِيَةٌ^(٢) ، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ ، وَقَدْ صَارَ مِنْ وَرَائِهَا رَدْفٌ يُضَاهِي
كُثْبَانَ^(٣) عَالِجٍ . فَيَهَالُ^(٤) مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ ، وَيَقُولُ : « يَا رَازِقَ الْمَشْرِقَةِ سَنَاهَا ،
وَمُبْلِغَ السَّائِلَةِ مُنَاهَا ، وَالَّذِي فَعَلَ مَا أَعْجَزَ وَهَالَ ، وَدَعَا إِلَى الْحِلْمِ الْجُهَالِ !
أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْصُرَ بَوْصَ^(٥) هَذِهِ الْجُورِيَّةِ عَلَى مِيلٍ فِي مِيلٍ ، فَقَدْ جَازَ بِهَا قَدْرُكَ
حَدَّ التَّامِيلِ ! »

فَيُقَالُ لَهُ : « أَنْتَ مُخَيَّرٌ فِي تَكْوِينِ هَذِهِ الْجَارِيَةِ كَمَا تَشَاءُ »
فَيَقْتَصِرُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْإِرَادَةِ .

(١) قال أبو العلاء : « وبله : في معنى دع ، وكيف » (٢) نحيفة (٣) جمع كثيب وهو التل من الرمل ، وعالج : موضع كثير الرمل ، يضرب به المثل في الكثرة (٤) يفرع ، ويعظم عليه الأمر (٥) ردف

لفصل الرابع

جنة العفاريت

وَيَبْدُو لَهُ^(١) أَنْ يَطَّلِعَ إِلَى أَهْلِ النَّارِ ، فَيَنْظُرَ إِلَى مَا هُمْ فِيهِ ، لِيَعْظُمَ شُكْرَهُ عَلَى النَّعْمِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ - تعالى - : « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنْ كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ : أَتُنْكَلِنَ الْمُصَدِّقِينَ ؟ أَيْدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَتِنَا لَمَدِينُونَ^(٢) ؟ قَالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟ فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، قَالَ : تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ تُرْدِينِ ، وَلَوْ لَا نِعْمَةٌ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ »

*
* *

فَيَرَكِبُ بَعْضَ دَوَابِّ الْجَنَّةِ وَيَسِيرُ ، فَإِذَا هُوَ بِمَدَائِنٍ لَيْسَتْ كَمَدَائِنِ الْجَنَّةِ ، وَلَا عَلَيْهَا النُّورُ الشَّعْشَعَانِي^(٣) ، وَهِيَ ذَاتُ أَدْحَالٍ وَغَمَائِلٍ^(٤) . فَيَقُولُ لِبَعْضِ الْمَلَائِكَةِ : « مَا هَذِهِ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ » فَيَقُولُ : « هَذِهِ جَنَّةُ الْعَفَارِيتِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَذَكَرُوا فِي الْأَحْقَافِ ، وَفِي سُورَةِ الْجِنِّ ، وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ »

فَيَقُولُ : « لِأَعْدِلَنَّ إِلَى هَؤُلَاءِ ، فَلَنْ أَخْلُوَ لَدَيْهِمْ مِنْ أُعْجُوبَةٍ » فَيَعُوجُ

(١) أى ابن القارح (٢) مجازون (٣) المتألق المنتشر (٤) الأدحال : المصانع

تجتمع فيها الماء ، والغمايل : جمع غملول (بضم الغين) وهو الوادى الضيق الكثير الشجر والنبت الملتف ؛ أو الوادى ذو الشجر الطويل القليل العرض الملتف ، أو هو كل مجتمع

أظلم وتراكم من الشجر

عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا هُوَ بِشَيْخٍ جَالِسٍ عَلَى بَابِ مَغَارَةٍ ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، فَيُحْسِنُ الرَّدَّ ،
وَيَقُولُ : « مَا جَاءَ بِكَ يَا إِنْسِي ؟ » فَيَقُولُ : « سَمِعْتُ أَنَّكُمْ جِنٌّ مُؤْمِنُونَ ،
فَجِئْتُ أَلْتَمِسُ عِنْدَكُمْ أَخْبَارَ الْجِنَّانِ ^(١) ، وَمَا لَعَلَّهُ يُوجَدُ لَدَيْكُمْ مِنْ أَشْعَارِ
الْمُرْدَةِ » فَيَقُولُ ذَلِكَ الشَّيْخُ : « لَقَدْ أَصَبْتَ الْعَالِمَ بِبَجْدَةٍ ^(٢) الْأَمْرِ ،
فَسَلِّ عَمَّا بَدَأَ لَكَ »

فَيَقُولُ : « مَا اسْمُكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ ! » فَيَقُولُ : « أَنَا الْخَيْتَعُورُ أَحَدُ
بَنِي الشَّيْصَبَانِ ، وَلَسْنَا مِنْ وَلَدِ إِبْلِيسَ ، وَلَكِنَّا مِنَ الْجِنِّ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ
الْأَرْضَ قَبْلَ وَلَدِ آدَمَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ »

أشعار الجن

فَيَقُولُ : « أَخْبِرْنِي عَنْ أَشْعَارِ الْجِنِّ ، فَقَدْ جَمَعَ الْمَعْرُوفُ بِالْمَرْزُبَانِيِّ ^(٣)
قِطْعَةً صَالِحَةً » فَيَقُولُ ذَلِكَ الشَّيْخُ : « إِنَّمَا ذَلِكَ هَدْيَانٌ لَا مُعْتَمَدَ عَلَيْهِ ،
وَهَلْ يَعْرِفُ الْبَشَرُ مِنَ النَّظِيمِ إِلَّا كَمَا تَعْرِفُ الْبَقْرُ مِنْ عِلْمِ الْهَيْئَةِ وَمِسَاحَةِ
الْأَرْضِ ، وَإِنَّمَا لَهُمْ خَمْسَةٌ عَشَرَ جِنْسًا مِنَ الْمَوْزُونِ ، قَلَّ مَا يَعُدُّوهَا الْقَائِلُونَ ،
وَإِنَّ لَنَا آلَافَ أَوْزَانٍ مَا سَمِعَ بِهَا الْإِنْسُ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَخْطُرُ بِهِمْ أَطِيفَالٌ
مِنَّا عَارِفُونَ ، فَتَنَفَيْتُمْ إِلَيْهِمْ مِقْدَارَ الضَّوَاذِرِ ^(٤) مِنْ أَرَاكِ ^(٥) نِعْمَانَ ^(٦) . وَلَقَدْ

(١) الجنان : جمع جان ؛ والجان : اسم جمع للجن (٢) أى العالم بدخلة الأمر وباطنه

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عمران ، ولد ببغداد ، وتوفى بها سنة ٣٨٤ هـ وهو من أئمة

الأدباء ، وله مؤلفات كثيرة ضاع أكثرها ، ومن أنفع مؤلفاته الموجودة : كتاب الموشح فى

مآخذ العلماء على الشعراء . وفى فهرست ابن النديم وصف لمؤلفاته ، انظر الجزء الأول ص ١٣٢

(٤) الشظية من السواك (٥) الاراك : شجر يستاك بقضبانته (٦) مكان معروف

نَظَمْتُ الرَّجَزَ وَالْقَصِيدَ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ آدَمُ بِكُورٍ^(١) أَوْ كُورَيْنِ ، وَقَدْ
بَلَغَنِي أَنَّكُمْ مَعَشَرَ الْإِنْسِ تَلْهَجُونَ بِقَصِيدَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ : (قِفَا نَبْكَ مِنْ
ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَنْزِلٍ) وَتُحَفِّظُونَهَا الْحَزَاوِرَةَ^(٢) فِي الْمَكَاتِبِ . وَإِنْ شِئْتَ
أَمَلَيْتُكَ أَلْفَ كَلِمَةٍ عَلَى هَذَا الْوِزْنِ ، عَلَى مِثْلِ : « مَنْزِلٍ وَحَوْمَلٍ » وَأَلْفًا عَلَى ذَلِكَ
الْفَرَى^(٣) يَجِيءُ عَلَى : « مَنْزِلٌ وَحَوْمَلٌ » وَأَلْفًا عَلَى : « مَنْزِلًا وَحَوْمَلًا » وَأَلْفًا عَلَى :
« مَنْزِلُهُ وَحَوْمَلُهُ » وَأَلْفًا عَلَى « مَنْزِلُهُ وَحَوْمَلُهُ » وَأَلْفًا عَلَى : « مَنْزِلِهِ وَحَوْمَلِهِ »
وَكُلُّ ذَلِكَ لِشَاعِرٍ مِتَّ هَلَاكَ وَهُوَ كَافِرٌ ، وَهُوَ الْآنَ يَشْتَعِلُ فِي أَطْبَاقِ الْجَحِيمِ .

*
**

فَيَقُولُ : « أَيُّهَا الشَّيْخُ : لَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ حِفْظُكَ ! »
فَيَقُولُ : « لَسْنَا مِثْلَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ . يَغْلِبُ عَلَيْنَا النَّسْيَانُ وَالرُّطُوبَةُ .
لِأَنَّكُمْ خُلِقْتُمْ مِنْ حَمَاءٍ^(٤) مَسْنُونٍ ، وَخُلِقْنَا مِنْ مَارِجٍ^(٥) مِنْ نَارٍ »
فَتَحْمِلُهُ الرَّغْبَةُ فِي الْأَدَبِ أَنْ يَقُولَ لِذَلِكَ الشَّيْخِ : « أَفْتَمِلُ^(٦) عَلَى شَيْئًا مِنْ
تِلْكَ الْأَشْعَارِ ؟ »
فَيَقُولُ : فَإِذَا شِئْتَ أَمَلَيْتُكَ^(٦) مَا لَا تَسِقُّهُ^(٧) الرِّكَابُ^(٨) ، وَلَا تَسَعُهُ
صُحُفُ دُنْيَاكَ ! »

(١) مائة وخمسون سنة ، أو مائتان ، أي نحو قرنين (٢) جمع حزور وهو الغلام
(٣) في النسخة المطبوعة : العرى بالعين . ورأينا أنها محرفة عما أثبتناه هنا ، والفرى :
الماخذ والمنحى والطريقة ، يقال : هو يَفْرِى فَرِيَهُ ، أي ينحو نحوه (٤) طين أسود (٥) شعلة
ساطعة ذات لهب شديد ، أو نار بلا دخان (٦) أمليت عليك (٧) ما لا تحمله (٨) الإبل
(١٤)

فِيهِمْ بِأَنْ يَكْتَتِبَ مِنْهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : « لَقَدْ شَقِيتُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ بِجَمْعِ
الْأَدَبِ ، وَلَمْ أَحْظَ مِنْهُ بِطَائِلٍ . وَلَسْتُ بِمُوفِقٍ إِنْ تَرَكَتُ لَذَاتِ الْجَنَّةِ
وَأَقْبَلْتُ أَنْتَسِخُ آدَابَ الْجِنِّ ، وَمَعِيَ مِنَ الْأَدَبِ مَا هُوَ كَافٍ . لَا سِيَّامًا وَقَدْ شَاعَ
النُّسْيَانُ فِي أَهْلِ أَدَبِ الْجَنَّةِ . فَصِرْتُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ رِوَايَةً ، وَأَوْسَعِهِمْ حِفْظًا .
وَلِلَّهِ الْحَمْدُ »

وَيَقُولُ لِذَلِكَ الشَّيْخِ : « مَا كُنَيْتُكَ لِأَكْرِمَكَ بِالتَّكْنِيَةِ » فَيَقُولُ :
« أَبُو هَدْرَشَ ، أَوْلَدْتُ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَهَمُّ قَبَائِلٍ ، بَعْضُهُمْ فِي النَّارِ
الْمُوقَدَةِ ، وَبَعْضُهُمْ فِي الْجَنَانِ »

فَيَقُولُ : « يَا أَبَا هَدْرَشَ : مَا لِي أَرَاكَ أَشَيْبًا ! وَأَهْلُ الْجَنَّةِ شَبَابٌ ؟ »
فَيَقُولُ : « إِنَّ الْإِنْسَانَ أُكْرِمُوا بِذَلِكَ وَحُرِّمْنَا ، لِأَنَّا أُعْطِينَا الْحَوْلَةَ ^(١) فِي
الدَّارِ الْمَاضِيَةِ ، فَكَانَ أَحَدُنَا إِنْ شَاءَ صَارَ حَيَّةً رَقَشَاءً ^(٢) ، وَإِنْ شَاءَ صَارَ عُصْفُورًا ،
وَإِنْ شَاءَ صَارَ حَمَامَةً ؛ فَمُنِعْنَا التَّصَوُّرَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَتَرَكْنَا عَلَى خَلْقِنَا
لَا نَتَغَيَّرُ ، وَعَوَّضُ بَنِي آدَمَ كَوْنَهُمْ فِيهَا حَسَنَ مِنَ الصُّورِ ، وَكَانَ قَائِلُ الْإِنْسَانِ
يَقُولُ فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ : « أُعْطِينَا الْحِيلَةَ ، وَأُعْطِيَ الْجِنُّ الْحَوْلَةَ ! » وَلَقَدْ لَقِيتُ
مِنْ بَنِي آدَمَ شَرًّا ، وَلَقُوا مِنِّي كَذَلِكَ . »

(١) القدرة على التحول والتقلب (٢) المنقطة بسواد وبياض

صرع فتاة

« دَخَلْتُ - مَرَّةً - دَارَ أَنَسِ أُرِيدُ أَنْ أَصْرَعَ فَتَاةً لَهُمْ ، فَتَصَوَّرْتُ فِي
صُورَةِ عَضَلٍ ^(١) ، فَدَعَوَا لِي الضِّيَّانَ ^(٢) ، فَلَمَّا أَرَهَقْتَنِي تَحَوَّلَتْ صِلًا أَرْقَمَ ، وَدَخَلْتُ
فِي قَطِيلٍ ^(٣) هُنَاكَ . فَلَمَّا عَامُوا ذَلِكَ كَشَفُوهُ عَنِّي ، فَلَمَّا خِفْتُ الْقَتْلَ صِرْتُ
رِيحًا هَفَّافَةً ، فَلَحِقْتُ بِالرَّوَّافِدِ ^(٤) ، وَتَفَضُّوا تِلْكَ الْخُشْبَ وَالْأَجْدَالَ فَلَمْ يَرَوْا
شَيْئًا ، فَجَعَلُوا يَتَفَكَّنُونَ ^(٥) ، وَيَقُولُونَ : « لَيْسَ هَاهُنَا مَكَانٌ يُمَكِّنُ
أَنْ يَسْتَتِرَ فِيهِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَتَذَاكِرُونَ ذَلِكَ عَمَدْتُ لِكَعَابِهِمْ ^(٦) فِي

(١) جرد (٢) جمع ضيون، وهو السنور الذكر (٣) جذع شجرة مقطوع وملقى هناك
(٤) خشب السقف (٥) التفكَّن: التعجب والتفكر والتندم، والمراد أنهم جعلوا
يتأسفون على ما فاتهم من الظفر به (٦) الكعاب: الجارية الناهد، قال أبو العلاء:

كم هلكت عادة كعاب وعمرت أمها العجوز
أحرزها الوالدان خوفا والقبر حرز لها حريز
يجوز أن تبطئ المنايا والخلد في الدهر لا يجوز

وأول هذه الأبيات قوله:

يموت قوم وراء قوم ويثبت الأول العزيز

ولا يسعنا التمثل بهذه الأبيات دون الإشارة إلى حكاية الذهبي التي أوردتها بمناسبة رواية
أبي الفتح، فقد حكى أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء بالمعرة ذات يوم في وقت خلوة بغير
علم منه - وكان يتردد إليه ويقرا عليه - فسمعه وهو ينشد من قلبه تلك الأبيات السابقة.
ثم تأوه مرات، وتلا: « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة، ذلك يوم مجموع له
الناس، وذلك يوم مشهود، وما تؤخره إلا لأجل معدود، يوم يأتي لا تكلم نفس إلا
بإذنه، فمنهم شقي وسعيد »

الِكَلَّةِ^(١)، فَلَمَّا رَأَتْنِي أَصَابَهَا الصَّرْعُ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُهَا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَجَمَعُوا لَهَا الرُّقَاةَ، وَجَاءُوا بِالْأَطْبَةِ، وَبَدَلُوا الْمُنْفِسَاتِ، فَمَا تَرَكَ رَاقٍ رُقِيَةً إِلَّا عَرَضَهَا عَلَيَّ - وَأَنَا لَا أُجِيبُ!

وَعَبَّرَتِ الْأَسَاءُ تَسْقِيهَا الْأَشْفِيَةَ، وَأَنَا سَدِيدُ^(٢) بِهَا لَا أُزُولُ؛ فَلَمَّا أَصَابَهَا الْجَمَامُ^(٣) طَلَبْتُ لِي سِوَاهَا صَاحِبَةً، ثُمَّ كَذَلِكَ، حَتَّى رَزَقَ اللَّهُ الْإِنَابَةَ، وَأَثَابَ الْجَزِيلَ، فَلَا أَفْتَأُ لَهُ مِنَ الْحَامِدِينَ!

ثم صاح وبكى بكاء شديداً ، وطرح وجهه على الأرض زمانا ، ثم رفع رأسه ، ومسح وجهه ، فقال : « سبحان من هذا كلامه ! »

قال أبو الفتح : فصبرت ساعة ، ثم سلمت عليه فرد ، وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعة . ثم قلت : يا سيدى أرى فى وجهك أثر غيظ ، فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئاً من كلام الخلق ، وتلوت شيئاً من كلام الخالق ، فلحقنى ما ترى ! «

قال : « فتحقت صحة دينه وقوة يقينه . » هـ

ونحن نؤثر ألا نعلق على هذه الحكاية بشيء من عندنا الآن ، فليس هنا موضع البحث فى عقيدة أبي العلاء

(١) الكلة : ستر رقيق ، هو ما يسمى « الناموسية » (٢) ملازم لها لا أفارقها
(٣) الهلاك ، ولا يدخلن فى روع القارىء أن أبا العلاء يدور فى خلده لحظة واحدة حدوث مثل هذه الحكاية ، وإنما هو خياله الممتع وتهكمه اللاذع ، وسخريته الدقيقة ، هى التى أملتها عليه ، وحسب القارىء - ليعرف رأى أبي العلاء ومنزعه - أن يحفظ له قوله :

فاخش المليك ولا تقعد على رهب إن أنت بالجن فى الظلماء خُشيتنا
فإنما تلك أخبار ملفقة لخدعة الغافل الحوشى ، حوشيتنا

قصة الجنى

حَمَدْتُ مَنْ حَطَّ أَوْزَارِي وَزَقَّهَا
وَكَنتُ آلفُ مِنْ أَتْرَابِ قُرْطَبَةَ
أَزُورُ تِلْكَ وَهَدَى غَيْرَ مُكْتَرِبِ
وَلَا أُمِرُ بِوَحْشِيٍّ وَلَا بِشَرِ
وَأَزْكَبُ الْهَيْقَ^(٣) فِي الظَّمَاءِ مُعْتَسِفًا
وَأَحْضُرُ الشَّرْبَ^(٦) أَعْرُومُهُمْ بِآبِدَةٍ
فَلَا أَفَارِقُهُمْ حَتَّى يَكُونَتْ لَهُمْ
وَأَصْرِفُ الْعَدْلَ^(٨) خَتَلًا^(٩) عَنْ أَمَانَتِهِ
وَكَمْ صَرَعْتُ عَوَانًا^(١٠) فِي لَطَى لَهَبِ
عَنِّي ، فَأَصْبَحَ ذَنْبِي الْيَوْمَ مَغْفُورًا
خَوْدًا وَبِالصَّبِينِ أُخْرَى بِنْتِ يَغْبُورًا^(٢)
فِي لَيْلَةٍ ، قَبْلَ أَنْ أُسْتَوْضِحَ النُّورَا
إِلَّا وَفَادَرْتُهُ وَهَلَّانَ مَدْعُورَا
أَوْ لَا ، فَذَبَّ رِيَادِي^(٥) بَاتَ مَعْرُورَا
يُرْجُونَ عُودًا وَمِزْمَارًا وَطُنْبُورًا^(٧)
فِعْلٌ يَظَلُّ بِهِ إِبْلِيسُ مَسْرُورَا
حَتَّى يَخُونَ وَحَتَّى يَشْهَدَ الزُّورَا
قَامَتْ تُمَارِسُ لِلْأَطْفَالِ مَسْجُورَا^(١١)

(١) الخود: المرأة الشابة (٢) يغبور اسم ملك الصين، كما يقال: كسرى لملك فارس، وقبصر ملك الروم (٣) الظليم، أى ذكر النعام (٤) سائرًا على غير هداية (٥) ثورًا وحشيًا وهذا البيت يمثل للقارى صورة ممتعة يلذ له أن يتخيلها، وهى براعة نعرفها فى أبى العلاء الذى لم يفته أن يلام بين سموق الجنى وطول ذكر النعام فى الشطر الأول من البيت، وبين ضخامته وعظم الثور الوحشى فى الشطر الثانى، وليس أبداع من أن يتمثل الإنسان ذلك الجنى راكبًا تلك النعامه الهوجاء ذات السوق الخفيفة، أو ممتطياً ذلك الثور الوحشى مع ضخامة جرمه، وعنق جريه.

(٦) جمع شارب (٧) نوع من آلات الطرب له عنق طويل، وستة أوتار من النحاس

(٨) العادل الذى ترضى شهادته (٩) مخادعاً اياه (١٠) العوان: المرأة النصف

(١١) المسجور: اللبن الذى ماؤه أكثر من لبنه، والمعنى: قامت تعالج تنوراً

مسجوراً تطبخ عليه شيئاً لأطفالها، وفى هذا البيت صورة مفاجئة إذ تتمثل فيه تلك

وَذَادَنِي^(١) الْمَرْءَ نُوحٌ عَنْ سَفِينَتِهِ
 وَطَرْتُ فِي زَمَنِ الطُّوفَانِ مُعْتَلِيًا
 وَقَدْ عَرَضْتُ لِمُوسَى فِي تَفَرُّدِهِ
 لَمْ أَخْلِهِ مِنْ حَدِيثِ مَا ، وَوَسْوَسَةٍ
 أَضَلَّتْ رَأْيَ أَبِي سَاسَانَ^(٩) عَنْ رَشْدِهِ
 ضَرْبًا إِلَى أَنْ غَدَا الظُّنْبُوبُ^(٢) مَكْسُورًا
 فِي الْجَوْحِيِّ رَأَيْتُ الْمَاءَ مَحْسُورًا^(٣)
 بِالشَّاءِ يُنْتِجُ^(٥) عُمْرُوسًا^(٦) وَفُرْفُورًا^(٧)
 إِذْ ذَكَرْتُ رَبِّكَ فِي تَكْلِيمِهِ الطُّورًا^(٨)
 وَسِرْتُ مُسْتَخْفِيًا فِي جَيْشِ سَابُورًا^(١٠)

الأم الرووم تصرع في وقت يكون فيه أطفالها في أشد حاجتهم إليها : فالجنى لا يرى أبلغ في الأذى من انتهاز تلك الساعة الحرجة !

(١) رذني (٢) عظم ساقى من أمام ، أى أن نوحاً ظل يضربنى لأغادر سفينته ، حتى كسر عظم ساقى ، وفي هذا البيت دقة نحب ألا تفوت القارئ في كلمة المرء نوح ، مع ملاحظة أن المتكلم جنى يتكلم عن الأنس ، وإن كان أبو العلاء لم يتقيد بهذا في قوله في لزومياته :
 مضى المرء موسى ، وأضحت يهو د : تتلو مع الدهر أسفارها

(٣) حتى انحسر الماء عن الأرض ، أى انكشف (٤) جمع شاة (٥) ينتج : يلي نتائجها (٦) العمروس : الخروف (٧) الفرفور : الحمل ، وهو يشير بذلك إلى حكاية رعيه الغنم لشعيب - عليه السلام - وهي معروفة ، وقد ورد ذكرها في القرآن ، في قوله تعالى : « قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج » وقد أشار موسى - عليه السلام - إلى ذلك حينما سأله الله عن عصاه فقال : « وأهش بها على غنمى » (٨) يشير بذلك إلى قوله : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه ، فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق ؛ قال : سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين » (٩) ساسان : جد دولة الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالساسانية (١٠) سابور هو ابن أردشير حفيد ساسان بن بابك ، ثانى ملوك الدولة الساسانية الفارسية

وَسَادَ بِهَرَامٍ جُورٍ^(١) ، وَهُوَ لِي تَبَعٌ
أَيَّامَ يَبْنِي - عَلَى عِلَاتِهِ - جُورًا^(٢)
فَتَارَةً أَنَا صِلٌ^(٣) ، فِي نَكَارَتِهِ ،
وَلَمْ نَكُنْ قَطُّ لَأُحُولًا وَلَا عُورًا^(٤)

*
*
*

ثُمَّ اتَّعَظْتُ ، وَصَارَتْ تَوَاتِي مَثَلًا
حَتَّى إِذَا انْقَضَتِ الدُّنْيَا وَنُودِي إِسْرًا فِيلٌ : « وَيَحَاكَ هَلَّا تَنْفُخُ الصُّورَا ؟ »
أَمَاتَنِي اللَّهُ شَيْئًا ، ثُمَّ أَقْظَنِي لِمَبْعِي ، فَرَزِقْتُ الْخُلْدَ مَسْرُورًا

لغة الجن

فَيَقُولُ^(٥) : « لِلَّهِ دَرُكٌ يَا أَبَا هَدْرَشٍ ، فَكَيْفَ أَلْسِنَتِكُمْ ؟ أَيْكُونُ فِيكُمْ
عَرَبٌ لَا يَفْهَمُونَ عَنِ الرُّومِ ، وَرُومٌ لَا يَفْهَمُونَ عَنِ الْعَرَبِ ، كَمَا نَجِدُ فِي
أَجْيَالِ الْإِنْسِ ؟ »

(١) بهرام جور هو ابن يزدجرد ملك الفرس، وهو الذي بنى مدينة جور وتاريخه مفهم بالبطولة والأعمال الجريئة (٢) جور مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخا، وهي طيبة النزهة يسير فيها الراحل من كل باب نحو فرسخ في بساتين وقصور، وإليها ينسب نوع من الورد يعرف بالجورى، وهو شديد الحمرة ويعد أجود أصنافه، وشهرة هذه المدينة بالورد كشهرة هجر بالتمر، ودارين بالمسك، وقطر بل بالخر (٣) حية دقيقة صفراء لا تنفع منها الرقية (٤) يقول: إننى كنت أبدمرة في صورة صل كرية المنظر، وأخرى في صورة عصفور يزدهى الناظر حسنه؛ وكثيراً ما كنا نظهر للإنس في صورة الحول والعور، على حين أننا أصحاب البصر، ولكننا نختار لأنفسنا الصورة التي يحولنا أن نبدو فيها (٥) أى ابن القارح

فَيَقُولُ : « هَيْهَاتَ أَيُّهَا الْمَرْحُومُ ، إِنَّا أَهْلُ ذِكَاةٍ وَفَطْنٍ ، وَلَا بُدَّ
لِأَحَدِنَا أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِ الْأَلْسُنِ الْإِنْسِيَّةِ ، وَلِنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِسَانٌ
لَا يَعْرِفُهُ الْإِنْسِ »

حديث الرجم

وَأَنَا الَّذِي أَنْذَرْتُ الْجِنَّ بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ ، أَدْلَجْتُ فِي رُفْقَةٍ نُرِيدُ
الْيَمَانَ ، فَمَرَرْنَا بِبَيْتِ رَبِّ ، فَسَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ، فَأَمْنَا بِهِ ،
وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَعُدْتُ إِلَى قَوْمِي ، فَذَكَرْتُ لَهُمْ ذَلِكَ ، فَتَسَرَّعَتْ
مِنْهُمْ طَوَائِفٌ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَحَتَّمُ عَلَى مَا فَعَلُوهُ أَنَّهُمْ رُجِمُوا عَنِ اسْتِرَاقِ
السَّمْعِ بِكَوَاكِبِ مُحْرَقَاتٍ (١) »

فَيَقُولُ : « يَا أَبَا هَدْرَشَ ! أَخْبِرْنِي - وَأَنْتَ الْخَبِيرُ - هَلْ كَانَ رَجْمُ
النُّجُومِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ : إِنَّهُ حَدَّثَ فِي الْإِسْلَامِ ا
فَيَقُولُ : « هَيْهَاتَ ! أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْأَوْدِيِّ :

كِشْهَابِ الْقَذْفِ يَرْمِيكُمْ بِهِ فَارِسٌ فِي كَفِّهِ لِلْحَرْبِ نَارُ
وَقَوْلِ ابْنِ حُجْرٍ :

فَأَنْصَاعَ (٢) كَالدَّرِيِّ (٣) تَقَعُّ (٤) يَثْبَعُهُ
يَثُورُ تَخَالَهُ طُنْبًا (٥)

(١) يشير الى قوله تعالى في سورة الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا
شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً »
(٢) انفتل راجعاً مسرعاً ومر (٣) كالنكوكب الدرر (٤) غبار (٥) الطنب
حبل طويل يشد به سرادق البيت ، والمعنى أنه انفتل بسرعة الشهاب الساقط من السماء ، وقد
خلف وراءه غباراً مستطيلاً يشبه الحبل الطويل

وَلَكِنَّ الرَّجْمَ زَادَ فِي أَوَانِ الْمُبْعَثِ (١) ؛ وَإِنَّ التَّخْرُصَ لَكَثِيرٌ فِي الْإِنْسِ
وَالْجِنِّ ، وَإِنَّ الصَّدْقَ لَمُعَوِّزٌ قَلِيلٌ ، وَهَنَيْثًا فِي الْعَاقِبَةِ لِلصَّادِقِينَ
وَ فِي قِصَّةِ الرَّجْمِ أَقُولُ :

مَكَّةُ أَقْوَتْ مِنْ بَنِي الدَّرْدَيْسِ (٢) فَمَا لِيَجِنِّيَّ بِهَا مِنْ حَسَيْسِ (٣)
وَقَامَ فِي الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ (٤) أَزْهَرُ (٥) لَا يُعْفَلُ حَقُّ الْجَلِيسِ
يَجِدُ فِي الْخَمْرِ وَيَشْتَدُّ فِي الْأَمْرِ وَلَا يُطْلِقُ شُرْبَ الْكَيْسِ (٦)
وَيَرْجُمُ الزَّانِيَ ذَا الْعَرْسِ لَا يَقْبَلُ فِيهِ سُؤْلَةٌ (٧) مِنْ رَئِيسِ
وَ كَمْ عَرُوسٍ ، بَاتَ حُرَّاسَهَا * * كَجْرِهِمْ (٨) فِي عِزِّهَا أَوْ جَدَيْسِ (٩)

(١) صرح أبو العلاء بهذا الرأي في اللزوميات ، فقال :

ولست أقول إن الشهب يوماً لبعث محمد جعلت رجوماً

(٢) حتى من أحياء الجن (٣) صوت خفي (٤) قام في الصفوة من هاشم ، أي قام
في نخبة بني هاشم ، أي في خيرهم (٥) مشرق الوجه ، يعني به النبي صلوات الله عليه
(٦) الكسيس نبيذ التمر ، ومعنى البيت : أنه يحرم كل أنواع الخمر ولا يبيح حتى هذا
النوع من النبيذ (٧) شفاقة (٨) جرهم قبيلة كانت في جهات مكة نزل بينهم إسماعيل
(٩) جديس قبيلة من العرب كانت منازلها باليمامة وكان معهم بنو عمهم طسم ، فطغت
طسم على جديس ، حتى كان رئيسها عمليق يدخل بالمرأة من جديس قبل أن يدخل بها
زوجها . فلما تزوجت عفيرة وهي من سادات جديس وافترضها عمليق دون بعلاها ، خرجت
مولولة شاقة جيبها ، كاشفة عن نفسها ، وهي تقول :

لا أحد أذل من جديس أهكنا يفعل بالعروس ؟

فهاجت جديس على طسم بسبب ذلك ، وانتصرت عليها ، وانفردت بالعز دونها ؛
وظلت كذلك الى أن أبادها ملوك اليمن .

(وقد أشار إلى هذه القصة أكثر مؤرخي العرب ، ولا بأس من اختيار القطعة التالية من كتاب مروج الذهب لجمال أسلوبها الروائي وحسن خيالها المنسق . وليقرأها القارئ على أنها أسطورة لها أصل تاريخي — إذا شاركنا في الاعتقاد بأن أكثرها من عمل الرواة واختراع المحدثين :)

حكاية طسم وجديس

« كان لطسم ملك يقال له « عملاق » وكان ظلوما غشوما لا ينهأ شيء عن هواه مع إصراره وإقدامه على جديس وتعديه عليهم وقهره إياهم ، فلبثوا في ذلك دهرًا وهم أهل مظالم قد غمطوا النعمة وانتهكوا الحرمه ، وبلادهم « اليمامة » أفضل البلاد وأكثرها خيرًا في صنوف الشجر والأعشاب ؛ وهي حدائق ملتفة وقصور مصطفة ، فلم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس يقال لها « هزيمة » بنت مازن ، وزوج لها قد فارقها يقال له « ماشق » فأراد قبض ولده منها فأبى عليه ، فارتفعا إلى الملك « عملاق » ليحكم بينهما ، فقالت : « أيها الملك ! هذا الذي حملته تسعا ، ووضعته دفعا ، وأرضعته شفعا ، ولم أنل منه نفعا ، حتى إذا تمت أوصاله ، واستوفى خصاله ، أراد أن يأخذه قسرا ، ويسلبني قهرا ، ويتركني منه صفرا » قال زوجها : « قد أخذت المهر كاملا ، ولم أنل منه نائلا ، إلا ولداً خاملا ، فافعل ما كنت فاعلا » فأمر الملك أن يؤخذ الولد منها ويجعل في غلمانه ، فقالت هزيمة في ذلك :

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا فأبرم حكما في هزيمة ظلما
لعمري لقد حكمت لا متورعا ولا فهما عند الحكومة ظلما
ندمت ، فلم أقدر على متزحزح وأصبح زوجي حائر الرأي نادما

قالوا : « فبلغ الملك قول هزيمة فغضب ، وأمر ألا تزوج امرأة من جديس فتزف إلى زوجها حتى تحمل إليه فيفترعها قبل زوجها ، فلقوا من ذلك ذلا طويلا . ولم تزل تلك حالهم حتى تزوجت عفيرة « وقيل الشموس بنت عمار الطسمى أخت الأسود بن عفار » فلما كانت ليلة هديها إلى زوجها ، انطلق بها إلى « عملاق » الملك ، ليطأها — على عادته — ومعه الفتيات يغنين ويقلن في غنائهن :

ابدأ بعملوق ، وقوى فاركي
وبادري الصبح بأمر معجب
فما لبكر بعدكم من مذهب

*
* *

فلما دخلت « عفيرة » على « عملوق » اقتربها وخلي سبيلها ، فخرجت عفيرة على قومها
في دماؤها شاقة جيبها عن دبرها وهي تقول :

« لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس ! »
وقالت أيضاً في تحريض جديس على طسم وأبت أن تمضي الى زوجها - :
أصلح ما يؤتى إلى فتياتكم وأتم رجال فيكم عدد الرمل

فإن أتم لا تفضبوا بعد هذه
ودونكم طيب العروس ، فانما
قبيحاً وشيكا للذي ليس دافعا
فلو أننا كنا رجالا ، وكنتم
فكونوا نساء لا تفروا من الكحل
خلقتم لأثواب العروس ، وللغسل
ويختال يمشي بيننا مشية الفحل
نساء لكننا لا نقر على الذل

*
* *

فوتوا كراماً ، واصبروا لعدوكم
ولا تجزعوا للحرب يا قوم ، إنما
فيهلك فيها كل نكس موكل
وفي ذلك يقول أخوها :

جاءت تمشي طسم في خميس
يا طسم ! ما لقيت من جديس
بحرب تلظى في القرام من الجزل
تقوم بأقوام كرام على رجل
ويسلم فيها ذو النجابة والفضل
كالمريح في شهشة اليبيس
حقا لك الويل ، فهيسي ، هيسي

*
* *

فلمّا سمعت جدّيس قولها ، اجتمعت عصبا لذلك ، فقال لهم الأسود بن عفار - وكان فيهم سيّدا مطاعا - : « يا جدّيس ! أطيعوني بما أمركم به وأدعوكم إليه ، ففي ذلك عزّ الدهر وذهب الذلّ »

قالوا : « وما ذلك ؟ » قال : قد علمتم أنّ هؤلاء - يعني طسما - ليسوا بأعزّ منكم ؛ ولكن ملك صاحبكم عليكم وعليهم هو الذي يدعنا إليه بالطاعة ، ولولا ذلك ما كان له علينا من فضل ، ولو امتنعنا منه لكان لنا النصف ! » فقالوا : « قد قبلنا قولك ! ولكن القوم أقراننا وأكثر منا عددا وعددا ، فنخاف - إن ظفروا بنا - ألا يقولونا ! » فقال : « والله يا جدّيس لتطيعنني فيما أمركم به وأدعوكم إليه ، أو لأتكنن على سيفي فأقتل به نفسي ! » قالوا : « فانا نطيعك فيما قد عزمت عليه » قال : « فاني صانع لعمالوق وقومه من طسم طعاما وداعيتهم إليه ، فاذا جاءوا إليه منفصلين من الخيل والبغال نهضنا إليهم بأسيافنا فانفردت أنا بالملك ، وانفرد كل رجل منكم برجل منهم ! » قالوا : « فافعل ما بدا لك ! » واجتمع رأيهم عليه ، فقالت « عفيرة » لأخيها « الأسود » : « لا تفعل هذا فان الغدر فيه ذلّة وعار ، ولكن كابدوا القوم في ديارهم تظفروا بهم أو تموتوا كراما ! » قال : « لا ، ولكن نمكر بهم فيكون ذلك أمكن لنا من نواحيهم وأبلغ في الانتقام منهم » وصنع الأسود طعاما كثيرا وأمر قومه فاخترطوا سيوفهم ودفنوها في الرمل - حيث أعدوا الطعام - ثم قال لهم : « اذا أتاكم القوم يرفلون في حليهم ، فخذوا أسيافكم ثم تقدموا عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم وابدؤا بالرؤساء ، فانكم - اذا قتلتموهم - لم تبالوا بالسفلة ، ولم يكن بعد ذلك منهم حال تكرهونها » قالوا : « نفعل ما قلت »

ثم دعا الأسود بعمالوق الطسحي ومن معه من رؤساء طسم باليامة ، فأسرعوا بإجابة دعوته ، فلما توافوا إلى المدعاة ، وثبت جدّيس ، فاستثاروا سيوفهم من الرمل ، وشدوا على عمالوق وأصحابه ، فقتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، ومضوا إلى ديارهم فانتهبوها .

زُفْتُ إِلَى زَوْجِ لَهَا ، سَيِّدٍ مَا هُوَ بِالنُّكْسِ (١) وَلَا بِالضَّبْيِيسِ (٢)
غَرْتُ عَلَيْهَا فَتَخَلَّجَتْهَا (٣) بَوَاشِكِ الصَّرْعَةِ (٤) قَبْلَ الْمَسِيْسِ (٥)
وَأَسْلَاكُ (٦) الْعَادَةِ مَحْجُوبَةٌ (٧) فِي الْخِذْرِ ، أَوْ يَنْ جَوَارِ تَمِيْسِ (٨)
لَا أَنْتَهَى عَنْ غَرَضِي بِالرَّقِيِّ (٩) إِذَا أَنْتَهَى الضَّبْيِغْمُ دُونَ الْفَرِيْسِ (١٠)
وَأَدْلِيْجُ (١١) الظُّلْمَاءِ فِي فِتْيَةٍ مِلْجِنٌ (١٢) فَوْقَ الْمَاحِلِ (١٣) الْعَرَبَسِيْسِ (١٤)

ولهذه الأسطورة التاريخية الطويلة بداية ونهاية لا يتسع المقام لذكرها ، ونحب أن نطلع عليها القارئ في الجزء الأول من كتاب « مروج الذهب » للمسعودي من (ص ٢٤١ - ٢٤٧)

*
* *

وقد ذكر أبو العلاء قبائل « طسم وجديس وجرهم » في شعره مراراً ، فمن ذلك قوله ، وهو التفاتة تاريخية رائعة :

سيسأل ناس : « ما قریش ومكة ؟ » كما قال ناس : « ماجدیس وما طسم ؟ »

وقوله في موضع آخر في أثناء كلامه عن الترك :

لهم حیل فی حربهم ما اهتمدت لها جدیس ، ولا ساست بها الملك جرهم

وقوله في ميميته الفذة التي حاور فيها الديك : « ورثت هدى التذكار من قبل جرهم »

(١) الرجل الضعيف الدنيء الذي لا خير فيه (٢) الجبان أو الأحمق

(٣) جعلتها تختلج (٤) بعاجل الصرعة (٥) قبل أن يمسه زوجها

(٦) أدخل فيها (٧) وهي مستورة (٨) تتبخر (٩) جمع رقية

(١٠) إذا انتهى الأسد دون ما يفترسه (١١) أسير ليلاً (١٢) من الجن ، وهي

لهجة لبعض العرب ، يقولون : وقفت ع الماء ، ونحو ذلك . وما تزال هذه اللهجة على

ألسن العوام إلى يومنا هذا (١٣) الأرض الجذبة (١٤) الأرض الجافة الغليظة

فِي طَائِمٍ (١) تَعْرِفُ (٢) جِنَانَهُ
 أَقْفَرَ إِلَّا مِنْ عَفَارِيْتِ لَيْسٍ (٣)
 تَحْمِلُنَا فِي الْجِنِّحِ (٤) خَيْلٌ، لَهَا
 أَجْنِحَةٌ - لَيْسَتْ كَخَيْلِ الْإِنْسِ (٥)
 وَأَيْتِقُ (٦) تَسْبِقُ أَبْصَارَكُمْ
 مَخْلُوقَةٌ بَيْنَ نَعَامٍ وَعَيْشٍ (٧)

لَا نُسْكَ فِي أَيَّامِنَا عِنْدَنَا
 بَلْ نُكَيْسُ الدِّينَ، فَمَا إِنْ نَكَيْسُ (٨)
 فَالْأَحَدُ الْأَعْظَمُ وَالسَّبْتُ كَأَنَّ
 إِثْنَيْنِ، وَالْجُمُعَةُ مِثْلُ الْخَمِيْسِ (٩)
 لَا مُجَسِّسٌ نَحْنُ، وَلَا هُوْدٌ،
 وَلَا نَصَارَى يَتَّبِعُونَ الْكَنْيْسَ (١٠)

(١) المغازة لا أثر فيها (٢) تصوت (٣) شجمان « جمع أليس » (٤) وقت الليل
 (٥) الإنس (٦) نوق (٧) كرام الابل (٨) نُكَيْسُ الدِّينِ في معنى أخذ من
 غير وجهه ، وأهملت حقايقه ، ولا نكيس : لا نفظن ، والمعنى أننا لا نفقه شيئاً في أمور الدين
 (٩) أشار أبو العلاء الى هذا المعنى مراراً في لزومياته ، فمن ذلك قوله :
 لنا جمعة ، والسبت يدعى لأمة أطافت بموسى ، والنصارى لها الأحد
 فهل لبواقي السبعة الزهر معشر يجاونها - ممن تنسك أو جحد ؟
 وقوله :

فما هذه الأيام إلا نظائر تساوت بها آحادها وسبوتها

(١٠) بديع من أبي العلاء هذا الخيال الصافي الذي يتمثل فيه بعد الجن عن الاهتمام
 بالاعتبارات الإنسية

وقد شغل اختلاف الأديان وتباين الملل والنحل مكانا رحبا من نفس أبي العلاء ،
 فأورده في شعره ونثره بأساليب شتى ، ولعل أول ما عرفناه له في ذلك قوله في سن مبكرة :

باللاذقية فتنة ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يد ق ، وذا بمثذنة يصيح

إلى أن يقول ساخرآ :

كل يعرز دينه ياليت شعري ، ما الصحيح ؟

ثم قال - فيما بعد - :
نحل غدت ملاً ، فكل شريعة تبدى لمضمر غيرها إكفارها
وقال :

إن الشرائع ألفت بيننا إحنًا وعلمتنا أفانين العداوات
إلى غير ذلك مما يطول سرده .

*
* *

وبعد أن قلب هذه الفكرة على كل وجه من وجوها ؛ انتقل من تطبيقها على الإنس
إلى تطبيقها على الجن ، ثم إلى تطبيقها على الكواكب ، فمن ذلك قوله :

العالم العالى برأى معاشر كالعالم الهاوى - يحس ويعلم
زعمت رجال : « أن سياراته تسق العقول ، وأنها تتكلم »
فهل الكواكب مثلنا فى دينها لا يتفغن ، فهاى أو مسلم ؟
وفى هذه القصيدة يقول :

ولعل مكة فى السماء كمة وبها نضادٌ ويذبلُ ويعلم
فأنت ترى أن فكره لم يقف عند حد الإنس والجن بل تعداها إلى الكواكب أيضاً ،
فود لو يهتدى إلى مذاهبها ونحلها ، إن كان لها مذاهب أو نحل !
وهذا خيال لا نستغربه من شاعر فيلسوف ، دقيق الحس ، عميق الفكر ، يرى
فى كل ما يحيط به - من حيوان ونبات وجماد - حياة شاملة ، ويصل به التعمق فى ذلك
إلى حد أن يقول :

أظن زمانى كونه وفساده وليداً بترب الأرض يلهو ويعبث
ثم ينظر من الناحية الأخرى من منظار الحقيقة الذى لا يفتأ يطل منه على الكون ،
فيقول :

نَمَزَقُ التَّوْرَةَ مِنْ هُونِهَا وَنَحْطِمُ الصُّلْبَانَ حَطْمَ الْيَبِيسِ (١)
نُحَارِبُ اللَّهَ جُنُودًا لِإِبْلِيسَ، أَخِي الرَّأْيِ الْعَبِينِ النَّجِيسِ
نُسَلِّمُ الْحُكْمَ إِلَيْهِ - إِذَا قَاسَ - فَفَرَضَى بِالضَّلَالِ الْمُقَيْسِ (٢)

*
* *

تَزِينُ لِلشَّارِحِ (٣) وَالشَّيْخِ أَنْ يُفْرِغَ كَيْسًا - فِي الْخَنَاءِ - بَعْدَ كَيْسِ
وَتَقْتَرِي (٤) جَنَّ « سُلَيْمَانَ » كَتَى نُطَلِّقُ مِنْهَا كُلَّ غَاوٍ حَيْبِسِ (٥)

هذى الشخصوس من التراب كواثن فالمرء - لولا أن يجس - جدار
فأنت تراه يرى في الجماد حياة لا ينقصها إلا الإحساس ، وفي الأحياء جماداً لا يمتاز بغير
ذلك الإحساس .

*
* *

ولا بأس من الإشارة هنا - بمناسبة هذا الاستطراد - إلى قوله :

شر أشجار علمت بها شجرات أثمرت ناسا

وقوله :

وهل أعظم إلا غصون وريقة وهل ماؤها إلا جنى دماء

وسنفصل ما أجملاه في هذه النقطة حين نعرض للمقارنة بين أبي العلاء المعري وعمر بن الخطاب ،
فلنكتف بهذا القدر اليسير الآن .

(١) اليبيس : ما يبس من العشب ، والبقول التي تتناثر إذا يبست ، أو هو كل نبات
يابس ، ومعنى البيت أننا نحقر التوراة فنمزقها ، ونهزأ بالصلبان فنكسرهما كما نكسر النبات
اليابس (٢) نسلم حكمنا إلى إبليس ، فنرضى بما يراه لنا من الآراء الضالة (٣) للشاب

(٤) نتبع (٥) محبوس

صَيْرَ فِي قَارُورَةٍ رُصِّصَتْ^(١) فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُ غَيْرَ النَّسِيسِ^(٢)

(١) طليت بالرصاص (٢) بقية الروح ، والنسيس - أيضاً - عرقان في اللحم يسقيان المنخ ، ومعنى البيتين : أننا نجوب أنحاء البلاد باحثين عن إخواننا من عصاة الجن الغاوين الذين سجنهم نبي الله « سليمان » بسبب عصيانهم ، في قوارير أحكم سدادها بالرصاص حتى لا يجدوا سبيلاً إلى الفرار ، فلم يُبق منهم ذلك الحبس الطويل إلا الرمق « أساطير الجن وسليمان النبي »

وقد شاعت أساطير « سليمان » والجن « ارجع الى كتابنا : أساطير ألف يوم » وانتشرت منذ أقدم أزمنة التاريخ فنسبوا إليه القدرة المطلقة على تسخير الجن ومعرفة لغاتهم المختلفة ، وعزوا إلى خاتمه - المشهور بما عليه من النقش - معجزات لا تحصى ، كما عزوا إلى بساطه قدرة خارقة على الطيران - بما يحمله - في الجو بسرعة لا يكاد يتصورها العقل وقد كادت تجمع تلك الأساطير على عدة أمور ، أنضجها الخيال ونسقتها التواتر ، فمن ذلك أن « سليمان النبي » كان يهيمن على الجن و يتطلب منهم خدمات شتى تتفاوت صعوبة ويسراً ، وقد يعين له أمر هام لا يستطيع إنفاذه إلا جنى بعينه يكون مشهوراً بقدرته الخارقة ، فيرسل إليه ، فإذا لبي دعوته فذاك ، وإلا نكل به أو ختم جبهته بالنقش الذي على خاتمه فأحرقه توا ، أو سجنه في قارورة مرصصة أو ققم من النحاس ، وربما سجنه في عامود طويل من الصخر بعد أن يوثقه بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه وقد اشتهر وزيره الحكيم « آصف بن برخيا » بمساعداته القيمة لسليمان ، على إذلال الجن وإخضاعهم لأوامره

وقد ذاع من تلك الأساطير بين العامة والخاصة شيء كثير ، وافتن الناس في رواياتها بأساليب شتى وطرق متباينة ، ولهذا الأساطير مصادر عدة ، فنخص بالذكر منها - عدا أقاصيص رواة العرب - مصدرين رئيسين نعدهما من أخصب المصادر وأغناها ، وهما « أساطير ألف ليلة وليلة » و « أسطورة سيف بن ذي يزن »

وَتُخْرِجُ الْحُسْنَاءَ مَطْرُودَةً مِنْ بَيْتِهَا عَنْ سُوءِ ظَنِّ حَدِيسٍ

ففي « ألف ليلة وليلة » ترى :

حكاية الصياد والجنى

وموضوعها أن صياداً عائلاً طاعناً في السن كان من عادته أن يرمى شبكته كل يوم أربع مرات فخرج في صبيحة يوم حسب عادته وطرح شبكته وصبر إلى أن استقرت في الماء ثم جمع خيطانها فوجدها ثقيلة ف جذبها فلم يقدر على ذلك ، فأخذ يعالجها حتى إذا تمكن من إخراجها وجد فيها حماراً ميتاً فحزن ؛ ثم أخرجه ورمى شبكته مرة ثانية ، فلما جذبها وجدها ثقيلة كما وجدها في المرة الأولى فأخذ يعالجها حتى استطاع إخراجها فوجد فيها زيراً كبيراً مملوياً بالرمل والطين فزاد حزنه . ثم أخرج ما فيها ولما ألقاها للمرة الثالثة وجذبها وجد بها شقافة وقوارير ، فعجب من سوء بخته ونكد طالعه ، وقبل أن يلقى الشبكة للمرة الرابعة - الأخيرة - توسل إلى الله أن ييسر له ثم سمي باسمه ، وألقى شبكته وصبر إلى أن استقرت فاذا بها أثقل منها في المرات السابقة فبذل أشد الجهد في إخراجها حتى تمكن من ذلك بعد عناء شديد . فوجد فيها قممياً من نحاس أصفر مسدوداً بالرصاص ومطبوعاً بخاتم سليمان النبي فتبدل حزنه سروراً وقال في نفسه : « سأبيع هذا القمم في سوق النحاس لأنه يساوي عشرة دنانير ذهباً ، ولكن لا بد من فتحه لأعلم ما يحتويه »

وأخرج مديّة كانت معه ، فعالج بها الرصاص حتى فكه ، ثم أزال غطاء القمم فتصاعد منه دخان كثيف إلى عنان السماء لم يلبث أن تجمع واكتمل ، ثم رأى الصياد أمامه مارداً هائلاً مروعاً من الجن ، فارتعدت فرائصه ، واضطرب ، ولم يعد رشده إليه إلا قول الجنى له : « العفويا نبي الله سليمان ، التوبة ! التوبة ! آمنت بك ، وأطعتك ، ولم أعد أخالف لك قولاً أو أعصى لك أمراً ، فلا تقتلني فاني تائب نادم على ما فرط مني من العصيان ! »

فعاود الصياد الرمي وقال له : « أين أنت من سليمان النبي أيها الجنى ؟ لقد مات منذ عدة قرون ، فما قصتك ؟ وما سبب حبسك في هذا القمم ؟ » فلما علم الجنى بموت سليمان النبي التفت إلى

نَقُولُ : « لَا تَقْنَعُ بِتَطْلِيْقَةِ وَاقْبِلْ نَصِيْحَةً - لَمْ يَكُنْ بِالدَّسِيْسِ »

الصياد قائلاً : « سأجازيك على جميلك بالقتل ، ولكنى سأترك لك اختيار ميتتك ! » فقال له الصياد : « أهذا جزاء من أحسن إليك وأخرجك من سجنك ! » فقال له الجنى : « لقد كنت من الجن المارقين ، وقد عصيت سليمان بن داود - واسمى صخر الجنى - فأرسل إلى وزيره آصف بن برخيا فأتى بى مكرهاً وقادنى إليه ذليلاً ، فلما وقفت بين يدى سليمان النبى أمرنى بالدخول فى طاعته ، فأيت ، فخبسنى فى هذا القمقم وختم على الرصاص وطبعه بخاتمه المنقوش عليه « الاسم الأعظم » وأمر الجن فألقونى فى وسط البحر ، فمكثت مائة عام وقلت فى نفسى : « كل من خلصنى أغنيته إلى الأبد » ولما مرت الأعوام المائة ولم يخلصنى أحد ، قلت : « كل من خلصنى فى خلال هذا القرن الثانى فتحت له كنوز الأرض » فلم يخلصنى أحد ومرت على أر بعائة أخرى فقلت : « كل من خلصنى قضيت له ثلاث حاجات » - فلما مرت تلك المدة الطويلة كلها ولم ينقذنى أحد تملكنى الغضب الشديد فقلت فى نفسى : « كل من خلصنى - بعد هذا - قتلته ، وتركت له اختيار ميتته ، فأى ميتة تختار أن تموتها الآن ؟ » فارتقى الصياد على أقدامه متوسلاً إليه أن يعفو عنه ، ولكنه وجد منه الإصرار على قتله فلجأ إلى الحيلة - بعد أن يئس من استعطافه - فقال للجنى : « ولكن لى سؤالاً أرجو أن تبيبنى عليه قبل أن تهلكنى ، وأن تصدقنى فى الإجابة عنه » فقال له الجنى : وما هو ؟ فقال الصياد : « قل لى بحق الاسم الأعظم المنقوش على خاتم « نبى الله سليمان » كيف كنت فى هذا القمقم الضيق - وهو لا يسع يدك ولا رجلك ؟ » فلما سمع الجنى هذا القسم اضطرب ولكنه لم يلبث أن قال له : « ألا تصدق أنى كنت فيه ؟ » فأجابه الصياد : « كلا ، ولن أصدق ذلك أبداً إلا إذا رأيته بعينى » فانتفض العفريت وصار دخاناً فى الجو ، ثم تجمّع وأخذ يدخل فى القمقم حتى أصبح كله فى داخله - فأسرع الصياد بسد فم القمقم بالسدادة التى كانت عليه من قبل ، فلما رأى الجنى مكر الصياد توسل إليه أن يفك أسره .

ودار بينها حوار طويل ممتع ، يجده القارىء مفصلاً فى الجزء الأول من كتاب ألف ليلة وليلة ، انتهى بأن أقسم له الجنى أن ينقعه إذا أطلقه ، وقد أطلق وبر للصياد بقسمه .

حَتَّى — إِذَا صَارَتْ إِلَى غَيْرِهِ — قَادَ مِنَ الْوَجْدِ بِجِدِّ تَعِيسٍ

أما أسطورة « سيف بن ذي يزن » فنعلها — على عامية أسلوبها ، وفساد خيالها واضطرابه في عدة مواضع منها — أغنى المصادر التي عنيت بذكر هذه الخرافة وأشباهاها من وصف الجان ، وبيان كفاياتهم وأقذارهم ، وهيمنة السحرة عليهم ، وأثر الطلاسم فيهم ، وإظهار الفروق التي بين طوائفهم ونحلهم المختلفة وما إلى ذلك .

وقد أوسعت تلك القصة لهذا النوع من الأساطير أرحب مكان فيها ، فازدحت بها ازدحاماً أفردتها من بين الأساطير العربية ، ولسنا نعرف في كل ما قرأناه من القصص العامية — وقد قرأنا كل ما طبع منها بلا استثناء — قصة تعدلها في هذه الخصلة غناء وخصباً .

فليس بد — لمن أراد أن يكون فكرة واسعة عن أساطير السحرة والجان والأرصاد والطلاسم — من أن يقرأ تلك القصة الطويلة الجديرة بالعناية

ومن بين أساطير تلك القصة ما ترويه لنا أسطورة « الرهق الأسود » — وقد ذكرت في موضعين منها — أولها بمناسبة سفر « سيف بن ذي يزن » إلى كنوز « النبي سليمان » وثانيهما بمناسبة حفر « شلالات النيل »

فمثلت لنا ذلك « الرهق الأسود » مارداً عنيداً تخاف الجن كلها سطوته وبأسه ، ولا تكاد تؤثر فيه الأرصاد والطلاسم ، وقد بلغ من عتوه أنه عصى « النبي سليمان » واستخف به وبسلطانه .

ففي ذات يوم كلف « سليمان » — تلبية لرغبة زوجته « بلقيس » — أعوان الجان بعمل شاق لم يستطيعوا القيام به ، فأظهروا له هجزم عن القيام به ولفتوه إلى قدرة « الرهق الأسود » — دون غيره من الجان — على إتمامه

فكلف وزيره « آصف بن برخيا » باحضاره ، وكان « آصف » يعلم مقدار صلابة هذا الجنى وعناده ، فبعث إليه برسالة تركها له أحد الجان عند رأسه — وهو نائم — خوفاً من سطوته ، فلما أفاق قرأ فيها قوله : « إذا لم تحضر إلى بعث إليك الوهم ! »

نَذِيرُهُ مِنْهَا - وَقَدْ زُوِّجَتْ تُغْرًا كَدْرًا فِي مُدَامِ غَرِيْسٍ

فذهب إلى « آصف » وسأله عن الوهم وأين هو ؟ فاغتم فرصة حضوره فقيده بطلاسه التي اشتهر بمقدرته الفائقة على الافتنان فيها - ثم أمره بالقيام بذلك العمل الذي أرغمه عليه إرغاماً وبينما هو قائم بعمله الشاق - مرت « بلقيس » مصادفة فهام بجها ، ولما رأى « سليمان النبي » طلب إليه أن يزوجه منها ووعدته بالإذعان لأوامره كلها إن فعل - فلما علم أنه يعني زوجه ، أراد أن يطبعه بالنقش الذي على خاتمه ليحرقه ، فاستغاث بالوزير آصف ؛ فاقترح على « سليمان » أن يسجنه في عامود من الرخام ليشتق بالعذاب طول حياته « فسجنه في عامود طويل أحكم سداده بالرصاص وختمه بخاتمه وظل محبوساً حتى أنقذه « سيف بن ذي يزن » إلى آخر تلك الأسطورة الطويلة التي أوجزناها أشد إيجاز ، وفصلتها قصة « سيف بن ذي يزن » أبرع تفصيل « في الجزء الثامن ص ٤٥ و ٤٦ وفي الجزء الحادي عشر من ص ٤٤ إلى آخر الجزء ومن أول الجزء الثاني عشر إلى ص ٨ »

ومما هو جدير بالملاحظة في تلك الأساطير أنها تكاد تنتهي جميعاً بإظهار شغف أولئك الجن العصاة بالإساءة إلى من يحسنون إليهم ويهيمنون بإطلاقهم ، مما يدل على تأصل روح الشر في نفوسهم

*
* *

وقد أشار المتنبي إلى ما اشتهر به « سليمان النبي » من معرفة لغات الجن وقدرته على تفهم ألسنتهم المختلفة ، في نونيته التي مدح بها عضد الدولة وذكر فيها شعب بوان ، فقال :

ملاعب جنّة ؛ لو سار فيها « سليمان » لسار بترجمان^(١)

وأبدع النابغة في الإشارة إلى ما اشتهر عن « سليمان » من إذلال الجن واخضاعهم لأوامره ، فقال من معلقته الجميلة أثناء مدحه للنعمان :

(١) وهذا البيت هو الثالث من قصيدته التي أولها

مغاني الشعب - طيباً في المغان - بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

وَنَسَخَطُ الْمَلِكِ عَلَى الْمُشْفِقِ الْمُفْرِطِ فِي النُّصِيحِ إِذِ الْمَلِكُ سَيْسٌ
لَا أَتَقَى الْبَرَّ لِأَهْوَالِهِ وَأَرْكَبُ الْبَحْرَ أَوْانَ الْقَرَيْسِ^(١)
نَادَمْتُ قَابِيلَ ، وَشِيثًا ، وَهَهَا
وَرَهْطَ لُقْمَانَ ، وَأَيْسَارَهُ
يِيلَ عَلَى الْعَاتِقَةِ الْخُنْدَرِيْسِ^(٢)
عَاشَرْتُ مِنْ بَعْدِ الشَّبَابِ اللَّيْسِ^(٣)

*
* *

نُتِمْتُ آمَنْتُ ، وَمَنْ يُرْزَقِ الْ
جَاهِدْتُ فِي بَدْرِ ، وَحَامَيْتُ فِي
وَرَاءَ جِبْرِيلَ وَمِيكَالَ^(٥) نَزَّ
إِيْمَانَ يَظْفَرُ بِالْخَطِيرِ النَّفِيْسِ
أَحَدٍ ، وَفِي الْخُنْدُقِ رُعْتُ الرَّئِيْسِ^(٤)
لِي الْهَامَ فِي الْكَبَةِ^(٦) خَلَى اللَّسِيْسِ^(٧)

ولا أرى فاعلاً في الخير يشبهه
إلا « سليمان » إذ قال الاله له :
وخيس الجن - انى قد أذنت لهم
فمن أطاعك فأنفعه بطاعته
ومن عصاك ، فعاقبه معاقبة

ونختم هذا الفصل بقول الأعشى - وهو يمثل منحنى آخر من اعتقاد العرب في ذلك - :
ولو كان شيء خالداً ومعمراً
براه إلهى ، فاصطفاه عباده
وسخر من جن الملائك تسعة
لكان سليمان البرى من الدهر
وملكه ما بين ثريا الى مصر
قياماً لديه يعملون بلا أجر

(١) البرد الشديد (٢) البحر (٣) أى الذى أخلق من كثرة اللبس (٤) بدر

وأحد والخندق : ثلاث وقائع مشهورة من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعنى
بالرئيس فى واقعة الخندق : أبا سفيان (٥) ميكائيل (٦) الكبة الصدمة بين الخيلين
فى الحرب أو الزحمة (٧) يشير بذلك الى ما ورد فى القرآن من محاربة الملائكة فى جانب

وَطَارَ فِي اليرْمُوكِ بِي سَابِحٌ وَالْقَوْمُ فِي ضَرْبٍ وَطَعْنٍ خَلِيسٌ
 حَتَّى تَجَلَّتْ عَنِّي الْحَرْبُ كَالْ جَمْرَةَ ، فِي وَقْدَةٍ ذَاكَ الْوَطِيسُ
 وَالْجَمَلُ^(١) الْأَنْكَدُ شَاهِدْتُهُ بِئْسَ تَتَبِعُ النَّاقَةَ الْعَنْتَرِيسُ^(٢)
 وَزُرْتُ صِفِينَ^(٣) عَلَى شَطْبَةٍ^(٤) جَرْدَاءَ ، مَا سَأَسْمَهَا بِالْأَرِيسِ^(٥)
 مَجْدَلًا^(٦) بِالسَّيْفِ أَبْطَاهَا وَقَازِفًا بِالصَّخْرَةِ الْمَرْمَرِيسِ^(٧)
 وَسِرْتُ قَدَامَ عَلِيٍّ غَدَا نَهْرٌ^(٨) حَتَّى قُلَّ غَرْبُ الْخَمِيسِ^(٩)
 صَادَفَ مِنِّي وَاعِظُ تَوْبَةً فَكَانَتِ اللَّقْوَةُ^(١٠) عِنْدَ الْقَيْسِ^(١١)
 فَيَعَجِبُ لِمَا سَمِعَهُ مِنْ ذَلِكَ الْجَنِيِّ ، وَيَكْرَهُ الْإِطَالََةَ عِنْدَهُ ، فَيُودِّعُهُ

المسلمين في تلك الوقائع كقوله تعالى : « ولقد نصرمك الله بيدروأتم أذلة » إلى أن يقول :
 « إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى :
 إن تصبروا وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة
 مسومين » وقوله تعالى في سورة الأنفال « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممددكم
 بألف من الملائكة مسومين » وقوله تعالى في سورة الأحزاب « وجنوداً لم تروها »

(١) يعني أنه شاهد واقعة الجمل (٢) العنتريس : الناقة الغليظة ، ومعنى البيت :
 « وقد شاهدت ذلك الجمل المشئوم الذي سميت باسمه الموقعة ، فلا كان يوم ولدته أمه فيه ،
 فإنه شر ما نتجت تلك الناقة العنتريس التي خلفته (٣) موقعة صفين التي كانت بين علي
 ومعاوية (٤) فرس معتدلة القوام (٥) الأريس الأكارأى الحراث ، يعني أن قائدها
 ليس بالغمر الذي لم يمارس أهوال الحروب (٦) رامياً بالسيف أبطاها إلى الأرض
 (٧) الملساء أو الشديدة (٨) يعني واقعة النهر (٩) الجيش ، وسمى كذلك لأنه خمس
 فرق . (١٠) أي الناقة اللقوة ، وهي كل ناقة سريعة القبول لماء الفحل (١١) القيس
 أي الفحل القيس ، وهو كل فحل سريع الإلقاح ، ومعنى البيت : « إن الوعظ صادف
 استعداداً منه ، وهوى في نفسه ، فانتصح به ، وأقلع عما كان فيه من الضلال والغي . »

حديث الاسد

وَيَحْمُ^(١) فَإِذَا هُوَ بِأَسَدٍ يَفْتَرِسُ مِنْ صَيْرَانِ^(٢) الْجَنَّةِ وَحَسِيلِهَا^(٣) فَلَا تَكْفِيهِ
مِائَةٌ وَلَا مِائَتَانِ ، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : « لَقَدْ كَانَ الْأَسَدُ يَفْتَرِسُ الشَّاةَ الْعَجْفَاءَ^(٤)
فَيَقِيمُ عَلَيْهَا الْأَيَّامَ ، لَا يَطْعَمُ سِوَاهَا شَيْئًا » فَيُلْهِمُ الْأَسَدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ - وَقَدْ
عَرَفَ مَا فِي نَفْسِهِ - فَيَقُولُ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ ! أَلَيْسَ أَحَدُكُمْ فِي الْجَنَّةِ تُقَدَّمُ
لَهُ الصَّحْفَةُ^(٥) فَيَأْكُلُ مِنْهَا مِثْلَ عُمُرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَلْتَذُّ بِمَا أَصَابَ ،
فَلَا هُوَ مُكْتَفٍ ، وَلَا هِيَ الْفَانِيَةُ ! وَكَذَلِكَ أَنَا أَفْتَرِسُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَلَا تَأْذَى
الْفَرَيْسَةَ بِظْفُرٍ وَلَا نَابٍ ، وَلَكِنْ تَجِدُ مِنَ اللَّذَّةِ كَمَا أَجِدُ^(٦) بِلُطْفِ
رَبِّهَا الْعَزِيزِ !

أَتَدْرِي مَنْ أَنَا؟ أَنَا أَسَدُ الْقَاصِرَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي طَرِيقِ مِصْرَ ، فَلَمَّا سَافَرَ
عُثْبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ يُرِيدُ تِلْكَ الْجِهَةَ ، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - :

(١) يسير «أى ابن القارح» (٢) قطعان بقر الوحش (٣) أولاد البقر، مفردها: حسيلة
(٤) الهزيلة (٥) القصعة الكبيرة المنبسطة (٦) انظر الى هذا الاستدراك الجميل ،
وتأمل كيف احتاط أبو العلاء بهذه الإشارة الدقيقة ، فهو لم يفته أن ينبه الى سرور الحيوان
في الدار الآخرة ، والتذاذه بما كان يألم له من الذبح والقتل في الدار الأولى . وبهذه الإشارة
لم يتناقض أبو العلاء مع نفسه في تحريم ذبح الحيوان الذى يرى له مثل ما يرى للإنسان من
الحق في الحياة والتمتع بها ، وقد دارت بين أبي العلاء المعري وداعى الدعاة في مصر رسائل
في أمر تحريم الحيوان ، فانتصر أبو العلاء لهذه الفكرة ، وأيدها بالحجج والأدلة القوية ، ورد
داعى الدعاة عليه « ارجع إلى كتابنا : صور جديدة من الأدب العربي »

« اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ » أُهْمِتُ أَنْ أَتَجَوَّعَ لَهُ أَيَّامًا ، وَجِئْتُ
وَهُوَ نَائِمٌ بَيْنَ الرَّفْقَةِ ، فَتَخَلَّلتُ ^(١) بَيْنَ الْجَمَاعَةِ إِلَيْهِ
وَأَدْخَلْتُ الْجَنَّةَ بِمَا فَعَلْتُ . »

حديث الخطيئة ^(٢)

..... فَيَذْهَبُ ، فَإِذَا هُوَ بَيْتٌ فِي أَقْصَى الْجَنَّةِ ، كَأَنَّهُ

(١) دخلت بينهم ، أو خلال دارهم

(٢) الخطيئة

توفي سنة ٥٩ هـ

شاعر جاهلي إسلامي ، اسمه « جرول بن أوس » ، وكنيته « أبو مليكة » ولقبه « الخطيئة »
لقب بذلك لقصره وقربه من الأرض ، وهو ينسب نفسه الى قبيلة بني عبس التي ولد فيها .
اشتهر بالعناد والنزوع إلى الشر ، وقد وصفه الأصمعي بأنه : « كان سيء الخلق ، دنىء النفس ،
فاسد الدين ، سئولا ملحفاً جشعاً ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً دميماً قصيراً ، رث الهيئة ،
متدافع النسب في القبائل »

وقد هجا أبا بكر - فيمن هجاه - فقال :

أطعنا رسول الله إذ كان حاضراً فيا لهفتنا ! ما بال دين أبي بكر ؟

أيورها بكراً - إذا مات بعده - وتلك - وبيت الله - قاصمة الظهر !

دفعه طبعه الشرير إلى هجاء أقرب الناس إليه ، فهجأ عمه وخاله ، بل أمه وأباه ، بل

هجأ نفسه أيضاً ، فقال في هجاء أبيه وعمه وخاله :

لحاك الله ، ثم لحاك حقا أبا ، ولحاك من عم وخال

فنعم الشيخ أنت - لدى الخازي - وبئس الشيخ أنت - لدى المعالي

جمعت اللؤم - لآحياك ربي - وأسباب السفاهة والضلال

حَفَشُ^(١) أُمَّةٍ رَاعِيَةٍ، وَفِيهِ رَجُلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ نُورٌ سَكَّانِ الْجَنَّةِ، وَعِنْدَهُ شَجَرَةٌ قَيْيَّةٌ^(٢)، ثَمَرُهَا لَيْسَ بِزَاكٍ^(٣)

فَيَقُولُ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ ! لَقَدْ رَضَيْتَ بِحَقِيرٍ »

فَيَقُولُ : « وَاللَّهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ هَيْاطٍ وَمِيَاطٍ^(٤) وَعَرَقٍ مِنْ شَقَاءٍ،

وَشَفَاعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَدِدْتُ أَنَّهُمَا لَمْ تَكُنْ ! »

وقال في هجاء أمه :

تنحى ، واقعدى منى بعيداً أراح الله منك العالمينا
ألم أظهر لك البغضاء منى ؟ ولكن لا إخالك تعقلينا
أغربالاً - إذا استودعت سرا ؟ وكانونا على المتحدثينا
جزاك الله شرا من عجز ولقائك العقوق من البينينا
حياتك - ما علمت - حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا !

وقال في هجاء نفسه - ولعله أصدق ما قال - :

أبت شفتاي - اليوم - إلا تكلم بسوء ، فما أدري لمن أنا قائله
أرى لي وجها قبح الله خلقه فقبح من وجهه ، وقبح حامله
وقوله - وهو من أروع الشعر وأحسنه - :
يسوسون أحلاماً - بعيداً أناتها وإن غضبوا - جاء الحفيظة والجد
أقلوا عليهم - لا أبا لأبيكم - من اللوم ، أوسدوا المكان الذي سدوا
أولئك قوم - إن بنوا - أحسنوا البناء ، وإن عاهدوا - أوفوا ، وإن عقدوا - أشدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها ، وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
مطاعين في الهيجا ، مكاشيف للدجى ، بنى لهم آباؤهم ، وبني الجد
ويعذلنى أبناء سعد عليهم وما قلت إلا بالذى علمت سعد

(١) بيت صغير جداً (٢) صغيرة حقيرة (٣) ليس نامياً (٤) هياط ومياط :

فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » فَيَقُولُ : « أَنَا الْخَطِيئَةُ الْعَبْسِيَّةُ » فَيَقُولُ : « بِمِ
وَصَلْتَ إِلَى الشَّفَاعَةِ ؟ » فَيَقُولُ : « بِالصِّدْقِ » فَيَقُولُ : « فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ »
فَيَقُولُ : « فِي قَوْلِي :

أَبَتْ شَفَاتِي الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلَّمًا بِهِجْرٍ^(١) ، فَلَا أُدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ ؟
أَرَى لِي وَجْهًا قَبَّحَ اللَّهُ خَلْقَهُ فَقَبَّحَ مِنْ وَجْهِ ، وَقَبَّحَ حَامِلُهُ «
فَيَقُولُ : « مَا بَالُ قَوْلِكَ :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ^(٢) بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
لَمْ يُغْفَرْ لَكَ بِهِ ؟ » فَيَقُولُ : « سَبَقَنِي إِلَى مَعْنَاهُ الصَّالِحُونَ ، وَنَظَّمْتُهُ وَلَمْ
أَعْمَلْ بِهِ ، مُفْرِمَتُ الْأَجْرِ عَلَيْهِ » فَيَقُولُ : « مَا شَأْنُ الزَّبْرَقَانِ بْنِ بَدْرِ^(٣) ؟ »

اضطراب ، ومجىء وذهاب ، ودفع وزجر . وأصل الهياط : أشد السوق في الورد ، والمياط :
أشد السوق في الصدر

(١) يروى : بسوء ، والهجر : فحش من القول وقبيح من الكلام (٢) العرف :
المعروف ، وهذا البيت من قصيدته التي هجأ بها الزبرقان بن بدر ، وستر بك بعد أسطر

(٣) الزبرقان بن بدر

أحد أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعامل عمر بن الخطاب ، وقد أحسن إلى
الخطيئة وأكرم جواره ، فلم يحمل ذلك دون هجاء الخطيئة إياه وممالة خصمه « بنغيض بن
عامر » عليه ، فمدح بنى أنف الناقة وهجأ الزبرقان بن بدر ، فشكاه إلى عمر^(١) بن الخطاب
فحبسه ، ثم استمطفه بشعره فأطلقه بعد أن حضر عليه الهجاء والخوض في أعراض الناس .

(١) - كان عمر بن الخطاب يسمع شكوى الناس من الشعراء إذا هجؤهم ، ويعنى بذلك عنايته
بالمهم من الخصومات والقضايا . ويضاف إلى هذا المثال الذي بين أيدينا قصته مع تميم بن أبي والنجاشي
(انظر ص ٦٦ من هذا الجزء) .

فَيَقُولُ الْخَطِيئَةُ : « هُوَ رَّئِيسٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، انْتَفَعَ بِهَجَاتِي ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ
غَيْرُهُ بِعَدِيحِي ! »

ولما لم يكن له مورد رزق من غير هذا الباب ، وقع له « عمر » بثلاثة آلاف درهم ، فكف
عن الهجاء ، حتى مات عمر ، فعاد يهجو من يشاء . ومما قاله في الزبرقان بن بدر :

والله ما معشر لاموا امرأ جنبا	في آل لأمى بن شماس ، بأكياس
ما كان ذنب بغيض - لا أبالكم -	في بائس جاء يحدو آخر الناس
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم	كما يكون لكم متحى وأمراسي
لما بدا لي منكم عيب أنفسكم	ولم يكن لجراحي فيكم آسي
أزمت يأسا متينا من نوالكم	ولن يرى طاردا للحر كالياس
جار لقوم أطلوا هون منزله	وغادروه مقيا بين أرماس
ملوا قراه وهرته كلابهم	وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها	واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه	لا يذهب العرف بين الله والناس

لفصل الخامس

الجحيم

حديث الخنساء

.... وَيَمْضِي ، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَةٍ فِي أَقْصَى الْجَنَّةِ ، قَرِيبَةٍ مِنَ الْمُطَّلَعِ إِلَى النَّارِ ،
فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتِ ؟ » فَتَقُولُ : « أَنَا الْخُنْسَاءُ السَّامِيَّةُ ^(١) ، أَحَبِّتُ أَنْ أَنْظَرَ

(١) الخنساء

توفيت سنة ٢٤ هـ

اسمها تماضر ، واسم أبيها عمرو بن الشريد ، ولقبها الغالب عليها هو « الخنساء » والخنساء
-الظبية- وهي من بني سليم من مضر ، وقد اشتهرت بما قالت في رثاء أخويها « معاوية وصخر »
وفدت في قومها على النبي فأسامت ، وأنشدته شعرها فأعجب به ، واستزادها . وحكايتها
مع النابغة الذبياني حين فضلها على حسان مشهورة لا داعي إلى ذكرها
ومما يحكونه عنها أن دريد بن الصمة خطبها إلى أبيها فرحب به ، وسأله أن يترث رثما
يسأل الخنساء عن رأيها في زواجها ، لأن لها في نفسها ما ليس لغيرها . ثم دخل إليها وقال لها :
« يا خنساء ! أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم - دريد بن الصمة - يخطبك ، وهو
من تعلمين » فقالت (ودريد يسمع قولها) :

« يا أبت ! أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح ، وناكحة شيخ بني جشم هامة اليوم
أو غد ؟ » ثم أنشأت تقول :

أخطبني - هبلت - على دريد وقد طردت سيد آل بدر
معاذ الله ينكحني حبركي يقال : « أبوه من جشم بن بكر »
ولو أمسيت في جشم هديا لقد أمسيت في دنس وفقر

إلى صخرٍ . فَاطَّلَعْتُ ، فَرَأَيْتُهُ كَأَجْبَلِ الشَّامِخِ ، وَالنَّارُ تَضْطَرِمُ فِي رَأْسِهِ ،
فَقَالَ : « لَقَدْ صَحَّ مَزْعَمُكَ فِيَّ » يَعْنِي قَوْلِي :
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ (١) فِي رَأْسِهِ نَارٌ (٢) «

قالوا : فخرج إليه أبوها فقال : « يا أبا قره ، قد امتنعت - ولعلها أن تجيب فيما بعد »
فقال دريد : « قد سمعت قولكما » وانصرف غضبان ، وقال يهجو الخنساء من قصيدة
نيجزى منها بقوله :

« وقاك الله يا ابنة آل عمرو .
فلا تلدى ؛ ولا ينكحك مثلى
وتزعم أنني شيخ كبير ،
تريد شرنبث (١) القدمين شثنا
وما قصرت يدي عن عظم أمر
وما أنا بالمزجي - حين يسمو
ومن مختار شعر الخنساء قولها :

إن الزمان - وما يفنى له عجب -
إن الجديدين - في طول اختلافهما -
وقولها في رثاء « صخر » أخيها :

ألا يا صخر ! - إن أبكيت عيني
دفعت بك الخطوب - وأنت حي -
إذا قبح البكاء على قتيل
فقد أضحككتني زمناً طويلاً
فمن ذا يدفع الخطب الجليلاً
رأيت بكاءك الحسن الجليلاً

(١) جبل شامخ (٢) انظر إلى ما يحويه هذا التهكم من الدعابة ودقة التصوير ، فقد
أراد أبو العلاء أن يطلعك على رأيه في نقد هذا البيت ، فلجأ إلى تمثيل هذه الصورة البديعة
لترى منها رأيه مجسماً واضحاً .

حديث إبليس

فَيَطَّلِعُ ، فَيَرَىٰ إبليسَ - لعنه الله - وَهُوَ يَضْطَرِبُ فِي الْأَغْلَالِ
وَالسَّلَاسِلِ ، وَمَقَامِعِ^(١) الْحَدِيدِ تَأْخُذُهُ مِنْ أَيْدِي الزَّبَانِيَةِ ! فَيَقُولُ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ

وهذا البيت من قصيدة جميلة للخنساء رثت بها أخاها وقد غنى ابن سريج ببعض أبياتها ،
والقصيدة من أجل شعر الخنساء ، وأولها :

قذى بعينك ! أم بالعين عوار أم ذرفت - إذ خلت من أهلها الدار ؟

وفيهما تقول

تبكى « خناس » فما تنفك - ما عمرت - لها عليه رنين ، وهي مفتار

تبكى « خناس » على « صخر » وحق لها - إذ رابها الدهر - إن الدهر ضرار

لا بد من ميتة ، في صرفها عبر ، والدهر - في صرفه - حول وأطوار

إلى أن تقول :

لقد نعى « ابن نهيك » لى أخا ثقة كانت ترجم عنه - قبل - أخبار

فبت ساهرة للنجم أرقبه حتى أتى - دون غور النجم - أستار

ثم تقول :

قد كان خالصتى من كل ذى نسب فقد أصيب ، فما للعيش أوطار

وتختمها بقولها :

ليبكه مقتر - أفنى حريته دهر - وحالفه بؤس وإقتار

ورفقة - حار حاديهم بمهلكة - كأن ظللتها فى الطخية القار

لا يمنع القوم - إن سالوه خلعتهم ولا يجاوزه - بالكيل - مرار

(١) مفردتها : مقمعة - وهى عمود من الحديد كاللحجج يضر به رأس الفيل ، أو

خشبة يضر بها الإنسان لينزل . والأول المراد هنا .

الَّذِي أَمَكَنَ مِنْكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّ أَوْلِيَائِهِ ، لَقَدْ أَهْلَكْتَ مِنْ بَنِي آدَمَ
طَوَائِفَ لَا يَمْلِكُ عَدَدَهَا إِلَّا اللَّهُ ! »

فَيَقُولُ : « مَنْ الرَّجُلُ ؟ »

فَيَقُولُ : « أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، مِنْ أَهْلِ حَلَبَ ، كَانَتْ صِنَاعَتِي الْأَدَبَ ،

أَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى الْمُلُوكِ »

فَيَقُولُ : « بئسَ الصَّنَاعَةُ ! إِنَّهَا تَهَبُ غُفَّةً^(١) مِنَ الْعَيْشِ لَا يَتَّسِعُ بِهَا

الْعِيَالُ ، وَإِنَّهَا لَمَزَلَّةُ الْقَدَمِ ، وَكَمْ أَهْلَكْتَ مِثْلَكَ ، فَهَيْئًا لَكَ إِذْ نَجَوْتَ ،

وَإِنِّي لِي إِلَيْكَ لِحَاجَةٌ فَإِنْ قَضَيْتَهَا شَكَرْتُكَ يَدَ الْمُنُونِ^(٢) »

فَيَقُولُ : « إِنِّي لَا أَقْدِرُ لَكَ عَلَى نَفْعٍ ، فَإِنَّ الْآيَةَ سَبَقَتْ فِي أَهْلِ النَّارِ ،

أَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أفيضوا عَلَيْنَا مِنَ

الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ، قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ »

فَيَقُولُ : « إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ عَنْ خَبَرِ

تُخْبِرُنِيهِ : إِنْ الْخَمْرَ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ ،

فَهَلْ يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِالْوُلْدَانِ الْمُخْلِدينَ فِعْلَ أَهْلِ الْقُرْيَاتِ^(٣) ؟ »

فَيَقُولُ : « عَلَيْكَ الْبَهْلَةُ^(٤) أَمَا شَعَلْتَ مَا أَنْتَ فِيهِ ؟ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى :

« وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ؟

فَيَقُولُ : « وَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَأَشْرِبَةً كَثِيرَةً غَيْرَ الْخَمْرِ ، فَمَا فَعَلَ بَشَارُ بْنُ بُرْدٍ ،

(١) بُلْغَةٌ (٢) دَائِمًا أَبَدًا (٣) الْمُرَادُ بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ قَوْمَ لُوطَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي

سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ : « وَنَجِّينَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ » وَكَذَلِكَ جَاءَ فِي الْعَنْكَبُوتِ

وَالْأَعْرَافِ وَالنَّمْلِ ذَكَرَ الْقَرْيَةَ وَأَهْلِهَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ قَوْمِ لُوطَ (٤) اللَّعْنَةُ



فَإِنَّ لَهُ عِنْدِي يَدًا^(١) لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، كَانَ يُفَضِّلُنِي دُونَ الشُّعْرَاءِ ،
وَهُوَ الْقَائِلُ :

إِبْلِيسُ أَفْضَلُ مِنْ أَيْيَكُمُ آدَمَ فَتَبَيَّنُوا يَا مَعْشَرَ الْأَشْرَارِ
النَّارُ غُنْصَرُهُ^(٢) ، وَآدَمُ طِينَةٌ ، وَالطِّينُ لَا يَسْمُو سُمُو النَّارِ
لَقَدْ قَالَ الْحَقُّ ، وَلَمْ يَزَلْ قَائِلُهُ مِنَ الْمَقْوَتِينَ ! «

حديثه مع بشار^(٣)

. . . فَلَا يَسْكُتُ مِنْ كَلَامِهِ ، إِلَّا وَرَجُلٌ فِي أَصْنَافِ الْعَذَابِ ،

(١) جميلا ومعروفاً (٢) أصله

(٣) بشار بن برد : توفي سنة ١٦٧ هـ ، وعمره نحو ثمانين سنة

اسمه بشار ، واسم أبيه برد ، وأصله فارسي . نشأ بالبصرة ، وكان ضخماً الجثة طويل
العنق ، مجدور الوجه ، ولد أُمِّهِ ؛ جاحظ الحدقتين ، يفشاهما لحم أحمر
نبت في أوائل العصر العباسي الأول ، وقال الشعر في العاشرة من عمره . قيل أنه نظم نحو
١٢٠٠٠ قصيدة لم يبق منها الآن إلا نتف متفرقة

لقي شعره بالبصرة رواجاً مدهشاً في أيامه ، فرواه كل غَزَلٍ وَغَزَلَةٍ ، وتكسبت به كل
نائحة ومغنية ، وكان بشار هَجَاءً مَقْدَعاً فَمَا بِهِ كُلُّ ذِي شَرَفٍ يَخْشَى ثَلَمَهُ .

وكان منحازاً للعلويين وقت قيام الدولة العباسية ، وحرص على الفتك بالمنصور ، فلما
انتصر المنصور ، انحاز إليه بشار وتلقاه ، ثم انتقل إلى بغداد ، ومدح العباسيين ، وعاصر
المهدي ، ومدح خالدا البرمكي

وكانت عقيدته الدينية مزعزعة ، ويمكن عده من الفلاسفة الحائرين ، وكان يدين بالجبر ،
ومن أبداع ما قاله في ذلك :

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِي غَيْرِ نَخِيرٍ هَوَايَ ، وَلَوْ خَيْرتُ كُنْتُ الْمَهْدَبَا
أُرِيدُ فَلَا أُعْطَى ، وَأُعْطَى وَلَمْ أُرَدْ وَقَصْرَ عِلْمِي أَنْ أَنْالَ الْمَغْيِبَا

يُعْمَضُ عَيْنَيْهِ حَتَّى لَا يَنْظُرَ إِلَى مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ النَّقْمِ ، فَيَفْتَحُهُمَا الزَّبَانِيَةَ

فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعقت إلا التعجبا !
وقد هجا يعقوب بن داود - وزير المهدي - حين أعرض عنه ولم يأبه لمديحه -
ببئيه المشهورين :

بنى أمية ا هبوا ؛ طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود . . .
ضاعت خلافتكم يا قوم ، فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود !
فأمر المهدي بقتله ضربا حتى مات ، ولم يخرج في دفنه أحد خوفاً من غضب الخليفة ،
ومن أبدع شعره قوله :

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامه شبا الحرب خير من قبول المظالم
وقوله في القصيدة عينها :

ولا تجمل الشورى عليك غضاضة فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم ؟
وقوله من قصيدة أخرى :

خليلى ! إن العسر سوف يفيق وإن يسارا فى غد نخليق
وما كنت إلا كالزمان - إذا صحا صحوت ، وإن ماق الزمان أموق^(١)
لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة ولا يشتكى بخلا على رفيق
خليلى ! إن المال ليس بنافع إذا لم ينل منه أخ وصدیق
وكنت إذا ضاقت على محلة تيممت أخرى - ما على مضيق
وما خاب - بين الله والناس - عامل له فى التقى أو فى المحامد ، سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق

ومن لطيف دعاياته - وقد أخطأ بعض مشايخ الأدب المعاصرين فى حسابان ذلك من سخافات - قوله :

« خليفة » ربة البيت تصب الخلل فى الزيت

بِكَلَّابٍ (١) مِنْ نَارٍ ، وَإِذَا هُوَ بِبَشَارِ بْنِ بُرَيْدٍ قَدْ أُعْطِيَ عَيْنَيْنِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا
بَعْدَ الْكَمَةِ (٢) لِيَنْظُرَ إِلَى مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ النَّكَالِ

فَيَقُولُ لَهُ : « يَا أَبَا مُعَاذٍ (٣) لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي مَقَالِكَ ، وَأَسَأْتَ فِي مُعْتَقَدِكَ ،
وَلَقَدْ كُنْتُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ أَذْكَرُ بَعْضَ قَوْلِكَ ، فَأَتْرَحَّمُ عَلَيْكَ ، ظَنًّا أَنْ
التَّوْبَةَ سَتَلْحَقُكَ ، مِثْلَ قَوْلِكَ :

ارْجِعْ إِلَى سَكْنٍ تَعِيشُ بِهِ ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدُ
تَرْجُو غَدًا ، وَغَدًا كَحَامِلَةٍ (٤) فِي الْحَيِّ ، لَا يَدْرُونَ مَا تَلِدُ (٥)
وَقَوْلِكَ :

الْحُرُّ يُلْحَى (٦) وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ (٧) مِثْلَ الرَّدِّ
وَقَلْتُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ : « السُّبْدِ » فِي بَعْضِ قَوَافِيهَا ، فَإِنْ كُنْتَ أُرِدْتَ جَمْعَ
سُبْدٍ ، وَهُوَ طَائِرٌ ، فَإِنْ « فُعَلًا » لَا يَجْمَعُ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ كُنْتَ سَكَنْتَ الْبَاءَ ،
فَقَدْ أَسَأْتَ ، لِأَنَّ تَسْكِينَ الْفَتْحَةَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ .

فَيَقُولُ بِشَارٍ : « يَا هَذَا ! دَعْنِي مِنْ أَبَاطِيكَ ، فَإِنِّي لَمَشْغُولٌ عَنْكَ ! »

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت !

(١) جمع كلاب : وهو خشبة في رأسها عُقَّافَةٌ من حديد . (٢) الكمة : العنى .
وانظر إلى هذا التهم اللاذع الذي تحويه هذه الجملة ، ففي الدار الأولى حيث البصر من أكبر
النعم وألزمها للإنسان يحرم بشار إياه ، ثم يُعْطَاهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ليرى عذابه ونكاله ،
فيغض عينيه حتى لا يرى ما هو فيه من الهول !

وقد أشار أبو العلاء إلى حرمان بشار نعمة البصر ، فقال في لزومياته :

والحظ يقسم ، عاش بشر ما اشتكى بصراً ، وعمر أكتمها بشار

(٣) كنية بشار (٤) كحبل (٥) أي أن غداً مجهول ، لا يعرف ما يُجِنُّهُ مِنَ الْأَحْدَاثِ

والتصارييف (٦) يلام (٧) المُلْحِفُ

حديثه مع امرئ القيس^(١)

وَيَسْأَلُ عَنِ امْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ، فَيَقُولُ: « يَا أَبَا هِنْدٍ^(٢) أَخْبِرْنِي عَنِ
التَّسْمِيَطِ^(٣) الْمُنْسُوبِ إِلَيْكَ، أَصَحِّحٌ هُوَ عَنكَ؟ »
وَيُنْشِدُهُ الَّذِي يَرْوِيهِ بَعْضُ النَّاسِ:

(١) مرت ترجمته (في ص ٩٦ من هذا الجزء) ومر حديث عنه (في صفحتي ٥ و ٦
من هذا الجزء أيضاً) وقد ذكره المعري في لزومياته أكثر من مرة، فمن ذلك قوله:

أين امرؤ القيس والعداري إذ مال من تحته الغبيط
له كمتان — ذات كاس تزد ، والساج الربيط
يباكر الصيد بالمذاكي فيأنس الموحش الهبيط
استنبط العرب في المواي بعدك ، واستعرب النبيط

وقوله:

مضى « الواقف الكندي » والسقط غابر وصاحت ديار الحى : « أين لبيد؟ »
تولى ابن حجر — لا يعود لشأنه — وطالت ليال ، والمعالم بيد
وإنما سماه « بالواقف » لوقفته المشهورة بسقط اللوى — إذ يقول في أول معلقته الساحرة:

« قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل »

ففي هذا البيت — كما يقول علماء الأدب — وقف واستوقف ، وبكى واستبكى .

(٢) كنية امرئ القيس

(٣) التسميط ضرب من الشعر ينظم مسطاً — مقسماً على أجزاء عروضية مقفاة على غير

روى القافية — وقد نحلوا امرأ القيس تسميطاً آخر ذكرناه في كتابنا « نظرات في تاريخ

الأدب الأندلسي » (في ص ٢٥٠) — وذكرنا أنه بين البعد عن الأسلوب الجاهلي، وأوله:

توهمت من هند معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

يَا قَوْمَ إِنَّ الْهَوَىٰ إِذَا أَصَابَ الْفَتَىٰ
فِي الْقَلْبِ ثُمَّ ارْتَقَىٰ فَهَدَّ بَعْضَ الْقَوَىٰ
فَقَدْ هَوَى الرَّجُلُ

فَيَقُولُ : « وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ هَذَا قَطُّ ، وَإِنَّهُ لَقَرِيٌّ لَمْ أَسْلُكْهُ ، وَإِنَّ
الْكَذِبَ لَكَثِيرٌ ، وَأَحْسَبُ هَذَا لِبَعْضِ شُعْرَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَلَقَدْ ظَلَمَنِي
وَأَسَاءَ إِلَيَّ ، أَبَعَدَ كَلِمَتِي الَّتِي أَوْلَمَّا :
أَلَا عِمَّ صَبَاحًا (١) أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي
وَقَوْلِي :

خَلِيلِي مَرَّأِي عَلَى أُمَّ جُنْدَبٍ لِأَقْضَى حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذِّبِ (٢)
يُقَالُ لِي مِثْلُ ذَلِكَ ؟ وَالرَّجْزُ مِنْ أَوْعَفِ الشُّعْرِ (٣) ، وَهَذَا الْوَزْنُ مِنْ أَوْعَفِ
الرَّجْزِ ا « فَيَعْجَبُ لِمَا سَمِعَهُ مِنْ أَمْرِي الْقَيْسِ

مربع من هند خلت ومصائف يصبح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ، ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال

(١) ليكن صباحك ناعما (٢) ارجع الى ص ٥ و ٦ من هذا الجزء (٣) هذا هو
رأى أبي العلاء في الرجز ، وسيمر بك في هذه الرسالة ما يقنعك بتحامله الشديد على الرجز ،
وافتنانه في احتقارهم وتنقضهم ، وسننبه على ذلك في موضعه ، ونجتزئ هنا الآن ببعض
أبيات من لزومياته تستشف منها رأيه في الرجز والرجاز ، بصراحة لا تدع مجالاً للشك ،
وهي قوله :

قُضِّرْتُ أَنْ تَدْرِكَ الْعِلْيَاءَ فِي شَرَفِ إِنْ الْقِصَائِدَ لَمْ يَلْحَقْ بِهَا الرَّجْزُ

حديثه مع عنتره^(١)

..... وَيَنْظُرُ ، فَإِذَا عَنَتَرَةٌ

وقوله :

ولم أرق في درجات الكريم وهل يبلغ الشاعر الراجز ؟

وقوله :

عجزت عن الكسب الذي يجلب الغنى وما أنت عن كسب الدنيا بما جزا !
ومن لم ينل في القول رتبة شاعر تتنعم في نظم برتبة راجز !

(١) عنتره العبسي

توفي سنة ٦١٥ م

أبوه عمرو بن شداد العبسي ، وأمه زبيدة الحبشية ، كان « عنتره » يرعى الابل والخيول ، ولكنه لم يلبث أن اشتهر بفروسيته ، وذات مرة أغار بعض العرب على عبس ، واستاقوا إبلهم ، ولحقهم بنو عبس وفيهم عنتره ، فقال أبوه : « كرت يا عنتره » فقال : « العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن الحلاب والصر » (أى شد ضرع الناقة) فقال : « كر ، وأنت حرا » فتفانى في القتال ، حتى هزم القوم ، ونصر قبيلته

سئل يوما : « أنت أشجع العرب وأشدّها ؟ » فقال : « لا ! » قيل : « فماذا شاع لك هذا في الناس ؟ » قال : « كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل موقعا لا أرى لى منه مخرجا ، وكنت أعتد الضعيف الجبان فأضربه الضربة القوية يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله ! » ومن خير أبياته قوله :

بكرت تخوفنى الختوف ؛ كأننى أصبحت عن غرض الختوف بمعزل !
فأجبتها : إن المنية منهل لا بد أن أسقى بذاك المنهل
فأقنى حياءك - لا أبالك - واعلمى أنى امرؤ سأموت - إن لم أقتل
إن المنية لو تمثلت مثلت مثلى إذا نزلوا بطنك المنزل

مُتَلَدِّدٌ^(١) فِي السَّعِيرِ ، فَيَقُولُ : « مَالِكَ يَا أَخَا عَبِيسِ ! كَأَنَّكَ لَمْ تَنْطِقْ بِقَوْلِكَ :
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَ مَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
بِرُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أُسْرَةٍ قُرِنْتُ بِأَزْهَرَ فِي الشَّمَالِ مُقَدِّمِ^(٢)
وَإِنِّي إِذَا ذَكَرْتُ قَوْلَكَ : « هَلْ فَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمِ^(٣) » لَأَقُولُ :
« إِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ وَدِيْوَانُ الشُّعْرِ قَلِيلٌ مَحْفُوظٌ ، فَأَمَّا الْآنَ فَلَوْ سَمِعْتَ مَا قِيلَ
بَعْدَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - كَعْتَبْتَ نَفْسَكَ عَلَى مَا قُلْتَ ، وَعَلِمْتَ
أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ^(٤) :

وقوله :

وإذا شربت فإني مستهلك
وإذا صحت فما أقصر عن ندى
مالي ، وعرضي وافر لم يكلم
وكما علمت شمائلي وتكرمي

وقوله :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر
الشامئ عرضي ولم أشتمهما
للحرب دائرة على ابني ضمضم
والناذرين - إذا لم ألقهما - دمي

وقوله :

كيف المزار وقد تربع أهلها
بعنيزتين وأهلنا بالعلم

(١) متحير أو متبلد ، يتلفت يمينا وشمالاً ، وهو مأخوذ من صفحتي عنقه

(٢) ارجع إلى تفسيرهما في ص « ٥٣ » من هذا الجزء (٣) المتردم : الموضع يُسْتَرَقَعُ

ويُستصلح لما اعتراه من الوهن والوهي ، أي لم يترك الشعراء لي معنى جديداً أقوله بعدهم

(٤) حبيب بن أوس « أبو تمام » (١٨٨ - ٥٢٣١)

ولد بقرية « جاسم » من أعمال دمشق ، ثم انتقل مع أبيه إلى دمشق ، وكان أبوه يحترف
الحياكة ، ولما ترعرع أبو تمام ذهب إلى مصر فكان يسقي الماء بجامع عمرو ، ثم نبغ في الشعر
فغادر مصر متكسباً بشعره ، فأقبل عليه الأدباء ، ووصله ممدوحوه .

فَلَوْ كَانَ يَفْنَى الشُّعْرُ أَفْنَاهُ مَا قَرَّتْ^(١) حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي الْمُصُورِ الذَّوَاهِبِ
وَلَكِنَّهُ صَوَّبُ^(٢) الْمُقُولِ، إِذَا انْجَلَّتْ سَحَابٌ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَابِ
فَيَقُولُ: « وَمَا حَبِيبُكُمْ هَذَا؟ » فَيَقُولُ: « شَاعِرٌ ظَهَرَ فِي الْإِسْلَامِ »
وَيُنَشِدُهُ شَيْئًا مِنْ نَظْمِهِ، فَيَقُولُ: « أَمَّا الْأَصْلُ فَعَرَبِيٌّ، وَأَمَّا الْفَرْعُ فَنَطَقَ
بِهِ غَيْبٌ، وَلَيْسَ هَذَا الْمَذْهَبُ عَلَى مَا تَعْرِفُ قَبَائِلُ الْعَرَبِ. » فَيَقُولُ
— وَهُوَ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ —: « إِنَّمَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ الْمُسْتَعَارُ — وَقَدْ جَاءَتْ
الْعَارِيَّةُ فِي أَشْعَارِ كَثِيرَةٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ كاجْتِمَاعِهَا فِيهَا نَظْمُهُ
حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ^(٣) »

وَلَقَدْ شَقَّ عَلَى دُخُولِ مِثْلِكَ إِلَى الْجَحِيمِ، وَكَانَ أَذْنِي مُصْغِيَةً إِلَى قَيْنَاتِ^(٤)
الْفُسْطَاطِ وَهِيَ تُعْرَدُ بِقَوْلِكَ:
أَمِنْ سُمِّيَّةَ^(٥) دَمْعُ الْعَيْنِ تَذْرِيفٌ لَوْ أَنَّ ذَامِنَكَ قَبْلَ الْيَوْمِ — مَعْرُوفٌ^(٦)

ولما اتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه بشعره أجازته بولاية الموصل ، فوليا عامين ، ثم مات .
وسيمر بك طرف من أخباره في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(١) ما جمعه (٢) مطر (٣) هذا هو رأى أبي العلاء في شعر أبي تمام ، وقد ذكره
في لزومياته فقال :

وجدت عواري الحياة كثيرة كأن بقاء المرء شعر « حبيب » !
(٤) مغنيات (٥) « سمية » هي امرأة أبيه — وكان يحبها — فخرضت عليه أباه ذات
يوم ، وادعت أن عنزة راودها عن نفسها ، فغضب عليه غضباً شديداً ، وأخذ يضربه ضرباً
مبرحاً ، فلما رأت ذلك رق له قلبها ، فارتمت عليه تجلله وتحميه ، وبكت لما أصابه ، ففاضت
شاعريته بتلك الأبيات .

(٦) معنى البيت : « أحقاً تذر فين على دموعك ؟ وما عودتني ذلك من قبل ! »

تَجَلَّسْتَنِي (١) إِذْ أَهْوَى الْعَصَا قِبَلِي كَأَنَّهَا رَشَاءٌ (٢) فِي الْبَيْتِ مَطْرُوفٌ (٣)
الْعَبْدُ عَبْدُكُمْ وَالْمَالُ مَالُكُمْ ، فَهَلْ عَذَابُكَ عَنِّي الْيَوْمَ مَصْرُوفٌ ؟

حديثه مع علقمة

وَ يَنْظُرُ ، فَإِذَا عَلَقْمَةُ بْنُ عَبْدِة (٤) فَيَقُولُ : « أَغْرَزَ عَلِيٌّ بِمَكَانِكَ ، مَا أَغْنَى
عَنكَ سِمَطًا لَوْلَيْكَ (٥) ، لَوْ شَفَعَتْ لِأَحَدٍ آيَاتٌ صَادِقَةٌ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ اللَّهِ
- سُبْحَانَهُ - لَشَفَعَتْ لَكَ آيَاتُكَ فِي وَصْفِ النِّسَاءِ ، أَغْنَى قَوْلَكَ (٦) :

(١) عَلَّتْنِي أَوْ تَكَنَّفْتَنِي (٢) ولد الظبية (٣) باكي العين

(٤) هو علقمة الفحل ، وقد مرت ترجمته في ص ٥ و ٦ من هذا الجزء (٥) قال أبو
العلاء : يعني قصيدته التي على الباء : « طحا بك قلب في الحسان طروب » والتي على الميم :
« هل ما علمت وما استودعت مكتوم » (٦) معنى الآيات واضح ، واستحسان أبي العلاء
لها إلى هذا الحد ، يدل على أنها صادفت هوى من نفسه ، وأنه ممن يدينون بهذا الرأي ،
وربما مثلت لك هذه الآيات بعض ما يعتقد في النساء ؛ فلنذكر لك بهذه المناسبة موجزاً :
« رأى أبي العلاء في المرأة »

فنقول : إن كان لأحد أن يسخط على أبي العلاء ، فهو المرأة ، فقد احتقرها ،
وأنكر عليها أكثر مزاياها ، وأمعن في إساءة الظن بها ، وأسرف في ذلك إسرافاً بلغ به أن
رأى السعادة في خلو العالم وهناً نفسه على أنه خلق رجلاً ، ولم يُخلق امرأة فقال :
بدء السعادة أن لم تخلق امرأة فهل تود جمادى أنها رجب ؟

ورأى أنها لا تصلح للحياة العامة مطلقاً ؛ تمثلها غادرة متهاككة على لذاتها ، منهمكة
متفانية في شهواتها ، لا تعرف الوفاء ، ولا تدرك للحب الصادق معنى ، تتجهم للرجل إذا قل
ماله ، وتخونه لأنفه الأسباب ، فالنساء عنده : « فوارس فتنة ، أعلام غي » وهن في رأيه :
« باعثات ركابك في مهالك مقمات » و « حبال غي ، بهن يضيع الشرف التليد »

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي بَصِيرَةٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَيِّبٌ

*
* *

وبهذه العقيدة المتعنتة ، اندفع يشدد عليها الحجاب ، وينهاها عن دخول الحمام ، ويحرم عليها أداء فريضة الحج ، ويحظر عليها الصلاة في المسجد ، وينصح لها بالعدول عن طلب العلم ، فإذا لم يكن لها بد من طلبه ، فحسبها منه أن تحفظ بضع أبيات يلقتها إياها شيخ أعمى ، نهكه الكبر ، فخائته قواه وارتعشت من الضعف يدها ، وعليها أن تكتفي بهذا القدر اليسير دون أن تحاول الاستزادة ، أو تطمح إلى التعمق في فهم ما حفظته ، فإن ذهنها الضيق لا يتسع لذلك ، ولا حاجة بها إليه ، أما القراءة والكتابة فإنها مفسدة لها ولو شئنا سرد كل ما قاله في ذلك ، لخرجنا عما قصدنا إليه ، ولكن حسبنا أن نجتزئ هنا بقوله :

علموهن النسج والغزل والردن واخلوا كتابه وقراه
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تغني عن يونس وبراهه
فهو يذهب بهذين البيتين في التشديد على النساء أكثر مما ذهب إليه عمر بن الخطاب حين أوصى بتعليم النساء سورتي : « يونس وبراهة » لما تحويانه من آيات الزجر والترهيب وقوله :

ولا يُدْنَيْنِ من رجل ضرير يلقيهن آيات محكمات
سوى من كان مرتعشاً يدها ولته من المشغيات
وأى غضاضة على الفتاة إذا أخطأت في اللغة أو لحن مادامت قد أدت المراد :
فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات
وليس لأبي العلاء من حسنة تذكرها له المرأة إلا سخطه على وأد البنات — إن كان
يصح اعتبار هذا الواجب الإنساني حسنة — فقد قال :

لا تولدوا ، فإذا أبي طبع ، فلا تئدوا ، وأكرم بالتراب مصاهراً
على أن هذا الرأي هو أقل ما ننتظره من رجل لم تقف به الشفقة عند تحريم أكل

إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ، أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ فِي وَدَّهِنٍ نَصِيبٌ

الحيوان على نفسه ، إشفاقاً عليه ، بل وصلت إلى حد أن أنكر على الناس قتل
البرغوث ، فقال :

تسريح كفي برغوثاً ظفرتُ به أبرُّ من درهم تعطيه محتاجاً

ولم يرفقاً بين البرغوث الضئيل والملك المتوج العظيم :

لا فرق بين الأسكِّ الجونِ أطلقه وجون كندة أمسى يعقد التاجا
وأخذ يدلل على صحة ذلك ، فقال :

كلاهما يتوقى - والحياة له عزيزة - ويروم العيش مُتاجاً

على أنك ، إذا آنتت منه حرارة الدفاع عن قتل البرغوث في هذه الآيات ، ألمك

ما تلمحه من الفتور ، حين يدافع عن وأذ البنات في قوله : « وأكرم بالتراب مصاهراً »

فقد ترى فيه نهياً مشوباً بشيء من التردد والحذر ، بل إن شئت فقل من التماس العذر

*
* *

ولا يذهبن الوهم بالقارئ ، فيحسب أن أبا العلاء كان - مع كل هذا التحامل - يكرهها ؛

أو يقتص منها ليرة في نفسه منها ، فقد كان - على العكس من ذلك - شفيقاً رحماً بها ،

وإنما دفعه إلى تنقصها وتمنى خلو العالم منها ؛ حذبه العميم على الإنسان . ولما كانت المرأة في

رأيه هي أداة النسل ومجلبته ، وهو لا يرى في غير انقراض النسل حاسماً لشقاء العالم ، فلا جرم

خصها بأكبر قسط من سخطه ، ونقم منها وجودها

وأى جرم عند أبي العلاء أظنع هولاً من النسل الذي تجلبه النساء :

صحبتك ، فاستفدت بهنَّ وُلدًا أصابك من أذاتك بالسمات

ومن رزق البنين ، فغير ناء بذلك عن نوائب مسقات

فمن شكك بهاب ، ومن عقوق وأرزاء يجئن مصبات

وإن تعط الإناث فأى بؤس تبين في وجوه مقسمات

يُرْدَنَ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ وَجَدَنَهُ وَشَرَّخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ

يُردن بعولة ، ويردن حلياً ويلقن الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا في غارة متغشحات
وقد يفقدن أزواجاً كراماً فيا للنسوة المتأيمات
بلدن أعاديا ويكن عارا إذا أمسين في المتهمضات

*
* *

فأبو العلاء يكره الزواج لما يعقبه من النسل ، فإذا عقيبت المرأة فلا بأس من الزواج منها :

إذا شئت يوماً وصلة بقرينة فخير نساء العالمين عقيمتها

على أنه إن تقم من المرأة أنها أداة النسل ، فقد برم بالعيش والناس ، ونقم من نسلها
حياته أيضاً دون أن يخص الذكر منه أو الأنثى ، فود لو مات المولود ساعة ولادته ليستريح
من عناء الحياة ، فقال :

فأف لعصريهم : نهار وخذس وجنسى رجالٍ منهم ونساء
وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء
يقول لها من قبل نطق لسانه : « تفيدين بي أن تُنسكبي وتساى »

ولا غرو فهو القائل :

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحدٍ

وهو القائل أيضاً :

على الولد يبغى والد ولو أنهم ولادة على أمصارهم خطباء

وقد ساعده على سوء ظنه بالمرأة واحتقاره مواهبها ، ما كانت عليه في عصره من
الانحطاط الخلقى والضعف النفسى ، وما اكتظت به الآداب العربية التي درسها من تنقص
المرأة والافتنان في ذكر مثالبها (ارجع إلى ديوان ابن الرومي ج ١ ص ٢١)

*
* *

ولا مندوحة هنا من التنبيه على أن رأى شو بنهور الفيلسوف الألماني لا يختلف كثيراً عن

رأى أبي العلاء في المرأة ، ولا يغيب عن القارىء اتفاقهما في المزاج السوداوى الذى كان علة
تشاؤهما معاً

*
* *

ونحنم هذا الفصل بنخبة موجزة من شعر أبي العلاء في المرأة والنسل ، تثبت ما ذهبنا
اليه ، وتكون مرجعاً عند الحاجة ، وإلى القارىء بعض أشعاره في المرأة :

أعوذ بالله من ورهاء قائلة للزوج : « إني إلى الحمام أحتاج »
وهما في أمور - لو يتابعها كسرى عليها - لشين الملك والتاج

*
* *

شر على المرأة من حمامها
إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيتها تضرب في أكمامها
يفوح ربا الطيب من أمامها
زائرة المسجد في إمامها
تأتم ، وانخبيبة في ائتمامها
بأحدل - ما عف عن كمامها -
أغاذها الخالق من إمامها
وريقها الشروب في صمامها
سام أفعى بان من سمامها
إن نزلت عصماء من شمامها
فلا سقاها الطل من غمامها
إذا احتوى الريم على رمامها

لزوجها البيت مع اهتمامها
حتى يجيها الوفد من حمامها
وحملها المغزل في إتمامها
أوفى بما تعقد من زمامها

*
* *

إذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا يدخل على الحرم الوليد
فإن خالفتني وأضعت نصحي فأنت - وإن رُزقت حجي - بليد
ألا إن النساء حبال غي بهن يُضَيِّعُ الشرف التليد

*
* *

أقل الذي تجنى الغواني تبرج يرى العين منها حليها وخضابها
فإن أنت عاشرت الكعاب، فصادها وحاول رضاها واحذرن غضابها
فكم بكرت تسقى الأمر حليها من الغار، إذ تسقى الخليل رضاها

*
* *

قد أهملت للخياط إبرتها فصادت إبرة لعقربها
فهي تُسَقِّي الحليب ليلتها ولم يكن من لذيذ مشربها
وإنما الخوَد - في مساربها - كربة السم في تسربها
فلا تكوني مثل التي لدغت تبدأ في شرّها بأقربها

*
* *

وإلى القارىء نخبه مختارة من شعر أبي العلاء في النسل ، يتبين منها مقدار سخطه ونقمته :
تواصل حبل النسل ما بين آدم وبينى ، ولم يوصل بلاى باء

إذا شئت - يوما - وصلة بقرينة
لنا طرق في كل شرق ومغرب
هي الدار يأتيها من الناس قادم
فخير نساء العالمين عقيمها
إلى الموت أعيى راكباً مستقيمها
يحث على أن يستقل مقيمها^(١)

*
* *

على الولد يجنى والد ، ولو أنهم
وزادك بعداً عن بنيك ، وزادهم
يرون أباً ألقاهم في مؤرب
ولاية على أمصارهم خطباء
عليك حقودا ، أنهم نجباء
من العقد - أعياء حله الأرباء

*
* *

وإذا أردتم بالبني كرامة
فالحزم أجمع تركهم في الأظهر

*
* *

كوني الثريا ، أو حضار^(٢) أو السجوزاء ، أو كالشمس لا تلد
فلتلك أشرف من مؤنثة نجلت ، فضاق بنسها البلد

*
* *

أنتك بجبل فتاة غدت مسائلة عن دواء الجبل
وقد حسبت من بنات السهول فجاءت بإحدى بنات الجبل^(٣)

*
* *

أرى جبلاً حادثاً في النساء ، جبل أذاة بهن اتصل
أتى ولد بسجل العناء فيا ليت وارده ما وصل

(١) يرى الفارسي من هذه الأبيات أن علة كره أبي العلاء للزواج هي خوفه من النسل وإشفاقه مما يلاقه الأبناء من مكاره العيش وشقائه وما يتجرعون من غصص وآلام لا تنتهي إلا بموتهم ، ومتى ضمن الإنسان انقطاع النسل فلا بأس له من الزواج ، وإذن فخير النساء العقيم .
(٢) نجم يطلع قبل سهيل فيظن أنه سهيل (٣) فجاءت بحية .

وإن أنظرته خطوب الزما
وريع من الغير الطارقا
وقال له : « صل » داعي الهدى ،
وشب ، وشاب ، وأفنى الشباب ،
ومن بعد ذلك يجيء الحما
فيا راحة النفس عند المات

نِ عُضُّ بناب شديد العَصَل
تِ بالرمح صر ، وبالسيف صل
وقال له ملحد : « لا تصل »
وسقيا له من خضاب نصل
م فانظر ، على أى شيء حصل !
إن كان هذا الحساب انفصل

ألا تفكرت قبل النسل في زمن
ترجو له من نعيم الدهر ممتعا
شكا الأذى ، فسهرت الليل ، وابتكرت
وأمه تسأل العراف قاضية
وأنت أرشد منها - حين تحمله

به حلت ، فتدرى أين تلقيه
وما علمت بأن العيش يشقيه
به الفتاة إلى شطاء ترقيه
عنه النذور ، لعل الله يبقيه
إلى الطيب يداويه ويسقيه

ضل الذي جعل ابناً للردى غرضاً
ما يأخذ الموت من نفس لمنفرد
نادى حشا الأم بالطفل الذي اشتملت
فإن خرجت إلى الدنيا لقيت أذى
وما تخلص يوماً من مكارهها
ورب مثلك وافاها على صغر
لا تأمن الكف من أيامها شللا

فإن أبيت قبول النصح معتدياً ، فسوف تلقى بها الآمال واسعة وتركب اللج تبغى أن تفيد غنى - وإن سعدت - فما تنفك في تعب ثم المنايا ، فإما أن يقال : « مضى والمرء نصل حسام ، والحياة له فلو تكلم ذاك الطفل ، قال له : فكيف أحمل عتياً - إن جرى قدر

فاصنع جيلاً ، وراع الواحد الصمدا - إذا أجزت مدى منها - رأيت مدى وتقطع الأرض لا تلقى بها ثمدا وإن شقيت - فمن للجسم لو همدا ؟ ذميم فعل » وإما : « كوكب خندا سل ، وأصون للهندي أن غمدا » إليك عنى ، فما أنشئت معتمدا « على - أدرك ذا جد ، ومن سمدا

*
* *

وليس أجمع لمختلف آرائه الكثيرة في المرأة والزواج والنسل من تائيته المطولة التي نعتها تشريعه الخاص بالمرأة ، وقد أتى فيها بخلصة مذهبه في النساء ، ونحن نجتزئ منها بالآيات التالية :

ولا ترجع بإيماء سلاما على بيض أشرن مسلمات
ألات الظلم جنن بشر ظلم وقد واجهنا مظلمات
فوارس فتنة ؛ أعلام غي لقينك بالأساور معلمات
ولكن الأوانس باعشات ركابك في مهالك مقتمات

وهنا يعلل لك سبب سخطه عليهن ، وهو تلك الجريمة الشنعاء التي يقترفنها ، وأي جريمة في رأيه أفظع من جريمة النسل ، وأي هول أكبر من ذلك الهول : صحنك ، فاستفدت بهن ولدا أصابك من أذاتك بالسبات ومن رزق البنين - فغير ناء بذلك عن نوائب مسقات

فمن شكك يهاب ومن عقوق وأرزاء يجئن مصمات
وإن تعط الإناث ، فأى بؤس تبين في وجوه مقسمات
يردن بعولة ، ويردن حليا ويلقن الخطوب ملومات
ولسن بدافعات - يوم حرب ولا في غارة متغشيات
ودفن - والحوادث فاجعات - لإحداهن إحدى المكرمات^(١)

(١) وقد استنتج أحد كبار أساتذة الأدب في مصر من هذا البيت أن أبا العلاء يرى وأد البنات ويحبذهن ، وليس يحتمل البيت هذا التأويل ، فليس أبو العلاء من غلظ القلب وعتوه بحيث يبيح ذلك ، بل ليس أبو العلاء خصما حقيقيا للمرأة فتبيح له الخصومة أن يأمر بوأدها ، وإنما هو مشفق ناصح - برغم ما يديه لها من النقد العنيف الذي مصدره الحنو والعطف . لا الخصومة واللد

ولا نحسبنا في حاجة الى التدليل على ذلك . فان أبا العلاء برم بالعالم كله ، ساخط على كل من فيه من نساء ورجال :

فأف لعصريهم نهار وحنس وجنسى رجال منهم ونساء

وقد كرر هذا السخط في كل مناسبة عنت له . فهل دفعه ذلك إلى أن يوصى بإبادتهم وإهلاك هذا الناس ؟ كلا بل تمنى لهم الخير الشامل والرفاهية المميمة ، ورثى لما يلاقون من ظلم وأعنات ، ولكنه أوصى بالكف عن إيجاد مخلوقين جدد يعانون ما يعاني آباؤهم من الشقاء والألم ، فأظهر رأيه صريحا في وجوب الكف عن الزواج ، وقال أكثر من مرة : إن الناس لو رأوا مثل رأيه :

لعطوا هذه الدنيا فما ولدوا ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ولكنه موقن أن الغرائز حكما وأن صيحته متلاشية في أجواز الفضاء ، ومن ثم تراه يهمس في أذنك متلظفا يدعوك الى تزويج ابنتك ، والكف عن تزويج ابنتك ا

ولكن أبا العلاء لا ينسى الأمر الواقع ولا يستطيع أن يتغافله . فهو يظل ينجيفك من الزواج ويهول لك مصاعبه . فاذا أصررت وأبيت الا عنادا ، لانت لك قناته قليلا فأباح لك الزواج - بشرط أن تتخير العقيم من النساء . فاذا اختل هذا الشرط وأولدت ، فياهول الخطب والمصاب . ولكن لا بأس من التجمل بعد أن نفذ السهم الذي ليس لاحد حيلة في رده - وتم يوصيك بتثقيف ابنتك وتعليمه بقدر ما يحذر من تعليم ابنتك ، وقد يتمنى لو أدرك كلا من البنت والولد حامهما فيقول :

وليت وليدا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

ولكنه لا يرى ارتكاب جريمة الوأد الشنعاء ، بل يقول لك : « لا تولد ، فاذا أولدت فلا تتعد » ارجع الى ص (١٤٦) وفرق كبير بين تمنى الموت الطبيعي للمولود وبين اقتراف جريمة وأده أو قتله .

وقد يفقدن أزواجاً كراما
يلدن أعاديا ، ويكنن عارا
.....
توهمن الظنون فكن نارا
.....
وليس عكوفهن على المصلى
ولا محمد حسانك - إن توافت
فحمل مغازل النسوان أولى
سهام - إن عرفن كتاب لسن
ويتركن الرشيد بغير لب
وإن جئن المنجم سائلات

ليأخذن التلاوة عن عجوز
يسبحن المليك بكل جنح
فما عيب على الفتيات لحن
ولا يدنين من رجل ضرير
سوى من كان مرتعشاً يده
وإن طاوعن أمرك ؛ فانه غيدا
أخذن - كرىش طاووس - لباساً ،
وأبعدهن من ربات مكر
يقلن نهيج الغياب ، حتى
ونعطف هاجر الخلان - كما
وجمع طوائف العمار سهل
زعمن بأن فى معنى فقير

من اللأى ففرن مهتات
ويركمن الضحى متأثات
إذا قلن المراد مترجمات
يلقهن آيا محكات
ولته من المتشغفات
يزرن عرائسا متيميات
ومسكا بالضحى متلغفات
سواحر يعتدين معزّيات
يجيئوا بالركاب مزيمات
يزول عن السجايا المسّيات
علينا بالجـوالب موزيمات
كنوزاً للملوك مصتات

حديثه مع عمرو بن كلثوم

فليت شعري : ما فعل عمرو بن كلثوم؟

فلا يدخلن دارك باختيار فقد أفتين مذمات
وإن خالسن غرتك ارتقاباً فحق أن يرحن مشمات
وساؤ لديك أتزاب النصارى وعينا من يهود ومسلمات
ومن جاورت من حُنف وسرب صوابي ، فليبن مكرمات
فإن الناس كلهم سواء وإن ذكت الحروب مضرمت
ولا يتأهلن شيخ مقل بمصرة من المتنعمات
فإن القبر عيب ، إن أضيفت إليه السن - جاء بمعظمت
ولكن عرس ذلك بنت دهر تجنبت الوجوه محمات
من اللأى - إذا لم يُجد عام تفوقن الحوادث معدمات
من الشمط اغتزلن بكل عود وأفنين السنين مجرمات
ويغتفر الغني وخطا برأس إذا كانت قواك مسلمات
وواحدة كفتك ، فلا تجاوز إلى أخرى تجيء بمؤلمات (١)
وإن أرغمت واحدة بضر فأجدر أن تروع بمعرمات (٢)
زجاج - إن رفقت به - وإلا رأيت ضروره متقصمات
وما حفظ الخريدة مثل بعل تكون به من المتحرمات
يحوط ذمارها من كل خطب ويمنعها مصاعب مقرمات
إذا « الغاران » (٣) غرتها بجل فدينك بالتسورع والصلمات
فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة واللممات

(١) هنا يوصيك أبو العلاء - بعد أن تزوجت - أن تكفي بواحدة . ويحذرك من التطلع لأخرى .

(٢) المعرمات : الشدائد (٣) البطن والفرج .

فِيَقَالُ : « هَا هُوَ ذَا مِنْ تَحْتِكَ ، إِنَّ شِدَّتَ أَنْ تُحَاوِرَهُ فَحَاوِرَهُ (١) »

(١) عمرو بن كلثوم

(توفي سنة ٦٠٠ م)

اسمه عمرو وكنيته أبو الأسود ، اسم أبيه كلثوم بن مالك بن عتاب ، واسم أمه ليلى بنت المهلهل أخى كليب ، وكانت عزيزة النفس ، كما كان ابنها سيد قومه . واسم قبيلته تغلب . كان ابن كلثوم من أعز العرب نفساً ، وأشدهم إباءً ، وحكايته مع عمرو بن هند مشهورة ، وخلاصتها أن ابن هند قال يوماً لندمائه : « هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي » ، فأجابوه : « نعم ! أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » قالوا : « لأن أباه مهلهل ابن ربيعة ، وبعها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو وهو سيد قومه » فأرسل ابن هند صاحب الحيرة لعمرو بن كلثوم يستزيره وأشرف قومه ، وجلس ابن كلثوم مع ابن هند ، وجلست ليلى مع هند (أم ابن كلثوم مع أم ابن هند) وكان ابن هند قد أوصى أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطرف ، وتستخدم ليلى ؛ ودعا ابن هند بمائدة ، ثم دعا بالطرف ، فقالت هند : « ناويليني يا ليلى ذلك الطبق » فأجابتها : « لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها » فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى : « واذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها ابن كلثوم ، فثار الدم في وجهه ، ونظر إليه ابن هند فعرف الشرف في عينيه ، ووثب ابن كلثوم إلى سيف معلق لابن هند في الرواق فضرب به رأسه ، ونادى في بني تغلب ، فانتهبوا ما في الرواق ، وساقوا نجائبه إلى الجزيرة .

ومن أجل شعره قوله في معلقته يصف نساء قبيلته :

يقتن جياتنا ، ويقلن : « لستم بمولتنا - إذا لم تمنعونا »

إذا لم نحمهن فلا بقينا خير بعدهن ولا حيننا

وقوله يصف المعركة :

متى ننقل إلى قوم رحانا يكونوا في اللقاء لها بطحينا

يكون ثفالها شرقي نجد وهوتها قضاة أجمعينا

فَيَقُولُ : « كَيْفَ أَنْتَ أَيُّهَا الْمُصْطَبِحُ ^(١) بِصَحْنِ الْغَائِيَةِ ، وَالْمُغْتَبِقِ ^(٢) مِنْ
الدُّنْيَا الْغَائِيَةِ ! لَوَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تُسَانِدْ ^(٣) فِي قَوْلِكَ :
كَأَنَّ مُتُونَهُنَّ مُتُونُ غُدْرٍ ^(٤) تُصَفِّقُهَا ^(٥) الرِّيَّاحُ إِذَا جَرَيْنَا ^(٦)

وقوله :

ألا لا يعلم الأقوم أنا تضعضعنا وأنا قد ونينا
ألا لا يجهن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقوله :

فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا
ومن مختار شعره قوله أيضاً :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا على هالك ، أو أن تضج من القتل
قراع السيوف بالسيوف أحلنا بأرض براح ^(١) ذى أراك وذى أثل
فما أبقت الأيام من المال عندنا سوى جذم أذواد محذفة النسل ^(٢)
ثلاثة أثلاث ، فأثمان خيلنا وأقواتنا ، وما نسوق من القتل ^(٣)

(١) المصطبح هو الذى يشرب الصبوح أى خمر الغداة ، وهو يشير بذلك إلى قوله فى
أول معلقته :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا
أى انهضى بقدحك أيتها الساقية ، واسقيننا خمر الصباح ، ولا تدخرى شيئاً مما عندك من
تلك الخمر التى أحضرت من قرى الأندرين .

(٢) المغتبق هو الذى يشرب الغبوق ، أى خمر العشى ^(٣) أى لم تأت بالسناد فى
شعرك (والسناد فى الشعر هو كل عيب فى القافية قبل الروى) ^(٤) مخفف غدر ؛ بضم
الدال ، جمع غدير ^(٥) تضربها ^(٦) معنى البيت أن متون تلك الدروع

(١) أحلنا بأرض واسعة مقفرة لا نبات فيها ^(٢) لم تبقى لنا الأيام الا بقية من الابل مقطوعة
النسل (وإنما انقطع نسلها بسبب حلولهم فى تلك الأرض المقفرة) ^(٣) ثلث نشترى به خيولنا وثلاث
نشترى به أقواتنا ، وثلاث نخسره فى قتالنا .

فَيَقُولُ عَمْرُو: « إِنَّكَ لَقَرِيرُ الْعَيْنِ ، لَا تَشْعُرُ بِمَا نَحْنُ فِيهِ ، فَاشْغَلْ نَفْسَكَ
بِتَمْجِيدِ اللَّهِ ، وَاتْرُكْ مَا ذَهَبَ فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ ، وَأَمَّا ذِكْرُكَ سِنَادِي فَإِنَّ الْإِخْوَةَ
لَيَكُونُونَ ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً ، وَيَكُونُ فِيهِمُ الْأَعْرَجُ وَالْأَبْحَقُ^(١) فَلَا يُعَابُونَ
بِذَلِكَ ، فَكَيْفَ إِذَا بَلَغُوا الْمِائَةَ فِي الْعَدَدِ ؟ »

*
* *

فَيَقُولُ: « أُعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنَّكَ قُصِرْتَ عَلَى شُرْبِ حَمِيمٍ ، وَأُخِذْتَ بِعَمَلِكَ الذَّمِيمِ ،
مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ تُسْبَأُ^(٢) لَكَ الْقَهْوَةُ^(٣) تُقَابِلُكَ بِأَوْنِ الْحُصِّ^(٤) .

وَقَالُوا فِي قَوْلِكَ « سَخِينَا » قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ فَعِلْنَا مِنَ السَّخَاءِ ،
وَالثَّوْنُ نُونُ الْمُتَكَلِّمِينَ ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ مِنَ الْمَاءِ السَّخِينِ ، لِأَنَّ « الْأَنْدَرِينَ »
« وَقَاصِرِينَ » كَانَتَا فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ لِلرُّومِ ، وَمِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَشْرَبُوا الْخَمْرَ
بِالْمَاءِ السَّخِينِ فِي صَيْفٍ وَشِتَاءٍ »

تشبه متون الغدر اذا صفقتها الرياح أثناء جريها

(١) البَخَقُ: أقبح العور، وأكثره عمصا (٢) تُشْرَى لكَ لتشربها (٣) الخمر

(٤) الحُصُّ هو الوركس ، نبت له نوار أحمر يشبه الزعفران ، وقد أشار بذلك إلى قوله

في معلقته يصف الخمر :

مشعشة كأن الحُصَّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

والمشعشة : الخمر المزوجة بالماء .

حديثه مع الحارث اليشكري^(١)

وَيَنْظُرُ، فَإِذَا الْحَارِثُ الْيَشْكِرِيُّ، فَيَقُولُ: «بعض الناس يُنْشِدُ قَوْلَكَ:
فَعِشْ بِخَيْرٍ لَا يَضُرُّكَ النَّوْكَ مَا أُعْطِيتَ جَدًّا

فيجمع بين تحريك الشين وحذف الياء من عاش يعيش، وذلك قليل ردى^(٢).
وَلَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي قَوْلِكَ:

لَا تَكْسَعِ^(٣) الشَّوْلُ^(٤) بِأَغْبَارِهَا^(٥) إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنْ النَّاتِجُ^(٥)

(١) الحارث بن حلزة اليشكري

توفي سنة ٥٨٠ م

قبيلته بكر وائل، اشتهر بين العراق، كان أبرص، وقد اشتهر بمملقته الرائعة، ومن أجمل
أبياتها قوله:

وَأَتَانَا مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَنْبَاءِ خُطْبٌ نَعْنَى بِهِ وَنَسَاءُ
أَنْ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمُ يَفْلُونَ عَلَيْنَا فِي قِيْلِهِمْ أَحْفَاءُ
يَخْلُطُونَ الْبَرِيءَ مِنْ بَنِي الذَّنْبِ وَلَا تَنْفَعُ الْخَلَى الْخَلَاءُ
أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءُ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
مَنْ مَنَادَ وَمَنْ مَجِيبٌ وَمَنْ تَصْهَالُ خَيْلٍ - خَلَالَ ذَلِكَ رِغَاءُ

(٢) كَسَعَ الناقة بغيرها: ترك في خلفها بقية من اللبن ليغزر (٣) الشول: الناقة التي
شال لبنها أي ارتفع فلم يبق في ضرعها إلا صباية منه (٤) الأغبار: جمع غبر، وهو بقية
اللبن في الضرع (٥) هو الذي ينتج الناقة أي يلي نتاجها، ومعنى البيت: «لا يكن همك
تعزيز إبلك لتقوية نسلها، فإنك لا تدري ما تضره الأيام فرجما اختص بنتاجها غيرك»
ويلى هذا البيت قوله:

واحلب لأضيافك ألبانها فإن شر اللبن الواج

أي شر اللبن هو المكسوع الذي يلج في ظهور النوق، فاحلبها لأضيافك، ولا تكن بخيلا

حديثه مع طرفة

وَيَعْمِدُ لِسُؤَالِ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ ، فَيَقُولُ :

« يَا ابْنَ أَخِي يَا طَرْفَةُ^(١) - خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكَ - أَتَذَكُرُ قَوْلَكَ :

كَرِيمٌ يُرَوِّى نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ سَتَعَلَّمُ - إِنْ مِثْنَاغَدًا - أَيُّنَا الصَّدِى^(٢)

وقال أبو العلاء : (وقد كانوا في الجاهلية يكسمون^(١) ناقة الميت على قبره ، ويزعمون أنه إذا نهض لحشره وجدها قد بعثت له ليركبها ، وهيهات ، بل حشروا عراة حفاة !)
(١) انظر الى ما تحويه هذه الجملة من الحذب والرفق بطرفة بن العبد الذى مات صغيراً
(٢) يصف نفسه بأنه كريم يروى نفسه بالحجر ، ويفخر بأنه سيموت ريان ، وأن عاذليه في شربها سيظماون عند موتهم

طرفة بن العبد

(توفى سنة ٥٥٠ م)

اسمه عمرو ، وطرفة : لقب غلب عليه ، قبيلته بكر بن وائل ، وهو من بنى قيس . كان لاهيا سكيراً في صباه ، هجأ ملك الحيرة فأسخطه وأمر عامله بالبحرين أن يقتله ، وسمى ابن العشرين لوفاته صغيراً ، فقد مات في السادسة والعشرين من عمره ومن أروع شعره قوله :

أرى الموت أعداد النفوس ، ولا أرى بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد !
وقوله :

لعمرك إن الموت - ما أخطأ الفتى - لكالطَّوَلِ المُرْحَى^(٢) ، وثنياء باليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحنفه ومن يك في حبل المنية ينقد

(١) كسع الناقة - هنا - ضربها بقوائم السيف من أسفل
(٢) الطَّوَل : الحبل تشد به قوائم الدابة ، والمرحى : المدود المطول

وَقَوْلِكَ :

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ^(١) بَخِيلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدٍ^(٢)
مَتَى تَأْتِنِي أَصْبَحُكَ كَأَسَا رَوِيَّةً وَإِنْ كُنْتَ عَنْهَا غَانِيًا ، فَأَنْ وَازْدَدِ
فَكَيْفَ صَبُوحُكَ الْآنَ وَغَبُوقُكَ^(٣) ؟ إِنِّي لِأَحْسَبُهُمَا حَمِيمًا !

وقوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تبع له
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له وقوله :

وأعلم علماً - ليس بالظن - أنه وأن لسان المرء - ما لم تكن له
وأن امرأ لم يعف يوماً - فكاهة -

وقوله :

ولا أغسير على الأشعار أسرقها وإن أحسن بيت أنت قائله
وقوله :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره والظلم فرق بين حيي وارثل :
والصدق يألفه الكريم المرتجى والإثم داء ليس يرجى برؤه
أدوا الحقوق تفرز لكم أعراضكم حتى تظل له الدماء تصيب
بكر تساقبها المنايا تغلب والكذب يألفه الذئب الأخيب
والبر برء ليس فيه معطب إن الكريم ، إذا يحرب ، يغضب

(١) بخيل ، حريص على جمع المال وادخاره (٢) معنى البيت : لا أرى أى فرق بين
قبر البخيل الذى عنى نفسه بجمع المال وادخاره ، وقبر المفسد المتلاف لماله ، فما قيمة المال إذا ؟
ولماذا أبقى عليه ولا أمتع نفسى به ؟ (٣) الصبوح : شراب الصباح ، والغبوق : شراب المساء

وَلَقَدْ كَثُرْتُ فِي أَمْرِكَ أَقَاوِيلُ النَّاسِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّكَ فِي مُلْكِ
النُّعْمَانِ اعْتُقِلْتَ ؛ وَقَالَ قَوْمٌ : بَلِ الَّذِي فَعَلَ بِكَ مَا فَعَلَ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ (١)
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ أَثْرٌ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ إِلَّا قَصِيدَتُكَ الَّتِي عَلَى الدَّالِ (٢) لَكُنْتَ

(١) يشير بذلك الى الروايتين الشائعتين عن سبب قتله ، والرواية الثانية فخواها أن
طرفة كان قد هجا عمرو بن هند ، فأحفظه ذلك عليه ، وأسرها له في نفسه ، ثم أرسله
مع المتلمس إلى عامله بالبحرين ، بعد أن تلطف بهما ، وأعطى كلا منهما كتاباً ، وأهمهما أن
فيه أمراً بصلتهما ، وإنما فيه أمر بقتلها ، وارتاب المتلمس في نية ابن هند ، فذهب إلى غلام
يقرأ له كتابه ، فلما وجد فيه الأمر بقتله فر ، ونصح لطرفة فلم ينتصح ؛ بل ذهب لطيفته
حيث لقي حتفه .

(٢) يعنى معلقته الرائعة التي وفق فيها كل التوفيق إلى تمثيل صورة واضحة دقيقة من
نفسه المتوثبة إلى غايات الشباب النبيل ، الشديدة الحس بما يحيط بها من الجمال والحسن ،
الفياضة بالشاعرية العالية ، التي تلمحها في أغلب أبياتها - إن لم نقل في كلها - وهل ترى
أنصع من تلك الصورة الجميلة التي يمثل فيها نفسه ، حين يقول :

ألا أيهذا الزاجرى ، أحضرَ الوغى وان أشهد اللذات ، هل أنت مخلدى ؟
فان كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدي
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدئك ، لم أحفل متى قام عودى
فمن سبق العاذلات بشربة كميت ، منى ما تُلعل بالماء تُرُبد
وكرى - إذا نادى المضاف - مجنباً ، كسيد الغضا - نهته - المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب يهكنة ، تحت الخباء المعمد

فانظر إليه كيف يدفع ، باستحالة الخلود ، حجة من يعذله في اقتحامه الهيحاء وتمتعه بلذاته
ومن ثم يوجب اقتناص الفرص ، والتمتع بمسرات الحياة ، قبل أن تغتاله يد الموت ،
وانظر إلى رغباته الثلاث التي لا يرى للحياة معنى بدونها ، وهي سبقه العاذلات بشربة من

قَدْ أَبْقَيْتَ أَثْرًا حَسَنًا

الحرب الكميت ، واندفاعه في ساحة الحرب بفرسه التي تشبه الذئب في سرعة العدو ، لإغاثة اللاتذ به ، وتقديره يوم الغيم ، بالتمتع بامرأة جميلة يغازلها ، في سرادق مرفوع وأنظر إلى قوله بعد تلك الآيات :

كريم يروى نفسه في حياته
أرى قبر نَحَامٍ يخيّل بما له
ترى جُثُوتين من تراب عليهما
أرى الموت يعتام الكرام ، ويصطفى
أرى العمر كنزاً ناقصاً كل ليلة
لعمرك إن الموت - ما أخطأ الفتى -
متى ما يشأ يوماً يقده لحنفه
فمالي أراني وابن عمي مالكا
يلوم ، وما أدري علام يلومني ؟
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى
فإن مت فانهينى بما أنا أهله
ولا تجعلنى كامريء ليس همه
فلو كنت وَغَلًّا في الرجال لضررتى
ولكن نفي عنى الرجال جراتى
لعمرك ما أمرى على بُعْمَةٍ
أرى الموت أعداد النفوس ، ولا أرى

ستعلم - إن متناغدا - أينا الصدى
كقبر غوى في البطالة مفسد
صفائح صم من صفيح منضد
عقيلة مال الفاحش المتشدد
وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لكالطول المرخى ، وثنياه باليد
ومن يك في حبل المنية ينقد
متى أدن منه ينأ عنى ويبعد
كلامنى في الحى قرط بن أعبد
على المرء من وقع الحسام المهند
خشاش كراس الحية المتوقد
منيماً إذا بلت بقائمه يدي
وشقى على الجيب يا ابنة معبد
كهى ولا يغنى غنائى ومشهدى
عداوة ذى الأصحاب والمتوحد
عليهم ، وإقدامى ، وصدقى ، ومحتدى
نهارى ولا ليلى على بسرمد
بعيداً غدا ، ما أقرب اليوم من غد

فَيَقُولُ طَرَفَةٌ : « وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَنْطِقْ مِصْرَاعًا ، وَدَخَلْتُ الْجَنَّةَ مَعَ الْهَمِيجِ
وَالطَّغَامِ ؛ وَكَيْفَ لِي بِهَذِهِ وَسُكُونِ ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ ^(١) فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا »

حديثه مع أوس بن حجر ^(٢)

وَيَلْفِتُ عُنُقَهُ يَتَأَمَّلُ ، فَإِذَا هُوَ بِأَوْسِ بْنِ حَجْرٍ ، فَيَقُولُ : « يَا أَوْسُ إِنَّ

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له
وما أبدع وأروع قوله في هذه المعلقة :

إذا القوم قالوا : « من فتى ؟ » خلت أنى
فإن تبغى في حلقة القوم تلقى
وإن يلتق الحى الجميع تلاقى
وما زال تشرابي الخور ، ولذتى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها
رأيت بنى غبراء لا ينكرونى
^(١) الجائرون أو الحائدون عن الحق

^(٢) أوس بن حجر

أوس بن حجر بن عتاب ، قالوا : « كان فحل مضر ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخلاه »
اشتهر بالحض على مكارم الأخلاق ، كما اشتهر بوصف الحجر والسلاح ، ولا سيما القوس ،
ومن مختار شعره قوله :

تركت الخبيث - لم أشارك ولم أذق -
فقومى وأعدائى يظنون أننى
ولكن أعف الله مالى ومطعمى
متى يحدثوا أمثالها أتكلم
وقوله :

ورثنا المجد عن آباء صدق أسأنا فى ديارهم الصنيعا

أَصْحَابِكَ لَا يُجِيبُونَ السَّائِلَ ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَوَابٍ ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ
عَنْ هَذَا الْبَيْتِ :

« وَقَارَفْتُ^(١) ، وَهِيَ لَمْ تَجْرَبْ ، وَبَاعَ لَهَا

مِنَ الْفَصَافِصِ^(٢) بِالنَّمْيِ^(٣) سِفْسِيرٍ^(٤) »

إذا الحسب الرفيع توأكلته بناة السوء ، أوشك أن يضيعا
وقوله - من مرثية جليلة عالية الأسلوب - :

أيتها النفس ! أجملي جزعا إن الذي تكرهين قد وقعا
إن الذي جمع السباحة والنجمدة والحزم والقوى جُمعا
أودى ، وهل تنفع الإشامة من شيء لمن قد يحاول النزعا
الألمى الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
الخلف المتلف المرزأ لم يع مع بضعف ، ولم يمت طبعا

إلى أن يقول :

ليبكك الشرب والندامة والفتة يان - طرا - وطامع طمعا
وذات هديم عار نواشرها^(١) نُصِمْتُ^(٢) بالماء تولبا^(٣) جدعا^(٤)
وقوله :

وليس أخوك الدائم العهد بالذي يذمك - إن ولى - ويرضيك مقبلا
ولكنه النائي - إذا كنت آمنا وصاحبك الأذنى - إذا الأمر أعضلا

(١) خالطت الجربى فلم تجرب لقوتها (٢) جمع فصفاصة ، وهي نبات تعلفه الدواب
(٣) الفلوس (٤) سائس حاذق ؛ ومعنى البيت : « أن فرسه خالطت الدواب الجربى فلم
يصبها جرب ، لأنها من الأفراس القوية التي يشرى لها علفها بالمال سائس حاذق يعنى بأمرها

(١) وليبكك ففيرة ذات كساء خلق عارية الساعدين (٢) تسكت (٣) صغيراً (٤) صبياً
سوء الغذاء ، والمعنى أنها تسكت بالماء صغيرها الجائع

فَإِنَّهُ فِي قَصِيدَتِكَ الَّتِي أَوْلَاهَا :

« هَلْ عَاجِلٌ مِنْ مَتَاعِ الْحَيِّ مَنْظُورٌ »

وَيُرَوَى فِي قَصِيدَةِ النَّابِغَةِ الَّتِي أَوْلَاهَا :

« وَدَّعَ أُمَامَةً ، وَالتَّوَدَّيْعُ تَعْذِيرٌ »

وَكَلا كَمَا مَعْدُودٌ فِي الْفُحُولِ ، فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ يُحْمَلُ ذَلِكَ ؟ » فَيَقُولُ أَوْسٌ :

« قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ نَابِغَةَ بَنِي دُبَيَانَ فِي الْجَنَّةِ فَاسْأَلُهُ عَمَّا بَدَالَكَ ، فَلَعَلَّهُ يُخْبِرُكَ ،

فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يَعْمِيَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ، فَأَمَّا أَنَا ، فَقَدْ ذَهَلْتُ ، نَارٌ تُوقَدُ ، وَبَنَانٌ

يُعْقَدُ^(١) ، إِذَا غَلَبَ عَلَى الظَّمَا رُفِعَ إِلَى شَيْءٍ كَالنَّهْرِ ، فَإِذَا اغْتَرَفَتْ مِنْهُ لِأَشْرَبِ

وَجَدْتُهُ سَعِيرًا مُضْطَرِمًا ، وَلَقَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنِّي ، وَلَكِنَّ

الْمَغْفِرَةَ أَرْزَاقٌ ، كَأَنَّهَا النَّسَبُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ! »

فَيَقُولُ : « إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَخُذَ عَنْكَ هَذِهِ الْأَلْفَازَ فَأُتِحِفَ بِهَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ،

فَأَقُولُ : قَالَ لِي أَوْسٌ ، وَأَخْبَرَنِي أَبُو شَرِيحٍ ! »

حديثه مع أبي كبير الهذلي

وَيَرَى رَجُلًا فِي النَّارِ لَا يُمَيِّزُهُ مِنْ غَيْرِهِ ، فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الشَّقِيُّ ؟ »

فَيَقُولُ : « أَنَا أَبُو كَبِيرِ الْهُذَلِيِّ عَائِرُ بْنُ الْحَلِيسِ » فَيَقُولُ : « إِنَّكَ لَمِنْ أَعْلَامِ

هُذَيْلٍ ، وَلَكِنِّي لَمْ أُورِثْ قَوْلَكَ :

أَرْهَبُ هَلْ عَنْ شَيْبَةَ مِنْ مَعْدِلٍ^(٢) أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ الْأَوَّلِ^(٣)

(١) عقد البنان : شدّها ، أي عضّها ، كناية عن الندم والتحسر (٢) مصرف

(٣) هذا البيت من قصيدة له عدتها ثمانية وأربعون بيتا ، قالها في تأبط شرا ،

ابن زوجه أميمة ، وكان السبب في ذلك أنه رأى منه ما يكره ، فشكاه إلى أمه ،

وَقُلْتَ فِي الْأُخْرَى :

أَزْهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةَ مِنْ مَصْرِفٍ أَمْ لَا خُلُودَ لِعَاجِزٍ مُتَكَلِّفٍ

وَقُلْتَ فِي الثَّلَاثَةِ :

أَزْهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةَ مِنْ مَعَكُمْ (١)

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى ضَيْقِ عَطْنِكَ (٢) بِالْقَرِيضِ ، فَهَلَّا ابْتَدَأْتَ كُلَّ قَصِيدَةٍ
بِقَنْ؟ وَالْأَصْمَعِيُّ لَمْ يَرَوْكَ إِلَّا هَذِهِ الْقَصَائِدَ الثَّلَاثَ ، فَيَقُولُ أَبُو كَبِيرٍ
الْمُذَلِّيُّ : « إِنَّمَا كَلَامُ أَهْلِ سَقَرٍ وَوَيْلٌ وَعَوِيلٌ ، فَاذْهَبْ لِطَيْبَتِكَ ! »

فطلبت إليه أن يحتال لقتله ، فخرج به إلى قوم لهم ترة عنده ، حتى إذا تنور نارهم شكا إليه
الجوع ، فذهب فوجد عليها لصين معها إبل ، فقتلها وعاد بالإبل ، فماله أمره ، ثم انطلقا ،
فلما أقبل الليل ، أناخا الإبل ، وتناوبا حرسها ، فلما نام تأبط شرا ، وظن أبو كبير أن قد
غلبه النوم ، نبذ له حصاة ، فهب من نومه ، وقال : « ما هذا ؟ » فقال : « سمعت حسا في
الإبل ؟ » فطاف ، فلم ير شيئا . ثم نام فنبذ له حصاة ، فاستوى وقد تناوم أبو كبير ، وقال :
« والله لئن أنبهي شيء لأقتلنك » فلبث أبو كبير يكلؤه مخافة أن ينبهه شيء فيقتله . وفي ذلك
يقول هذه القصيدة الطويلة ، فليرجع إليها من شاء في الجزء الأول من كتاب أسرار الحماسة
ومما نختاره منها قوله :

ولقد سربت على الظلام بمغشم جلد من الفتیان غير مثقل
إلى أن يقول :

وإذا رميت به الفجاج رأيتَه يهوى مخارمها هوى الأجدل
وإذا قذفت له الحصاة رأيتَه ينزو لوقعها نزو الأخيل

(١) محبس (٢) ضيق باعك

حديثه مع الأخطل

وَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ يَتَضَوَّرُ^(١) فَيَقُولُ : « مَنْ هَذَا ؟ » فَيُقَالُ : « الْأَخْطَلُ
التَّغْلِبِيُّ »^(٢) فَيَقُولُ لَهُ : « مَا زَالَتْ صِفَتُكَ لِلْخَمْرِ ، حَتَّى غَادَرْتِكَ أَكْلًا لِلْجَمْرِ ،
فَكَمْ طَرَبَتِ السَّادَاتُ عَلَى قَوْلِكَ :
أَنَاخُوا ، فَجَرُّوا شَاصِيَّاتٍ^(٣) كَأَنَّهَا رِجَالٌ مِنَ السُّودَانِ لَمْ يَتَسَّرَ بَلُّوَا
فَقُلْتُ : اصْبِحُونِي^(٤) لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ وَمَا وَضَعُوا الْأَثْقَالَ إِلَّا لِيَفْعَلُوا

(١) يتأوه من وجع الضرب أو من ألم الجوع

(٢) الأخطل

اسمه غياث بن غيث بن الصلت ، كنيته أبو مالك ، موطنه الحيرة ، قبيلته تغلب ،
دينه النصرانية

كان سكيراً مدمناً ، وهجاءً عنيف اللفظ في هجائه ، تقرب إلى معاوية بعد أن هجى
الأنصار — حين أمره معاوية بذلك — فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك زاد تقربه منه ،
وبلغ من افتتانه بشعره أن سماه « شاعر بني أمية » وكان كثير الطرب إلى سماعه
قال له عبد الملك مرة : « ألا تسلم ، فنفرض لك في الفى ، ونعطيك عشرة آلاف ؟ »
فقال : « وكيف الخمر ؟ » قال : « وما تصنع بها وإن أولها لمر ، وإن آخرها لسكر ؟ »
فقال : « أما إذ قلت ذلك ، فإن فيما بين هاتين المنزلتين لمنزلة ، ما ملكك فيها إلا كلعقة
من ماء الفرات بالإصبع ا . »

فضحك ، وتركه على نصرانيته ، وسهل له الدخول عليه ، حتى كان يدخل بغير إذن .
ومما يروونه عن حماد أنه قال حين سئل عن شعر الأخطل : « وما تسألوننى عن رجل

حبب شعره إلى النصرانية » وهى جملة مملوءة بالملق والرياء ا

(٣) زقاقا مملوءة شائلة القوام ، أو قرّ باملثت فارتفعت قوائمها (٤) اسقونى خمر الصباح

فَصَبُّوا عُقَارًا (١) فِي الْإِنَاءِ كَأَنَّهَا
وَجَاءُوا بَيْسَانِيَّةً - هِيَ بَعْدَ مَا
تَمُّرُ بِهَا الْأَيْدِي سَنِيحًا (٥) وَبَارِحًا (٦)
فَتُوقَفُ - أَحْيَانًا - فَيَفْصِلُ بَيْنَنَا
فَلَذْتُ لِمِرْتَاجِ وَطَابَتْ لِشَارِبِ
فَا الْبَيْتَنَا (١١) نَشْوَةً (١٢) لِحَقَّتْ بِنَا
تَدِبُّ دَيْبًا فِي الْعِظَامِ كَأَنَّهُ

- إِذَا لَمَحُوهَا - جُدْوَةٌ (٢) تَتَأَسَّكِلُ (٣)
يُعَلُّ (٤) بِهَا السَّاقِي - الذُّ وَأَسْهَلُ
وَتُوضَعُ بِاللَّهْمِ حَتَّى (٧) وَتُحْمَلُ
غِنَاءُ مُغْنٍ أَوْ شِوَاهُ مُرْعَبَلُ (٨)
وَرَأَجَعَنِي مِنْهَا مِرَاحٌ (٩) وَأَخِيلُ (١٠)
تَوَابِعُهَا ، مِمَّا نُعَلُّ وَنُهَلُّ
دَيْبٌ نِمَالٍ فِي نَقَا (١٣) يَتَهَيَّلُ (١٤)

فَقَالَ التَّغَلْبِيُّ : « إِنِّي جَرَزْتُ الذَّارِعَ ، وَلَقِيتُ الذَّارِعَ ، وَهَجَرْتُ الْآبِدَةَ ،
وَرَجَوْتُ أَنْ تُدْعَى النَّفْسُ الْعَابِدَةَ ، وَلَكِنْ أَبَتْ الْأَقْضِيَّةُ » فَيَقُولُ :
« أَخْطَأْتُ فِي أَمْرَيْنِ : جَاءَ الْإِسْلَامُ ، فَعَجَزْتَ أَنْ تَدْخُلَ فِيهِ ، وَكُزِمْتَ
أَخْلَاقَ سَفِيهِ ، وَعَاشَرْتَ يَزِيدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ ، وَأَطَعْتَ نَفْسَكَ الْغَاوِيَةَ ،
وَأَثَرْتَ مَا فَنيَ عَلَيَّ بَاقٍ ، فَكَيْفَ لَكَ بِالْإِبَاقِ (١٥) ؟ »

(١) العقار : الخمر ، سميت كذلك لمعاقرتها ، أى لملازمتها الدن (٢) جرة ملتبهة

(٣) تحترق وتتوهج

(٤) بيسان : بلدة بالشام ، والمراد بالبيسانية الخمر المنسوبة إليها ، ويُعَلُّ : يسقى بها ثانية

(٥) من الجانب الأيمن (٦) من الجانب الأيسر (٧) أى أنهم حين يضعونها

يهللون فرحين بها (٨) مُقَطَّعٌ ، لتصل إليه النار فتنضجه (٩) اشتداد الفرح ، حتى

يجاوز الإنسان حده فيتبختر ويختال (١٠) كبر (١١) لم تهلنا (١٢) سكرة

(١٣) كثيب ، أو قطعة من الرمل تنقاد محدودبة (١٤) ينال (١٥) الهرب والفرار ،

والمراد بها هنا النجاة

فَيَزِيدُ^(١) الْأَخْطَلُ زَفْرَةً تَعَجَّبُ لَهَا الزَّبَانِيَةُ، وَيَقُولُ: «آه عَلَى أَيَّامِ يَزِيدَ
أَسُوفُ^(٢) عِنْدَهُ عَنَبْرًا، وَأَمْزِجُ مَعَهُ مَزْجَ خَلِيلٍ. وَكَأَنِّي بِالْقِيَانِ الصَّادِحَةِ^(٣)
بَيْنَ يَدَيْهِ تُعْنِيهِ :

وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ إِذَا أَكَلَ النَّعْلُ الَّذِي جَمَعَا
خِلْفَةً حَتَّى إِذَا ظَهَرَتْ سَكَنْتَ مِنْ جَلْقٍ بِيَمَا
فِي قِبَابِ حَوْلِ دَسْكَرَةٍ^(٤) حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنَمَا
وَقَفَّتْ لِلْبَدْرِ تَرْقُبُهُ فَإِذَا بِالْبَدْرِ قَدْ طَلَعَا
وَلَقَدْ فَآكَهْتُهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَأَنَا سَكْرَانٌ مُلْتَمِحٌ^(٥) فَقُلْتُ :
أَلَا أَسْلَمَ - سَامِتَ - أَبَا خَالِدٍ وَحَيَّاكَ رَبُّكَ بِالْعَنْقَرِ^(٦)
أَكَلْتَ الدَّجَاجَ وَأَفْنَيْتَهَا فَهَلْ فِي الْخَنَائِصِ^(٧) مِنْ مَغْمَزٍ^(٨)

فَمَا زَادَ فِي عَيْنِ ابْتِسَامٍ، وَاهْتَزَّ لِلصَّلَاةِ .
فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « مِنْ نَمِّ أُتَيْتَ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ عَانِدٌ ،
فَعَلَامَ اطَّلَعْتَ مِنْ مَذْهَبِهِ ، أَكَانَ مُوَحِّدًا ، أَمْ وَجَدْتَهُ فِي النَّسِكِ مُلْحِدًا ؟ »
فَيَقُولُ الْأَخْطَلُ : « كَانَتْ تُعْجِبُهُ هَذِهِ الْأَيَّاتُ :

(١) يخرج نفسه بعد مده إياه (٢) أشم (٣) اللأى يرفعن أصواتهن بالغناء
(٤) قرية عظيمة ، أو بناء كالقصر حوله بيوت (٥) مختلط من شدة السكر
(٦) نوع من النبات ، قيل : هو الياسمين (٧) جمع خنوص ، وهو ولد الخنزير
(٨) مطعن ، ومعنى البيت : أنك أفنيت الدجاج أكلا ، فما عليك لو عطفت على

الخنزير فأكلتها ، أترى فيها مطعنا ؟

أَخَالِدَ ! هَاتِي خَبْرِي نِي وَأَعْلِنِي (١)
حَدِيثَ أَبِي سُفْيَانَ ، لَمَّا سَمَّا بِهَا
وَكَيْفَ بَنَى أَمْرًا (٤) عَلِيٌّ فَفَاتَهُ
وَقَوْمِي فَعَلِينِي (٦) عَلَيَّ ذَلِكَ (٧) قَهْوَةً (٨)
حَدِيثِكَ ، إِنِّي لَا أُسِرُّ (٢) التَّنَاجِيَا
إِلَى أَحَدٍ (٣) ، حَتَّى أَقَامَ الْبَوَاكِيَا
وَأَوْرَثَهُ الْجُدُّ (٥) السَّعِيدُ مُعَاوِيَا
تَحَلَّبَهَا الْعَيْسِيُّ كَرَمًا (٩) شَامِيَا (١٠)

(١) جاهري به (٢) لا أأكرم (٣) يعني جبل أحد ، وهو يشير بذلك الى انتصار
المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم في واقعة أحد سنة (٦٢٥ م) وكان قائد المشركين
فيها أبو سفيان ، وكان النصر محققاً للمسلمين في بدئها ، فلما خالفوا أمر النبي وانتقلوا من
مواقعهم ، كر عليهم المشركون وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، فيهم حمزة عم النبي ، واستطاع العدو
أن يخلص الى النبي فيرميه بالحجارة ، ووقع لشقه ، فأصيبت ربايعيته ، وشج وجهه ، وكلمت
شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وسقط في إحدى الحفر التي حفرها
المشركون ليقع فيها المسلمون ، فأخذه « علي » بيده ، ورفع طلحة بن عبيد الله ، وأحاط
به جماعة من الأنصار والمهاجرين ، استبسلاوا في الدفاع عنه ، وفي هذه الموقعة أظهرت أم نسيبة
بنت كعب ، شجاعة مدهشة وإقداماً يستفز الإعجاب والروعة ؛ فقد كانت تسقي الماء في أول
النهار ، فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت الى النبي وتفانت في الذود عنه ، ضاربة بسيفها مرة ،
ورامية عن قوسها أخرى ، حتى أثنختها الجروح .

وفي نهاية المعركة صعد أبو سفيان ربوة ، ونادى المسلمين بأعلى صوته : « أنعمت فعال ،
إن الحرب نسجال ، يوم بيوم بدر ، أعلُّ هُبَلُ ! »

(٤) يشير بذلك إلى أمر الخلافة التي تنازعها معاوية وعلي ، فقتل علي دونها ونالها معاوية

(٥) الحظ (٦) اسقيني (٧) نخب ذلك (٨) خمر (٩) عنباً

(١٠) المعنى : تعالى فحدثني وأعلمني أحاديثك الجميلة ، فلست أرضى كتمانها ، حدثيني عن هزيمة

المسلمين في أحد ، وانتصار أبي سفيان عليهم ، وولولة باكياتهم على قتلاهم ، وحدثيني عن
فشل « علي » في الحصول على الخلافة ، وانتصار معاوية عليه ، وإحرازها دونه ، ثم اسقيني
نخب هذه الذكريات المحبوبة خمر لذيذة ؛ اعتصرها العيسى من عنب شامى .

إِذَا مَا نَظَرْنَا فِي أُمُورٍ قَدِيمَةٍ وَجَدْنَا حَلَالًا شُرِبَهَا الْمُتَوَالِيَا
فَلَا خُلْفَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا تَبَوَّأَ رَمْسًا فِي الْمَدِينَةِ ثَاوِيًا^(١)
فَيَقُولُ : « عَلَيْكَ الْبَهْلَةُ ! قَدْ ذَهَلَتِ الشُّعْرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ،
عَنِ الْمَدْحِ وَالنَّسِيبِ^(٢) ، وَمَا شُدِّهَتْ^(٣) عَنْ كُفْرِكَ وَلَا إِسَاءَتِكَ ! »

وَإِبْلِيسُ يَسْمَعُ ذَلِكَ الْخُطَابَ كُلَّهُ ، فَيَقُولُ لِلزَّبَانِيَةِ : « مَا رَأَيْتُ أُعْجَزَ
مِنْكُمْ إِخْوَانَ مَالِكٍ ! أَلَا تَسْمَعُونَ هَذَا الْمُتَكَلِّمَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ ؟ فَلَوْ أَنَّ فِيكُمْ
صَاحِبَ نَحِيْزَةٍ^(٤) قَوِيَّةٍ ، لَوَثَبَ وَثْبَةً حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ فَيَجْذِبُهُ إِلَى سَقَرٍ ! »
فَيَقُولُونَ : « لَيْسَ لَنَا عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبِيلٌ ! »

فَإِذَا سَمِعَ مَا يَقُولُهُ إِبْلِيسُ ، أَخَذَ فِي شَتْمِهِ وَلَعْنِهِ ، وَإِظْهَارِ الشَّمَاتَةِ بِهِ ،
فَيَقُولُ - عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ - : « أَلَمْ تُنْهَوْا عَنِ الشَّمَاتِ يَا بَنِي آدَمَ ؟ وَلَكِنَّكُمْ
- بِحَمْدِ اللَّهِ - مَا زُجِرْتُمْ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَرَكَبْتُمُوهُ^(٥) » فَيَقُولُ : « أَنْتَ الَّذِي
بَدَأْتَ آدَمَ بِالشَّمَاتَةِ ، وَالْبَادِيُ الظُّلْمِ ! »

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى كَلَامِ الْأَخْطَلِ فَيَقُولُ : « أَنْتَ الْقَائِلُ هَذِهِ الْأَيَّاتِ :
وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعًا وَلَسْتُ بِآكِلٍ لَحْمِ الْأَصْحَى

(١) يقول : إذا تأملنا أقوال القدماء ، لم نجد أحداً منهم يحرم الخمر ، فإذا كان محمد قد
تفرد بتحريمها وخذها ؛ فما هو ذا محمد قدمات ، فزال بموته الخلف في شأنها

(٢) التشبيب (٣) لم تدهش ولم تتحير وتشتغل بما أنت فيه (٤) طبيعة

(٥) وفي هذا المعنى يقول أبو العلاء في لزومياته :

الظوا بالقبيح وتابعوه ولو أمروا به لتجنبوه

وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعَيْرِ^(١) أَدْعُو قَبِيلَ الصَّبِيحِ : « حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ »
وَلَكِنِّي سَأَشْرِبُهَا شُمُولًا^(٢) وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلِجِ^(٣) الصَّبَاحِ «
فَيَقُولُ : « اجْلُ ، وَإِنِّي لَنَادِمٌ سَادِمٌ ، وَهَلْ أَغْنَتْ النَّدَامَةُ عَنْ
أَخِي كُسْعِ^(٤) ؟ »

*
* *

وَيَمَلُّ مِنْ خِطَابِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَنْصَرِفُ إِلَى قَصْرِهِ الْمَشِيدِ ، فَإِذَا صَارَ عَلَى
مِيلٍ أَوْ مِيلَيْنِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ مَا سَأَلَ عَنْ مُهْلِلِ التَّغْلِبِيِّ ، وَلَا عَنِ الشَّنْفَرِيِّ
وَتَأْبَطَ شَرًّا ، فَيَرْجِعُ عَلَى أَذْرَاجِهِ ، فَيَقِفُ بِذَلِكَ الْمَوْقِفِ يُنَادِي :
« أَيْنَ عَدِيُّ ابْنِ رَيْبَعَةَ ؟ » قِيْلَ : « زِدْ فِي الْبَيَانِ » فَيَقُولُ : « الَّذِي
يَسْتَشْهِدُ النَّحْوِيُّونَ بِقَوْلِهِ :

(١) الحمار (٢) خمر باردة (٣) عند إشراق الصباح

(٤) نادم سادم : إتياع ، أو الثانية بمعنى الأولى للتأكيد ، وكُسْعٌ : حى من قيس عيلان ،
ومنه غامد بن الحرث الكسعيّ ، وقد اتخذ قوساً وخمسة أسهم ، وكان في نجبا ليصطاد ، فمر
قطيع ، فرمى عَيْرًا ، فنفذ السهم فيه ، ثم انطلق فصدم الجبل ، فأورى نارا ؛ فظن الكسعيّ
أنه قد أخطأ ، فرمى ثانية وثالثة إلى آخر الأسهم ، وهو يظن أنه لم يصب ، فجزع ، وعمد إلى
قوسه فكسرها ، ثم بات ، فلما أصبح نظر فإذا الحمرُ مُطْرَحَةٌ مُصْرَعَةٌ ، وأسهمه بالدم
مضرجة ، فندم ، فقطع إبهامه ، وأنشد :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذا لقطعت خمسي
تبين لي سفاهُ الرأي مني - لعمري أيبك - حين كسرت قوسي

ويضرب المثل بندامة الكسعيّ ، فيقول الفرزدق :

« ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقاً نواراً »

والأدب العربي حافل بضرب الكسعي مثلاً لكل نادم .

ضَرَبْتُ صَدْرَهَا إِلَى وَقَالَتْ : « يَا عَدِيًّا! لَقَدْ وَقَّتْكَ ^(١) الْأَوَاقِي ^(٢) ! »

وَقَدْ اسْتَشْهَدُوا لَهُ بِأَشْيَاءَ كَقَوْلِهِ :
وَلَقَدْ خَبَطْنَ ^(٣) يُبُوتَ يَشْكُرُ خَبْطَةً أَخْوَالَنَا ، وَهُمْ بَنُو الْأَعْمَامِ

وَقَوْلِهِ :

مَا أَرْجَى بِالْعَيْشِ بَعْدَ نَدَامِي كُلُّهُمْ قَدْ سَقُوا بِكَأْسِ حَلَاقِي ^(٤)

فَيُقَالُ : « إِنَّكَ لَتَعْرِفُ صَاحِبِكَ بِأَمْرِ لَا مَعْرِفَةَ عِنْدَنَا مِنْهُ ،
مَا النَّحْوِيُّونَ ؟ وَمَا الْاسْتِشْهَادُ ؟ وَمَا هَذَا الْهَدْيَانُ ؟ نَحْنُ خَزَنَةُ النَّارِ ،
فَيِنَّ غَرَضَكَ تُجِبُ إِلَيْهِ »

(١) حفظتك وصانتك عن الأذى (٢) جمع واقية وهي الشيء يتقى به ، ومعنى البيت أنها دقت صدرها داعية أن لا يصيبني مكروه (٣) ضربهم ضرباً شديداً (٤) الحَلَاقِي : المنية ، ومعنى البيت : « أي خير في الحياة بعد أن أفنى الردى كل ندامى » وهذا البيت من قصيدة المهمل المشهورة التي يقول فيها :

طفلة ما ، ابنة الجمل بيضا ، لعوب ، لذيذة في العناق

فاذهبي ما إليك غير بعيد لا يؤاتي العناق من في الوثاق

ضربت نحرها إلى ، وقالت : « يا عديا ! لقد وقتك الأواقي ! »

ما أرجى بالعيش بعد ندامى ، أراهم سقوا بكأس حلاق !

وهكذا يروى البيت الأخير في كتب الأدب ، مخالفاً لرواية أبي العلاء

حديثه مع مهلهل^(١)

فَيَقُولُ : « أَرِيدُ الْمَعْرُوفَ بِمُهْلِهِلِ الثُّغَلِيِّ ، أَخِي سُكَيْبِ وَائِلِ الَّذِي كَانَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ » فَيُقَالُ : « هَا هُوَ ذَا يَسْمَعُ حِوَارِكَ ، فَقُلْ مَا تَشَاءُ »

(١) مهلهل

اسمه « عدى » واسم أبيه « ربيعة التغلبي » وهو أخو كليب وخال امرئ القيس .
موطنه نجد .

يعزو اليه المؤرخون أنه أول من طول القصائد ، وأنه أحد من غنى من العرب في شعره ، وكان لاهياً حتى لقبه أخوه كليب « زير النساء » فلما قتل كليب كان المهلهل يعاقر الخمر فاهتاج ، واستحث قومه على أخذ الثار ؛ وجز شعره وقصر ثوبه ؛ وهجر النساء والقمار والشراب ، وتفرغ للحرب ، ودامت تلك الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة ، وكانت سجلاً بينهما ، ثم اصطلحوا بعد ذلك .

ومن مختار شعره : رائيته الفذة ، وهي أشهر من أن نذكرها ، ومن أجمل ما فيها قوله :

كأني - إذ نعى الناعى كليباً - تطاير بين جنبي الشرار

سألت الحى : « أين دفنتموه ؟ » فقالوا لي : « بأقصى الحى دار »

فسرت وقد غشي بصرى عليه كما دارت بشاربها العقار

وقوله من قصيدة أخرى :

يا لبكر ! أنشروا لي كليباً يا لبكر ! أين أين الفرار ؟

يا لبكر ! فاطعنوا أو فحلوا صرح الشر وبان السرار

وقوله من قصيدة ثالثة :

أيلتنا بنى حُسم ! أنبرى إذا أنت انقضيت فلا تحورى

فإن يك بالذئب طال ليلي فقد أبكى من الليل القصير

وأنقذني ياض الصبح منها لقد أنقذت من شر كبير

فَيَقُولُ: « يَا عَدِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ ! أُعْزِزْ عَلَيَّ بِوُلُوجِكَ هَذَا الْمَوْلِجِ ! لَوْ لَمْ آسَفْ
عَلَيْكَ إِلَّا لِأَجْلِ قَصِيدَتِكَ الَّتِي أَوْهَلَا :
أَلَيْسَتَا بِيَدِي حُسَمٍ (١) أَيْرِي إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ (٢) فَلَا تَحُورِي (٣)
لَكَانَتْ جَدِيرَةً أَنْ تُطِيلَ الْأَسْفَ عَلَيْكَ ، وَقَدْ كُنْتُ إِذَا أَنْشِدْتُ
أَيَّاتَكَ فِي ابْنَتِكَ الْمَرْوَجَةِ فِي « جَنْبٍ » (٤) ، تَغْرُورِقُ مِنَ الْحُزْنِ عَيْنَايَ ،

الى أن يقول ويبدع :

كواكب ليلة طالت وغمت فهذا الصبح راغمة فغورى
وبعد أن غلب في الحرب ، وأخذ أسيراً ، ثم عاد إلى أهله — جعل النساء يستخبرونه ،
تسأل المرأة عن زوجها وأبيها وأخيها ، ويسأل الغلام عن أبيه وأخيه ، فقال :
ليس مثلى يخبر الناس عن آ بائهم قتلوا ، وينسى القتالا
لم أرم عرصة الكتبية حتى از تعل الورد من دماء نعالا
عرفته رماح بكر ، فما يأ خذن إلا لباته والقذالا
غلبونا — ولا محالة يوما يقلب الدهر ذاك حالا فخالا

(١) اسم مكان (٢) انتهيت (٣) لا ترجعى (٤) يشير بذلك إلى ذهاب مهمل
إلى اليمن بعد أن دامت الحرب المشهورة أربعين عاماً ، واصطلاح الحياتن جميعاً ، وأبى مهمل
أن يقيم بينهم حتى لا يرى قاتل كليب ، فسار إلى اليمن ونزل في « جنب » من بنى مذحج ،
فخطب إليه أحدهم ابنته ، فأبى أن يفعل فأجبروه على تزويجها ، وساقوا إليه صداقها جلودا
من آدم ، فقال في ذلك :

أعز على تغلب بما لقيت أخت بنى الأكرمين من جُشم
أنكحها فقدما الأراقم في جنب ب ، وكان الحباء من آدم ا
لو بأبانين جاء يخطبها ضرج ما أنف خاطب بدم
ليسوا بأكفائنا الكرام ، ولا يغنون من عيلة ولا عدم
أصبحت لا منفساً أصبت ، ولا أبت كريمة حرا من الندم

فَأَخْبَرَنِي : لِمَ سُمِّيتَ مُهْلَبًا ؟ فَقَدْ قِيلَ : إِنَّكَ سُمِّيتَ بِذَلِكَ ، لِأَنَّكَ أَوَّلُ
مَنْ هَلَلَ الشُّعْرَ « أَيْ رَقَّقَهُ ، فَيَقُولُ : « إِنَّ الْكَذِبَ لَكَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا
كَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ امْرُؤُ الْقَيْسِ ، فَأَغَارَ عَلَيْنَا زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ الْكَلْبِيُّ ،
فَتَبِعَهُ أَخِي فِي زَرَافَةِ ^(١) مِنْ قَوْمِهِ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

لَمَّا تَوَقَّلَ ^(٢) فِي الْكُرَاعِ ^(٣) هَجَّيْنَهُمْ ^(٤) هَلَّيْتُ ^(٥) أَثَارُ مَالِكًا أَوْ صَنِيبًا

فَسُمِّيَ مُهْلَبًا ، فَلَمَّا هَلَكَ شُبِّهْتُ بِهِ ، فَقِيلَ لِي مُهْلَبٌ »

فَيَقُولُ : « الْآنَ شَفَيْتَ صَدْرِي بِحَقِيقَةِ الْيَقِينِ ! »

حديثه مع الشنفرى ^(٦)

وَسَأَلَ عَنِ الشَّنْفَرِيِّ الْأَزْدِيِّ فَأَلْفَاهُ قَلِيلًا

(١) جماعة (٢) صعد أو توغل أو رقى (٣) الكراع : أنف يتقدم الحرة ممتد ،
أى جزء خارج ، والحرة كل أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار
(٤) قال أبو العلاء : يعنى بالهجين زهير بن جناب (٥) قال أبو العلاء : « قاربت ،
ويقال : توقفت »

(٦) الشنفرى

(قالوا : توفى سنة ٥٤٠ م)

اسمه ثابت بن أوس الأزدي ، موطنه اليمن ، وهو شاعر الأزدي ، ومن أشهر عدائى العرب .
ومعنى الشنفرى : « العظيم الشفتين » ومن أروع شعره قوله لما أسره « بنو سلامان » وأرادوا
قتله ، وقالوا له : « أين نقيبك ؟ » - فقد قال :

لا تقبروني ، إن قبري محزوم عليكم ، ولكن أبشرى أمّ عامر
إذا احتُمِلتْ رأسى - وفي الرأس أكثرى وغودر عند الملتقى - ثمّ - سائرى
هنالك لا أرجو حياة تسرفى سجيسَ الليالى مبسلاً بالجرائر

التَّشَكِّي (١) وَالتَّأَلُّمَ لِمَا هُوَ فِيهِ ، فَيَقُولُ : « إِنِّي لَا أَرَاكَ قَلِقًا مِثْلَ قَلَقِ
أَصْحَابِكَ ! » فَيَقُولُ : « أَجَلُ ! إِنِّي قُلْتُ يَتَنَا فِي الدَّارِ الْخَادِعَةِ ، فَأَنَا أَتَادَّبُ بِهِ ،
وَذَلِكَ قَوْلِي :

غَوَى فَعَوَتْ ، ثُمَّ ارْعَوَى (٢) بَعْدُ وَارْعَوَتْ

وَالْقَبْرُ - إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشُّكُورُ - أَجَلٌ (٣) »

(١) قليل التشكى أى قليل التوجع والتأوه ، و بذلك وصفه قرينه تأبط شرا فى قصيدة
جميلة منها :

قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك
أى قليل التوجع لما يحزنه ، كثير السفر والتحول من مكان إلى آخر ، و ستمر بك القصيدة
فى ترجمة « تأبط شرا » فى الصحيفة التالية

(٢) كف ورجع عن الجهل

(٣) هذا البيت من لامية « الشنفرى » المشهورة التى نختار منها قوله :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
واستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب النام لم يلف مشرب يعاش به إلا لدى وما كل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحول

حديثه مع تأبط شرا^(١)

وَإِذَا هُوَ قَرِينٌ مَعَ « تَأْبُطَ شَرًّا » كَمَا كَانَ فِي الدَّارِ الْغَرَّارَةِ ، فَيَقُولُ لِتَأْبُطَ

(١) تأبط شرا (توفي سنة ٥٩٠ م)

كان من أشهر عدائي العرب وأبصرهم وأشدهم كيداً ، وكان ينظر إلى الظباء فيعدو وراء أسنمها فلا تفوته ، قالوا : أشهر عدائي العرب الذين لا تلحقهم الخيل : تأبط شرا ، والشنفري ، وسليك بن السلكة ، وعمرو بن براق ، وأسير بن جابر «

قالوا : « وكان تأبط شرا أعدي ذي رجلين وذو ساقين وذو عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء فينتقي - على نظره - أسنمها ثم يجري خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ثم يشويه فيأكله . » وقد وصف « تأبط شرا » الغيلان في شعره كما سير بك في الصحيفة التالية . ومن أجل ما نختاره من شعره قوله يصف صديقه « الشنفري » من قصيدة له :

قليل التشكى للمهم ^(١) يصيبه	كثير الهوى ، شتى النوى ^(٢) والمسالك
يظل بمومة ^(٣) ، ويمسى بغيرها	جحيشاً ^(٤) ، ويعرورى ^(٥) ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح ، من حيث ينتحي ^(٦)	بمنخرق ^(٧) من شدة ^(٨) المتدارك ^(٩)
إذا حاص ^(١٠) عينيه كرى النوم ، لم يزل	له كالى ^(١١) من قلب شيعان ^(١٢) فاتك
ويجعل عينيه ريثة ^(١٣) قلبه	إلى سله من حد أخلق ^(١٤) صائك ^(١٥)
إذا هزه في عظم قرن تهلت	نواجد أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأئس الأئيس ، ويهتدى	بحيث اهتدت أم النجوم الشوايك ^(١٦)

(١) المحزن (٢) السفر أو التحول من مكان الى آخر (٣) مفازة واسعة (٤) منفردا

(٥) يركب (٦) يميل في كل وجه (٧) حيث تهب الريح (٨) إسراعه (٩) المتلاحق

بعضه ببعض (١٠) حاص : خاط ، والمعنى هنا : « إذا اشتبكت أهداب جفونه وأخذ الكرى بمعاقدها »

(١١) حافظ (١٢) حذر . أو شهم غير على الحرم . والمعنى أن قلبه اليقظ يحرسه حين ينام

(١٣) رائدا ، واصل الريثة الرجل ينتظر العدو على جبل أو مكان عال لئلا يدهم قومه (١٤) أملس

مصمت (١٥) لاصق ، والمعنى هنا : أن سيفه مضرج بالدم (١٦) الحجر . وإنما سميت كذلك

لا اجتماع النجوم فيها واشتباك بعضها ببعض . والمعنى أنه يهتدى بالنجوم في الليل

شراً : « أَحَقُّ مَا رُوِيَ عَنْكَ مِنْ نِكَاحِ الْغِيلَانَ ^(١) ؟ » فيقول : « لَقَدْ كُنَّا

ومما يروونه عنه أنه لقي - ذات يوم - رجلاً من « ثقيف » يقال له : « أبو وهب » كان جباناً أهوجاً وعليه حلة جيدة ؛ فقال « أبو وهب » لتأبط شراً : « بم تغلب الرجال يا ثابت ، وأنت كما أرى دميم ضئيل ؟ » قال : « باسمي ، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبط شراً ، فينخلع قلبه ، حتى أنال منه ما أردت ! »

فقال له الثقيفي : « أقطُّ ؟ » قال : « قط ! »

قال : « فهل لك أن تبيعني اسمك ؟ » قال : « نعم ، فبم تبتاعه ؟ » قال : « بهذه الحلة وبكنيتي » قال له : « افعل » ففعل ، وقال له تأبط شراً : « لك اسمي ولي كنيتك » وأخذ حلته وأعطاه طمريه ثم انصرف ؛ وقال في ذلك يخاطب زوجة الثقيفي :

ألا هل أتى الحسناء أن حليها تأبط شراً واكتنيت «أبا وهب» ؟
فبها تسمى اسمي وسميت باسمه ، فأين له صبري على معظم الخطب ؟
وأين له بأس كبأسي وسورتي وأين له في كل فادحة قلبي !

(١) ذاع عن « تأبط شراً » لقاء الغيلان ونكاحهم والحرب معهم ، وقد رووا عنه أشعاراً مختلفة في ذلك وأخباراً هي أقرب إلى الأساطير والخيال منها إلى الحقيقة ، فمن شعره في الغيلان قوله من قصيدة :

واني قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحات
فقلت لها : « كلانا نضو أينٍ أخو سفر ، فخلّي لي مكاني »
فشدت شدة نحوى ، فأهوى لها كفي بمصقول يمانى
فأضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجرات
فقلت : « عد » : فقلت لها : « رويدا » مكانك ! إننى ثبت الجنان »
فلم أنفك متكئاً عليها لأنظر مصبها ، ماذا أتانى
إذا عينان في رأس قبيح كراس الهر مشقوق اللسان
وساقا مُخدَع ، وشوأة كلب وثوب من عباء أو شنان

فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَتَقَوْلُ وَتَتَخَرِّصُ^(١) ، فَمَا جَاءَكَ مِمَّا يُنْكِرُهُ الْمُعْقُولُ^(٢) ، فَإِنَّهُ مِنْ
الْأَكَاذِيبِ . وَالزَّمَنُ كُلُّهُ عَلَى سَجِيَّةٍ وَاحِدَةٍ^(٣) ، فَالَّذِي شَاهَدَهُ مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ
كَالَّذِي شَاهَدَهُ نُضَاضَةُ^(٤) وَوَلَدِ آدَمَ «

فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « نُقِلَتْ إِلَيْنَا آيَاتٌ تُنْسَبُ إِلَيْكَ :

أَنَا الَّذِي نَكَحَ الْغِيلَانَ فِي بَلَدٍ مَا طَلَّ^(٥) فِيهَا سَمَاكِيٌّ وَلَا جَادًا
فِي حَيْثُ لَا يَمِيتُ الْغَادِي عَمَائَتَهُ وَلَا الظَّلِيمُ بِهِ يَبْنِي تَهْبَادًا^(٦)
وَقَدْ لَهَوْتُ بِمَصْقُولٍ عَوَارِضَهَا بَكْرٍ تُنَارِعُنِي كَأَسًا وَعِنْقَادًا^(٧)
ثُمَّ انْقَضَى عَصْرُهَا عَنِّي وَأَعَقَبَهُ عَصْرُ الْمَشَيْبِ ، فَقُلْ فِي صَالِحِ بَادَا «

فَاسْتَدَلَّتْ عَلَى أَنَّهَا لَكَ لَمَّا قُلْتَ : « تَهْبَادًا »

فَقُلْتَ هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْقَافِيَةِ :

« طَيْفُ ابْنَةِ الْحُرِّ - إِذْ كُنَّا نُوَاصِلُهَا -

ثُمَّ اجْتَنَنْتُ بِهَا بَعْدَ التَّفْرِاقِ^(٨) »

فَلَا يُجِيبُهُ تَابُّطٌ شَرًّا بِطَائِلٍ

(١) نكذب (٢) المعقول : العقل ، كالجهود بمعنى الجهد ، والمعسور بمعنى العسر ، وما

إلى ذلك من المصادر التي جاءت على زنة مفعول . (٣) في هذا المعنى يقول أبو العلاء في
سقط الزند :

ألا إنما الأيام أبناء واحد وهذي الليالي كلها أخوات

فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذي مرت به السنوات

(٤) قال أبو العلاء : « النضاضة : آخر ولد الرجل » (٥) لم يصبها الطل - وهو المطر الضعيف

(٦) المعنى : لا يظفر فيها فرخ النعام بالهبيد « الحنظل » لياً كله (٧) عنقودا (٨) التفرق

لفضل السيارين

عودة إلى الفردوس

حديثه مع آدم

فَإِذَا رَأَى^(١) قِلَّةَ الْفَوَائِدِ لَدَيْهِمْ ، تَرَكَهُمْ فِي الشَّقَاءِ السَّرْمَدِ ، وَعَمَدَ لِجَلِّهِ
فِي الْجِنَانِ ، فَيَلْتَقِ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الطَّرِيقِ ، فَيَقُولُ : « يَا أَبَانَا ،
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ ، قَدْ رَوَى لَنَا عَنْكَ شِعْرٌ مِنْهُ قَوْلُكَ :

نَحْنُ بَنُو الْأَرْضِ وَسُكَّانُهَا مِنْهَا خُلِقْنَا وَإِلَيْهَا نَعُودُ
وَالسَّعْدُ لَا يَبْقَى لِأَصْحَابِهِ وَالنَّحْسُ تَمْجُوهُ لِيَالِي السُّعُودِ »

فَيَقُولُ : « إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ حَقٌّ ، وَمَا نَطَقَهُ إِلَّا بَعْضُ الْحُكَمَاءِ ، وَلَكِنِّي
لَمْ أَسْمَعْ بِهِ حَتَّى السَّاعَةِ » فَيَقُولُ : « فَلَمَّا يَا أَبَانَا قُلْتَهُ ثُمَّ نَسِيتَ ، فَقَدْ
عَلِمْتَ أَنَّ النَّسِيَانَ مُتَسَرِّعٌ إِلَيْكَ ، وَحَسْبُكَ شَهِيدًا عَلَى ذَلِكَ الْآيَةِ الْمَثَلُوهُ
فِي قُرْآنِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - : « وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، فَنَسِيَ^(٢)
وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّكَ سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِنَسْيَانِكَ ،
وَاحْتِجَّ^(٣) عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ فِي التَّصْغِيرِ « أَيُّسِيَانُ » وَفِي الْجَمْعِ أَنَا سِيٌّ ،
وَقَدْ رَوَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النَّسِيَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ الطَّائِبِيُّ :

(١) أي ابن القارح (٢) وفي ذلك يقول أبو العلاء :

احتج في النسيان والدمم وقد غروا - بادكار - لا أقول : نسوا

(٣) أتى بالحجة

« لَا تَنْسِينَ تِلْكَ الْعُهُودَ ، وَإِنَّمَا سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِأَنَّكَ نَاسِيٌ »
فَيَقُولُ آدَمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « أَيْتِمُّ إِلَّا عُقُوقًا وَأَذِيَّةً ، إِنَّمَا
كُنْتُ أَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ ، وَأَنَا فِي الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا هَبَطْتُ الْأَرْضَ نُقِلَ لِسَانِي إِلَى
السُّرْيَانِيَّةِ فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِهَا إِلَى أَنْ هَلَكْتُ ، فَلَمَّا رَدَّنِي اللَّهُ - سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى - إِلَى الْجَنَّةِ عَادَتْ عَلَيَّ الْعَرَبِيَّةُ ، فَأَيَّ حِينٍ نَظَمْتُ هَذَا الشُّعْرَ ، فِي
الْعَاجِلَةِ أَمْ الْآجِلَةِ ؟ وَالَّذِي قَالَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ وَهُوَ فِي الدَّارِ
الْمُتَاكِرَةِ ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ : « مِنْهَا خُلِقْنَا وَإِلَيْهَا نَعُودُ » ؟ فَكَيْفَ أَقُولُ هَذَا
الْمَقَالَ وَلِسَانِي سُرْيَانِيٌّ ؟ وَأَمَّا الْجَنَّةُ قَبْلَ أَنْ أُخْرَجَ مِنْهَا فَلَمْ أَكُنْ أُدْرِي
بِالْمَوْتِ فِيهَا ، وَأَنَّهُ مِمَّا حُكِّمَ عَلَى الْعِبَادِ ، وَأَمَّا بَعْدَ رُجُوعِي إِلَيْهَا فَلَا مَعْنَى
لِقَوْلِي : « وَإِلَيْهَا نَعُودُ » لِأَنَّهُ كَذِبٌ لَا مَحَالَةَ ، وَنَحْنُ مَعَاشِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ
خَالِدُونَ مُخَلَّدُونَ ! »

فَيَقُولُ : « إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ السَّيْرِ يَزْعُمُ أَنَّ هَذَا الشُّعْرَ وَجَدَهُ يَعْزُبُ فِي
مُتَقَدِّمِ الصُّحُفِ السُّرْيَانِيَّةِ ، فَنَقَلَهُ إِلَى لِسَانِهِ ، وَهَذَا لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ ،
وَكَذَلِكَ يَرَوُونَ لَكَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ - لَمَّا قَتَلَ قَائِلُ هَائِيلَ :

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُغْبَرٌ قَبِيحٌ
وَأَوْدَى رُبْعُ أَهْلِهَا فَبَانُوا وَعُودِرَ فِي الثَّرَى الْوَجْهُ الْمَلِيحُ
فَيَقُولُ آدَمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « أُعْزِرُ عَلَى بَيْتِكُمْ مَعْشَرَ أَيْتِي !
إِنَّكُمْ فِي الضَّلَالَةِ مَتَهَوُّ كُونَ ^(١) ! آيَةٌ ^(٢) مَا نَطَقْتُ هَذَا النَّظِيمَ وَلَا

(١) متهورون أو متحيرون ، أى أنكم واقعون في الضلالة بغير مبالاة ولا روية ، خابطون

فيها على غير هدى (٢) أقسمت

نُطِقَ فِي عَصْرِي ، وَإِنَّمَا نَظَمَهُ بَعْضُ الْفَارِغِينَ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ !
كَذَبْتُمْ عَلَى خَالِقِكُمْ وَرَبِّكُمْ ، ثُمَّ عَلَى آدَمَ أَيُّكُمْ ، ثُمَّ عَلَى حَوَاءَ أُمَّكُمْ ،
وَكَذَبَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ! »

حديثه مع ذات الصفا

ثُمَّ يَضْرِبُ^(١) سَائِرًا فِي الْفِرْدَوْسِ ، فَإِذَا هُوَ بِرَوْضَةٍ مُوْتَقِيَةٍ ، وَإِذَا هُوَ
بِحَيَّاتٍ يَلْمَعْنَ ، فَيَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ! وَمَا تَصْنَعُ حَيَّةٌ فِي الْجَنَّةِ ؟ »
فَيَنْطِقُهَا اللَّهُ - جَلَّتْ عَظَمَتُهُ - بَعْدَ مَا أَلْهَمَهَا الْمَعْرِفَةَ بِهَا جِسَّ الْخَلْدِ ، فَتَقُولُ :
« أَمَا سَمِعْتَ فِي عُمْرِكَ بِذَاتِ الصِّفَا ، الْوَافِيَةِ لِصَاحِبِ مَا وَفَى ، كَانَتْ تَنْزِلُ
بِوَادِ خَصِيبٍ ، وَكَانَتْ تَصْنَعُ إِلَيْهِ الْجَمِيلَ فِي وَرْدِ الظَّاهِرَةِ^(٢) وَالْغَيْبِ ،
فَلَمَّا تَمَّرَ بَوْدُهَا مَا لَهُ ، ذَكَرَ عِنْدَهَا ثَارَهُ ، وَوَقَفَ عَلَى صَخْرَةٍ ، وَهَمَّ أَنْ يَنْتَقِمَ
مِنْهَا بِأَخْرَةٍ^(٣) ، وَكَانَ أَخُوهُ مِمَّنْ قَتَلْتُهُ - فَضَرَبَهَا ، فَأَمَّا وَرِقِيَتْ ضَرْبَةً فَاسِيَهُ
- وَالْحَقُّدُ يَمْسِكُ بِأَنْفَاسِهِ - نَدِمَ عَلَى مَا صَنَعَ أَشَدَّ النَّدَمِ ، وَقَالَ لِلْحَيَّةِ مُخَادِمًا :
« هَلْ لَكَ أَنْ تَكُونِ خَلِيئِي ؟ » وَدَعَاهَا بِالسَّفِيهِ إِلَى حِلْفٍ ، فَقَالَتْ : « لَا أَفْعَلُ ،
إِنِّي أَجِدُكَ فَاجِرًا مَسْحُورًا^(٤) تَأْتِي لِي صَكَّةٌ^(٥) فَوْقَ الرَّأْسِ ، وَيَمْنَعُكَ مِنْ
أَرْبِكَ قَبْرٌ مَحْفُورٌ^(٦) . »

(١) أي ابن القارح (٢) الظاهرة الإبل الواردة كل يوم نصف النهار (٣) آخر كل شيء

(٤) مفسدًا مخادعًا (٥) ضربة شديدة (٦) يرجع من يريد التوسع في هذه القصة

إلى ص ٦٨ ج ٣ من كتاب الحيوان للجاحظ وص ٧٧ ج ٢ من مجمع الأمثال وص ٤٨

من ديوان النابغة

وَقَدْ وَصَفَ ذَلِكَ نَابِغَةُ بَنِي ذُبْيَانَ ، فَقَالَ :
 وَإِنِّي لَأَلْقِي مِنْ ذَوِي الضُّعْنِ مِنْهُمْ
 كَمَا لَقِيتَ ذَاتُ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِهَا
 فَلَمَّا رَأَى أَنَّ تَمَرَ اللَّهِ مَالَهُ (١)
 أَكَبَّ (٢) عَلَى فَأْسٍ يَحْدُ غُرَابِهَا (٣)
 وَقَامَ عَلَى جُحْرٍ لَهَا فَوْقَ صَخْرَةٍ
 فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَأَسِيَهُ
 فَقَالَ : « تَعَالَى ، نَجْعَلِ اللَّهُ بَيْنَنَا
 فَقَالَتْ : « مَعَاذَ اللَّهِ أَفْعَلُ (٤) ، إِنِّي
 أَبِي لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي
 وَمَا أَصْبَحْتُ تَشْكُرُونَ مِنَ الْبَثِّ سَاهِرَةً
 وَكَانَتْ تُرِيهِ الْمَالَ غِيًّا وَظَاهِرَةً
 فَأَصْبَحَ مَسْرُورًا ، وَسَدَّ مَفَاقِرَهُ (٥)
 مُذْكَرَةً مِنَ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَةً
 لِيَقْتُلَهَا أَوْ تُخْطِيءَ الْكَفَّ بَادِرَةً
 وَلِلْبُرِّ عَيْنٌ لَا تُغْمَضُ نَاطِرَةً
 عَلَى مَا لَنَا ، أَوْ تُنْجِزِي لِي آخِرَهُ (٦) »
 رَأَيْتُكَ مَسْحُورًا ، يَمِينُكَ فَاجِرَةً
 وَضَرْبَةَ فَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَهُ (٧) »

وَتَقُولُ حَيَّةٌ أُخْرِي : « إِنِّي كُنْتُ أُسْكُنُ فِي دَارِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، فَيَتَلَوُ
 الْقُرْآنَ لَيْلًا ، فَتَلَقَيْتُ الْكِتَابَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ .
 وَيَهِكُرُ (٨) أَرْزَفَهُ اللَّهُ مَعَ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ لِمَا سَمِعَ مِنْ تِلْكَ الْحَيَّةِ ، فَتَقُولُ
 هِيَ : « أَلَا تُقِيمُ عِنْدَنَا بَرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ ! فَإِنِّي إِذَا شِئْتُ انْتَفَضْتُ مِنْ إِهَابِي (٩) ،
 فَصِرْتُ مِثْلَ أَحْسَنِ غَوَانِي الْجَنَّةِ ، لَوْ تَرَشَّفْتُ رُضَابِي (١٠) لَعَلِمْتَ أَنِّي أَفْضَلُ

(١) نماه وكثره (٢) سد مفاقره أى اغتنى وسد وجوه فقره (٣) أقبل ولزمه
 (٤) حدها (٥) نشهد الله على تحالفنا (٦) أى أقسمت لا أفعل (٧) الفاقرة :
 الداهية التي تكسر الفقار وهو ما تنضد من عظام الصلب من لدن الكاهل الى العجز أى
 خرزات الظهر ، ومعناها هنا شديدة محطمة (٨) يشتد عجبته (٩) جلدى (١٠) ريقى المرشوف

مِنَ الدَّرِيَاقَةِ^(١) الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ مُقْبِلٍ^(٢) فِي قَوْلِهِ :
سَقَّتْنِي بِصَهْبَاءِ دِرْيَاقَةٍ مَتَى مَا تُتَلِّينُ^(٣) عِظَامِي تَلِينُ^(٤)
فِيذَعْرُ مِنْهَا وَيَذْهَبُ مَهْرُوْلًا فِي الْجَنَّةِ ، وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : « كَيْفَ يُرَكَّنُ
إِلَى حَيَّةٍ ؟ » فَتَنَادِيهِ : « هَلُمَّ إِنَّ شَيْئَتَ اللَّذَّةِ ، لَوْ أَقَمْتِ عِنْدَنَا إِلَى أَنْ تَخْبِرُ وُدَّنَا
وَإِنْصَافَنَا ، لَنَدِمْتَ إِنْ كُنْتَ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ قَتَلْتَ حَيَّةً أَوْ عُمَانًا^(٥) »
فَيَقُولُ : « لَقَدْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيَّ مَرَّاشِفَ الْخُورِ الْحَسَانِ إِنْ رَضِيتُ بِرَشْفِ
هَذِهِ الْحَيَّةِ » !

عود إلى حوريته

فَإِذَا ضَرَبَ فِي غِيْطَانِ الْجَنَّةِ لَقِيَتْهُ الْجَارِيَةُ^(٦) الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ تِلْكَ
الشَّمْرَةِ ، فَتَقُولُ : « إِنِّي لَا أَتَطْرُقُ مِنْذُ حِينٍ ، فَمَا الَّذِي شَجَبَكَ^(٧) عَنِ الْمَزَارِ ؟
مَا طَالَتْ الْإِقَامَةُ مَعَكَ ، فَأَمِلْ بِالْمُحَاوَرَةِ مَسْمَعَكَ ! » فَيَقُولُ : « كَانَتْ فِي
نَفْسِي مَأْرَبٌ مِنْ مُخَاطَبَةِ أَهْلِ النَّارِ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ مِنْ ذَلِكَ وَطْرًا عُدْتُ
إِلَيْكَ ، فَاتَّبَعْنِي بَيْنَ كُثْبِ الْعَنْبَرِ وَأَنْقَاءِ^(٨) الْمِسْكِ » فَيَتَخَلَّلُ بِهَا أَهَاضِيبَ
الْفِرْدَوْسِ ، وَرِيَاضِ الْجَنَانِ ، فَتَقُولُ : « أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمَرْحُومُ ، أَظُنُّكَ تَحْتَذِي بِي
فِعَالَ الْكِنْدِيِّ^(٩) فِي قَوْلِهِ :

(١) الدرايقة هنا : الحمر ، وأصل معناها : دواء السم (٢) تقدمت ترجمة ابن مقبل
في ص ٦٦ من هذا الجزء ، وهو تميم بن أبي بن مقبل ، فراجع إن شئت .
(٣) تجعل عظامي لينة (٤) يقال : لينته ، فلان لي (٥) العثمان : فرخ الثعبان
(٦) ارجع إلى عنوان « حدائق الحور » في ص ١٠١ من هذا الجزء (٧) حبسك
أو منعك (٨) جمع نقا ، وهي القطعة من الرمل تنقاد محدودة (٩) امرئ القيس

فَقُمْتُ بِهَا أَمْشِي ، تَجْرُ وَرَاءَنَا
فَلَمَّا أَجَزْنَا (٣) سَاحَةَ الْحَيِّ (٤) وَانْتَحَى
عَلَى أَثْرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ (١) مَرَحَلٍ (٢)
بِنَا بَطْنٍ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلٍ (٨)
عَلَى هَضِيمِ الْكَشْحِ (١١) رِيًّا الْمُخَلْخَلِ (١٢)

فَيَقُولُ : « الْعَجَبُ لِقُدْرَةِ اللَّهِ لَقَدْ أَصَبْتُ مَا خَطَرَ فِي السُّوَيْدَاءِ (١٣) فَمِنْ
أَيِّنَ لَكَ عِلْمٌ بِالْكِنْدِيِّ ، وَإِنَّمَا نَشَأَتْ فِي ثَمْرَةٍ يُبْعِدُكَ مِنْ جِنِّ وَأَنْبَسٍ ؟ »
فَتَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ! »

*

* *

وَيَعْرِضُ لَهُ حَدِيثُ امْرِئِ الْقَيْسِ فِي دَارَةِ جُلْجُلٍ (١٤) ، فَيُنشِئُ اللَّهُ

(١) المرط : كساء من خز أو صوف ، وقد تسمى الملاءة مرطاً (٢) منقش بنقوش تشبه
رجال الابل ، ومعنى البيت أنها حين صحبتني أخذت تجر مرطها على آثار أقدامنا لتعفيها
به في أثناء سيرنا (٣) قطعنا (٤) فناء الحي أو رحبته (٥) البطن : مكان مطمئن حوله
أمكنة مرتفعة (٦) الخبت : الأرض المطمئنة (٧) جمع حقف ، وهو رمل مشرف معوج
(٨) العقنقل : المنعقد المتلبد من الرمل . ومعنى البيت : لما جاوزنا فناء الحي وصرنا الى
أرض مطمئنة تحيط بها مرتفعات وتلال من الرمل الخ (٩) جذبت (١٠) جانبي رأسها
(١١) ضامرة الكشح ، وهو منقطع الأضلاع (١٢) الخخل : موضع الخخلخال من الساق ،
وريا الخخل : معناها هنا : كثيرة لحم الساقين ممتلئتهما ، ومعنى البيت : « أنه جذب اليه
ذؤابتها فالت اليه » ثم أخذ في وصفها فقال : « إنها ضامرة الكشح ، ممتلئة الساقين »
(١٣) حبة القلب ، أي أصبت ما في نفسي (١٤) يشير الى قصته مع حبيبته
(ابنة عمه عنيزة) والنساء في دارة جلجل ، وقد ذكر تلك القصة في معلقته فقال :

ألا ربّ يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل الخ

وقد امتلأت بها كتب الأدب ، فلا حاجة الى ذكرها هنا ، وارجع الى ص ٥ و ٦ و ٩٦
و ٩٧ و ٩٨ و ١٤٠ و ١٤١ من هذا الجزء ليكمل لك حديث امرئ القيس

— جَلَّتْ عَظَمَتُهُ — حُورًا يَتَمَاقَلُنَ^(١) فِي نَهْرٍ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، وَفِيهِنَّ مَنْ تَفْضُلُهُنَّ ، كَصَاحِبَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ ، فَيَتَرَامِينَ بِالثَّرَمِدِ — وَإِنَّمَا هُوَ كَأَجَلٍ طِيبِ الْجَنَّةِ — وَيَعْقِرُ لَهْنُ الرَّاحِلَةِ^(٢) فَيَأْكُلُ وَيَأْكُلُنَ مِنْ بَضِيْعِهَا^(٣) مَا لَيْسَ تَقَعُ الصِّفَةُ عَلَيْهِ مِنْ إِمْتَاعٍ وَلَدَاذَةٍ .

جنة الرُّجَزِ

وَيَمُرُّ بِأَبْيَاتٍ لَيْسَ لَهَا سُمُوقٌ^(٤) أَبْيَاتِ الْجَنَّةِ ، فَيَسْأَلُ عَنْهَا ، فَيُقَالُ : « هَذِهِ جَنَّةُ الرُّجَزِ^(٥) » فَيَقُولُ : « تَبَارَكَ الْمَزِينُ الْوَهَّابُ ، لَقَدْ صَدَقَ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا » وَإِنَّ الرُّجَزَ لِمَنْ سَفْسَافَ الْقَرِيضِ^(٦) قَصَّرْتُمْ أَيُّهَا النَّفَرُ فَقَصَّرَ بِكُمْ ! »
وَيَعْرَضُ لَهُ رُؤْيَا فَيَقُولُ : « يَا أَبَا الْجَحَافِ ! مَا كَانَ أَكْلَفَكَ^(٧) بِقَوَافٍ لَيْسَتْ بِالْمُعْجِبَةِ ، تَصْنَعُ رَجَزًا عَلَى النَّيْنِ ، وَرَجَزًا عَلَى الطَّاءِ ، وَعَلَى الظَّاءِ ، وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ النَّافِرَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ صَاحِبَ مَثَلٍ مَذْكَورٍ ، وَلَا لَفْظٍ يُسْتَحْسَنُ ! » فَيَغْضَبُ رُؤْيَا^(٨) وَيَقُولُ : « أَلِي تَقُولُ هَذَا ؟ وَعَنِّي أَخَذَ الْخَلِيلُ

وقد أشار أبو العلاء إلى هذه الحادثة في لزومياته ، في قوله :

أين امرؤ القيس والعداري إذ مال من تحته الغبيط ؟

(١) يسبحن ويغطسن (٢) الراحلة : النجيب الصالح لأن يرحل من الإبل ، والقوى على الأسفار ، وهو يشير بذلك إلى قول امرئ القيس : « ويوم عقرت للعداري مطيتي » (٣) لحمها (٤) ارتفاع (٥) الرُّجَزُ : جمع راجز (٦) ارجع إلى (ص ١٤١ و ١٤٢) من هذا الجزء ليتضح لك رأى أبي العلاء في الرجز (٧) أي ما كان أشد حبك وولعك

(٨) رؤْيَا بن العجاج (توفي سنة ١٤٥ هـ)

هو رؤْيَا بن عبد الله البصرى التميمي . كنيته أبو محمد ، (وأصل الرؤْيَا القطعة من

وَكَذَلِكَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ ، وَقَدْ غَبَرَتْ (١) فِي الدَّارِ السَّالِفَةِ تَفْتَخِرُ بِاللَّفْظَةِ
تَقَعُ إِلَيْكَ ، مِمَّا نَقَلَهُ أَوْلِيَاكَ عَنِّي وَعَنْ أَشْبَاهِي ؟ « فَإِذَا رَأَى مَا فِي رُوْبَةِ مَنِ
الْإِتِّخَاءِ (٢) قَالَ : « لَوْ شِيبَكَ رَجَزُكَ وَرَجَزُ أَبِيكَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ قَصِيْدَةً مُسْتَحْسَنَةً ،
وَلَقَدْ كُنْتَ تَأْخُذُ جَوَائِزَ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ، وَإِنْ غَيْرَكَ أَوْلَى بِالْأَعْطِيَةِ
وَالصَّلَاتِ « فَيَقُولُ رُوْبَةٌ : « أَلَيْسَ رَئِيسُكُمْ فِي الْقَدِيمِ ، وَالَّذِي ضَهَلَتْ (٣)
إِلَيْهِ الْمُقَايِسُ ، كَانَ يَسْتَشْهَدُ بِقَوْلِي وَيَجْعَلُنِي لَهُ كَالِإِمَامِ (٤) ؟ »
فَيَقُولُ : « لَا فَخْرَ لَكَ أَنْ اسْتَشْهَدَ بِكَلَامِكَ ، فَقَدْ وَجَدْنَاكُمْ يَسْتَشْهَدُونَ
بِكَلَامِ أُمَّةٍ وَكَمَاءٍ (٥) ، وَكَمْ رَوَى النُّجَاهُ عَنْ طِفْلِ مَالِهِ فِي الْأَدَبِ « فَيَقُولُ رُوْبَةٌ :
« اجْتِثَ لِخِصَامِنَا فِي هَذَا الْمَنْزِلِ ؟ فَامْضِ لِطَيْبَتِكَ (٦) فَقَدْ أَخَذْتَ بِكَلَامِنَا
مَا شَاءَ اللَّهُ ! « فَيَقُولُ : « أَقْسَمْتُ مَا يَصْلُحُ كَلَامُكُمْ لِلشَّنَاءِ ، تَصُكُّونَ مَسَامِيحَ
الْمُتَدَحِّجِ بِالْجُنْدَلِ ، وَمَتَى خَرَجْتُمْ عَنْ صِفَةِ جَمَلٍ تَرْتُونُ لَهُ مِنْ طُولِ الْعَمَلِ ،
إِلَى صِفَةِ فَرَسٍ أَوْ كَلْبٍ ، فَإِنَّكُمْ غَيْرُ الرَّاشِدِينَ ! « - فَيَقُولُ رُوْبَةٌ :
« إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قَالَ « يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ (٧) فِيهَا
وَلَا تَأْتِيْمٌ (٨) « وَإِنَّ كَلَامَكَ لَمِنَ اللُّغُوِّ ! »

الخشب يشعب بها الإناء) واسم أبيه العجاج ، اشتهر كما اشتهر أبوه من قبله بالرجز ، وستر
بك ترجمة أبيه في ص ١٩١

- (١) مكثت أو ظلت (٢) التكبر والتعظيم (٣) ضهل إليه : رجع (٤) لعل المراد :
الخليل بن أحمد ، فقد وضع مقاييس الشعر (٥) حمقاء ، وقيل الوكعاء هي التي تسقط وجعا
(٦) أي امض لنيبتك التي انتويتها ، أو اذهب إلى الناحية التي كنت تقصدها وامض
إلى سبيلك (٧) اللغو : ما لا يعتد به من الكلام ، أو القول الباطل الذي يصدر لا عن
روية وفكر (٨) فعل ما لا يحل

فَإِذَا طَالَتْ الْمُخَاطَبَةُ يَدْنَهُ وَيَبْنَ رُوْبَةٌ ، سَمِعَ الْعَجَّاجُ^(١) ، فَجَاءَ يَسْأَلُ
الْمُحَاجِرَةَ^(٢)

متاع الخلد

وَيَذْكَرُ الشَّيْخُ مَا كَانَ يَلْحَقُ أَخَا النَّدَامِ ، مِنْ فُتُورٍ فِي الْجَسَدِ مِنْ
النَّدَامِ ، فَيَخْتَارُ أَنْ يَعْضُ لَهُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْزَفَ^(٣) لَهُ لُبُّ
فَإِذَا هُوَ يَخَالُ فِي الْعِظَامِ النَّاعِمَةَ دَيْبَ نَمْلِ ، أُسْرَى فِي الْمُقْمِرَةِ عَلَى رَمْلٍ ،
فَيَتَرَنَّمُ بِقَوْلِ إِيَّاسِ بْنِ الْأَرْتِ :

أَعَاذِلَ : لَوْ شَرِبْتَ الخَمْرَ حَتَّى
إِذَا لَعَذَرْتَنِي وَعَلِمْتَ أَنِّي - لِمَا أَتَلَفْتُ مِنْ مَالِي - مُصِيبٌ
وَيَتَّكِي عَلَى مَفْرَشٍ مِنَ السُّنْدُسِ ، وَيَأْمُرُ بِالْحُورِ الْعَيْنِ أَنْ يَحْمِلْنَ ذَلِكَ
الْمَفْرَشَ فَيَضَعْنَهُ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ سُرُرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ زَبْرَجْدٌ أَوْ عَسَجَدٌ
فَيَكُونُ الْبَارِي فِيهِ حَلَقًا مِنَ الذَّهَبِ تُطِيفُ^(٤) بِهِ مِنْ كُلِّ الْأَشْرَاءِ^(٥) ، حَتَّى
يَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعِلْمَانِ ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْجَوَارِي الْمُشْتَبِهَةِ بِالْجَمَانِ^(٦) ،
وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ الْخَلْقِ . فَيَحْمَلُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ إِلَى مَحَلِّهِ الْمُشِيدِ بِدَارِ الْخُلُودِ
فَكُلَّمَا مَرَّ بِشَجَرَةٍ نَضَحَتْهُ^(٧) أَنْغصَانُهَا بِمَا هُوَ الْوَرْدِ قَدْ خُلِطَ بِمَا هُوَ الْكَافُورِ

(١) العجاج (توفي سنة ٥٩٠ هـ)

هو عبد الله بن رُوْبَةٌ . كنيته أبو الشعثاء . وهو أبو رُوْبَةَ الرِّجَازِ المشهور وقد مرت ترجمته
في ص ١٨٩ ، وكلاهما نال درجة رفيعة وشهرة واسعة في الرجز ، وقد ترك كل منهما ديواناً
ليس فيه إلا أراجيز (٢) المسالمة (٣) من غير أن يذهب له عقل (٤) تحيط به
(٥) الأنحاء ، مفردتها شرى (٦) اللؤلؤ (٧) رشتته ، كمنضحته

وَبِيسِكَ مَا جُنِيَ مِنْ دِمَائِهِ الْفُورِ^(١) ، بَلْ هُوَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ الْكَرِيمِ .

*
* *

وَتُنَادِيهِ الثَّعْرَاتُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى الظَّهْرِ : « هَلْ لَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ هَلْ لَكَ ؟ » فَإِذَا أَرَادَ عُتُقُودًا مِنَ الْعِنَبِ أَوْ غَيْرِهِ ، انْقَضَبَ^(٢) مِنَ الشَّجَرَةِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، وَحَمَلَتْهُ الْقُدْرَةُ إِلَى فِيهِ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَلْقَوْنَهُ بِأَصْنَافِ النَّجِيَّةِ . وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ !

﴿ تمت رواية الغفران ﴾

وانتهى الجزء الثاني

(١) الفور : الضباء (جمع فائر) ومن دماؤها يخرج المسك ، قال المتنبي :

فإن تفق الأنام - وأنت منهم - فإن المسك بعض دم الغزال

(٢) انقطع

الجزء الثالث

القسم الثاني من الرسالة

الرد على رسالة ابن القارح

القسم الثاني

الرد على رسالة ابن القارح^(١)

قال أبو العلاء :

« وقد أطلت في هذا الفصل^(٢) ، ونعود الآن إلى الإجابة على الرسالة »

وفاء ابن القارح

فَهَمْتُ قَوْلَهُ : « جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَهُ » لَا يَذْهَبُ بِهِ إِلَى التَّفَاقِ^(٣) — وَبَعْدَ
ابْنِ آدَمَ مِنَ الْوَفَاقِ — وَهَذِهِ غَرِيْزَةٌ خُصَّ بِهَا الشَّيْخُ دُونَ غَيْرِهِ ، وَتَعَايَشَ
الْعَالَمُ بِمُخْدَاجٍ ، وَأَصْحَوْا مِنَ الْكُذِبِ فِي إِبْدَاجٍ^(٤) .

شيرين وكسرى

لَوْ قَالَتْ شِيرِينُ الْمَلِكَةُ لِكِسْرَى : « جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ » لَخَالَبَتْهُ فِي ذَلِكَ
وَنَافَقَتْهُ ، وَإِنْ رَاقَتْهُ وَوَافَقَتْهُ ، عَلَى أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنْ حَالٍ دَنِيَّةٍ ، فَجَعَلَهَا فِي
النُّعْمَى السَّنِيَّةِ ، وَعَتَبَهُ فِي ذَلِكَ الْأَحْبَاءِ ، وَجَرَتْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ قِصَصٌ وَأَنْبَاءٌ ،
وَقِيلَ لَهُ — فِيمَا ذُكِرَ — : « كَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ الْمَلِكِ لِهَذِهِ الْمُؤْمِسِ ؟ »

(١) هي رسالة ابن القارح المنشورة بالجزء الأول من هذا الكتاب (٢) أي القسم الذي وصف فيه الجنة والنار ، وهو الجزء الثاني من هذا الكتاب (٣) يعني أن ابن القارح قال هذا الكلام مخلصاً فيه غير منافق (٤) أي في افتنان ، وقد امتلأ شعر أبي العلاء ونثره بهذا المعنى وأشباهه ، ومن أدق ما قاله في ذلك قوله في لزومياته :
مين يردد ، لم يرضوا بباطله حتى أبانوا - إلى تصديقه - طرقا .

فَضْرَبَ لَهُمُ الْمَثَلَ بِالْقَدْحِ : جَعَلَ فِي الْإِنَاءِ الشَّعْرَ وَالْدَّمَ ، وَقَالَ لِلْحَاضِرِ :
« تُجِيبُ نَفْسُكَ لِشُرْبِ مَا فِيهِ ؟ » فَقَالَ : « إِنَّهَا لَا تَطِيبُ ، وَهِيَ
بِالْأَنْجَاسِ قَطِيبٌ ^(١) » . فَأَرَادَ ذَلِكَ الشَّيْءَ وَغَسَلَهُ ، وَهَدَّبَ وَوَأَدَّهُ ،
وَجَعَلَ فِيهِ - مِنْ بَعْدُ - مُدَامًا ، وَعَرَضَهَا عَلَى النَّدَامَى ، فَكَلَّمَهُمْ بِهِشَ ^(٢)
أَنْ يَشْرَبَ . فَقَالَ : « هَذَا مَثَلُ شِيرِينَ »

غريزة النفاق

كَمْ مِنْ شَيْبَلٍ نَافَقَ أَسَدًا ، وَأَضْمَرَ لَهُ غِيلاً وَحَسَدًا ، وَضَيَّعَ نَقْمَ عَلَى
فُرْهُودٍ ، وَوَدَّ لَوْ دَفَنَهُ بِالْوَهُودِ .

(وَالْفُرْهُودُ وَلَدُ الْأَسَدِ ، وَهُوَ - آتَى اللَّهُ الْإِقْلِيمَ بِقُرْبِهِ - أَجَلٌ
مِنْ أَنْ يُشْرَحَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أُفْرِقُ مِنْ وَقُوعِ هَذِهِ الرَّسَالَةِ فِي يَدِ
غُلَامٍ مُتَرَعِّجٍ ^(٣) ، لَيْسَ إِلَى الْفَهْمِ بِمُتَسَرِّعٍ ، فَتَسْتَعْجِمُ عَلَيْهِ اللَّفْظَةُ ،
فَيَظَلُّ مَعَهَا فِي مِثْلِ الْقَيْدِ) .

وَكَمْ خَالَبَتِ الذَّنَابُ السُّلُقَ ^(٤) ، وَفِي الضَّمَائِرِ تُكْنُ الْفِلَقُ ^(٥) !
يَقُولُ الْقَائِلُ : « بِأَبِي أَنْتَ ، جَادَ عَمَلُكَ وَأَتَقَنْتَ ! » وَلَوْ قَدَرَ لَبَتَّ
الْوَدَجَ ^(٦) ، وَإِنَّمَا جَامِلٌ أَوْ سَدَجٌ ^(٧) !

(١) ممزوجة (٢) ارتاح له وخف إليه (٣) ناشئ (٤) الإناث من الذناب
(جمع سلقة) (٥) الدواهي (٦) عرق الأخدع الذي يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة
(٧) كذب وتقول الأباطيل ، ونحو من هذا المعنى قول أبي العلاء في لزومياته :
إذا جالس الأتوام بالحق ، أصبحوا عداة ، فكل الأصفياء على خب

وَلَعَلَّ بَعْضَ الْعُتَارِفِ^(١) يَلْفِظُ إِلَى الْبَائِضَةِ حَبَّةَ الْبُرِّ ، وَيَأْنَسُ بِهَا ، وَفِي
فُؤَادِهِ مِنَ الضُّغْنِ أَعْجِيبُ !

*
* *

وَكَيفَ يَقُولُ الْخَلِيلُ الْمُخْلِصُ : إِنَّ حَنِينَهُ حَنِينُ وَالِهِ مِنَ الثُّوقِ . وَهِيَ
الذَّاهِلَةُ إِنْ حُمِلَ عَلَيْهَا بَعْضُ الْوَسُوقِ ، وَإِنَّمَا تَسْجَعُ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا ، ثُمَّ يَكُونُ
سُلُوكُهَا مُشْتَبَعًا . فَأَمَّا الْحَمَامَةُ الْهَاتِفَةُ ، فَقَدْ رَزَقَهَا الْبَارِي صَيْتًا شَائِعًا ، فَظَلَّ
وَصَفَهَا بِالْأَسْفِ دَائِمًا ، تَنْهَضُ إِلَى التِّقَاطِ حَبِّ ، وَتَعُودُ إِلَى جَوْزِلِهَا^(٢)
ذَاتَ أَبٍ^(٣) ، فَإِنْ هِيَ صَادَفَتْهُ أَكِيلَ بَارٍ ، فَمَا هِيَ إِلَّا مِثْلُ الْحَيَوَانِ ، تَمَلُّ
حَالَهَا فِي أَقْصَرِ أَوَانٍ^(٤) وَقَدْ زَعَمَ زَاعِمٌ — لَا يُصَدِّقُ — أَنَّ الْحَمَائِمَ فِي هَذَا الْعَصْرِ
يَبْكِينَ مُقْعَدًا هَلَكًا فِي عَهْدِ نُوحٍ ، وَإِنَّ دَوَامَهَا عَلَى ذَلِكَ لَدَلِيلُ الْوَفَاءِ^(٥) ،

وقوله : يلقاك بالماء النير الفتى وفي ضمير النفس نار تقدا !

(١) جمع عتروف أو عتريف ، وهو الخبيث الفاجر الجريء . والبائضة : الدجاجة

(٢) فرخها (٣) كلاً (٤) كرر أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى في لزومياته .

فمن ذلك قوله عن الظبي :

عجبت للظبي ، بانث عنه صاحبة لاقت جنود منايا لا تناخيا

فارتاع يوما ، ويوما ، ثم ثلثة ومال بعد إلى أخرى يواخيا

ما شد صرف زمان عقدة لأذى إلا ومر لياليه يراخيا

(٥) أشار أبو العلاء إلى هذا المعنى في كتابه سقط الزند بقوله :

أبنات الهديل أسعدن أو عد ن قليل العزاء بالإسعاد

إيه لله دركن فأنتن اللواتي تحسن حفظ الوداد

ما نسيتهن هالكاً في الأوان الـ مخالٍ أودى من قبل هلك إياد

وَمَا الْعِوَضُ عَنْ خَلِيلِ الصَّفَاءِ ؟ لَا عِوَضَ وَلَا نَائِبَ إِلَّا فِيهِ ، وَكَيْفَ يُعْتَبَرُ
الزَّمَنُ عَلَى تَجَافِيهِ ، وَإِنَّمَا حُشِيَ بِشَرِّ وَغَدْرِ . وَمَا أَقَلَّ صِدْقَ الْأَلْفِ ، وَلَوْ
يَبْعُوا مِنَ الذَّهَبِ بِآلَافٍ !

المعري يتبرأ من العلم

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ حَالِي ، فَطَالَمَا أُعْطِيَ الْوَثْنُ سُعُودًا^(١) ، وَأُخْلِفَ كَيْمِينَ
أَمْرِي الْقَيْسِ :

« فَقُلْتُ : يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي »
إِنِّي لَمَكْذُوبٌ عَلَيْهِ ، كَمَا كَذَبَتِ الْعَرَبُ عَلَى الْغُولِ . وَكَمَا تَقَوَّلَتِ
الْأَمْثَالُ السَّائِرَةَ عَلَى الضَّبِّ ، وَكَمَا تَكَلَّمَتِ عَلَى لِسَانِ الضَّبِّ وَهِيَ خَرَسَاءُ .
يُظَنُّ أَنِّي مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ^(٢) وَمَا أَنَا لَهُ بِالصَّاحِبِ ، وَتِلْكَ لَعَمْرِي بَلِيَّةٌ ،

(١) الوثن : الصنم ، ومما نختاره من لزومياته ، في هذا المعنى ، قوله :

وبالجد زار اللات أهل ضلالة وعظمت العزى ، وأكرم باجر

وهي أسماء أصنام ثلاثة أولها لتقيف وكان بالطائف ، وثانيها لقريش وكنانة ، وثالثها

لقضاة ومن والاهم

(٢) تبرأ أبو العلاء في مواضع كثيرة من لزومياته ، من مظنة العلم ، ومن أحسن

ما نختاره له في هذا المعنى قوله :

أقررت بالجهل ، وادعى فهمي قوم ، فأمرى وأمرهم هجب

والحق ، أنى وأنهم هدر لست نجيباً ، ولا هم نجب

وقوله :

الله يشهد أنى جاهل ورع فليحضر الناس إقرارى وإشهادى

« ورع : جبان »

وَالْعُلُومُ تَفْتَقِرُ إِلَى مِرَاسٍ^(١) ! وَيُقَالُ : إِنِّي مِنْ أَهْلِ الدِّينِ ، وَلَوْ ظَهَرَ مَا وَرَاءَ
السِّدِّينِ ، مَا اقْتَنَعَ لِي الْوَاصِفُ بِسَبِّ .
وَكَيْفَ يُدْعَى لِلْعَلِيجِ الْوَحْشِيِّ ، أَنَّ تَغْرِيدَهُ فِي السَّحَرِ أَشْعَارٌ مَوْزُونَةٌ ؟
وَهَلْ يُصَوِّرُ لِعَاقِلٍ أَنَّ الْغُرَابَ النَّاعِبَ صَدَحَ بِتَشْبِيهِ ؟ فَبَعْدَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ
الْحَجَرَ مُتَكَلِّمٌ ، وَأَنَّهُ عِنْدَ الضَّرْبِ مُتَأَلِّمٌ !
وَلَوْ أَنِّي لَا أَشْعُرُ بِمَا يُقَالُ فِيَّ ، لَأَرَحْتُ مِنْ إِنْكَارِي وَتَلَا فِيَّ ، وَكُنْتُ
كَالْوَشْنِ سِوَاهُ عَلَيْهِ أَنْ وَقَّرَ^(٢) وَأَنْ أَوْقِرَ^(٣) ، وَكَالْأَرْضِ السَّبْخَةِ مَا تَحْفَلُ
أَنْ قِيلَ : « هِيَ مَرِيعةٌ » ، أَوْ قِيلَ : « بِنَسْتِ الزَّرِيعةِ^(٤) » .

(١) ممارسة وشدة (٢) من الوقار (٣) صدع (٤) من أحسن ما نختاره لأبي العلاء
في هذا المعنى قوله :

ما يحس التراب ثقلاً - إذا ديس - ولا الماء يتعب الجريان
وقوله :

أما الجباد ، فاني بت أغبطه
لا يشعر العود بالنار التي أخذت
وقوله :

عز الذي أعنى الجباد فما ترى
متعرياً في صيفه وشتائه
لا حس يؤلمه ، فيظهر مجزعاً
حجراً يفص بما كل أو يشرق
ما ربيع قط للملبس يتخرق
إن راح يضرب ملطس أو مطرق
إلى أن يقول :

والصخر يلبث لا يقارف مرة
ولعل هذه الميزة التي ذكرها للجباد في هذا البيت الأخير ، هي التي جعلته يقول :
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

وَكَيفَ اغْتَبَطُ إِذَا تُخْرِصَ عَلَيَّ ، وَعُزِّيتِ الْمَعْرِفَةُ إِلَيَّ ، وَلَسْتُ آمِنًا
فِي الْعَاقِبَةِ فَضِيحَةً ، وَمَثَلِي - إِنْ جَدَلْتُ بِذَلِكَ - مَثَلُ مَنْ اتَّهَمَ بِمَالٍ ، فَسَرَّهُ
قَوْلُ الْجَهْلَةِ إِنَّهُ لَخَلْفُ الْيَسَارِ ، فَطَلَبَ مِنْهُ بَعْضُ السَّلَاطِينِ أَنْ يَحْمِلَ إِلَيْهِ جُمْلَةً
وَإِفْرَةً ، فَصَادَفَ كُذُوبَةَ زَافِرَةَ^(١) ، وَضَرَبَهُ كَيْ يُقِرَّ ، وَقُتِلَ فِي الْعُقُوبَةِ
وَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ أَنِّي أَجْدَلُ بِمَنْ عَابَنِي ، لِأَنَّهُ صَدَقَ فِيمَا رَأَيْتَنِي ، وَأَهْتَمُّ لِشَنَائِهِ
مَكْذُوبٍ^(٢) ، فَغَفَرَ اللَّهُ لِمَنْ ظَنَّ حَسَنًا بِالمُسيءِ . وَلَوْ لَا كَرَاهَتِي حُضُورًا بَيْنَ
النَّاسِ ، وَإِثَارِي أَنْ أَمُوتَ مَيِّتَةً عَلَيْهِ^(٣) فِي كِنَاسٍ^(٤) ، فَاجْتَمَعَ مَعِيَ أَوْلِيَاكَ

(١) كبيرة (٢) يهتم له : يحزن ، ومما نختاره لأبي العلاء في هذا المعنى قوله في لزومياته :
وأزهد في مدح الفتى عند صدقه فكيف قبولى كاذبات المدائح ؟
وقوله :

إذا كان التقارض من محال فأحسن من مدائحننا التهاجي
(٣) العلهب : الظبي (٤) الكناس : بيت الظبي في الشجر يستتر فيه
العزلة

وإيثار أبي العلاء العزلة معروف بل هو من أزم صفاته ، وحسبك دليلاً على ذلك ،
ما لقب به نفسه من أنه « رهن المحبين » والإفاضة في الاستشهاد بما قاله في الترغيب في
العزلة والحث عليها ، إطالة لا فائدة منها ، فلنكتف من ذلك بنخبة قليلة من شعره في بيان
فضلها عنده ، كقوله :

بعدي عن الناس خير من لقاءهم وقربهم للحجى والدين أدواء
كالبيت أفرد ، لا إبطاء يدخله ولا سناد ، ولا في اللفظ إقواء

وقوله متضجراً من التكاليف الثقيلة التي يحتمها عليه الاختلاط بالناس :

لقاء الناس أجانى برغى إلى حسن التجمل والنفاق

الْجَائِلُونَ ، لَصَحَّ أَنَّهُمْ عَنِ الرَّشْدِ حَائِلُونَ .

ونحب ألا يفوت القارئ جمال هذا البيت الرائع وهو قوله :
متى ما يأتني أجلى بأرضي فحي على الجنائز للغريب
وقوله معللاً ميله الى العزلة وأخذه بها :
ولى مذهب - فى هجرى الأنس - نافع
أرانا على الساعات فرسان غارة
ومما يزيد العيش إخلاق ملبس
وقوله :
اجتنب الناس ، وعش واحداً
وقوله :
لا تظلم الناس ولا تظلم
تمنيت أنى بين روض ومنهل
وقوله :
مع الوحش ، لا مصراً أحل ولا كفراً
وقوله :
يُقل الأذى والعيب فى ساحة الفتى
وقوله :
- وإن هو أكدى - قلة الجلساء
بوحداينة العالم دينا
وقوله يؤثر العزلة - حتى بعد الموت - :
فدعنى أقطع الأيام وحدى !
إذا حان يومى فلاؤسد بموضع
هم الناس - إن جازاهم الله بالذى
يرى عنتاً فى قرب حى وميت
فيا ليتنى لا أشهد الحشر فيهم
إذا تم فيما تؤنس العين مضجعى
وقوله :
من الأرض لم يحفر به أحد قبراً
توخوه - لم يرحم جهولاً ، ولا حبراً
من الإنس من جلى سرائرهم خبراً
إذا بعثوا شعناً رهوسهم غبراً
فزدى - هداك الله - من سعة شبراً

وددت وفاتى فى مهمه به لامع ليس بالمعلم
(٢٦)

وَأَمَّا وَرُودُهُ «حَلَبَ» - حَرَسَهَا اللَّهُ - فَلَوْ كَانَتْ تَعْقِلُ ، لَفَرَحَتْ بِهِ
فَرَحَ الشَّمْطَاءِ ، شَحَطَ سَلِيلُهَا الْوَاحِدُ - وَمَا هُوَ لِحَقِّهَا جَاحِدٌ - وَقَدِيمَ بَعْدَ
أَعْوَامٍ ، فَبَقَعَتْ بِهِ فَرَطٌ أَوْامٍ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَادَ الْبَارِقَ إِلَى النِّعَامِ الْوَسْمِيِّ .

الانتحار

وَإِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ تَمَالِي جَمَاعَةٍ ، عَلَى أَمْرِ لَيْسَ بِالْحَسَنِ وَلَا الطَّاعَةِ . قَدْ
كَدَتْ أَلْحَقَ بِرَهْطِ الْعَدَمِ ، مِنْ غَيْرِ الْأَسْفِ وَلَا النَّدَمِ ، وَلَكِنَّمَا أَرْهَبُ
قُدُومِي عَلَى الْجِبَارِ ، وَلَمْ أَصْلِحْ نَخْلِي بِبَابِ ، وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ : « إِنْ
فُلَانًا تَلَطَّفَ حَتَّى قَتَلَ نَفْسَهُ ، وَكَرِهَ أَنْ يُمَارَسَ بَدَائِعَ الشُّرُورِ ، وَأَحَبَّ النُّقْلَةَ
إِلَى مَنَازِلِ الشُّرُورِ » فَقَالَ الْحَكِيمُ قَوْلًا مَعْنَاهُ : « أَخْطَأَ ذَلِكَ الشَّابُّ الْمُقْتَبِلُ ،
هَلَا صَبَرَ عَلَى صُرُوفِ الزَّمَانِ ، فَإِنَّهُ لَا يَشْعُرُ عِلَامَ يَقْدَمُ »

وَلَوْ لَا حِكْمَةُ اللَّهِ - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ - وَأَنَّهُ حَجَزَ الرَّجُلَ عَنِ الْمَوْتِ ،
بِالْخَوْفِ مِنَ الْعَلَزِ (١) وَالْفَوْتِ (٢) لَرَغِبَ كُلُّ مَنْ احْتَدَمَ غَضَبُهُ ، وَكَلَّ عَنْ
ضَرِيْبَةٍ مِقْضِيْبِهِ ، أَنْ تُتْرَعَ (٣) لَهُ مِنَ الْمَوْتِ كُوُوسٌ (٤)

١) أموت به واحدا مفردا وأدفن في الأرض لم تظلم (١)
وأبعد عن قائل : « لا سلمت » وآخر قال : « ألا يا اسلم ! »
أحاذر أن تجعلوا مضجعي إلى كافر - خان - أو مسلم
إذا قال : « ضايقتني في المحل » قلت : « أساؤا ولم أعلم »
(١) الاضطراب والهلع (٢) الضياع (٣) تملأ (٤) أبداع أبو العلاء في
صوغ هذا المعنى في قوله :

أبو القطران الأسدي

وَأَمَّا أَبُو الْقَطِرَانِ الْأَسَدِيُّ - وَأَيُّ الْبَشَرِ مِنَ الْخُطُوبِ مَفْدِيٌّ -
فَصَاحِبُ غَزَلٍ وَتَبَطُّلٍ ، وَتَوَفَّرَ عَلَى الْخُرْدِ وَتَعَطَّلَ ^(١) ، وَهُوَ ذَلِكَ الْمُسْتَهِيمُ إِلَى
« وَخَشِيَّةٍ » ، وَإِنَّمَا وَدَّ الْغَايَةَ خِلَابٌ وَخِدَاعٌ ، وَلِلْكَمْدِ فِي هَوَاهُ ابْتِدَاعٌ ، وَلَوْ
هَلَكَتِ تِلْكَ الْمَرْأَةُ وَالْمَرَارُ ^(٢) يَمِيشُ - لَعَدَّ أَنَّهُ بِتَلْفِهَا نَعِيشٌ ، لَا سِيَّمَا
بَعْدَ السَّنِّ الْعَالِيَةِ ، وَقُوَّةِ النَّفْسِ الْآلِيَةِ ^(٣)

وَلَعَلَّ « أَبَا الْقَطِرَانِ » لَوْ مُتَّعَ بِهَذِهِ الْمَذْكُورَةِ مَا يَكُونُ قَدْرُهُ مِائَةَ
حِقْبَةٍ ^(٤) ، عَلَى غَيْرِ الْجَزَعِ وَالرَّقَبَةِ ، بَلَّازٌ أَنْ يَغْرَضَ مِنَ الْوِصَالِ - إِذَا عَلِمَ أَنَّ
حَبْلَهُ فِي التَّصَالِ ؛ وَلَوْ نَزَلَ بِهَا شَيْءٌ تَتَغَيَّرُ بِهِ عَنِ الْعَهْدِ ، لَتَمَنَّى أَنْ تُقْدَفَ إِلَى
غَيْرِ الْمَهْدِ ^(٥) ، لِأَنَّ ابْنَ آدَمَ بِنَحِيلٍ مَلُولٌ ، وَلَوْ أَصَابَهَا الْعَوْرُ ، بَعْدَ أَنْ سَكَنَ
عَيْنَهَا الْحَوْرُ ، لَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ نَبَأٌ لَا يُفْرَمُ وَلَا يُكْفَرُ !

وَمِنْ أَيْنَ لِدَيْكَ الشَّخْصِ الْأَسَدِيِّ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ لِلشَّيْخِ مِنْ وِفَاءٍ ، وَإِنَّمَا
عَاشَرَ « أَبَا الْقَطِرَانِ » أَعْبُدًا فِي الْإِبِلِ وَآمِيًا ، وَلَعَلَّهُ لَوْ صَادَفَ غَايَةَ تَزِيدُ
عَلَى « وَخَشِيَّةٍ » بِشِقِّ الْأَبْلَمَةِ ^(٦) ، لَسَلَّهَا غَيْرَ الْمُؤَلِّمَةِ ^(٧) ، وَإِنَّمَا دَيْدَنُ ذَلِكَ

لَوْلَمْ تَكُنْ طَرَقَ هَذَا الْمَوْتُ مَوْحِشَةً مَخْشِيَةً ، لَاعْتَرَاهَا الْقَوْمُ أَفْوَاجًا
وَكَانَ مِنْ أَلْقَتِ الدُّنْيَا إِلَيْهِ أَدَى يَوْمَهَا تَارِكًا لِلْعَيْشِ أَمْوَاجًا

(١) التبطل والتعطل بمعنى واحد وهو البقاء بغير عمل ، وقد قيل : « شر الفتيان المتبطل

المتعطل » (٢) هو أبو القطران ، والتعيس : المحمول على النعش (٣) غير المستطبعة

(٤) سنة (٥) إلى غير الراحة ، أي لتني أن تضيق بها الحال (٦) الأبلعة بقلة ،

وشق الأبلعة أي نصفها (٧) من غير أن تؤله

الرَّجُلَ وَنُظْرَائِهِ صِفَةً نَاقَةً أَوْ رُبْعًا ، وَمَا شَجَرُهُ الْمُغْتَرَسُ بِالنَّبْعِ ^(١) ، إِذَا جَنَى
الْكَمَاءَ بَجَحَ ، وَخَالَ أَنَّهُ قَدْ نَجَحَ ! وَلَوْ حَضَرَ أَخُونَهُ حَضَرَهَا « الشَّيْخُ » لَعَادَ
كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

فَلَوْ كُنْتَ عُدْرِيَّ الْعَلَاقَةَ ، لَمْ تَبْتَ بِطِينًا ، وَأَنْسَاكَ الْهُوَى كَثْرَةَ الْأَشْكِ !
وَهُوَ - قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مَا أَحَبَّ - قَدْ جَالَسَ مُلُوكَ مِصْرَ الَّتِي قَالَ فِيهَا
فِرْعَوْنُ : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ، أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ؟ » وَقَدْ أَقَامَ بِالْعِرَاقِ زَمَانًا طَوِيلًا ، وَبِالْعِرَاقِ مَمْلَكَةٌ فَارِسَ ، وَهُمْ
أَهْلُ الشَّرْفِ وَالظَّرْفِ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ جَالَسَ بَقَايَاهُمْ ، وَاخْتَبَرَ فِي الْمُعَاشَرَةِ
سَجَايَاهُمْ ، وَعَاطَوْهُ الْأَكْوِيسَ الْآتِ التَّصَاوِيرِ ، عَلَى عَادِ ^(٢) الْمَرَازِبَةِ وَالْأَسَاوِيرِ ،
كَمَا قَالَ الْحَكَمِيُّ ^(٣) :

تَدُورُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ حَبَبَهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى ، وَفِي جَنَابَتِهَا مَهَى تَدْرِيبَهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسِ ^(٤)

-
- (١) النبع شجر تعمل منه القسي ؛ وفي ذلك يقول أبو العلاء في سقط الزند :
وقال « الوليد » : النبع ليس بمثمر وأخطأ ، سرب الوحش من ثمر النبع !
يعنى بالوليد البحتري ، ويرد على قوله :
وعيرتني خلال العدم آونة والنبع عريان ، ما في عوده ثمر !
- (٢) عادات (٣) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته في الجزء الثاني (ص ١٠)
(٤) هذان البيتان من قصيدة أبي نواس السينية الرائعة المشهورة وهي :
- ودار ندامي عطلوها وأدجلوا ، بها أثر منهم - جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويا بس
حبست بها صهي ، فجددت عهدهم وإني - على أمثال تلك - لحابس

التفصيل

وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ - أَمْتَعَ اللَّهُ الْآدَابَ بِبِقَائِهِ - لَوْ رُزِقَ مُحَاوَرَةَ أَبِي الْأَسْوَدِ
- عَلَى عَرَجِهِ وَبُخْلِهِ - لَكَانَتْ مِقْتُهُ لَهُ أَبْلَغَ مِنْ مِقَّةِ مَهْدِيٍّ لَيْلَاهُ . وَلَوْ كَانَ
أَبُو عُبَيْدَةَ أَذْفَرَ الْفَمِ ، لَمَا أَمِنْتُ مَعَ كَلْفِهِ ^(١) بِالْأَخْبَارِ ، أَنْ يُقْبَلَهُ شَقُّ
الْبَلَسَةِ ^(٢) ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَائِشَةَ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهَا : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُقْبَلُنِي شَقُّ التَّيْنَةِ » وَرَوَى بَعْضُهُمْ : « شَقُّ التَّمْرَةِ »
وَذَلِكَ أَنْ يَأْخُذَ الشَّفَةَ الْعُلْيَا بِيَدِهِ ، وَالسُّفْلَى بِيَدِهِ الْأُخْرَى ، وَيُقْبَلُ
مَا بَيْنَ الشَّفَتَيْنِ !

فصل الموت

وَأَمَّا مَنْ فَقَدَهُ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ لَمَّا دَخَلَ حَلَبَ - حَرَسَهَا اللَّهُ - فَتِلْكَ عَادَةٌ
الزَّمَنِ ، يُبَدِّلُ مِنَ الْأَيَّامِ الْمَسْكُونَةِ قُبُورًا ، وَإِنْ رَمَسَ الْهَالِكِ لَبِيتُ الْحَقُّ ،
عَلَى أَنَّهُ يُعْنَى الثَّأْوِيَّ بِهِ بَعْدَ عَدَمِهِ ، وَيَكْفِيهِ الْمُؤْتُونَةُ ^(٣) . قَالَ الضَّبِّيُّ :

ولم أدر منهم غير ما شهدت به بشرقي «ساباط» الديار البسابس
أقننا بها يوما ، ويومين بعده ، ويوما - له يوم الترحل خامس
تدور علينا الكأس في عسجدية حبثها - بأنواع التصاوير - فارس
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها مهى تدرّجها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

(١) شدة حبه (٢) التينة (٣) يحسن أن نلمع هنا إلى رأى أبي العلاء في

الموت ، فنقول :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ قَصْرِي حُفْرَةٌ مَا بَعْدَهَا خَوْفٌ عَلَيَّ وَلَا نَدَمٌ

هذه هي أكبر ميزة للموت ، عند أبي العلاء ، وهي التي حبيته فيه ، وربما كان أول ما يسترعى انتباهك في شعره ، تشاؤمه ، ونظرته إلى العالم بمنظار شديد السواد ، ثم سخطه على الدنيا ، وتبرمه بالحياة التي دفعته إليها المقادير برغمه ، فلاقى فيها من صنوف الأذى والعذاب ، ما كان يكفي بعضه ، لتبغيضه فيها ، ونقمتها عليها ، حتى أصبح لا يرى فيها إلا سلسلة آلام طويلة متصلة الحلقات ، لا تبدأ ، بولادة الطفل ، كما زعم ابن الرومي في قوله: (١)

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها ، وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد
بل منذ كان جنينا في بطن أمه :

وما برح الانساق في البؤس - مذ جرت . به الروح - لا مذ زال عن رأسه الغرس (٢)
ثم لا تنتهي تلك الآلام إلا بموته - وفي هذه الخاتمة شك كبير عند أبي العلاء كما سنبينه ، فلا غرو إذا خص الدنيا ، بأوفر قسط من الدم ، وافتن في تقبيحها ، حتى لقبها بأم دفر - أي أم تنن - في أكثر نداءه إياها - وقد جمعه مزاجه السوداوى يرى الحياة مأساة مفرجة كل موضع فيها صالح للحسرة والبكاء ، وليس فيها موضع واحد ، يصلح للسرور وله في ذلك أشعار كثيرة ، نجتزئ منها بقوله :

أعن باكيا لـج في حزنه وسل ضاحك القوم : « مم ابتهج ؟ »
وقوله :

يسمى « سرورا » جاهل متخرص بفيه البرى - هل في الزمان سرور ؟

*
* *

(١) ارجع إلى ص «٣٩٣» ج «٣» من ديوان ابن الرومي
(٢) الغرس : الجلدة الرقيقة التي تخرج على رأس الولد أو الفصيل ساعة يخرج من بطن أمه ،
فان تركت قتلتها

فَأَزُورُ نَيْتَ الْحَقِّ زَوْزَةَ مَا كَثِ
فَعَلَامَ أَحْفَلُ مَا تَقَوَّضَ وَانْهَدَمَ

وقد أكثر أبو العلاء من التفكير في مسألة الموت ، فلا تكاد تخلو من ذكره صفحة من لزومياته ، حتى أصبح من أوليات المسائل التي يدور عليها محور فلسفته ، ولا نعرف له شيئا في هذه الخلة ، سوى أبي العتاهية الذي نعهده - على إكثاره - مقصراً عن شأو أبي العلاء تقصييراً بيناً ، والفرق بين الرجلين في نظرنا هو فرق ما بين الفيلسوف الصادق الزهد ، والواعظ الذي اتخذ الوعظ ديدنا له .

*
* *

ويمكن الإلمام بآراء أبي العلاء في الموت - رغم تناقضها - مع الإشارة إلى سبب ذلك فيما يلي :

(١) تارة كان يصل جزعه من الموت إلى أقصاه ، ويرتاع منه ، فتنبعث من نفسه صيحة مفزعة يكاد ينخلع لها قلبه ، فيقول :

يهال التراب على من نوى فآه من النبا الهائل !
ثم يصرخ من أعماق نفسه ، وقد تولاه الدهول :

أبأنا اللب ببقيا الردى فالغوث من صحة ذاك النبا
أو يقول :

فويهاً وواهاً لسيل المنو ن كم جر عيرا بأحمالها
أو تنبه فكرة طارئة ، تتنابه فجأة ، فيهب مذعوراً خائفاً فيقول :
يكر الحول بعد الحول عنى وتلك مصارع الأقسام حولى
كأنى باللى حفروا لجارى وقد أخذوا المعاول وانتحوالى

وفي البيت الثانى صورة مفزعة تمثل ما ألم به من الهلع والرعب !

(٢) وحيناً يذكر الموت فيتمناه ، ولكنه يخشى ألا تكون فيه الراحة والطمأنينة اللتان

أخطأهما في الحياة ، فيتردد في تمنيه ويقول :

إن كان تقلى عن الدنيا يكون إلى خير ، وأرحب ، فانتقلنى على عجل
وإن علمت مالى عند آخرتى شرأوأضيق ، فانسأ - رب - فى الأجل

وَمَا زَالَتْ الْعَرَبُ تُسَمِّي الْقَبْرَ يَتًا ، وَإِنْ كَانَ الْمُسْتَقِلُّ إِلَيْهِ مَيْتًا ۱

وتزداد به الحيرة والارتباك فيقول :

فإن خرجت إلى بؤس فواحر بي وإن نقلت إلى نصي ، فطوبى لي
وربما خشى أن يسلبه حسه الذي يعتز به ، ويتضاءل بالقياس إليه كل اعتبار آخر ، حتى
إنه حرم على نفسه الخمر ضنا أن تذهب به سورتها — كما سنيينه في حينه — فيقول :
ولو كان يبقى الحس في فم ميت لآليت أن الموت في الفم أعذب

وفي هذه الحالة ترى حينه إلى الموت مقروناً بشيء من الجزع والرهبة منه ! على أنها
نوبات فجائية ، تعرض له ، فتنطقه بما استشهدنا به من كلامه .

فأما يقينه الذي لا يفتأ يردده ، ويتغنى به في أكثر أحوالته ، فهو النزوع إلى تفضيل
الموت ، لأنه يرى فيه المنقذ الوحيد من آلام الحياة وأوصابها .

وإليك نخبة مختارة من كلامه تزيدك اقتناعاً بإيمانه الثابت ، وبما ذكره في رسالته هنا
عن الرمس ، من أنه « يعني الثاوي به بعد عدم ، ويكفيه المؤونة » :

ما أعدل الموت من آت وأستره فهيجيني ، فاني غير مهتاج
العيش أفقر منا كل ذات غنى والموت أغنى — بحق — كل محتاج
إذا حياة علينا للأذى فتحت بابا من الشر ، لاقاه يارتاج

يعني الفتى بالمنايا عن مآربه وتنفخ الروح في طفل فيفتقر

كأس المنية أولى بي ، وأروح لي من أن أكابد إثراء وإحواجا

لكون خلك في رسم أعز له من أن يكون مليكا عاقد التاج
الملك يحتاج آلافا تناصره والميت ليس إلى خلق بمحتاج

أصبح في لحدى على وحدتى لست إلى الدنيا بمحتاج

كشفي رأسى وافتقارى بها خير من التملك والتاج

إن يرحل الناس ولم أرحل فمن قضاء لم يفوض إلى

قال الرَّاجِزُ :

متى ألق من بعد المنية أسرقى أخبرهم أنى خلصت من الأسر
ومن الين للفتى أن يجيء السوت يسعى إليه سعياً سريماً
لم يمارس من السقام طويلاً ومضى لم يكابد التبريحاً
رقدة الموت ضجعة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد
تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد
تدعو بطول العمر أفواهنا لمن تنهى القلب في وده
يسر أن مد بقاء له وكل ما يكره في مده
دعا لى بالحياة ، أخو وداد رويدك إنما تدعو علياً
وما كان البقاء لى اختياراً لو ان الأمر مردود إلياً
آليت لا ينفك جسبى فى أذى حتى يعود إلى قديم العنصر
عل البلى سيفيد المرء فائدة فالمسك يزداد من طيب إذا سحقاً
طال وقوفى وراء جسر وإنما ينظر العبور
عشنا - وجسر الموت قدامنا - فشر الآن لكى نعبه
أقت برغى ، وما طارى براض إذا أفته الوكون
لعل الموت خير للبرايا وإن خافوا الردى وتهيبوه
تعود إلى الأرض أجسامنا وتلحق بالعنصر الطاهر
ويقضى بنا فرضه ناسك يمر اليدى على الظاهر
لعل موتا يريح الجسم من نصب إن العناء بهذا العيش مقترن
متى غدوت بطن الأرض مضطجماً فتم أفقد أوصابى وأمراضى
(١٧)

اليَوْمَ يُدْنِي لِدُوْدِي يَتُّهُ يَا رَبِّ يَتِّ حَسَنٍ بَنِيَّتُهُ

فمالي أخاف طريق الردي وذلك خير طريق سلك
يرحك من عيشة مرة ومال أضيع ، ومال ملك
هنيئاً لطفل أزمع السير عنهم فودع من قبل التعارف ظاعنا
ومسكن الروح في الجثمان أسقمه وبينها عنه من سقم يعافيه
وما يحس إذا ما عاد متصلا بالترب تسفيه في الهابي سوافيه
وحبذا الأرض قفراً لا يحمل بها ضد تعاديه أو خل تصافيه
« الهابي : تراب القبر »

روح إذا اتصلت بجسم لم يزل - هو وهي - في مرض العناء المكمد
إن كنت من ريح ، فيا ريح اسكني أو كنت من نار ، فيا نار اخدي
بطن البسيطة أعفى من ظواهرها فوسعا لي ، أهرب من سعالها
أعفى المنازل قبر يستراح به وأفضل اللبس - فيا أعلم - الكفن
والموت ينسى كمي الحرب صارمه ودرعه ، وفتاة الحى مجولها
كم من مصائب في الأيام فادحة - لولا الحمام - لعدت كلها هدرا
ثمضى ونترك البلاد عريضة والصبح أزهر ، والنجوم زواهرا
وكيف أفضى ساعة بمسرة وأعلم أن الموت من غرمانى
وانظر الى قوله في صباه من مرثية أبيه :
وخوف الردي آوى إلى الكهف أهله
وما استعذبتة روح موسى وآدم
ثم انظر إلى قوله فيها :

هنيئاً لك البيت الجديد موسداً يمينك فيه بالسعادة واليمن
مجاور سكن في ديار بعيدة من الحى ، سقيا للديار وللسكن

وَمِعْصِمٍ ذِي بُرَّةٍ^(١) لَوَيْتُهُ لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بَيْلَىٰ أٰبِلَيْتُهُ
أَوْ كَانَ قِرْنِي وَاحِدًا كَفَيْتُهُ

مادح أبي العلاء

وَأَمَّا الْفَصْلُ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ الْخَلِيلَ ، فَقَدْ سَقَطَ^(٢) مِنْهُ اسْمُ الَّذِي غَلَا فِي^(٣)
وَقَرَنَ بِالنُّجُومِ الصَّلَافِي^(٤) . وَمَنْ كَانَ ، فَغَفَرَ اللَّهُ جَرَائِمَهُ ، وَحَفِظَ لَهُ
فِي الْأَبَدِ كَرَامَتَهُ ، فَقَدْ أَخْطَأَ عَلَىٰ نَفْسِهِ - فِيمَا زَعَمَ - وَعَلَىٰ ، وَنَسَبَ
- مَا لَا اسْتَوْجِبُ - إِلَيَّ . وَكَمْ أَعْتَذِرُ وَأَتَنَصَّلُ ، مِنْ ذَنْبٍ لَيْسَ يَتَحَصَّلُ !
وَإِنِّي لَا أَكْرَهُ - بِشِهَادَةِ اللَّهِ - تِلْكَ الدَّعْوَى الْمُبْطِلَةَ ، كَرَاهَةَ الْمَسِيحِ
مَنْ جَعَلَهُ رَبًّا الْعِزَّةِ ، فَمَا تَرَكَ لِلْفِتَنِ مِنْ مَهْرَةٍ^(٥) . بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى :
« وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ بَنَ مَرْيَمَ : أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَآئِي الْهَيْئِينَ

وانظر إلى قوله ، وهو يمثل ناحية أخرى من رأيه في الموت :

يا مرحبا بالموت من مُتَنظَّرٍ إن كان ثم تعارف وتلاق !

ونختم هذا المختار بتلك المشجرة الجميلة بينه وبين الدنيا ، وقد أحسن تمثيلها في

البيتين التاليين :

أف لدينای ، فإني بها لم أخل من إثم ومن حوب

قلت لها : « امضي غير مصحوبة » فقالت : « اذهب غير مصحوب »

(١) البرة : الخللخال (٢) ذكر ابن القارح في رسالته أن شيخاً مدح أبا العلاء ،

ولكنه سها عن ذكر اسمه في رسالته (٣) غلا في مدحي (٤) التمدح بما ليس عنده

(٥) حركة

مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ ! مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ،
إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي ، وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ،
إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١) »

رسالة أبي الفرج الزهرجى (٢)

وَأَمَّا أَبُو الْفَرَجِ الزَّهْرَجِيُّ ، فَمَعْرَفَتُهُ بِالشَّيْخِ تُقَسِّمُ أَنَّهُ لِلْأَدَبِ حَلِيفٌ ،
وَاللِّطَبِيعِ الْخَيْرِ أَلِيفٌ ، وَدِدْتُ أَنْ الرِّسَالَةَ وَصَلْتُ إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ مَا عَدَلَ

(١) أشار أبو العلاء إلى ذلك في موضعين من لزومياته ، أولها قوله :

وقد شهد النصارى أن عيسى توخته اليهود ليصلبوه
وما أبهوا ، وقد جعلوه ربا لثلا ينقصوه ويجذبوه

والثاني قوله :

عجبا للمسيح بين أناس وإلى الله والد نسبه
أسلمته إلى اليهود النصارى وأقروا بأنهم صلبوه
يشفق الحازم اللبيب على الطفل - إذا ما لداته ضربوه
وإذا كان ما يقولون في عيسى صحيحا ، فأين كان أبوه ؟
كيف خلى وليده للأعدى ؟ أم يظنون أنهم غلبوه ؟

(٢) هو كاتب نصر الدولة ، وقد كتب رسالة إلى أبي العلاء ، وسأل ابن القارح إيصالها

إليه ، فوضعها في رحل له ، فسرقه جاره المسافر معه ، فكتب ابن القارح رسالته المنشورة
بالجزء الأول يعتذر إلى أبي العلاء من ضياع الرسالة ، ويشكو إليه أموره وما لقي في سفره ،
وتطرق من ذلك إلى مناسبات أخرى ، فرد عليه المعري برسالة الغفران - جزى الله السارق
عنا خيرا !

ذَلِكَ الْعَدِيلُ^(١) ! هَلَّا اقْتَنَعَ بِنَفْقَةٍ أَوْ ثَوْبٍ ، وَتَرَكَ الصُّحُفَ عَنْ نَوْبٍ^(٢)
فَآرِبَ مِنْ يَدَيْهِ ، وَلَا اهْتَدَى فِي اللَّيْلَةِ بِفِرْقَدَيْهِ^(٣)
لَوْ أَنَّهُ أَحَدُ لُصُوصِ الْعَرَبِ الَّذِينَ رُوِيَتْ عَنْهُمْ الْأَمْثَالُ السَّائِرَةُ ، وَتَحَدَّثَتْ
بِهِمُ الْمُنْجِدَةُ وَالْغَابِرَةُ ، لَمَا اغْتَفَرْتُ مَا صَنَعَ بِمَا نَظَمَ ، لِأَنَّهُ أَفْرَطَ وَأَعْظَمَ^(٤) ،
وَقَدْ وَفَّقَ « أَبُو الْفَرَجِ » وَوَلَدَهُ ، لَمَا دَرَسَ عَلَيْهِ الْكُتُبَ وَحَفِظَ عَنْهُ

أمثال العرب

وَأَمَّا حَلَبُ — حَمَاهَا اللَّهُ — فَإِنَّهَا الْأُمُّ الْبَرَّةُ ، تُعْقَدُ بِهَا الْمَسْرَةُ ، وَمَا أَحْسَبُهَا
— إِنْ شَاءَ اللَّهُ — تُظَاهِرُ بِذَمِيمِ الْمُعْتُوقِ ، وَلَا تُفْعِلُ الْمُفْتَرَضَ مِنَ الْحُقُوقِ .
وَ « وَحْشِيَّةٌ^(٥) » يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ جَعَلَهَا نَائِبَةً عَمَّنْ فَقَدَهُ مِنَ الْإِخْوَانِ ،
الَّذِينَ عُدِمَ نَظِيرُهُمْ فِي الْأَوَانِ . وَكَذَلِكَ تَجْرِي أَمْثَالُ الْعَرَبِ ، يَكُونُونَ فِيهَا
بِالِاسْمِ عَنْ جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ :
فَلَا تَشَلَلْ يَدُ فَتَكْتِ بِعَمْرٍو فَإِنَّكَ لَنْ تُذَكَّ وَلَنْ تُضَامَا
يَجُوزُ أَنْ يَرَى الرَّجُلُ رَجُلًا قَدْ فَتَكَ بِمَنْ اسْمُهُ « حَسَّانٌ » أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ
فَيَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ . فَيَكُونُ « عَمْرٍو » فِيهِ وَقِعًا عَلَى جَمِيعِ مَنْ يَتَمَثَّلُ لَهُ بِهِ ،
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الرَّاجِزِ : « أوردَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلٌ^(٦) »

(١) هو الذي جاور ابن القارح في الحمل ، وسرق منه الرحل الذي كانت فيه الرسالة
(٢) يعني : هلا ترك الصحف مكتفياً بما سرقه من المتاع (٣) يدعو على اللص بأن
تسقط آراجه من يديه ، وأن يضل فلا يهتدى بنور الفرقدين « وهما النجمان المعروفان »
(٤) أتى عظيمة (٥) هي التي تمثل بها ابن القارح في الآيات التي ذكرها في رسالته وأولها :
إذا تركت « وحشية » النجد ؛ لم يكن لعينيك — مما تبكيان — طيب
(٦) بعده : « ما هكذا يا سعد تورد الابل ! »

صَارَ ذَلِكَ مَثَلًا لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَمْ يُحْكِمْهُ ، فَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ
اسْمُهُ « خَالِدٌ » أَوْ « بَكْرٌ » أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ ، وَيَضَعُونَ فِي هَذَا الْبَابِ
الْمُؤَنَّثَ مَوْضِعَ الْمَذْكَرِ ، وَالْمَذْكَرَ مَوْضِعَ الْمُؤَنَّثِ ، فَيَقُولُونَ لِلرَّجُلِ :
« الصِّيفَ ضَيَّعْتَ اللَّبَنَ » وَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يُخْبِرُوا بِأَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَفْعَلُ الْخَيْرَ
ثُمَّ هَلَكَتْ ، فَأَنْقَطَعَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُهُ ، جَازَ أَنْ يَقُولُوا : « ذَهَبَ الْخَيْرُ مَعَ
عَمْرٍو بْنِ حَمَّةَ » وَهَذَا كَثِيرٌ .

شكَاةُ الْأَدْبَاءِ

وَأَمَّا شَكْوَاهُ إِلَى ، فَإِنِّي وَإِيَّاهُ لَكَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ : « الشُّكْلَى تُعِينُ
الشُّكْلَى » وَعَلَى ذَلِكَ حَمَلَ الْأَصْمَعِيُّ قَوْلَ أَبِي دُوَادٍ :
وَيُصْبِحُ أَحْيَانًا كَمَا اسْتَمَعَ الْمُضِلُّ دُعَاءَ نَاشِدٍ^(١)
كِلَانًا بِحَمْدِ اللَّهِ مُضِلٌّ ، فَعَلَى مَنْ نَحْمِلُ وَعَلَى مَنْ نُدِلُّ ؟
أَمَّا الْمُطِيبَةُ فَآلِيَةٌ^(٢) ، وَأَمَّا الْمَزَادَةُ فَخَالِيَةٌ
يَشْكُو إِلَى جَمَلِي طُولَ السَّرِيِّ صَبْرٌ جَمِيلٌ ، فِكِلَانًا مُبْتَلَى
وَلَا أَرْتَابُ فِي أَنَّهُ يُحْفَظُ قَوْلَ الْفَزَارِيِّ^(٣) :

(١) الناشد : الطالب ، وهو هنا الباحث عن ضلِّ (٢) مقصورة بطيبة

(٣) مالك بن اسماء الفزاري

كان آباؤه سادة غطفان ، وحكاية البيتين أن أخاه « عيينة بن أسماء » هوى جارية
لأخته « هند بنت أسماء » فاستعان بأخيه « مالك » على أخته ، فقال مالك هذين البيتين .
ومن نختار شعره قوله من قصيدة مشهورة :

أُعِينَ هَلًا - إِذْ مُبْلِيَتَ بِحَبِهَا كُنْتَ اسْتَعْنَتَ بِفَارِغِ الْعَقْلِ
 أَقْبَلْتَ تَبْنِي الْعَوْتَ مِنْ رَجُلٍ وَالْمُسْتَعَاتُ إِلَيْهِ فِي شُغْلٍ ؟
 وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ الْأَدَبِ يَشْكُونَ الْغَيْرَ فِي كُلِّ جَيْلٍ ، وَهُوَ يَعْرِفُ
 الْحِكَايَةَ أَنَّ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْصَى لِأَهْلِ الْأَدَبِ بِجُزْءٍ مِنْ مَالِهِ ، وَقَالَ :
 « إِنَّهُمْ أَهْلُ صِنَاعَةٍ مَجْفُوءَةٍ » وَأَحْسَبُ أَنَّهُمْ وَالْحِرْفَةُ خُلِقَا تَوْءَمَيْنِ ، وَإِنَّمَا
 يَنْجَحُ بَعْضُهُمْ ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ تَزُلَّ قَدَمُهُ . وَإِذَا كَانَ الْأَدَبُ عَلَى عَهْدِ
 بَنِي أُمَيَّةٍ يُقْصَدُ أَهْلُهُ بِالْجَفْوَةِ ، فَكَيْفَ يَسَامُونَ مِنْ بَاسٍ ، عِنْدَ مَمْلَكَةِ
 بَنِي الْعَبَّاسِ ؟ وَإِذَا أَصَابَتْهُمْ الْحَمْنُ فِي أَيَّامِ الرَّشِيدِ ، فَكَيْفَ يُطْمَعُ لَهُمْ بِالْحُظِّ
 الْمَشِيدِ ؟ وَمَنْ بَغَى التَّكْسِبَ بِهَذَا الْفَنِّ ، فَقَدْ أَوْدَعَ شَرَابَهُ فِي شَنْ^(١) ،
 غَيْرِ ثِقَةٍ عَلَى الْوَدِيعَةِ ، بَلْ هِيَ مِنْهُ فِي صَاحِبِ خَدِيعَةٍ

*

* *

وَأَمَّا الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ مِنَ الْمُصَحِّفِينَ ، فَغَيْرُ الْبَرَّةِ وَلَا الْمُنْصِفِينَ ، وَمَا زَالَ
 التَّنْفُلُ^(٢) يَعْزُضُ لِأَذَاةِ الْأَسَدِ ، وَمَا أَحْسَبُهُ يَشْعُرُ بِمَكَانِ الْحَسَدِ .
 مَا يَضُرُّ الْبَحْرَ أَمْسَى زَاخِرًا أَنْ رَمَى فِيهِ غُلَامٌ بِحَجَرٍ

وحدیث اللہ ، هو مما	یشتہی السامعون ، یوزن وزنا
منطق عاقل ، وتلحن أحیا	نا ، وأحلی الحدیث ما كان لنا
.....
حبذا یومنا « بمل بؤد »	إذ نُسِّقَ شرابنا ونغنی
أینا دارت الزجاجة درنا	یحسب الجاهلون أنا جننا
ومررنا بنسوة عاطرات	وسماع . وقرقف ، فنزلنا

(١) الشن : القرية الخلق الصغيرة (٢) الثعلب

أَوْ كَلَّمَا طَنَّ الذُّبَابُ أَرْوَعُهُ ؟ إِنَّ الذُّبَابَ - إِذْنُ - عَلَى كَرِيمٍ
وَإِنَّ حُسَّادَ الْبَارِعِ لَكَأَنَّ قَالَ الْفَرَزْدَقُ :

فَإِنْ تَهَجَّ آلَ الزُّبْرَقَانِ ، فَإِنَّمَا هَجَوْتَ الطَّوَالَ الشَّمَّ مِنْ آلِ يَذْبُلِ
وَقَدْ نَبَحَ الْكَلْبُ النُّجُومَ ، وَدُونَهَا فَرَّاسِخٌ تُقْصِي نَاطِرَ الْمُتَأَمِّلِ

أبو الطيب المتنبي^(١)

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ : « أَدُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهَيْلَهُ »

فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مُوَلَعًا بِالتَّصْفِيرِ ، لَا يَقْنَعُ مِنْهُ بِمُخْلَسَةِ الْمُغِيرِ ، كَقَوْلِهِ :

مَنْ لِي بِفَهْمِ أَهْيَلِ عَصْرِ يَدْعِي أَنْ يَحْسَبَ الْهِنْدِيَّ فِيهِمْ بَاقِلٌ

وَقَوْلِهِ : « مَقَالِي لِلْأَحْمِقِ يَا حَلِيمٌ »

وَقَوْلِهِ : « وَنَامَ الْخَوَيْدِمُ عَنْ لَيْلِنَا »

وَقَوْلِهِ : « أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتِ صِنِّي شُوَيْعِرٌ »

وغير ذلك مما هو مَوْجُودٌ فِي دِيْوَانِهِ ، وَلَا مَلَامَةَ عَلَيْهِ ، إِنَّمَا هِيَ عَادَةٌ صَارَتْ

كَالطَّبْعِ ، تُعْتَفَرُ مَعَ الْمُحَاسِنِ وَهَذَا الْبَيْتُ الَّذِي أَوَّلُهُ : « أَدُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهَيْلَهُ »

إِنَّمَا قَالَهُ فِي عُلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَيَّارٍ بِإِطْرَاقِيَّةٍ قَبْلَ أَنْ يَمْدَحَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ .

وَالشُّعْرَاءُ مُطْلَقٌ لَهُمْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الْآيَةَ شَهَدَتْ عَلَيْهِمْ بِالتَّخَرُّصِ وَقَوْلِ

الْأَبَاطِيلِ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ؟ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ »^(٢) ؟

(١) ارجع الى (ج ٢ ص ١٣) (٢) أثار هذا الفصل بعد أن ظهرت الطبعتان الأولى

والثانية من هذه الرسالة كثيراً من بحوث النقاد والأدباء ، وحفز جمهوراً منهم إلى الإفاضة في

درس المتنبي دراسات واسعة ألقى بعضها في مهرجانه الأثني ، وأودع الكثير منها نخبة

صالحة من الكتب التي ظهرت حديثاً .

حكاية القطربلي وابن أبي الأزهر

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ حِكَايَةِ الْقَطْرِبَلِيِّ وَابْنِ أَبِي الْأَزْهَرِ ، فَقَدْ يَجُوزُ مِثْلُهُ ،
وَمَا وَضَحَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ حُبَسَ بِالْعِرَاقِ ، فَأَمَّا بِالشَّامِ فَحَبَسُهُ مَشْهُورٌ ،
وَحُدِّثْتُ أَنَّهُ كَانَ - إِذَا سُئِلَ عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا اللَّقَبِ - قَالَ : « هُوَ مِنْ
النَّبْوَةِ » أَي الْمُرْتَفِعِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَكَانَ قَدْ طَمِعَ فِي شَيْءٍ قَدْ طَمِعَ فِيهِ مَنْ هُوَ
دُونَهُ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَقَادِيرٌ ، يَظْفَرُ بِهَا مَنْ وَفَّقَ ، وَلَا يُرَاعُ بِالْمُجْتَهِدِ أَنْ يُخْفِقَ ،
وَقَدْ دَلَّتْ أَشْيَاءٌ فِي دِيْوَانِهِ أَنَّهُ كَانَ مُتَأَلِّهًا . فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

« وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا »

وَقَوْلُهُ :

« مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُخْزِي بَرِيَّتَهُ وَلَا يُصَدِّقَ قَوْمًا فِي الَّذِي زَعَمُوا »

وَإِذَا رُجِعَ إِلَى الْحَقَائِقِ ، فَنُطِقُ اللِّسَانَ ، لَا يُنْبِئُ عَنِ اعْتِقَادِ الْإِنْسَانِ ، لِأَنَّ
الْعَالَمَ مَجْبُولٌ عَلَى الْكُذِبِ وَالنِّفَاقِ ^(١) ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُظْهِرَ الرَّجُلُ بِالْقَوْلِ تَدَيُّنًا ،
وَإِنَّمَا يَجْعَلُ ذَلِكَ تَزَيُّنًا ، يُرِيدُ أَنْ يَصِلَ بِهِ إِلَى ثَنَاءٍ ، أَوْ غَرَضٍ مِنْ أُغْرَاضِ
أُمِّ الْفَنَاءِ ^(٢) ، وَلَعَلَّهُ قَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ هُمْ فِي الظَّاهِرِ مُتَعَبِّدُونَ ، وَفِيهَا بَطْنٌ مُلْحِدُونَ

(١) وفي ذلك يقول أبو العلاء في لزومياته :

أَمْسَى النِّفَاقَ دَرُوعًا يَسْتَجِنُّ بِهَا مِنْ الْأَذَى ، وَيَقْوَى سَرْدَهَا الْحَلْفَ

(٢) شنع أبو العلاء في كثير من أبيات لزومياته على هذه الفئة التي تتخذ الدين دائمًا

وسيلة لنيل أغراض الدنيا ، ونجتزئ من ذلك بقوله :

إِذَا كَشَفْتَ عَنِ الرَّهْبَانِ حَالَهُمْ فَكَلِّمْهُمْ يَتَوَخَى التَّبْرَ وَالْوَرِيقَا

دعبل بن علي^(١)

وَمَا يَلْحَقُنِي الشُّكُّ فِي أَنَّ دِعْبِلَ بْنَ عَلِيٍّ لَمْ يَكُنْ لَهُ دِينٌ ، وَكَانَ يَتَّظَاهَرُ
بِالتَّشْيِيعِ ، وَإِنَّمَا غَرَضُهُ التَّكْسِبُ ، وَلَا أَرْتَابُ فِي أَنَّ « دِعْبِلًا » كَانَ عَلَى رَأْيِ
الْحَكَمِيِّ^(٢) وَطَبَقْتِهِ ، وَالزُّنْدَقَةُ فِيهِمْ فَاشِيَةٌ ، وَمِنْ دِيَارِهِمْ نَاشِيَةٌ

أبو نواس

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي أَبِي نُوَّاسٍ ، ادَّعَى لَهُ التَّأَلُّهُ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَقْضِي صَلَوَاتِ
نَهَارِهِ فِي لَيْلِهِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى مَذْهَبِ غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ .

مذاهب جعلوها من معاشهم ، من يعمل الفكر فيها تعطه الأرقا
وقوله :

وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد ، لاحب التلاوات
وقوله :

كذب لا يزال يطعم خبزاً نص عن آدم وعن قاييل
يمتريه جدلان مهتل الغررة يبدى حزنا على هاييل
وقوله :

وليس حبر يبدع في صحابته إن رام نفعاً بأقوال تقولها
وإنما رام نسوانا تزوجها - بما افتراه - وأموالاً تمولها

(١) هو « دعبل » الشاعر المشهور بالهجاء ، وهو الذي يقول فيه أبو العلاء في لزومياته :

لو نطق الدهر هجاء أهله كأنه « الرومي » أو « دعبل »

(٢) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته في (ج ٢ ص ١٠)

سداجة العرب

وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ جَاءَهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهِيَ تَرْغَبُ إِلَى الْقَصِيدِ، وَتَقْصُرُ هَمُّهَا عَنِ الْفَصِيدِ، فَاتَّبَعَهُ مِنْهَا مُتَّبِعُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ. فَلَمَّا ضَرَبَ الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ، وَاتَّسَقَ مُلْكُهُ، مَازَجَ الْعَرَبُ غَيْرَهُمْ مِنَ الطَّوَائِفِ، وَسَمِعُوا كَلَامَ الْأَطِبَاءِ وَأَصْحَابِ الْهَيْئَةِ وَأَهْلِ الْمَنْطِقِ، فَتَلَّتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ.

رسالة آدم

وَلَمْ يَزَلِ الْإِنْسَانُ فِي بَنِي آدَمَ عَلَى مَمَرِ الدُّهُورِ، حَتَّى إِذَا أَصْحَابَ السَّيْرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ آدَمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بُعِثَ إِلَى أَوْلَادِهِ، فَأَنْذَرَهُمْ بِالْآخِرَةِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، فَكَذَّبُوهُ، وَرَدُّوا قَوْلَهُ، ثُمَّ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْهَاجِ إِلَى الْيَوْمِ.

زندقة قريش

وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: «إِنَّ سَادَاتِ قُرَيْشٍ كَانُوا زَنَادِقَةً» وَمَا أَجْدَرَهُمْ بِذَلِكَ. وَقَالَ شَاعِرُهُمْ يَرْثِي قَتْلَ بَدْرِ - وَتُرْوَى لِشَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ اللَّيْثِيِّ: -
أَلَمْتُ بِالتَّحِيَّةِ أُمَّ بَكْرٍ فَحَيُّوا أُمَّ بَكْرٍ بِالسَّلَامِ
وَكَأَنَّ بِالطَّوِيِّ طَوِيُّ بَدْرِ مِنَ الْأَخْسَابِ وَالْقَوْمِ الْكِرَامِ
أَلَا يَا أُمَّ بَكْرٍ لَا تُكْرِي عَلَى الْكَاسِ - بَعْدَ أَخِي هِشَامِ

وَبَعْدَ أَخِي أَبِيهِ - وَكَانَ قَرَمًا^(١) مِنْ الْأَقْرَامِ شُرَابِ الْمُدَامِ
أَلَا مَنْ مَبْلِغُ الرَّحْمَنِ عَنِّي بَأَنِّي تَارِكُ شَهْرِ الصِّيَامِ
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَابَلَ مَنْكِبِيهِ فَقَدْ شَبِعَ الْأَنْبَسُ مِنَ الطَّعَامِ
أَيُوعِدُنَا «ابنُ كَبْشَةَ»^(٢) أَنْ سَنَحْيَا، وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءِ^(٣) وَهَامِ ؟
أَتَتْرُكُ أَنْ تَرُدَّ الْمَوْتَ عَنِّي وَتُحْيِيَنِي إِذَا بَلَيْتَ عِظَامِي ؟
وَلَا يَدْعِي مِثْلَ هَذِهِ الدَّعَاوَى إِلَّا مَنْ يَسْتَبْسِلُ وَرَاءَهَا لِلْحِمَامِ ، وَلَا يَأْسُفُ
لَهُ عِنْدَ الْمَتَامِ .

عودة إلى أبي الطيب المتنبى

وَحَدَّثْتُ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ ، لَمَّا حَصَلَ فِي بَنِي عَدِيٍّ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَخْرُجَ فِيهِمْ ،
قَالُوا لَهُ - وَقَدْ تَبَيَّنُوا دَعْوَاهُ - : «هَا هُنَا نَاقَةٌ صَعْبَةٌ ، فَإِنْ قَدَرْتَ عَلَى رُكُوبِهَا
أَقْرَرْنَا أَنَّكَ مُرْسَلٌ» وَأَنَّهُ مَضَى إِلَى تِلْكَ النَّاقَةِ وَهِيَ رَائِحَةٌ فِي الْإِبِلِ ، فَتَحَيَّلَ
حَتَّى وَثَبَ عَلَى ظَهْرِهَا ، فَنفَرَتْ سَاعَةً ، وَتَنَكَّرَتْ بِرُهَّةٍ ، ثُمَّ سَكَنَ نِفَارُهَا ،
وَمَشَتْ مَشَى الْمُسْمِحَةِ^(٤) ، وَأَنَّهُ وَرَدَ بِهَا الْجِلَّةَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا ، فَعَجِبُوا لَهُ
شُكْلَ الْعَجَبِ ، وَصَارَ ذَلِكَ مِنْ دَلَالِيهِ عِنْدَهُمْ .

(١) سيداً عظيماً (٢) يعني به النبي صلى الله عليه وسلم و «أبو كبشة» جاهلي

كان يعبد الشعري اليمانية ، وترك دين آبائه ، وهجر عبادة الأصنام ، فاستعاد الجاهلية
هذا اللقب للنبي لمخالفته لهم وعزوفه عن عبادة أصنامهم ، ودعوته إياهم إلى الإسلام .

(٣) جثث هامة (٤) التي تلين بعد استصعاب

وَحَدَّثْتُ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ فِي دِيْوَانِ اللَّادِزِيَّةِ ، وَأَنَّ بَعْضَ الْكُتَّابِ
انْقَلَبَتْ عَلَى يَدِهِ سِكِّينُ الْأَقْلَامِ ، فَجَرَحَتْهُ جُرْحًا مُفْرِطًا ، وَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ
تَقَلَّ عَلَيْهَا مِنْ رِيْقِهِ ، وَشَدَّ عَلَيْهَا غَيْرَ مُنْتَظِرٍ لَوَقْتِهِ ، وَقَالَ لِلْمَجْرُوحِ :
« لَا تَحْلَهَا فِي يَوْمِكَ » - وَعَدَّ لَهُ أَيَّامًا وَلِيَالِي - وَأَنَّ ذَلِكَ الْكَاتِبَ قَبْلَ
مِنَهُ ، فَبَرِيءُ الْجُرْحِ ، فَصَارُوا يَعْتَقِدُونَ فِي أَبِي الطَّيِّبِ أَعْظَمَ اعْتِقَادٍ ،
وَيَقُولُونَ : « هُوَ كَمُخَيِّ الْأَمْوَاتِ ! »

وَحَدَّثَ رَجُلٌ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ قَدِ اسْتَخْفَى عِنْدَهُ فِي اللَّادِزِيَّةِ - أَوْ فِي
غَيْرِهَا مِنَ السَّوَاهِلِ - : أَنَّهُ أَرَادَ الْإِنْتِقَالَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، فَخَرَجَ
بِاللَّيْلِ وَمَعَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، وَلَقِيَهُمَا كَلْبٌ أَلْحَّ عَلَيْهِمَا فِي النَّبَاحِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ؛
فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ لِذَلِكَ الرَّجُلِ وَهُوَ عَائِدٌ : « إِنَّكَ سَتَجِدُ ذَلِكَ الْكَلْبَ قَدْ مَاتَ »
فَلَمَّا عَادَ الرَّجُلُ ، أَلْفَى الْأَمْرَ عَلَى مَا ذَكَرَ
وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ أَعَدَّ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْمَطَاعِمِ مَسْمُومًا ، وَأَلْقَاهُ لَهُ ، وَهُوَ
يُخْفِي عَنْ صَاحِبِهِ مَا فَعَلَ .

اختلاف الخواطر

وَأَمَّا الْقَطْرِيُّ وَابْنُ أَبِي الْأَزْهَرِ ، فَمِنَ الزَّوَالِ (١) اجْتِمَاعُهُمَا عَلَى تَأْلِيفِ
كِتَابٍ ، وَقَلَّمَا يُعْرَفُ مِثْلُ ذَلِكَ .
وَنَحْوُهُ مِنْهُ قِصَّةُ « الْخَالِدِيِّينَ » الَّذِينَ كَانُوا فِي الْمَوْصِلِ ، وَهُمَا شَاعِرَانِ ،
وَقَدْ كَانَا عِنْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَانْصَرَفَا عَلَى حَدِّ مُغَاضَبَةٍ ، وَهُمَا دِيْوَانُ

يُنْسَبُ إِلَيْهِمَا ، لَا يَنْفَرِدُ فِيهِ أَحَدُهُمَا بِشَيْءٍ دُونَ الْآخِرِ إِلَّا فِي أَشْيَاءَ قَلِيلَةٍ ،
وَهَذَا مُتَعَدِّدٌ فِي وَلَدِ آدَمَ ، إِذْ كَانَتْ الْجِبَلَةُ عَلَى الْخِلَافِ وَقِلَّةِ الْمُوَافَقَةِ ، فَأَمَّا
أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ ثُمَّ يُتِمُّهُ الْآخِرُ ؛ فَهُوَ أَسْوَعُ فِي الْمَعْقُولِ
مِنْ أَنْ يَجْتَمِعَ عَلَيْهِ الرَّجُلَانِ

وَالَّذِينَ رَوَوْا دِيوَانَ أَبِي الطَّيِّبِ ، يَحْكُونَ أَنَّهُ وُلِدَ سَنَةَ ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثٍ ،
وَكَانَ طُلُوعُهُ إِلَى الشَّامِ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ (١) ، فَأَقَامَ فِيهِ بُرْهَةً ثُمَّ عَادَ إِلَى
الْعِرَاقِ ، وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ هُنَاكَ ، وَالذَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْخَبَرِ أَنَّ مَدَائِحَهُ
فِي صِبَاهُ إِنَّمَا هِيَ فِي أَهْلِ الشَّامِ ، إِلَّا قَوْلَهُ :

« كُفِّي ، أَرَانِي - وَيَكِ - لَوْ مَكَ الْوَمَا (٢) »

الدهر (٣)

وَأَمَّا شِكَايَتُهُ أَهْلَ الزَّمَانِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ سَلَكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَاجَ الْمُتَقَدِّمِينَ

(١) المراد أنه طلع إلى الشام حين كانت سنة إحدى وعشرين (٢) تيممة البيت قوله :

« هم أقام على فؤاد فأنجما » . ومن أجل ما في هذه القصيدة قوله :

وخفوق قلب - لو رأيت لهيبه يا جنتي ! لظننت فيه جهنما

وإذا سحابة صد حب أبرقت تركت حلاوة كل حب علقها

يا وجه داهية الذي لولاك ما أكل الضنى جسدى ورض الأظما

إن كان أغناها السلو ، فاني أمسيت من كبدى ومنها معدما

(٣) الدهر

أشعار أبي العلاء في الدهر كثيرة تملأ عدة صفحات من لزومياته ، فلنجزئ هنا

وَقَدْ كَثُرَ الْمُتَقَالُ فِي ذَمِّ الدَّهْرِ حَتَّى جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ

بِالْقَلِيلِ مِنْهَا عَنِ الْكَثِيرِ، لِإِظْهَارِ مَنَاحِي رَأْيِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ فِي الدَّهْرِ، وَإِنَّمَا نَسَرَدَهَا بِلَا تَعْلِيْقَ رَغْبَةٍ فِي الْإِيْجَازِ، وَهِيَ قَوْلُهُ:

إِنْ رَابْنَا الدَّهْرَ بِأَفْعَالِهِ فَكَلَّمْنَا بِالدَّهْرِ مَرْتَابًا

وقوله :

إِذَا قِيلَ: « غَالِ الدَّهْرَ شَيْئًا » فَانَّمَا يَرَادُ « آلهَ الدَّهْرِ » وَالدَّهْرُ خَادِمٌ

وقوله :

وَلَا عَقْلَ لِلدَّهْرِ - فِيمَا أَرَى - فَكَيْفَ يَعَاتِبُ إِنْ أَدْبَانَا؟

وقوله :

فَلَوْ تَكَلَّمَ دَهْرٌ كَانَ شَاكِيَهُمْ كَمَا تَرَاهُمْ عَلَى الْإِحْسَانِ يَشْكُونَهُ

وقوله :

صَحْبِنَا دَهْرِنَا دَهْرًا، وَقَدَمَا رَأَى الْفَضْلَاءُ أَلَا يَصْحَبُونَهُ

وَوَغِيْظُ بَنُوهُ مِنْهُ، وَوَغِيْظُ مِنْهُمْ فَعَذِبَ سَاكِنِيَهُ وَعَذَبُوهُ

وَمِنْ عَادَاتِهِ فِي كُلِّ جَيْلٍ غَدَاهُ أَنْ يَقْلُ مَهْدِيُوهُ

أَسَاءَ بِجَهْلِهِ أَدْبَا عَلَيْهِمْ فَهَلْ مِنْ حِيلَةٍ فَيُؤَدَّبُوهُ

وَمَا يَخْشَى الْوَعِيدَ فَيُوعَدُوهُ وَلَا يَرَعَى الْعِتَابَ فَيُعْتَبُوهُ

وقوله :

إِنْ خَرَفَ الدَّهْرُ فَهُوَ شَيْخٌ يَحِقُّ بِالْهَرِّ وَالزَّمَانَهُ

أَضْحَى سَلِيًّا بَغِيْرَ دَاءٍ لَمْ تَبْدُ فِي شَخْصِهِ ضِمَانَهُ

أَعْجَبَ قَدْ بَيْنَ الرِّزَايَا أَوْ جَعَلَ الشَّرَّ تَرْجَمَانَهُ

وقوله :

وَيَا دَهْرَ لِحَاكِ اللَّهِ مَا هَنَّتْ فَرْحَانُكَ!

وقوله :

حَلْفُ الدَّهْرِ جَاهِدًا وَهُوَ بَرٌّ - إِذَا حَلَفَ

لِيَبْتَنَ كُلَّ عَقْدٍ إِذَا نَظَّمَهُ ائْتَلَفَ

هُوَ الدَّهْرُ ، وَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ ، وَأَنَّ بَاطِنَهُ لَيْسَ كَظَاهِرِهِ ، إِذْ كَانَ
الْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الدَّهْرَ هُوَ
الْخَالِقُ وَلَا الْمَعْبُودُ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ »

*
* *

وَقَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ : « الزَّمَانُ حَرَكَةُ الْفَلَكَ » لَفْظٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ ، وَفِي كِتَابِ
« سَيَبَوَيْهِ » مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الزَّمَانَ عِنْدَهُ مُضَى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . وَقَدْ حَدَّثَتْهُ حَدًّا
- مَا أَجْدَرَهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ سُبِقَ إِلَيْهِ - إِلَّا أَنِّي لَمْ أَتَمَعَهُ - وَهُوَ أَنْ يُقَالَ :
« الزَّمَانُ شَيْءٌ أَقَلُّ جُزْءٍ مِنْهُ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ الْمُدْرَكَاتِ » وَهُوَ فِي ذَلِكَ صِدْقُ
الْمَسْكَانِ ، لِأَنَّ أَقَلَّ جُزْءٍ مِنْهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى شَيْءٍ ، كَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ
الظُّرُوفُ ، فَأَمَّا الْكَوْنُ فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْبِيهِ بِمَا قَلَّ وَكَثُرَ (١)

(١) الزمان

هذا التعريف - هو في اعتقادنا أدق تعريف فلسفي صحيح عرفناه للزمن ، وقد ذكره
أبو العلاء في لزومياته فقال : « وأيسر كون تحته كل عالم »
ومضى في فكرته في هجز هذا البيت فبين سرعة الزمان ، فقال : « ولا تدرك الأكوان
جرد صلادم » ثم قسم الأزمان في البيتين التاليين من هذه القصيدة إلى ماض اندثر
فاستحالت عودته ؛ ومستقبل آت سيندثر بعد حين ، فقال :

إذا هي مرت لم تعد ، ووراءها نظائر ، والأوقات ماض وقادم

فما آب منها - بعد ما غاب - غائب ولا يعدم الحين المجدد عادم

وقد ذكر شطر هذا الرأي في « سقط الزند » فقال :

أمس الذي مر - على قربه - يسجز أهل الأرض عن رده

وَالَّذِينَ قَالُوا : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَالِ ، مِثْلَ
الْبَيْتِ الْمُنْسُوبِ إِلَى الْأَخْطَلِ - وَذَكَرَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ لِشَمْعَلَةَ الثَّغَلَبِيِّ (وَهُوَ :
فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفِعْلَهُ لَكَ الدَّهْرُ - لَا عَارَ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ
وَقَوْلِ الْآخِرِ :

الدَّهْرُ لَأَمَّ بَيْنَ الْفِتْنَا وَكَذَلِكَ فَرَّقَ بَيْنَنَا الدَّهْرُ
وَقَوْلِ أَبِي صَخْرٍ :

وذكر المعجز منه في بيته الآخر وهو قوله :

أرى الوقت يفنى أنفسا بفنائه ويمحو، فما يبقى الحديث ولا الرسم
وهذا الرأي ، لا يناقض قوله في الدليل على قدم الزمن :
أرى زمنا تقادم غير فان فسبحان المهيمن ذى الكمال

*
*
*

و بين أن القادم من الزمان « المستقبل » مجهول لا يعرف إلا بعد مرور الزمن الذى
يكشف الغطاء عن أسراره ، فقال :

الساع آنية الحوادث ، ما حوت لم يبد إلا بعد كشف غطائها
وقد ذكر هذا المعنى « بوب » الشاعر الانجليزى ، بصيغة أخرى ، وترجمه الاستاذ
العقاد ، وهو :

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين
ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر - حيناً بعد حين

*
*
*

وكثيراً ما شبه أبو العلاء الزمان بالطائر . فمن ذلك قوله :

وما الوقت إلا طائر يقطع المدى فبادره - إذ كل النهى فى بداره
وقوله :

يبغى التشبث بالأوقات جائزها هيات ! ما الوقت إلا طائر طارا

عَجِبْتُ لِسَعَى الدَّهْرِ يَبْنِي وَيَبْنِيهَا فَلَمَّا انقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
لَمْ يَدَّعِ أَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ كَانَ يُقَرِّبُ لِلْأَفْلَاقِ الْقَرَابِينَ ، وَلَا يَزْعُمُ أَنَّهَا
تَعْقِلُ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ شَيْءٌ يَتَوَارَثُهُ الْأُمَمُ فِي زَمَانٍ بَعْدَ زَمَانٍ .

شاتم الدهر

وَكَانَ فِي عَبْدِ الْقَيْسِ شَاعِرٌ يُقَالُ لَهُ « شَاتِمُ الدَّهْرِ » وَهُوَ الْقَائِلُ :
وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ وَعَرًّا سَبِيلُهُ وَأَبْدَى لَنَا وَجْهًا أَزْبَ مُجْدَعًا
وَجَبْهَةً قَرْدٍ - كَالشَّرَاكِ - ضَائِلَةٌ وَأَنْفًا ، وَلَوَى بِالْعَثَانِينَ أَخْضَعًا
ذَكَرْتُ الْكِرَامَ الذَّاهِبِينَ أُولَى النَّدَى وَقُلْتُ لِعَمْرٍو وَالْحَسَامِ : « أَلَا دَعَا »

الزندقة والزنادقة

وَأَمَّا غَيْظُهُ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْمُلْحِدِينَ ، فَأَجْرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، كَمَا أَجْرَهُ عَلَى الظَّمَا
فِي طَرِيقِ مَكَّةَ ، وَاصْطِلَاءِ الشَّمْسِ بِعِرْفَةَ ، وَمَبِيتِهِ بِالْمُزْدَلِفَةِ .
وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ ابْتَهَلَ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - فِي الْأَيَّامِ الْمُتَعَدُّوَاتِ
وَالْمَعْلُومَاتِ ، أَنْ يُثَبِّتَ هِضَابَ الْإِسْلَامِ .

وَلَكِنَّ الزَّنَادِقَةَ دَائِمٌ قَدِيمٌ ، وَقَدْ رَأَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا ظَهَرَتْ
زَنْدَقَتُهُ ، ثُمَّ تَابَ فَرَّحًا مِنَ الْقَتْلِ ، لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ
مِنَ الْكُفَّارِ ؛ لِأَنَّ الْمُرْتَدَّ إِذَا رَجَعَ ، قُبِلَ مِنْهُ الرَّجُوعُ ، وَلَا مِلَّةَ إِلَّا وَلَهَا
قَوْمٌ مُلْحِدُونَ !

وَقَدْ كَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ تَقْتُلُ عَلَى الزَّنَادِقَةِ ، وَالزَّنَادِقَةُ هُمُ الَّذِينَ يُسَمَّوْنَ
« الدَّهْرِيَّةَ » وَلَا يَقُولُونَ بِنُبُوَّةٍ وَلَا كِتَابٍ .

بشار بن برد^(١)

و « بشار » إِنَّمَا أَخَذَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ : إِنَّهُ وُجِدَ فِي كُتُبِهِ رُقْعَةٌ
مَكْتُوبٌ فِيهَا : « إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَهْجُو « فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ الْهَاشِمِيُّ » فَصَفَحْتُ
عَنْهُ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . »
وَزَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ يُشَارُ « سَيْبَوِيَّةِ » وَأَنَّهُ حَضَرَ يَوْمًا حَلْقَةَ يُونُسَ بْنِ
حَبِيبٍ ، فَقَالَ : « هَلْ هُنَا مَنْ يَرْفَعُ خَبْرًا ؟ » فَقَالُوا : « لَا » فَأَنشَدَهُمْ :
« بَنِي أُمَيَّةَ هُبُوا مِنْ رُقَادِكُمْ إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ
لَيْسَ الْخَلِيفَةَ بِالْوَجُودِ ، فَالْتَمِسُوا خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ النَّايِ وَالْعُودِ^(٢) »
وَكَانَ فِي الْحَلْقَةِ سَيْبَوِيَّةِ^(٣) فَيَدَّعِي بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ وَشَى بِهِ ، وَسَيْبَوِيَّةِ
— فِيمَا أَحْسَبُ — كَانَ أَجَلَ مَوْضِعًا مِنْ أَنْ يَدْخُلَ فِي هَذِهِ الدِّيَاتِ ، بَلْ
يَعْمِدُ لِأُمُورِ سَنِيَّاتٍ .

*
* *

وَحِكِي عَنْهُ أَنَّهُ عَابَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ :
« عَلَى «الغزلي» مِنِّي السَّلَامُ ، فَطَامَنَا لَهَوْتُ بِهَا فِي ظِلِّ مُخَضَّرَةٍ زُهْرٍ »
فَقَالَ « سَيْبَوِيَّةِ » : (لَمْ تَسْتَعْمِلِ الْعَرَبُ «الغزلي»)
فَقَالَ بَشَارٌ : « هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ «البشكي» وَ «الجزمي» وَنَحْوِ ذَلِكَ »
وَجَاءَ « بَشَارٌ » فِي شِعْرِهِ بِالنِّينَانِ^(٤) ، فَيُقَالُ إِنَّهُ أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ ، وَهَذِهِ

(١) ارجع الى ترجمته في (ج ٢ . ص ١٣٨) من هذا الكتاب (٢) يروي :

« ضاغت خلافتكم يا قوم فالتمسوا . . . » (٣) ارجع الى ترجمته في (ج ٢ . ص ٢٠)

(٤) جمع نون ، وهو « الحوت » .

أَخْبَارٌ لَا تَثْبُتُ . وَفِي مَا رُوِيَ فِي كِتَابِ « سَيَبَوِيهِ » أَنَّ « النُّونَ » تُجْمَعُ عَلَى « نَيْنَانٍ ^(١) » فَهَذَا نَقْضٌ لِلْخَبَرِ .

وَذَكَرَ مَنْ نَقَلَ أَخْبَارَ « بَشَارِ » أَنَّهُ تَوَعَّدَ « سَيَبَوِيهِ » بِالْهَجَاءِ ، وَأَنَّهُ تَلَا فَا هُ
وَاسْتَشْهَدَ بِشِعْرِهِ ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِشْهَادُهُ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا يَذْكَرُهُ الْمُتَذَكِّرُونَ
فِي الْمَجَالِسِ وَجَمَاعِيعِ الْقَوْمِ . وَأَصْحَابُ « بَشَارِ » يَرَوُونَ لَهُ هَذَا الْبَيْتَ .
« وَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمَوْئِيكَ نُصْحَهُ وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَيْبِ »
وَفِي كِتَابِ (سَيَبَوِيهِ) نِصْفُ هَذَا الْبَيْتِ الْآخِرِ ، وَهُوَ فِي بَابِ الْإِدْغَامِ
لَمْ يُسَمَّ قَائِلُهُ ، وَزَعَمَ غَيْرُهُ أَنَّهُ لِأَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوَلِيِّ !

وَيُقَالُ إِنَّ « يَعْقُوبَ بْنَ دَاوُدَ » وَزَيْرَ الْمَهْدِيِّ ، تَحَامَلَ عَلَى بَشَارٍ حَتَّى قُتِلَ .
وَاخْتَلَفَ فِي سِنِّهِ ، فَقِيلَ كَانَ - يَوْمئِذٍ - ابْنًا ثَمَانِينَ سَنَةً ، وَقِيلَ أَكْثَرَ ،
وَاللَّهُ الْعَالِمُ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ .

وَلَا أَحْكُمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ مَا ذَكَرْتُ فِيهَا
تَقَدَّمَ ^(٢) ، لِأَنِّي عَقَدْتُهُ بِمِثْيَةِ اللَّهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَحَلِيمٌ وَهَّابٌ !

وَذَكَرَ صَاحِبُ كِتَابِ « الْوَرِقَةِ » جَمَاعَةً مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي طَبَقَةِ أَبِي نُوَّاسٍ
وَمَنْ قَبْلَهُ ، وَوَصَفَهُمْ بِالزُّنْدَقَةِ . وَسَرَّائِرُ النَّاسِ مُغَيَّبَةٌ ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُ بِهَا عَلَّامُ
الْغُيُوبِ . وَكَانَتْ تِلْكَ الْحَالُ تُكْتَمُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ خَوْفًا مِنَ السَّيْفِ ،

(١) وتجمع أيضاً على « أنوان » (٢) تخيل أبو العلاء في الجزء الثاني أن التوبة لم

تلتحق ببشار ، وأنه في أصناف العذاب ، ارجع الى (ج ٢ ص ١٤٠)

فَالآنَ ظَهَرَ نَجِيثٌ^(١) الْقَوْمِ وَانْقَاضَتِ التَّرِيكَةُ^(٢) عَنْ أُخْبَثِ رَأِي^(٣)

نارورة من نوار الزنادقة

وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ رَجُلٌ لَهُ أصدِقَاءُ مِنَ الشَّيْعَةِ ، وَصَدِيقُ زَيْنَدِيقٍ ، فَدَعَا
الْمُتَشَيْعَةَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَجَاءَ الزُّنْدِيقُ ، فَفَرَعَ حَلْقَةَ الْبَابِ ، وَقَالَ :
« أَصْبَحْتُ جَمَّ بَلَابِلٍ^(٤) الصَّدْرِ مُتَقَسِّمِ الْأَشْجَابِ وَالْفِكْرِ »
فَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ : (وَيْحَكَ أَيْمٌ ذَا ؟) فَتَرَكَهُ الزُّنْدِيقُ وَمَضَى .
فَلَقِيَهُ صَاحِبُ الْمَتَادِبَةِ ، فَقَالَ لَهُ : « يَا هَذَا ! أَرَدْتَ أَنْ تُوقِعَنِي فِيمَا أُكْرَهُ ! »
خَوْفًا مِنْ أَنْ يَظُنَّ أصدِقَاؤُهُ أَنَّهُ زَيْنَدِيقٌ ، فَقَالَ : « أَدْعُهُمْ ثَانِيَةً ، وَأَعَانِي
بِمَكَانِهِمْ » فَلَمَّا حَصَلُوا عِنْدَهُ ، جَاءَ الزُّنْدِيقُ فَقَالَ :

« أَصْبَحْتُ جَمَّ بَلَابِلٍ^(٤) الصَّدْرِ مُتَقَسِّمِ الْأَشْجَابِ وَالْفِكْرِ »
فَقَالُوا : « وَيْحَكَ أَيْمٌ ذَا ؟ » فَقَالَ : « مِمَّا جَنَاهُ عَلَيَّ « أَبِي الْحَسَنِ^(٥) :
« عُمَرُ » وَصَاحِبُهُ « أَبُو بَكْرٍ » ! » فَفَرِحَ الشَّيْعَةُ بِذَلِكَ . وَلَقِيَهُ صَاحِبُ
الْمَنْزِلِ ، فَقَالَ : « جُزَيْتَ عَنِّي خَيْرًا ، فَقَدْ خَلَعْتَنِي مِنَ الشُّبْهَةِ ! » .

نارورة أخرى

وَكَانَ يَجْلِسُ فِي مَجْلِسِ الْبَصْرَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَكَانَ فِيهِمْ
رَجُلٌ زَيْنَدِيقٌ ، لَهُ سَيْفَانِ قَدْ سَمِيَ أَحَدُهُمَا « الْخَيْرُ » وَالْآخَرَ « الْفَلَحُ^(٦) »

(١) أي بدا سرهم الذي كانوا يخفونه ، ومن أمثالهم : بدا نجيث القوم ، أي افضح سرهم

(٢) انقضت : انكسرت وانقضت . والتريكة : بيضة النعام (٣) ولد النعام

(٤) وساوس (٥) يعني علي بن أبي طالب (٦) الفلاح : الفوز بما يقتبط به

فَإِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ، قَالَ : « صَبَّحَكَ الْخَيْرُ ، وَمَسَّاكَ الْفَلَحُ »
ثُمَّ يَلْتَفِتُ لِأَصْحَابِهِ الَّذِينَ قَدْ عَرَفُوا مَكَانَ السَّيْفَيْنِ ، فَيَقُولُ :
« سَيْفَانِ كَأَلْبَرَقِ إِذَا الْبَرْقُ لَمَحَ ! » .

عودة إلى أبي نواس^(١)

أَمَّا قَوْلُ الْحَكَمِيِّ^(٢) : « تِيَهُ مُعَنَّ وَظَرْفُ زِنْدِيقٍ » فَقَدْ عِيبَ عَلَيْهِ هَذَا
الْمَعْنَى ، وَقِيلَ إِنَّهُ أَرَادَ رَجُلًا مِّنْ بَنِي الْحَارِثِ كَانَ مَعْرُوفًا بِالزُّنْدُقَةِ وَالظَّرْفِ ،
وَكَانَ لَهُ مَوْضِعٌ مِّنَ السُّلْطَانِ .

صالح بن عبد القدوس

وَأَمَّا صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ ، فَقَدْ شَهَرَ بِالزُّنْدُقَةِ ، وَلَمْ يُقْتَلْ - وَلِلَّهِ الْعِلْمُ -
حَتَّى ظَهَرَتْ عَنْهُ مَقَالَاتٌ تَوْجِبُ ذَلِكَ . وَيُرْوَى لِأَيِّهِ عَبْدِ الْقُدُوسِ :
« كَمْ أَهْلَكْتَ مَكَّةَ مِنْ زَائِرٍ خَرَبَهَا اللَّهُ وَأَيَّاتَهَا
لَا رَزَقَ الرَّحْمَنُ أَحْيَاءَهَا وَأَشْوَتِ^(٣) الرَّحْمَةُ أَمْوَاتَهَا »
وَلَقَدْ كَانَ لِصَالِحٍ وَلَدٌ ، حُبِسَ عَلَى الزُّنْدُقَةِ حَبْسًا طَوِيلًا ، وَهُوَ الَّذِي
يُرْوَى لَهُ :

خَرَبْنَا مِنَ الدُّنْيَا - وَنَحْنُ مِنَ أَهْلِهَا - فَمَا نَحْنُ بِالْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَاءِ
إِذَا مَا أَتَانَا زَائِرٌ مُتَفَقِّدٌ فَرِحْنَا ، وَقُلْنَا : « جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا ! »
وَأَمَّا رُجُوعُهُ عَنِ الزُّنْدُقَةِ لَمَّا أَحْسَسَ بِالْقَتْلِ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْخُتْلِ .

(١) ارجع الى (ج ٢ ص ١٠ ، وكذلك ص ٢١٩ من هذا الجزء) (٢) هو أبو نواس (٣) أخطأت

فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ ، وَالْخَيْرُ مَعَ
السَّيْفِ ، وَالْخَيْرُ فِي السَّيْفِ ، وَالْخَيْرُ بِالسَّيْفِ ! » وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ :
« لَا تَزَالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَا حَمَلَتِ السَّيْفَ »
وَالسَّيْفُ حَمَلٌ صَالِحٌ (١) عَلَى التَّصْدِيقِ ، وَرَدَّهُ عَنْ رَأْيِ الزُّنْدِيقِ (٢)

الصناديقى

وَأَمَّا الْمَنْسُوبُ إِلَى الصَّنَادِيقِ ، فَإِنَّمَا يُحْسَبُ مِنَ الزُّنَادِيقِ ، وَأَحْسَبُهُ الَّذِي
كَانَ يُعْرَفُ بِالْمَنْصُورِ . ظَهَرَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَأَقَامَ بُرْهَةً بِالْيَمَنِ ، وَفِي
زَمَانِهِ كَانَتْ الْقِيَانُ تَلْعَبُ بِالذُّفِّ ، وَتَقُولُ :

« خُذِي الذُّفَّ يَا هَذِهِ وَالْعَبِي وَبُنَى فَضَائِلَ هَذَا النَّبِيِّ
تَوَلَّى نَبِيُّ بَنِي هَاشِمٍ وَقَامَ نَبِيُّ بَنِي يَمْرُبٍ
فَمَا تَبْتَغِي السَّعَى عِنْدَ الصَّفَا وَلَا زُورَةَ الْقَبْرِ فِي « يَثْرِبِ »

(١) هو صالح بن عبد القدوس الذى مر ذكره (٢) كرر أبو العلاء هذا المعنى فى
لزومياته بطرق شتى ، فمن ذلك قوله :

إذا ما أُلحِدت أمٌ بجهلٍ فقابلها بتوحيد السيوف

وقوله :

تَمَادَوْا فِي الضَّلَالِ وَلَمْ يَتُوبُوا وَلَوْ سَمِعُوا صَلِيلَ السَّيْفِ - تَابُوا

وقوله :

أَبْدَى « الْعَتَاهَى » نَسْكَا وَتَابَ مِنْ ذِكْرِ عُتْبَةَ
وَالخُوفُ أَلْزَمَ « سَفِيَا ن » أَنْ يَفْرُقَ كُتْبَهُ

وَأَمِنَ فِي التَّهْكِمِ وَالسَّخْرِيَّةِ فِي قَوْلِهِ :

تَلَوْا بَاطِلًا ؛ وَجَلَّوْا صَارِمًا وَقَالُوا : « صَدَقْنَا ؟ » فَقَلْنَا : « نَعَمْ ! »

إِذَا الْقَوْمُ صَلَّى ، فَلَا تَنْهَضِي وَإِنْ صُومُوا ، فَكُلِي وَاشْرَبِي

*
*
*

وَلَا تَحْرِمِي نَفْسَكَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَقْرَبِينَ وَمِنْ أَجْنَبِي (١)

(١) المزدكية

هذا الرأي هو رأى جماعة « المزدكية » وهم أتباع « المذهب المزدكى » المنسوب الى « مزدك » وهو رجل ادعى النبوة على عهد خسرو قباد ، والد أنوشروان ، وزعم أن الله بعثه ليأمر « بشيوع النساء والأموال بين الناس كافة ، كاشتراكهم فى الماء والنار والكلا ، لأنهم كلهم إخوة ، أولاد أب واحد » وكان يتوهم أن ذلك يحسم أسباب المنازعات بينهم ، لأنها إنما تحدث بسبب النساء والمال ، فانتقاد قباد إلى مذهبه ، وأباح له أن يخلو بالملكة زوجته ؛ فتراحى ابنه أنوشروان على قدمى قباد ، باكياً متوسلاً إليه ، ليعدل عن ذلك ، وما زال به حتى رجع عن فكرته ، فلما ولى الملك بدأ بقتل مزدك ، انتقاماً منه على ما هم به ، ولم يقبل توسلاته اليه ، وقال له : « لن أنسى نتن قدميك - حين قبلتهما » ثم استأصل أصحابه وشيعته وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى نبذة مفيدة فى بيان هذا المذهب ، فليرجع إليها من شاء

والمنصور الصناديقى هذا ، هو أحد من اعتنقوا ذلك المذهب ودعوا إليه ، وقد جاء ذكره فى رسالة ابن القارح ، وأنه كان يجمع فى دار خاصة ، نساء البلد ورجالها ليلاً ؛ ويأمرهم بالاختلاط « حتى لا يتميز مال من مال ، ولا ولد من ولد ! »

*
*
*

أما رأى أبى العلاء فى المزدكية ، فبدلك على سخطه الشديد عليها قوله :

أقروا بالإله وأثبتوه وقالوا : « لا نبى ولا كتاب ... »

ووطء بناتنا حل مباح « رويدكم ! فقد بطل العتاب

تمادوا فى الضلال - ولم يتوبوا - ولو سمعوا صليل السيف ، تابوا

فَكَيْفَ حَلَّتْ لِدَاكَ الْغَرِيبِ وَصِرَتْ مُحَرَّمَةً لِلْأَبِ ؟
أَلَيْسَ الْغِرَاسُ لِمَنْ رَبَّهُ وَرَوَاهُ فِي عَامِهِ الْمُجْدِبِ ؟
وَمَا الْخُمْرُ إِلَّا كَمَا السَّحَابُ بِطَلْقٍ ، فَقُدِّسَتْ مِنْ مَذْهَبِ !
فَعَلَى مُعْتَقِدِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ بِهَيْلَةِ الْمُبْتَهِلِينَ ! وَهَذِهِ الطَّبَقَةُ - لَعْنَهَا اللَّهُ -
تَسْتَعْبِدُ الطَّغَامَ بِأَصْنَافٍ مُخْتَلِفَةٍ !

دعوى الربويية

وَقَدْ كَانَ بِالْيَمَنِ رَجُلٌ يَحْتَجِبُ فِي حِصْنٍ لَهُ ، وَيَكُونُ الْوَاسِطَةَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ النَّاسِ خَادِمًا لَهُ أَسْوَدًا ، قَدْ سَمَّاهُ « جَبْرِيلَ » فَقَتَلَهُ الْخَادِمُ فِي بَعْضِ
الْأَيَّامِ وَانصَرَفَ ، فَقَالَ بَعْضُ الْمُجَانِّ :

« تَبَارَكَ اللَّهُ فِي عُلَاهُ فَرًّا مِنَ الْفِسْقِ جَبْرِيلُ

وَصَلَّ مَنْ تَزَعَّمُونَ رَبًّا وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ قَتِيلُ »

وَيُقَالُ : إِنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ مَا كَانَ يُكَلِّفُهُ مِنَ الْفِسْقِ .
وَإِذَا طَمِعَ بَعْضُ هَوَاهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَقْنَعُ بِالْإِمَامَةِ ، وَلَا النُّبُوَّةِ ، وَلَكِنَّهُ
يَرْتَفِعُ صُعُدًا فِي الْكَيْدِ !

*
* *

وَلَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُقَدِّمُ عَلَى هَذِهِ الْعِظَائِمِ ، بَلْ كَانَتْ

وقوله :

شر النساء مشاعات - يكن لنا كالارض - يحملن أبناء مشاعينا

عُقُولُهُمْ تَجَنُّحٌ إِلَى رَأْيِ الْحُكَمَاءِ ، وَمَا سَلَفَ مِنْ كُتُبِ الْقُدَمَاءِ - إِذْ كَانَ أَكْثَرُ الْفَلَاسِيفَةِ لَا يَقُولُونَ بِنَبِيِّ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى ذَلِكَ بِعَيْنِ النِّبِيِّ .

ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي

وَكَانَ رَيْبَعَةُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلْفِ الْجَمْحِيِّ جَرَى لَهُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - خَطْبٌ ، فَلَحِقَ بِالرُّومِ ، وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ :

« لِحَقَّتْ بِأَرْضِ الرُّومِ - غَيْرَ مُفَكِّرٍ بِتَرْكِ صَلَاةٍ مِنْ عِشَاءٍ وَلَا ظَهْرِ
فَلَا تَتْرُكُونِي مِنْ صَبُوحِ مُدَامَةٍ فَمَا حَرَّمَ اللَّهُ السُّلَافَ (١) مِنْ الْخَمْرِ
إِذَا أُمِرْتُ (٢) « تَيْمٌ بِنُ مِرَّةٍ » فِيكُمْ فَلَا خَيْرَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ وَلَا مِصْرٍ
فَإِنَّ يَكُ إِسْلَامِي هُوَ الْحَقُّ وَالْهُدَى فَإِنِّي قَدْ خَلَيْتُهُ لِأَبِي بَكْرٍ ا »

*
* *

وَأَفْتَنَ النَّاسُ فِي الضَّلَالَةِ ، حَتَّى اسْتَجَاذُوا دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ ، فَكَانَ ذَلِكَ تَنْطُسًا (٣) فِي الْكُفْرِ ، وَجَمْعًا لِلْمَعْصِيَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدْفَعُونَ النُّبُوَّةَ ، وَلَا يُجَاوِزُونَ ذَلِكَ إِلَى سِوَاهُ .

سمير بن أدكن

وَلَمَّا أَجَلَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - أَهْلَ الذِّمَّةِ عَنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْجَالِينِ . فَيُقَالُ إِنَّ رَجُلًا مِنْ يَهُودِ بَنِي خَيْبَرَ ، يُعْرَفُ بِسَمِيرِ بْنِ أَدَكْنِ ، قَالَ فِي ذَلِكَ :

(١) ما تحلب وسال قبل العصر، وهو أفضل الخمر (٢) صارت أميرة (٣) تأنقاً

« يَصُولُ أَبُو حَفْصٍ عَلَيْنَا بِدِرَّةٍ ^(١) »
كَأَنَّكَ لَمْ تَتَّبِعْ حُمُولَةَ مَا قِطِيطِ
فَلَوْ كَانَ « مُوسَى » صَادِقًا مَا ظَهَرَ تُمُّ
وَنَحْنُ سَبَقْنَاكُمْ إِلَى الْمَيْنِ ، فَأَعْرِفُوا
مَشِيَّتُمْ عَلَى آثَارِنَا فِي طَرِيقِنَا
رُوَيْدَكَ ، إِنَّ الْمَرْءَ يَطْفُو وَيَرْسُبُ
لِتَشْبَعِ ، إِنَّ الزَّادَ شَيْءٌ مُجَبَّبُ
عَلَيْنَا ، وَلَكِنْ دَوْلَةٌ تُمُّ تَذْهَبُ
لَنَا رُتْبَةَ الْبَادِي الَّذِي هُوَ أَكْذَبُ
وَبُعَيْتُكُمْ فِي أَنْ تَسُودُوا وَتَرْهَبُوا »

*
* *

وَمَا زَالَ الْيَمَنُ - مُنْذُ كَانَ - مَعْدِنًا لِلْمُتَكَسِّبِينَ بِالتَّدِينِ ، وَالْمُحْتَالِينَ
عَلَى السُّخْتِ بِالتَّرِيثِ . وَحَدَّثَنِي مَنْ سَافَرَ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ : أَنَّ بِهِ الْيَوْمَ جَمَاعَةً ،
كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ ، فَلَا يَعْذَمُ جِبَايَةً مِنْ مَالٍ ، يَصِلُ بِهَا إِلَى
خَسِيسِ الْأَمَالِ .

القرامطة

وَحِكِي لِي أَنَّ لِلْقَرَامِطَةِ بِالْأَحْسَاءِ بَيْتًا يَزْعُمُونَ أَنَّ إِمَامَهُمْ يَخْرُجُ
مِنْهُ ، وَيُقِيمُونَ عَلَى بَابِ ذَلِكَ الْبَيْتِ فَرَسًا بِسَرِجٍ وَجِلَامٍ ، وَيَقُولُونَ لِلْهَمِجِ
وَالطَّفَامِ : « هَذَا الْفَرَسُ لِرِكَابِ الْمَهْدِيِّ ، يَرْكَبُهُ مَتَى ظَهَرَ ^(٢) » ، وَإِنَّمَا

(١) سوط يضرب به (٢) وفي ذلك يقول أبو العلاء :

يرقب الناس أن يقوم إمام	ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن ، لا إمام سوى العق	ل مشيراً في صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرح	مة عند المسير والإرساء
إنما هذه المذاهب أسبا	ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
كالذي قام يجمع « الزنج » بالبه	رة « والقرمطي » بالأحساء
فانفرد ما استطعت ، فالقائل الصا	دق يضحى ثقلاً على الجلساء

غَرَضُهُمْ بِذَلِكَ خَدَعٌ وَتَعْلِيلٌ ، وَتَوَصَّلُ إِلَى الْمَمْلَكَةِ وَتَضْلِيلٌ .
 وَمِنْ أَعْجَبِ مَا سَمِعْتُ أَنَّ بَعْضَ رُؤَسَاءِ الْقَرَامِطَةِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ ، لَمَّا
 حَضَرَتْهُ الْمَنِيَّةُ ، جَمَعَ أَصْحَابَهُ ، وَجَعَلَ يَقُولُ لَهُمْ - لَمَّا أَحْسَنَ بِالْمَوْتِ - :
 « إِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى النُّقْلَةِ ، وَقَدْ كُنْتُ بَعَثْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدًا ، وَلَا
 بُدَّ لِي أَنْ أُبْعَثَ غَيْرَ هَؤُلَاءِ » فَعَلَيْهِ اللَّعْنَةُ ، لَقَدْ كَفَرَ أَكْثَرَ الْكُفْرِ فِي
 السَّاعَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنَ فِيهَا الْكَافِرُ ، وَيُؤْتِيبَ إِلَى آخِرَتِهِ الْمُسَافِرُ .

الوليد بن يزيد

وَأَمَّا الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ ، فَكَانَ عَقْلُهُ عَقْلَ وَلِيدٍ ، وَقَدْ بَلَغَ سِنَّ الْكَهْلِ
 الْجَلِيدِ ، وَقَدْ رُوِيَ لَهُ أَشْعَارٌ ، يَلْحَقُ بِهَا الْعَارُ ، كَقَوْلِهِ :

« أَذِنِيَا مِثِّي خَلِيلِي « عَبْدَلَا » دُونَ الْإِزَارِ
 فَلَقَدْ أَتَيْتُ أَنِي غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ
 وَاتْرُكَا مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ يَسْعَى فِي خَسَارِ
 سَارُوضُ النَّاسِ ، حَتَّى يَرْكَبُوا دِينَ الْجَمَارِ »

فَالعَجَبُ لِمَنْ صِيرَ مِثْلَهُ إِمَامًا . وَلَعَلَّ غَيْرَهُ - مِمَّنْ مَلَكَ - يَعْتَقِدُ مِثْلَهُ
 أَوْ قَرِيبًا ، وَلَكِنْ يُسَايِرُ وَيَخَافُ تَرْيِبًا . وَمِمَّا يُرَوَى لَهُ :

« أَنَا الْإِمَامُ الْوَلِيدُ مُفْتَخِرًا أَجْرُ بُرْدِي ، وَأَسْمَعُ الْغَزَالَ
 مَا الْعَيْشُ إِلَّا سَمَاعُ مُحْسِنَةٍ وَقَهْوَةٌ تَتْرُكُ الْفَتَى تَمِيلًا
 أَسْحَبُ ذَيْلِي إِلَى مَنَازِلِهَا وَلَا أَبَالِي مَنْ لَامَ أَوْ عَدَلَا
 لَا أَرْتَجِي الْخُورَ فِي الْخُلُودِ ، وَهَلْ يَأْمَلُ خُورَ الْجِنَانِ مَنْ عَقَلَا ؟

إِذَا حَبَّتْكَ الْوَصَالُ فَإِنِّيَةٌ فَجَازَهَا بِذَلِكَ ، كَمَنْ وَصَلَا «
 وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمَّا أَحْيَطَ بِهِ ، دَخَلَ الْقَصْرَ وَأَغْلَقَ بَابَهُ ، وَقَالَ :
 دَعُوا لِي هِنْدًا وَالرَّابَّ وَفَرَّتَنِي وَمُسْمِعَةً ، حَسْبِي بِذَلِكَ مَا لَا
 خُدُوا مُلْكَكُمْ ، لَا بُدَّ لِلَّهِ مُلْكُكُمْ فَلَيْسَ يُسَاوِي بَعْدَ ذَلِكَ عِقَالًا
 وَخَلُّوا سَبِيلِي قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى (١) وَلَا تَحْسُدُونِي أَنْ أُمُوتَ هُزَالًا
 فَأَلْبَ عَنْ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ أَيُّ أَلْبٍ ، وَرُويَ رَأْسُهُ فِي فَمِ كَلْبٍ ! كَانَ حَقُّ
 الْإِخْلَافَةِ أَنْ تُفْضَى إِلَى مَنْ هُوَ بِنَسَبِكَ مَعْرُوفٌ ، لَا تَصْرِفُهُ عَنِ الرَّشْدِ صُرُوفٌ .
 وَلَكِنَّ الْبِلْدِيَّةَ خُلِقَتْ مَعَ الشَّمْسِ ، فَهَلْ يَخْلُصُ مَنْ سَكَنَ فِي رَمْسٍ ؟

أبو عيسى بن الرشيد

وَأَمَّا « أَبُو عَيْسَى بْنُ الرَّشِيدِ » فَإِنْ صَحَّ مَا رُويَ عَنْهُ ، فَقَدْ بَانَ بِذَلِكَ
 أَسْلَافُهُ ، وَمَا يَحْفِلُ رَبُّهُ بِالْعَبِيدِ ، صَائِمِينَ لِلْخِيفَةِ وَلَا مُفْطِرِينَ (٢) وَرُبَّمَا كَانَ
 الْجَاهِلُ أَوْ الْمُتَجَاهِلُ ، يَنْطِقُ بِالْكَلِمَةِ وَخَلْدُهُ بِضِدِّهَا أَهْلًا !
 وَإِنَّمَا أَقُولُ ذَلِكَ ، رَاجِيًا أَنَّ أَبَا عَيْسَى وَنُظْرَاءَهُ ، لَمْ يَتَّبِعُوا فِي النِّعَى أَمْرَاءَهُ ،
 وَأَنَّهُمْ عَلَى سِوَى مَا عَلَنَ يَبْتَئُونَ ، لَقَدْ وَعَظَهُمُ الْمَيْتُونَ . . .
 وَكَانَ « أَبُو عَيْسَى » الْمَذْكُورُ يُسْتَحْسَنُ شِعْرُهُ فِي الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ ،
 وَأَنْشَدَ لَهُ الصُّوْلِيُّ فِي نَوَادِرِهِ :

(١) قبل عير وما جرى : أى فى الحال
 أكثر من مرة . فمن ذلك قوله :

تورعوا يا بنى حواء عن كذب
 فما لكم عند ربِّ صاغم خطرُ
 لم تجذبوا لقبيح من فعالكم
 ولم يجئكم - لحسن التوبة - المطر

« لِسَانِي كَتُّومٌ لِأَسْرَارِهِ وَدَمْعِي نَمُومٌ بِسِرِّي مُذِيعٌ
وَلَوْلَا دُمُوعِي كَثَمْتُ الْهُوَى وَلَوْلَا الْهُوَى لَمْ يَكُنْ لِي دُمُوعٌ »
فَإِنْ كَانَ فَرًّا مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ ، فَلَعَلَّهُ يَقَعُ فِي تَعْذِيبِ الدَّهْرِ !

الجنّابي (١)

وَأَمَّا الْجَنَابِيُّ ، فَلَوْ عُوقِبَ بِلَدِّ بَيْنِ يَسْكُنُهُ ، لَجَازَ أَنْ تُؤْخَذَ بِهِ « جَنَابَةٌ » ،
وَلَا يُقْبَلُ لَهَا إِنَابَةٌ ، وَلَكِنَّ حُكْمَ الْكِتَابِ الْمُنْزَلِ أَجْدَرُ وَأَحْرَى ، أَنْ لَا تَزِرَ
وَأَزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى «
فَعَلَيْهِ اللَّعْنَةُ !

(١) الجنّابي

٢٨٦ - ٣٣١ هـ

اسمه سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي ، بلده « جنّابة » من أعمال فارس
متصلة بالبحرين ، وكنيته أبو طاهر ، وقد امتلأت كتب التاريخ بخروج « القرامطة » على
الخلفاء والملوك وحروبهم معهم ، فلا حاجة الى الافاضة في ذلك ، وحسبنا أن نلم
بتاريخه موجزين :

ظهر في سنة ٢٨٦ هـ بالبحرين ، وانضم اليه عدد من الأعراب والقرامطة ، ثم ارتفع شأنه ،
وقويت شوكته ، فقتل من حوله من أهالي تلك القرى ، ولما قرب من نواحي البصرة ، جهز
اليه المعتضد بالله جيشاً فهزمه الجنّابي ، وقتل الأسرى وأحرقهم ، واستبقى قائده ، ثم أطلقه بعد
أيام وقال له : « امض الى صاحبك ، وعرفه ما رأيت » ودخل بغداد في رمضان تلك السنة ،
وحضر بين يدي المعتضد ، فخلع عليه . ودخل القرامطة الشام سنة ٢٨٩ هـ وجرت وقائع بين
الفريقين ، ثم قتله خادمه سنة ٣٣١ هـ في الحمام .

وقد مر في رسالة ابن القارح المنشورة في الجزء الأول من هذا الكتاب إشارة اليه

العلوى البصرى

وَأَمَّا الْعَلَوِيُّ الْبَصْرِيُّ ، فَذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ خُرُوجِهِ
يَذُكُرُ أَنَّهُ : مِنْ « عَبْدِ الْقَيْسِ » ثُمَّ مِنْ « أَنْفَارِ » وَكَانَ اسْمُهُ « أَحْمَدَ »
فَلَمَّا خَرَجَ تَسَمَّى « عَلِيًّا » .

وَالكَذِبُ كَثِيرٌ جَمًّا ، كَأَنَّهُ فِي النَّظَرِ طَوْدٌ أَشْمٌ ، وَالصَّدَقُ لَدَيْهِ كَالْحَصَاةِ ،
تُوطَأُ بِأَقْدَامِ عُصَاةٍ . وَتِلْكَ الْآيَاتُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَيْهِ مَشْهُورَةٌ ، وَهِيَ :
أَيَا حِرْفَةَ الزَّمَنِ ا - أَلَمْ بِكَ الرَّدَى - أُمَالِي خَلَاصٌ مِنْكَ - وَالشَّمْلُ جَامِعٌ ؟
لَنْ قِنَعَتْ نَفْسِي بِتَعْلِيمِ صَبِيَّةٍ - يَدَ الدَّهْرِ - إِنِّي بِالْمَذَلَّةِ قَانِعٌ
وَهَلْ يَرْضَيْنَ حُرٌّ بِتَعْلِيمِ صَبِيَّةٍ وَقَدْ ظَنَّ أَنَّ الرِّزْقَ فِي الْأَرْضِ وَاسِعٌ ؟
وَمَا أَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ حَمَلُهُ حُبُّ الْحَطَّامِ ، عَلَى أَنْ غَرِقَ فِي بَحْرِ طَامٍ ا

*
*
*

وَقَدْ رُوِيَ لَهُ أَيْتٌ تَدُلُّ عَلَى تَأَلُّهِ ، وَمَا أُدْفَعُ أَنْ تَكُونَ قِيلَتْ عَلَى
لِسَانِهِ ، لِأَنَّ مَنْ خَبَرَ هَذَا الْعَالَمَ حَكَمَ عَلَيْهِ بِفُجُورٍ وَمِينٍ . وَالْآيَاتُ :

« قَتَلْتُ النَّاسَ إِشْفَاقًا عَلَى نَفْسِي كَيْ تَبْقَى

وَحُزْتُ الْمَالَ بِالسَّيْفِ لِيَكُنْ أُنْعَمَ ، لَا أَشْقَى

فَمَنْ أَبْصَرَ مَثْوَايَ فَلَا يَظْلِمُ إِذَا خَلَقَا ا

فَوَاوَيْلِي إِذَا مَا مِتُّ - عِنْدَ اللَّهِ : مَا أَلْتَقَى ؟

أَخْلَدًا فِي جِوَارِ اللَّيْهِ ؟ أَمْ فِي نَارِهِ أَلْتَقَى ؟ »

*
*
*

وَأُنشِدَنِي بَعْضُهُمْ آيَاتًا قَافِيَةً طَوِيلَةَ الْوَزْنِ ، وَقَافِيَتَهَا مِثْلُ هَذِهِ الْقَافِيَةِ ،
قَدْ نُسِبَتْ إِلَى عَضُدِ الدَّوْلَةِ . وَقِيلَ إِنَّهُ أَفَاقَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَكَتَبَهَا عَلَى
جِدَارِ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ . وَقَدْ نُحِيَ بِهَا نَحْوُ آيَاتِ الْبَصْرِيِّ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّهَا
مُتَكَلِّفَةٌ ، صَنَعَهَا رَقِيعٌ مِنَ الْقَوْمِ ، وَأَنَّ عَضُدَ الدَّوْلَةِ مَا سَمِعَ بِهَا قَطُّ .

*
* *

وَأَمَّا الْحِكَايَةُ عَنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ صَحَّفُوا رَحْمَةً ، فَقَالُوا رَحْمَةً ،
فَلَا أُصَدِّقُ بِمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا ، وَالْكَذِبُ غَالِبٌ ظَاهِرٌ ، وَالصُّدُقُ
خَفِيُّ مُتَضَائِلٍ (١) !

وَكَذَلِكَ ادَّعَاهُ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ عَلِيًّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ : « تَهْلِكُ
الْبَصْرَةُ بِالزَّنَجِ » فَصَحَّفَهَا أَهْلُ الْحَدِيثِ بِالرَّيْحِ ، لَا أَوْ مِنْ بَشَى مِنْ ذَلِكَ ،
وَلَمْ يَكُنْ عَلِيٌّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِمَّنْ يُكْشَفُ لَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ . وَفِي الْكِتَابِ
الْعَزِيزِ : « لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » وَفِي الْحَدِيثِ
الْمُتَأَثِّرِ : « لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدِي إِلَّا اللَّهُ » .

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخْبَرَ مُخْبِرٌ مُنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ أَنَّ أَمِيرَ حَابَ - حَرَسَهَا اللَّهُ -
فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (٢) اسْمُهُ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، وَصِفَتُهُ كَذَا ، فَإِنْ
ادَّعَى ذَلِكَ مُدَّعٍ ، فَإِنَّمَا هُوَ مُتَخَرِّصٌ كَاذِبٌ !

(١) يقول أبو العلاء في هذا المعنى :

والحق يُهمس بينهم ويقام للسوات منبر

ويقول: إذا قلت المحال : رفعت صوتي وإن قلت اليقين : أطلت همسي !

(٢) من هذا نستنتج أن رسالة الغفران كتبت في تلك السنة، وقد أشرنا إلى ذلك في مقدماتنا للرسالة

النجوم

وَأَمَّا النُّجُومُ فَإِنَّمَا لَهَا تَلْوِيحٌ لَا تَصْرِيحٌ . وَحِكِيٌّ أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ
كَانَ يَتَمَثَّلُ كَثِيرًا بِقَوْلِ الرَّاجِزِ :

« لَيْتَ نَجَوْتُ وَنَجَّتْ رَكَابِي مِنْ غَالِبٍ وَمِنْ لَفِيفِ غَالِبٍ

إِنِّي لَنَجَّاءٌ مِنَ الْكَرَائِبِ »

وَأَنَّ غَالِبًا كَانَ فِي مَنْ قَتَلَهُ ، فَهَذَا يَتَّفِقُ مِثْلُهُ . وَأَجْدِرُ بِهَذِهِ الْحِكَايَةِ
أَنْ تَكُونَ مَصْنُوعَةً .

فَأَمَّا مَا تَمَثَّلَهُ بِالشُّعْرِ فَغَيْرُ مُسْتَنَكِرٍ ، وَرُبَّمَا اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ فِي الْوَقْتِ
جَمَاعَةٌ يُسَمَّوْنَ بِهَذَا ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَقْتَرِنَ مَعْنَى بِلَفْظٍ . عَلَى أَنَّ فِي الْأَيَّامِ
سَجَائِبَ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

الأمعي

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ « إِيَّاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ » الْقَاضِيَ كَانَ يَظُنُّ الْأَشْيَاءَ ، فَتُكُونُ
كَمَا ظَنَّ ، وَلِهَذِهِ الْعِلَّةِ قَالُوا : « رَجُلٌ نِقَابٌ »^(١) ، وَالْمَعْيُ « قَالَ أَوْسٌ »^(٢) :
الْأَمْعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ « كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا »^(٣)

(١) النِّقَابُ : المتفرس ، الذي يحدث بالغائب (٢) هو أوس بن حجر التيمي ، أحد

شعراء الجاهلية ، ارجع الى ترجمته في ج ٢ ص « ١٦٥ »

(٣) ومما قيل في هذا المعنى قول بعضهم :

« عليم بأخبار الخطوب بظنه كأن له في اليوم عيناً على غد »

الحلاج^(١)

وَكَمْ افْتُرِيَ لِلْحَلَّاجِ - وَالْكَذِيبُ كَثِيرٌ - وَجَمِيعُ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ بِمَا لَمْ تَجْرِ

وقول آخر :

بصير بأعقاب الأمور ، كأنما تخاطبه من كل أمر عواقبه

وقول ثالث :

بصير بأعقاب الأمور ، كأنما يرى بصواب الظن ما هو واقع

وقول البحتري في سليمان بن وهب :

كأن آراءه - والحزم يتبعها - تزيه كل خفي وهو إعلاني

ما غاب عن عينه ، فالقلب يكلؤه ، وإن تم عينه ، فالقلب يقظان

(١) الحلاج

اسمه الحسين بن منصور ، وكنيته أبو مغيث ، وجده مجوسي ، وبلده « البيضاء » أحد

بلاد فارس ، وكانت وفاته سنة ٣٠٩ هـ

نشأ بواسطة بالعراق ، واشتهر بصحبته لأبي القاسم الجنيد ، ومن في طبقتة ، كما اشتهر

بكفره - وإن بالغ في تعظيمه بعض الناس - ومن شعره قوله :

لا كنت إن كنت أدري : « كيف كنت » ولا

لا كنت إن كنت أدري : « كيف لم أكن »

وقوله المشهور :

ألقاه في اليم مكتوفاً ، وقال له : « إياك إياك أن تبسل بالماء »

وكان يكثر من قوله : « ما في الجبة إلا الله » فسمى « الجبائي » لذلك . وكان يقول

« معبودكم تحت قدمي هذا ! » وقد تصدى الإمام الغزالي للدفاع عنه في فصل طويل عقده في

كتاب (مشكاة الأنوار) اعتذر فيه عن الألفاظ الشديدة التي صدرت منه ، وعزاها إلى

إفراطه في محبة الله ، واستشهد بقول القائل :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا نحن روحان ، حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا !

الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ ، فَإِنَّهُ الْمَيِّنُ لَا أُصَدِّقُ بِهِ . وَمِمَّا يُفْتَعَلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ لِلَّذِينَ قَتَلُوهُ : « أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ إِيَّايَ تَقْتُلُونَ ؟ إِنَّمَا تَقْتُلُونَ بَعْلَةَ الْمَادِرَانِيِّ » وَأَنَّ الْبَعْلَةَ وَجِدَتْ فِي إِصْطَبِلِهَا مَقْتُولَةً .

وَفِي الصُّوفِيَّةِ — إِلَى الْيَوْمِ — مَنْ يَرْفَعُ شَأْنَهُ ، وَبَلَّغَنِي أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ قَوْمٍ يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَهُ ، وَأَنَّهُمْ يَقِفُونَ بِحَيْثُ صُلبَ عَلِيٌّ « دَجَلَةٌ » يَتَوَقَّعُونَ ظُهُورَهُ (١) .

وَلَيْسَ ذَلِكَ بِبَدِيعٍ مِنْ جَهْلِ النَّاسِ ، وَلَوْ عَبْدَ عَابِدٍ ظَنِّي كِنَاسٍ (٢) !

إجلال القرود

فرد زبيدة وفرد بزبد

فَقَدْ نَزَلَ حَظٌّ عَلَى قِرْدٍ ، فَظَفِرَ بِأَكْرَمِ الْوَرْدِ ، وَقَالَتِ الْعَامَّةُ :
« اسْجُدْ لِلْقِرْدِ فِي زَمَانِهِ ! »

وفي رسالة ابن القارح طرف من أخباره

(١) كان السبب في صلبه ، كلام جرى منه في مجلس « حامد بن العباس » وزير المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر ، فأفتى بحل دمه ، وكتب بخطه ذلك ، وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء ، فقال لهم الحلاج : « ظهري حمي ، ودمي حرام ، وما يحل لكم أن تقولوا علي ، وأنا اعتقادي الاسلام ، ومذهبي السنة ، وتفضيل الأئمة الأربعة ، الخلفاء الراشدين ، ولي كتب في السنة ، فالله الله في دمي ! » ولم يزل يردد هذا القول — وهم يكتبون — حتى أتموا ما هم فيه ، ونهضوا من المجلس وحملوا الحلاج إلى السجن ، ثم جلدوا أمام العامة حتى قتل ، ثم صلب ، ثم قطعت أطرافه ، وجز رأسه ، وأحرقت جثته ، ثم ألقيت في « دجلة » واتفق أن فاضت مياهها في تلك السنة فيضانا كثيرا ، فادعى أصحابه أن سبب ذلك هو سحق الحلاج .

(٢) الكناس : بيت الظبي في الشجر يستتر فيه

وَأَنَا أَتَحَوَّبُ^(١) مِنْ ذِكْرِ الْقِرْدِ الَّذِي يُقَالُ إِنَّ الْقُوَادَ - فِي زَمَنِ
« زُبَيْدَةَ » - كَانُوا يَدْخُلُونَ لِلسَّلَامِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ « يَزِيدَ بْنَ مَزِيدِ الشَّيْبَانِيَّ »
دَخَلَ فِي جُمْلَةِ الْمُسَلِّمِينَ فَقَتَلَهُ .
وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ « يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ » كَانَ لَهُ قِرْدٌ يَحْمِلُهُ عَلَى أَتَانٍ وَحَشِيَّةٍ ،
وَيُرْسِلُهَا مَعَ الْخَيْلِ فِي الْحَلْبَةِ^(٢) .

رجعة إلى الحلج

وَأَمَّا الْأَيَّاتُ الَّتِي عَلَى الْبَاءِ :
« يَا سِرٌّ سِرٌّ يَدِيقٌ حَتَّى
يَجِلُّ عَنْ وَصْفِ كُلِّ حَيْءٍ
وِظَاهِرًا بَاطِنًا تَبَدَّى
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِكُلِّ شَيْءٍ
يَا جُمَّةَ الْكُلِّ لَسْتَ غَيْرِي
فَمَا اعْتِذَارِي إِذَنْ إِلَى ؟ »
فَلَا بَأْسَ بِنَظْمِهَا فِي الْقُوَّةِ ، وَلَكِنْ قَوْلُهُ « إِلَى » عَاهَةٌ فِي الْأَيَّاتِ ،
وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ « الْكُلُّ » فَإِنَّ إِدْخَالَ الْأَلِفِ وَاللَّامَ مَكْرُوهٌ .
وَكَانَ « أَبُو عَلِيٍّ » يُحِيزُهُ ، وَيَدَّعِي إِجَازَتَهُ عَلَى « سَيْبَوِيهِ » .
فَأَمَّا الْكَلَامُ الْقَدِيمُ ، فَيُفْتَقَدُ فِيهِ^(٣) (الْكُلُّ) وَ(الْبَعْضُ) .
وَقَدْ أَنْشَدُوا يَتَنَا لِسُحَيْمٍ :

(١) أجتنب الحوب ، أى الإثم ، أو أتمرج منه ، وهى أيضاً بمعنى أتوجع باكياً فى جزع
وصياح (٢) الخيل تجمع للسباق (٣) قال فى اللسان : « وفى حديث عائشة رضى الله عنها
« افتقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى لم أجده ، هو افتعلت ، من فقدت الشئ - أفقده
إذا غاب عنك »

« رَأَيْتُ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ كِلَيْهِمَا إِلَى الْمَوْتِ، يَأْتِي الْمَوْتُ لِلْكَلِّ مُعَمِّدًا »

مذهب الحلول^(١)

وَيُنشَدُ لِفَتَى كَانَ فِي زَمَنِ الْخَلَّاجِ :

إِنْ يَكُنْ مَذْهَبُ الْخُلُولِ صَحِيحًا فَأِلْهِ فِي حُرْمَةِ الزَّجَّاجِ
عَرَّضْتُ فِي غِلَاةٍ بِطِرَازِ بَيْنَ دَارِ الْعَطَّارِ وَالْثَّلَاجِ
زَعَمُوا لِي أَمْرًا - وَمَا صَحَّ - لَيْكُنْ هُوَ مِنْ إِفْكِ شَيْخِنَا الْخَلَّاجِ

(١) مذهب الحلوية - أو مذهب الحلول - هو الادعاء بحلول الله - سبحانه - في الأشخاص، لأصحاب هذا المذهب ادعاءات لا يحصيها العد ، فقد ادعى بعضهم أن روح الله حلت في الأنبياء ، واحداً بعد واحد ، حتى حلت في أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية ، وادعى غيرهم أنها حلت في أبي مسلم ؛ وادعى آخرون حلول الله في الصور الحسان ، فكان « الحلمانية » إذا رأوا صورة حسنة ، سجدوا لها ، واهمين أن الله حل فيها ؛ واستدل بعض هؤلاء على جواز حلول الله في الأجساد ، بقوله تعالى للملائكة في آدم : « فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين » وزعموا أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، لأنه خلقه في أحسن تقويم ، بدليل قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » وزعم الحللاج أن من هذب نفسه بالطاعة ، وصبر على اللذات والشهوات ، ارتقى الى مقام المقربين ؛ ولا يزال يصفو ويرتقى في درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية ، فاذا لم يبق فيه منها حظ ، حل فيه روح الله ، الذي حل في عيسى بن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئاً إلا كان كما أراد ؛ وكان جميع فعله فعل الله تعالى ولنجتزىء بهذا القدر ، فان فيما أورده أبو العلاء في هذا الفصل ، وما أورده ابن القارح في رسالته ، غناء وكفاية

وَهَذِهِ الْمَذَاهِبُ قَدِيمَةٌ ، تَنْتَقِلُ فِي عَصْرِ بَعْدَ عَصْرٍ . وَيُقَالُ : إِنَّ فِرْعَوْنَ
كَانَ عَلَى مَذْهَبِ الْحُلُولِيَّةِ ، فَلِذَلِكَ ادَّعَى أَنَّهُ رَبُّ الْعِزَّةِ !

*
* *

وَحِكِي عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي تَسْبِيحِهِ : « سُبْحَانَكَ سُبْحَانِي ،
غُفْرَانُكَ غُفْرَانِي ! » وَهَذَا هُوَ الْجُنُونُ الْعَالِي ، إِنَّمَا مَنْ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ
مَعْدُودٌ فِي الْأَنْعَامِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

« أَنَا أَنْتَ - بِلا شَكِّ - فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانِي
وَإِسْخَاطُكَ إِسْخَاطِي وَغُفْرَانُكَ غُفْرَانِي
وَلِمَ أُجْلِدُ يَا رَبُّ إِذَا قِيلَ هُوَ الزَّانِي ؟ »

وَبَنُو آدَمَ بِلا عُقُولٍ ، وَهَذَا أَمْرٌ يُلْقِنُهُ صَغِيرٌ عَنْ كَبِيرٍ « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا »
وَيُرَوَّى لِبَعْضِ أَهْلِ هَذِهِ النَّحْلَةِ :

رَأَيْتُ رَبِّي يَمْشِي بِلا لَكَّةِ (١) فِي سُوقِ يَحْيَى ، فَكِدْتُ أَنْفَطِرُ
فَقُلْتُ : « هَلْ فِي اتِّصَالِنَا طَمَعٌ ؟ » فَقَالَ « هَيْهَاتَ ، يَمْنَعُ الْحَذَرُ »
وَلَوْ قَضَى اللَّهُ أُلْفَةً بِهِـوَى لَمْ يَكُ إِلَّا السُّجُودُ وَالنَّظَرُ

(١) هكذا وجدناها في جميع النسخ التي ظفرنا بها ، ولعل صوابها : « يمشى بمألكة »

التناسخ^(١)

وَتُوِّدِي هَذِهِ النَّحْلَةَ إِلَى التَّنَاسُخِ ، وَهُوَ مَذْهَبٌ عَتِيقٌ ، يَقُولُ بِهِ أَهْلُ
الْهِنْدِ ، وَقَدْ كَثُرَ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الشُّعْبَةِ ، نَسَأَ اللَّهُ التَّوْفِيقَ وَالْكَفَايَةَ .

(١) التناسخ

هو مذهب القائلين بانتقال الأرواح بعد مغادرة أجسادها ، الى أجساد أخرى ، ويرى بعضهم أن ذلك يحدث ولو لم تكن تلك الأجساد من نوع الأجساد التي فارقتها الروح ، وبهذا الزعم يدين الكثيرون ، منهم القرامطة ، وأحمد بن حاطط ، وتلميذه أحمد بن نانوس ، وأبو مسلم الخراساني ، ومحمد بن زكريا الرازي الطيب . ومما ذكره الرازي في بعض كتبه قوله : « لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح عن الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية ، إلى الأجسام المتصورة بصور الانسان ، إلا بالقتل والذبح ، لما جاز ذبح شيء من الحيوان البتة » ويزعمون أن التناسخ هو نوع من العقاب والثواب ؛ فالفاسق السيئ العمل ، يعاقب على ذلك بأن تنتقل روحه إلى أجساد البهائم الخبيثة المرتطمة في الأقدار ، والمسخرة للمهنة بالذبح !



وزعم بعضهم أن الله - سبحانه - أبدع خلقه أسماء سالمين عقلاء بالفين ، في دار سوى هذه الدار الدنيا ، وخلق فيهم معرفته ، والعلم به ، وأسبغ عليهم نعمه ، فابتدأهم بتكليف شكره ، فأطاعه بعضهم في جميع ما أمرهم به ، وعصاه بعضهم في جميع ذلك ، وأطاعه بعضهم في بعض دون بعض ، فمن أطاعه في الكل ، أقره دار النعيم التي ابتدأهم فيها ، ومن عصاه في الكل أخرجته من تلك الدار إلى دار العذاب ، وهي النار . ومن أطاعه في بعض ، وعصاه في البعض آخر ، أخرجته إلى دار الدنيا ، فألبسه هذه الأجساد الكثيفة ، وابتلاه بالبأساء والضراء ، والشدة والرشاء ، والآلام واللذات ، على صور مختلفة من صور الناس . وسائر الحيوانات على قدر ذنوبهم ، فمن كانت معاصيه أقل ، وطاعاته أكثر ، كانت صورته أحسن

وَيُنشِدُ لِرَجُلٍ مِّنَ النَّصِيرِيَّةِ :

وآلامه أقل ، ثم لا يزال يكون في الدنيا كرة بعد كرة ، وصورة بعد أخرى ، ما دامت معه ذنوبه وطاقاته

*
* *

واستدل من يعتقد بالتناسخ من المسلمين ، على صحة زعمهم بقوله تعالى : « يا أيها الانسان ! ما غرك بربك الكريم ؟ الذي خلقك ، فسواك فعدلك ، في أى صورة ما شاء ركبك » وبالآية الأخرى : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً ، يذروكم فيه » واستدل غير المسلمين منهم على صحة مذهبهم ، بأن النفس لا تنتهى ، والعالم لا يتناهى لأمد ، فالنفس منتقلة أبداً ، وليس انتقالها إلى نوعها بأولى من انتقالها إلى غير نوعها

*
* *

وأنكرت طائفة أخرى ، انتقال الأرواح إلى غير أنواع أجسادها التي فارقتها ، بعد أن أقرت انتقالها إلى أنواع أجسادها ، فقالت : « بما أنه لا تنهى للعالم ؛ فوجب أن تتردد النفس في الأجساد أبداً ، ولكن لا يجوز أن تنتقل إلى غير النوع الذى أوجب لها طبعها الإشراف عليه ، وتعلقها به »

وفى كتابي الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني ، فصلان نافعان ، وقد عنى ابن حزم بتفنيد كثير من هذه الآراء وإدحاضها .

*
* *

وقد شاع فى الهند هذا المذهب كما شاع فيها غيره ، منذ أقدم أزمنة التاريخ ، ثم عرفه العرب فى أواخر القرن الأول ، ودان به الشيعة ، كما دانوا بمذهب الحلول والرجعة وغير ذلك من المذاهب القريبة منهما . ولم يأت القرن الرابع حتى انتشرت تلك المذاهب ، وذاع أمرها ، وساعد على انتشارها فتح محمود بن سبكتكين بلاد الهند ، وقد كان ذلك الفتح سبباً فى توثق العلاقات بين المسلمين والهنود ، فكثرت تبادل الآراء بينهم ، وانتشرت تجارة الهند بالعراق ، ووفد بعض الهنود إلى مدينة السلام .

« إِعْجَبِي أُمَّنَا ! لِصَرْفِ اللَّيَالِي

« رأى أبي العلاء في التناسخ »

فاذا شئت أن تعرف رأى أبي العلاء في التناسخ ، أمكنك أن تلمحه فيما تقرؤه له في هذا الفصل ، من السخرية والتبرم .

ولا ريب أن أبا العلاء ، درس هذا المذهب دراسة حقة ، فلم يرض عنه ، وأبدى ارتيابه فيه ، ثم شفع هذا الارتياب بالرفض الصريح في أغلب أشعاره .
فقد ذكر التناسخ في صباه ، على سبيل اللهو والتندر ، وإن لم يفته أن يظهر ارتيابه فيه ، في بيت من قصيدة له ، في « سقط الزند » ، كتبها إلى إبراهيم بن إسحق مدحاً فيه ، وجواباً على قصيدة بعث بها إليه ، والبيت :

فلو صح التناسخ ، كنت « موسى » وكان أبوك « إسحق الذبيحا » !
ثم أنكروه أكثر من مرة إنكاراً صريحاً في لزومياته ، فقال :

يقولون : « إن الجسم ينقل روحه إلى غيره ، حتى يهذبه النقل »
فلا تقبلن ما يخبرونك ، ضلة ، إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

وتهمكم بجماعة القائلين بهذا المذهب ، وأمعن في السخرية منهم ، فقال :

يا آكل التفاح ! لا تبعدن ولا يُقم يوم ردى ثاكلك
قال النصيرى - وما قلته - فاسمع ، وشجع في الوغى ناكلك
قد كنت في دهرك تفاحة وكان تفاحك ذا آكلك
وحرف هاج لحت فيما مضى وطالما تشكله شاكلك

والبيت الأخير سخرية من مذهب القائلين - ومنهم ابن سعيد العجلي ، وهو أحد من ادعى أنه المهدي المنتظر - « إن الأعضاء على صور حروف الهجاء ، وأن الألف منها مثال القدم ، والعين على صورة العين الخ »

وقد سخر من التناسخ ومن يدينون به ، في موضع آخر ، فقال :

فإبال هذا العصر ، ما فيه آية من المسخ ، إن كانت « يهود » رأيت مسخا

جُعِلَتْ أُخْتُنَا « سَكِينَةٌ » فَارَةٌ

وقال بأحكام التناسخ معشر غلوا ، فأجازوا الفسخ في ذاك والرسخا
فقد قسموا التناسخ الى أربعة أقسام . نسخ ومسح وفسخ ورسخ ، وقالوا عن الأول : إنه
انتقال الروح من جسم إنسانى إلى آخر ، أو إلى جسم إنسانى أرفع منه . وعن الثانى إنه : انتقال
الروح إلى بهائم ، وعن الثالث : إنه انتقالها إلى الحشرات . وعن الرابع : إنه انتقالها الى
النبات أو الجماد ...

*

* *

وإنما تحفظ أبو العلاء في ترتيبه في التناسخ أحياناً ، فاحتاط في بعض أشعاره ، ووقف على
الحياد في بعض آخر ، لارتباط هذه المسألة العويصة بالروح ومآلها . وقد جهل أبو العلاء
كنه الروح ومآلها ، فرجم عنها بالظنون والفروض ، على أنه جزم بمآل الجسم ، وعرف غايته
وتطوراته ، فقال :

أما الجسوم ، فلتتراب مآلها وعييت بالأرواح ، أنى تذهب ؟

وإذا يقن أن مآل الجسم الى التراب ، فقد افتن في صيرورته ومآله حين أرسل خياله الى
هذه الناحية ، فأبدع في ذلك ما شاء له الخيال الصافى ، والعقل الراجح الحصيف . قال :

وإذا رجعت إليه صارت أعظمى ترابا تهافت في طوال الأعصر
وقال : خفف الوطاء ، ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
وقال : ولرب أجساد جديرات البرى بالصون صارت في طلاء جدار
وقال : لعل مفاصل البناء تضحى طلاء للسقيفة والجدار
وقال : وإن جعلت - بحمد الله - في خزف يقضى الطهور ، فاني شاكر راضى
جواهر ألفتها قدرة عجب وزايلتها ، فصارت مثل أعراض
وقال : فلا يُيسر فخاراً - من الفخر - عائدٌ إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرة فياً كل فيه - من أراد - ويشرب
وينقل من أرض لأخرى - وما درى - فواها له ا بعد البلى - يتغرب!

فَازْجُرِي هَذِهِ السَّنَائِرَ^(١) عَنْهَا وَاتْرُكِيهَا - وَمَا تَضُمُّ الْغِرَارَةَ^(٢)
وَقَالَ آخِرُ مِنْهُمْ :

تَبَارَكَ اللَّهُ كَاشِفُ الْمِحَنِ فَقَدْ أَرَانَا عَجَائِبَ الزَّمَنِ
حِمَارُ شَيْبَانَ ، شَيْخِ بَلَدَتِنَا ، صَيْرُهُ جَارُنَا أَبُو السَّكَنِ
بُدِّلَ مِنْ مِشِيَّتِهِ بِحُلَّتِهِ مِشِيَّتُهُ فِي الْحِزَامِ وَالرَّسَنِ^(٣)

إلى آخر تلك الأبيات التي لا يتسع المقام لذكرها . وقد اتجه فكر « عمر الخيام » إلى هذه الناحية ، فأبدع فيها وأحسن في رباعياته ، وتمثل أكوأباً تألفت من جُسوم آدمية ؛ تتحدث وتناقش ، كما تمثل كواباً في يد الخراف يقص عليه تاريخ حياته ، ووردة عطرة كانت عادة فاتنة ، ماتت فاستحال جمالها إلى عطر شذى . وقد امتلأت « رباعياته » بهذه الفكرة ممثلة في صور شتى ، وحسب القارىء أن نحيله إليها ليرى بنفسه ذلك . فقد كادت هذه الفكرة تصبح محور فلسفة الخيام في الرباعيات .

*
* *

على أن أبا العلاء لم يرفض التناسخ جملة واحدة ، ولم يجزم ببطلانه جزم المتيقن الواثق في كل مرة ، بل تردد فيه أحياناً فكاد يقبله ، فاذا رأته يقول :

تقادم شخص مضي فأحدث منه البدل

وما صحح إلا امرؤ تصرف ، ثم انجدل

رأيته يقول في مكان آخر :

وتقدم الأرض نفوس أتت مخلوقة من أنفس ثاوية

أو يقول : والجسم كالثوب - على روحه ينزع - إذ يخلق ، أو يتسخ

(١) القلط (٢) الجوالق ، ومعنى البيت : « فأبعدي عنها القلط حتى لا تؤذيها ،

ودعيتها تأكل من الغرارة ما تشاء » (٣) يقول : « إن روح جارنا حلت في حمار شيخ

بلدتنا ، فأصبح ذلك الجار يمشي في الحزام والرهن - بعد أن كان يخطال في حلتها ا »

وَيُصَوِّرُ لَهُمُ الرَّأْيَ الْفَاسِدَ أَبَاجِيرَ^(١) وَمُشَبَّهَاتٍ ، فَيَسْأَلُونَ فِي التُّرَاهَاتِ

مذهب التناسخ في الهند

وَحِكْمِي لِي عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْهِنْدِ ، وَكَانَ شَابًّا حَسَنًا ، أَنَّهُ جُدِرَ ، فَنَظَرَ إِلَى
وَجْهِهِ فِي الْمِرَاةِ وَقَدْ تَغَيَّرَ ، فَأَحْرَقَ نَفْسَهُ ، وَقَالَ : « أُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَنِي اللَّهُ إِلَى

صُورَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ ! »

وَحَدَّثَنِي قَوْمٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ ، مَا هُمْ فِي الْحِكَايَةِ بِكَاذِبِينَ ، وَلَا فِي أَسْبَابِ
النَّحْلِ جَاذِبِينَ : أَنَّهُمْ كَانُوا فِي بِلَادِ مَحْمُودٍ ، وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْهِنْدِ ، قَدْ
وَتَّقَ بِصَفَائِهِمْ ، يُفِيضُ عَلَيْهِمُ الْأَعْطِيَةَ لَوْفَائِهِمْ ، وَيَكُونُونَ أَقْرَبَ الْجُنْدِ
إِلَيْهِ إِذَا حَلَّ أَوْ ارْتَحَلَ ، وَأَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ سَافَرَ فِي جَيْشٍ جَهَّزَهُ ، فَجَاءَ خَبْرُهُ
أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، فَجَمَعَتِ امْرَأَتُهُ لَهَا حَطَبًا كَثِيرًا ، وَأَوْقَدَتْ نَارًا عَظِيمَةً ،
وَاقْتَحَمَتَهَا ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ . وَكَانَ ذَلِكَ الْخَبْرُ بَاطِلًا ، فَلَمَّا قَدِمَ الزَّوْجُ ،
أَوْقَدَ لَهُ نَارًا عَظِيمَةً لِيُحْرِقَ نَفْسَهُ ، حَتَّى يَلْحَقَ بِصَاحِبَتِهِ ، فَاجْتَمَعَ خَلْقٌ كَثِيرٌ
لِلنَّظَرِ إِلَيْهِ . وَأَنَّ أَصْحَابَهُ مِنَ الْهِنْدِ كَانُوا يَحْيِيُونَ إِلَيْهِ فَيُوصُونَ بِأَشْيَاءَ إِلَى
أَمْوَاتِهِمْ^(٢) . هَذَا إِلَى أَبِيهِ ، وَهَذَا إِلَى أَخِيهِ . وَجَاءَهُ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ بِوَرْدَةٍ ، وَقَالَ :
« أُعْطِيَ هَذِهِ فُلَانًا » يَعْنِي مِثْلًا لَهُ . وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي تِلْكَ النَّارِ .

(١) أمورا عظيمة، وأعاجيب (واحدها: بجر، وجمعها: أباجر، وجمع: أباجير) قال الشاعر:

فقلت لها: « بجرًا » فقالت مجيبتى : « أتعجب من هذا — ولي زوج آخر »

(٢) أشار أبو العلاء إلى ذلك في لزومياته فقال

تقول الهند: « آدم كان قنا لنا ، فسرى إليه مخبيوه »

أولئك يحرقون الميت نسكا ويشعره لبانا ملهينوه

وَحَدَّثَ مَنْ شَاهَدَ إِحْرَاقَهُمْ نَفُوسَهُمْ ، أَنَّهُمْ إِذَا لَدَغَتْهُمُ النَّارُ ، أَرَادُوا
الْخُرُوجَ ، فَيَدْفَعُهُمْ مَنْ حَضَرَ إِلَيْهَا بِالْعِصِيِّ وَالْخُشْبِ . فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، لَقَدْ
جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ...

ونذكر بهذه المناسبة ، قوله في تحييد ما يفعله الهند من إحراق موتاهم :

فأعجب لتحريق أهل الهند ميتهم وذاك أروح من طول التباريح
إن حرقوه ، فما ينخشون من ضبع تسرى إليه ولا خفي وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا غباً ، وأذهب للنكراء والريح
« والخفي : نبش الميت » وقوله :

حرق الهند من يموت ، فما زا روه في روحة ولا تبكير
واستراحو من ضغطة القبر ميتاً وسؤال لمنكر ونكير !
وقوله :

إذا حرق الهندي بالنار نفسه فلم يبق نحض للتراب ولا عظم
فهل هو خاش من نكير ومنكر وضغطة قبر — لا يقوم لها نظم ؟

بل لقد وصل إكباره وإعجابه بذلك ، إلى حد أن فضله على الجهاد ، فقال :
يحرِّق نفسه الهندي خوفاً ويقصر — دون ما صنع — الجهاد
وما فعلته عباد النصارى ولا شرعية صباؤا وهادوا
يقرب نفسه للنار عمداً وذلك منه دين واجتهاد
وهنا يحن أبو العلاء إلى الموت حيناً — كما هي عادته الغالبة عليه — فيقول :

وموت المرء نوم طال جداً عليه ، وكل عيشته سهاد

وهو أسلوب آخر من فكرته التي أودعها داليتها الخالدة في قوله :

ضجعة الموت رقدة يسترح ال جسم فيها ، والعيش مثل السهاد
وارجع الى ص ٢٠٥ و ٢٠٦ من هذا الجزء ، لتعرف رأى أبي العلاء في الموت

ابن هانيء الأندلسي

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَتَّظَاهَرُ بِالْمَذْهَبِ وَلَا يَعْتَقِدُهُ ، يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الدُّنْيَا
الْفَانِيَةِ^(١) ، وَهِيَ أَغْدَرُ مِنَ الْوَرَهَاءِ الزَّائِنَةِ . وَكَانَ لَهُمْ فِي الْمَغْرِبِ رَجُلٌ

(١) ردد أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى في كثير من أشعاره ، وأنبأ على تلك الطائفة
التي اتخذت الدين وسيلة للكسب والنفع . وقد أتينا ببضع أمثلة من ذلك في ص « ٢١٧ »
من هذا الجزء ، وإليك نخبة من أبدع ما نختاره له في ذلك :

بخيفة الله تعبدتنا وأنت عين الظالم اللاهي
تأمرنا بالزهد في هذه الدنيا ، وما همك إلا هي !

تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى ولكن لكم فيها التكاثر والكبر

وليس حبر يبدع في صحابته إن سام نفعاً بأخبار تقوُّها
وإنما رام نسواناً تزوجها — بما افتراه — وأموالاً تموتها
لا يخذعك داع قام في ملأ بخطبة زان معناها وطوَّها
فما العظاات — وإن راعت — سوى حيل . من ذى مقال على ناس تحوُّها

رويدك قد غررت — وأنت حر — بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصبياء صباحا ويشربها — على عمد — مساء
يقول لكم : « غدوت بلا كساء » وفي لذاتها رهن الكساء ا

طلب الحسائس وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة ليهوِّها
ويكون غير مصدق بقيامة أمسى يمثل في النفوس ذهوِّها

وكم من قفيه خابط في ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل
وقارئكم يرجو بتطريبه الغنى فأض كما غنى — ليكسب — زلزل

« وزلزل » هذا مُعَنَّ يَضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي اتِّقَانِ الضَّرْبِ بِالْعُودِ

يُعرفُ بابنِ هانئٍ، وَكَانَ مِنْ شُعْرَائِهِمُ الْمُجِيدِينَ، فَكَانَ يَغْلُو فِي مَدْحِ « الْمُعِزِّ »
غُلُوًّا عَظِيمًا، حَتَّى قَالَ فِيهِ - وَقَدْ نَزَلَ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ « رِقَادَةَ » - :
« حَلَّ بِرِقَادَةَ الْمَسِيحِ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحٌ »

عودة الى الخراج

وأدلُّ رُتَبِ الْخَلَّاجِ أَنْ يَكُونَ شَعْوَذِيًّا، لَا تَأْقِبَ الْفَهْمَ وَلَا أَحْوَذِيًّا^(١)،
عَلَى أَنَّ الصُّوفِيَّةَ تَعْظُمُهُ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ، مَا هِيَ لِأَمْرِهِ شَائِفَةٌ

ابن أبي عون

وَأَمَّا ابْنُ أَبِي عَوْنٍ، فَإِنَّهُ أَخَذَ فِي لَوْنٍ بَعْدَ لَوْنٍ، وَقَدْ تَجِدُ الرَّجُلَ حَازِقًا
فِي الصَّنَاعَةِ، يَلِيغًا فِي النَّظَرِ وَالْحُجَّةِ، فَإِذَا رَجَعَ إِلَى الدِّيَانَةِ أَلْفَى كَأَنَّهُ عَيْرٌ
مُقْتَادٌ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُ مَا يَمْتَادُ. وَالتَّالَهُ مَوْجُودٌ فِي الْغَرَائِزِ، وَيُلْقِنُ الطِّفْلُ
النَّاشِئُ مَا سَمِعَهُ مِنَ الْأَكْبَرِ، فَيَلْبَثُ مَعَهُ. وَالَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي الصَّوَامِعِ،
وَالْمُتَعَبِّدُونَ فِي الْجَوَامِعِ، يَأْخُذُونَ مَا هُمْ عَلَيْهِ، كَنَقْلِ الْخَبَرِ عَنِ الْمُخْبِرِ،
لَا يَمَيِّزُونَ الصِّدْقَ مِنَ الْكَذِبِ. فَلَوْ أَنَّ بَعْضَهُمُ أَلْفَى أُسْرَةً مِنَ الْمُجُوسِ
لَخَرَجَ مُجُوسِيًّا^(١). وَإِذَا الْمُتَعَقُّولُ جُعِلَ هَادِيًّا، نَقَعَ بِرِيَّةٍ صَادِيًّا. وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ

(١) يسوق الأمور أحسن مساق لعله بها، والأحوذى أيضاً: الحاذق المشمر للأمر القاهر لها، لا يشذ عليه شيء (٢) من أبداع ما يختاره لأبي العلاء، في هذا المعنى، قوله في لزومياته: وينشأ ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه وما دان الفتى بحجا، ولكن يعلمه التدين أقربوه وطفل الفارسي، له ولادة بأفعال التجسس دربوه

يَصْبِرُ عَلَى أَحْكَامِ الْعَقْلِ^(١)؟ هَيْهَاتَ ا عُدِمَ ذَلِكَ فِي مَنْ تَطَّلَعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ،

(١) لو شئنا الاستشهاد بكل ما كتبه أبو العلاء في النعي على التقليد؛ والحث على تمجيد العقل، والاعتزاز به، والدعوة إلى تحكيمه في كل شيء؛ لملأنا صحفاً كثيرة، لا يسمح لنا بها هذا المقام. فلنجزىء من ذلك بالقليل عن الكثير، وإليك ما نختاره له:

اللب قطب، والأمور له رحي فيه تدبر كلها وتدار

العقل يوضح للنس لك منهجاً، فاحذ حذوه

وليس يظلم قلب وفيه لللب جذوه

كذب الناس، لا إمام سوى العقول مشيراً في صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الرحمة عند المسير والإرساء

صدقت يا عقل، فليبعد أخو سفته صاغ الأحاديث إفاً أو تأولها

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

نكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى يا كرام وتصديق

وينفر عقلي مغضباً إن تركته سدى، واتبع الشافعي ومالكاً

والعقل يعجب، والشرائع كلها خبر يقلد، لم يقسه قانس

.....

وإذا الرياسة لم تعن بسياسة عقلية، خطيء الصواب السائس

قالوا، فمانوا، فلما أن حوتهم إلى القياس، أبانوا المعجز واعترفوا

وإذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتبوه

لا يدينون بالعقول، ولكن بأباطيل زخرف كذبوه

وجاءتنا شرائع كل قوم على آثار شيء رتبوه

وَمَنْ ضَمِنَهُ فِي الرَّمَمِ رَمَسٌ، إِلَّا أَنْ يَشُدَّ رَجُلٌ فِي الْأُمَمِ، يُخَصُّ مِنْ فَضْلِ بَعَمٍ.

وغیر بعضهم أقوال بعض وأبطلت النهی ما أوجبوه
فاحذر، ولا تدع الأمور مضاعة وانظر بقلب مفکر متبصر
تفکر، فقد حار هذا الدلیل وما يكشف النهج غیر الفکر
الفکر حبل متى يمسك على طرف منه، ينط بالثريا ذلك الطرف
فكروا في الأمور يكشف لكم بعض الذي تجهلون بالتفكير
فكرى أنت، ربما هدى الإنسان للمشكلات بالتفكير
إذا كان التقى بلهًا وعيًا فأعيار المذلة أتقياء
وما تريك مرأى العين صادقة فاجعل لنفسك مرآة من الفكر
وجدت أباك مقترياً حديثاً فأنت على مقص الشيخ تفرى
عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا وأورثوا الدين تقليداً كما وجدوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يباليون - من غي - لمن سجدوا
في كل أمرك تقليد رضيت به حتى مقالك: « ربي واحد أحد »
جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأنًا، ولكن فيها ضعف إسناد
فشاور العقل، واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادی
إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهان بالمذاهب وازدراها
فخذ منها بما أداه لب ولا يغمسك جهل في صراها
وهت أديانهم من كل وجه فهل عقل يشد بها عراها؟
هل صح قول من الحاكي فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار؟
أما العقول فآلت أنه كذب والعقل غرس، له بالصدق إثمار

رُبَّمَا لَقِينَا مَنْ نَظَرَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ ، وَتَبِعَ بَعْضَ آثَارِ الْقُدَمَاءِ ، فَالْفِينَاءُ
يَسْتَحْسِنُ قَبِيحَ الْأُمُورِ ، إِنَّ قَدَرَ عَلَى فَطِيحِ رَكْبَتِهِ ، وَإِنْ عَرَفَ وَاجِبًا
نَكْبَتَهُ ، كَانَ الْعَالَمَ سَعْوًا لَهُ فِي إِفْقَادِهِ ، فَهُوَ يَعْتَقِدُ شَرَّ اعْتِقَادٍ ؛ وَإِنْ أُوْدِعَ
وَدِيعَةً خَانَ ، وَإِنْ سُئِلَ عَنْ شَهَادَةٍ مَانَ (١) ، وَإِنْ وَصَفَ لِعَلِيلٍ صِفَةً ، فَمَا يَحْفَلُ :
أَقْتَلَهُ بِمَا قَالَ ، أَمْ ضَاعَفَ عَلَيْهِ الْأَثْقَالَ ؟ بَلْ غَرَضُهُ فِيمَا يَكْتَسِبُ ، وَهُوَ إِلَى
الْحِكْمَةِ مُنْتَسِبٌ . وَرُبَّ زَارٍ بِالْجَهَالَةِ عَلَى أَهْلِ مِلَّةٍ ، وَعِلَّتُهُ الْبَاطِنَةُ أَدَهَى عِلَّةً !
وَإِنَّ الْبَشَرَ لَكَمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ » (٢) وَيَحْضُرُ الْمَجَالِسَ أَنَاسٌ طَاغُونَ ، كَانَتْهُمْ لِلرُّشْدِ بَاغُونَ ، وَأَوْلَاكَ
- عِلْمَ اللَّهِ - أَصْحَابُ الْبِدْعِ وَالْمُنْكَرِ .

كَمْ مُتَظَاهِرٍ بِاعْتِرَالٍ ، يَزْعُمُ أَنَّ رَبَّهُ - عَلَى الذَّرَّةِ - يُخَلِّدُ فِي النَّارِ (٣) ، بَلَّةُ
الدَّرْهِمِ وَبَلَّةُ الدِّينَارِ ، وَمَا يَنْفَكُ يَحْتَقِبُ (٤) مِنَ الْمَأْثِمِ عِظَائِمَ ، وَيَنْهَمِكُ عَلَى
الْعِهَارِ وَالْفِسْقِ . قَدْ صَيَّرَ الْجَدَلَ مَصِيدَةً ، يَنْظِمُ بِهِ مِنَ الْغَىِّ قَصِيدَةً (٥) .

* * *
وَحَدَّثْتُ عَنْ إِمَامِهِمْ ، يُوقَرُ وَيُتَّبَعُ ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَلَسَ فِي الشَّرْبِ (٦) ،

(١) مان : كذب (٢) وفي هذا المعنى يقول أبو العلاء :

وفرقتهم على - علاتها - ملل وعند كل فريق أنهم ثقفوا

(٣) ذكر أبو العلاء هذا المعنى في لزومياته ، فقال :

جنوا كبار آثام ، وقد زعموا أن الصغائر تجني الخلد في النار

وقال : لقد أفلحوا إن كان لم يجر عندهم من الوزر إلا تركهم للمآزر !

(٤) احتقب الشيء : وضعه في حقيبة ، والمراد : يقترف ويكتسب (٥) ارجع الى

ص « ٢٥٤ » من هذا الجزء لتستوفي هذا المعنى (٦) الشرب : مجلس الشراب

وَدَارَتْ عَلَيْهِمُ الْمُسْكِرَةُ ، وَجَاءَهُ الْقَدْحُ ، شَرِبَهُ ، فَاسْتَوْفَاهُ ، وَأَشْهَدَ مَنْ
حَضَرَهُ عَلَى التَّوْبَةِ

عبد الله بن ميمون القداح

وَالشَّيْعةُ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَيْمُونِ الْقَدَّاحِ - وَهُوَ مِنْ «بَاهِلَةَ» - كَانَ
مِنْ عِدِيَةِ أَصْحَابِ «جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ» وَرَوَى عَنْهُ شَيْئًا كَثِيرًا ، ثُمَّ ارْتَدَّ بَعْدَ
ذَلِكَ . فَحَدَّثَنِي بَعْضُ شُيُوخِهِمْ أَنَّهُمْ يَرَوُونَ عَنْهُ ، وَيَقُولُونَ : « حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ مَيْمُونِ الْقَدَّاحِ ، كَأَحْسَنِ مَا كَانَ ! » أَيُّ قَبْلِ أَنْ يَرْتَدَّ . وَيَرَوُونَ لَهُ :

هَاتِ اسْقِنِي الْخَمْرَةَ يَا سَنَبْرُ فَلَيْسَ عِنْدِي أَنِّي أَنْشُرُ

أَمَا تَرَى الشَّيْعةَ فِي فِتْنَةٍ يَغُرُّهَا مِنْ دِينِنَا «جَعْفَرُ» ؟

قَدْ كُنْتُ مَعْرُورًا بِهِ بِرُهَةٍ ثُمَّ بَدَأَ لِي خَبْرٌ يُسْتَرُّ

وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ :

مَشَيْتُ إِلَى جَعْفَرٍ حِقْبَةً فَالْفَيْتُهُ خَادِمًا يَخْلُبُ

يَجْرُ الْعَلَاءَ إِلَى نَفْسِهِ وَكُلُّهُ إِلَى حَبْلِهِ يَجْذِبُ

فَلَوْ كَانَ أَمْرُكُمْ صَادِقًا لَمَا ظَلَّ مَقْتُولُكُمْ يُسْحَبُ

وَلَا غُضَّ مِنْكُمْ قَتِيلٌ ، وَلَا سَمَا «عُمَرُ» فَوْقَكُمْ يَخْطُبُ

وَالْحُلُولِيَّةُ قَرِيبَةٌ مِنْ مَذْهَبِ التَّنَاسُخِ ، وَحَدَّثْتُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ رُؤَسَاءِ
الْمُنَجِّبِينَ^(١) مِنْ أَهْلِ «حَرَّانَ» ، أَقَامَ فِي بَلَدِنَا زَمَانًا ، فَخَرَجَ مَرَّةً مَعَ قَوْمِ

(١) رأى أبي العلاء في المنجمين

لأبي العلاء في المنجمين والعرافين أسوأ رأى ، فهو يحقرهم ويتنقصهم في كل مناسبة
تتم له ، وقد بلغ من سخطه عليهم أن تمنى لو كان له من الأيدي والسلطان ما يمكنه من استئصال

يَتَنَزَّهُونَ، فَرَّ وَالشُّورُ يَكْرُبُ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «لَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الشُّورَ

شَأْفَتِهِمْ، قَالَ:

لو كان لي أمر يطاوع لم يشن
يغدو بزخرفه يحاول مكسبا
وقفت به الورهاء - وهي كأنها
سألته عن زوج لها متغير،
ويقول: «ما اسمك واسم أمك؟ إني
يولى بأن الجن تطرق بيته
ظهر الطريق - يد الحياة^(١) - منجم
فيدير أسطرلابه ويرجم
عند الوقوف - على عرين تهجم
فاهتاج يكتب بالرقان^(٢) ويعجم
بالظن عما في الغيوب مترجم
وله يدين فصيحها والأعجم
إلى آخر تلك القصيدة الجميلة. وإني أحيل القارئ إليها في اللزوميات، وأحب ألا تفوته.

وللمعري في المنجمين والعرافين أشعار كثيرة، نختار منها النخبة التالية:

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهد: «كم هو عائش من دهره؟»
فأجابها: «مائة» ليأخذ درهما وأتى الحمام وليدها في شهره!

كان منجم الأقوام أعمى لديه الصحف يقرؤها بلمس

قطع الطريق بجمه ونظيره في مصر، فعل منجم ومعزم

شكا الأذى، فسهرت الليل، وابتكرت به الفتاة إلى شمطاء ترقيه

وأمه تسأل العراف قاضية عنه النذور، لعل الله يبقيه

وأنت أرشد منها حين تحمله إلى الطبيب يداويه ويسقيه

لقد بكرت في خفيها وإزارها لتسأل بالأمر الضرير المنجما

وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحجا فيرجما

يقول: «غداً أو بعده وقع ديمة يكون غيائناً أن تجود وتسجما»

(١) يد الحياة: طولها، أي أبد الدهر (٢) الزعفران

رَجُلٌ كَانَ يَعْرِفُ بِخَلْفِ « بَحْرَانِ » وَجَعَلَ يَصِيحُ بِهِ : « يَا خَلْفُ ! » فَيَتَفَقُّ
أَنْ يَخُورَ ذَلِكَ الثَّوْرُ ، فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : « أَلَا تَرَوْنَ صِحَّةَ مَا خَبَرْتُكُمْ بِهِ ! ؟ »

*
* *

وَحِكِي لِي عَنْ رَجُلٍ آخَرَ مِمَّنْ يَقُولُ بِالتَّسْخِخِ ، أَنَّهُ قَالَ : « رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ
أَبِي ، وَهُوَ يَقُولُ : « أَبُنِّي ! إِنْ رُوحِي قَدْ نُقِلَتْ إِلَى جَمَلٍ أَعْوَرَ فِي قِطَارِ فُلَانٍ ،
وَإِنِّي قَدْ اشْتَهَيْتُ بِطِيخَةً » فَأَخَذْتُ بِطِيخَةً ، وَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ الْقِطَارِ ،
فَوَجَدْتُ فِيهِ جَمَلًا أَعْوَرَ ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ بِالْبَطِيخَةِ ، فَأَخَذَهَا أَخْذَ مُرِيدٍ مُشْتَهٍ »

ويوم جهال المحلة أنه	يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سأله بالذي فوق صدره	لجاء بيمين أو أرم وجمما
كان سحاباً عنهم بضلالة	فليس إلى يوم القيامة منجما
إذا قال أهل اللب : « حان انسفاره »	تداركه غيم سواه فأنجما
فإن كنت قد وقفت ، فأنج بوحدة	وخل البرايا من فصيح وأجمما
ولا تك - فيما يكره القوم - ساعيا	ولا مسرجا في نصر غيرك ملجما

وانظر إلى قوله في السخط على المنجمات في قصيدة « المرأة » الرائعة :

وأبعدهن عن ربات مكر	سواحر يفتدين معرفات
يقطن نهيج الغياب ، حتى	يجيئوا بالركاب مزيمات
ونمطف هاجر الخلان ؛ كما	يزول عن السجايا المسيمات
وجمع طوائف العمار ، سهل	علينا بالجوالب موزيمات
زعمن بأن في معنى فقير	كنوزا الملوك مصيمات
فلا يدخلن دارك باختيار	فقد ألفيتهن مذيمات
وإن خالسن غرتك ارتقابا	فحق أن يرحن مشيمات

أَفَلَا يَرَى مَوْلَايَ الشَّيْخُ إِلَى مَا رُمِيَ بِهِ هَذَا الْبَشَرُ مِنْ سُوءِ التَّمْيِيزِ ؟ .

ابن الراوندى (١)

وَأَمَّا ابْنُ الرَّاَوْنَدِيِّ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَى الْمَصْلَحَةِ بِمَهْدِيٍّ ، وَأَمَّا تَاجُهُ فَلَا يَصْلُحُ

(١) ابن الراوندى

اسمه أحمد بن يحيى بن إسحق الراوندى ، كنيته أبو الحسين ، وهو ينسب إلى « راوند » إحدى قرى أصبهان ، مات في سن الأربعين في سنة ٢٤٥ هـ . ، وكان أبوه يهودياً فأسلم ، فكان اليهود يقولون للمسلمين : « ليفسدن عليكم هذا كتابكم ، كما أفسد أبوه التوراة علينا ! » وكان من متكلمي المعتزلة ، وانفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه في كتبهم ؛ قالوا : « ولم يكن في زمانه أحقق منه بالكلام ، ولا أعرف بدقيقه وجليله » وكان يلزم أهل الإلحاد ؛ فإذا عوتب في ذلك ، ادعى أنه يريد معرفة مذاهبهم ، ثم صار بعد ملحداً زنديقاً وأوجز ما نعتته به ، أنه رجل لا يستقر على مبدأ ، وليس للمبادئ قيمة عنده ، فقد كان مسالماً ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يصنف « كتاب البصيرة » لليهود ، رداً على الاسلام ، نظير أربعمائة درهم دفعوها له ، فلما قبض المال ، رام تقضه ، فلما أعطوه مائة درهم أخرى عدل عن ذلك ! وكان من متكلمي المعتزلة ، فلم يمنعه ذلك من أن يؤلف كتابه الذي سماه : « فضيحة المعتزلة » وقد ألف كتباً أخرى متناقضة ، ولكن أكثرها كان إلحادياً شديداً الجراً .

وقد نيفت كتبه على المائة — ذكر ابن القارح أهمها وأشنعها في رسالته — وكان له ذوق خاص في تسمية كتبه ، فقد أطلق اسم « الزمردة » على كتابه الذي دلل فيه على فساد الرسالة والرسول ، وازدري فيه بالنبوات ، وعلل هذه التسمية بأن من خواص الزمرد ، أن الحية — إذا نظرت إليه — ذابت وسالت عيناها ، وكذلك يحدث لخصومه حين يقرأون كتابه ! ومما زعمه فيه قوله : « إنا نجد في كلام « أكثم بن صيفي » شيئاً أحسن من « إنا أعطيناك الكوثر » وإن الأنبياء كانوا يستعبدون الناس بالطلاسم الخ »

أَنْ يَكُونَ نَعْلًا ، وَهَلْ تَاجُهُ ^(١) إِلَّا كَمَا قَالَتِ الْكَاهِنَةُ : « أَفَّ وَتُفَّ » مَا تَاجُهُ
بِتَاجِ مَلِكٍ ، وَلَكِنْ دُعِيَ بِالْمُهْلِكِ ؛ وَلَا اتَّخِذْ مِنَ الذَّهَبِ ، وَسَوْفَ يُصَوِّرُ
مِنَ اللَّهَبِ !

وَأَمَّا « الدَّامِغُ » ^(٢) ، فَمَا إِخَالَهُ دَمَغَ إِلَّا مَنْ أَلْفَهُ . . .
بُدِّسَ مَنْ نُسِبَ إِلَى « رَاوَنْدَ » إِنَّمَا هَتَكَ قَمِيصَهُ ، وَأَبَانَ لِلنَّاطِرِ خَمِيصَهُ !

القرآن الكريم

وَأَجْمَعَ مُلْجِدٌ وَمُهْتَدٍ ، أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ

وقد ذكر في كتبه الأخرى آراء لا تقل عن هذه جرأة وشناعة على الأنبياء والدين ،
فقد طعن على النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه (الفريد) وطعن على القرآن ، وعاب نظمه
في كتابه (الدامغ) . ومما ورد فيه قوله : « إن الله - سبحانه وتعالى - ليس عنده من
الدواء إلا القتل ، فعل العدو الحنق الغضوب ، فما حاجته إلى كتاب ورسول ؟ . . . وقال في
وصف الجنة : « فيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه » وهو الحليب ، ولا يكاد يشتهيها إلا الجائع ،
وذكر العسل ؛ ولا يطلب صرفا . والزنجبيل ، وليس من لذيد الأشربة . والسندس ، وهو
يفترش ولا يلبس . وكذلك الاستبرق ، وهو الغليظ من الديباج ، ومن تخايل بأنه في
الجنة يلبس هذا الغليظ ، ويشرب الحليب والزنجبيل ، صار كعروس الأكراد والنبط ! »
وقد مر بك طرف من أخباره في رسالة ابن القارح ، وسيمر بك طرف آخر في فصل
آخر من هذا الكتاب ، فلنكتف بهذا القدر هنا .

(١) يعني كتاب « التاج » الذي ألفه ابن الراوندي يحتاج فيه لتقديم العالم .

(٢) هو اسم الكتاب الذي ألفه ، وطعن فيه على نظم القرآن .

عَلَيْهِ - كِتَابٌ بِهَرِّ بِالإِعْجَازِ ، وَلَقِيَ عَدُوَّهُ بِالإِزْجَازِ ، مَا حُدِيَ عَلَى مِثَالِ ،
وَلَا أَشْبَهَ غَرِيبَ الأَمْثَالِ . مَا هُوَ مِنَ القَصِيدِ المَوْزُونِ ، وَلَا الرَّجَزِ ، وَلَا شَاكِلِ
خِطَابَةِ العَرَبِ ، وَلَا سَجَعِ الكَهَنَةِ . وَجَاءَ كَالشَّمْسِ ، لَوْ فَهَمَهُ الهَضْبُ لَتَصَدَّعَ .
وَإِنَّ الآيَةَ مِنْهُ - أَوْ بَعْضَ الآيَةِ - لَتَعْتَرِضُ فِي أَفْصَحِ كَلِمٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ
المَخْلُوقُونَ ، فَتَكُونُ فِيهِ كَالشَّهَابِ المُتَلَاقِي فِي جُنْحِ غَسَقٍ ، وَالزَّهْرَةَ البَادِيَةَ
فِي جَدُوبٍ . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ !

* * *
وَأَمَّا « القَضِيبُ »^(١) ، فَمِنْ عَمَلِهِ أَخْسَرُ صَفْقَةٍ مِنْ « قَضِيبٍ »^(٢) ، وَخَيْرُهُ لَهُ
مِنْ إِنْشَائِهِ ، لَوْ رَكِبَ قَضِيبًا^(٣) عِنْدَ عِشَائِهِ^(٤) ، فَقَدَفَتْ بِهِ عَلَى قَتَادٍ^(٥) ،
وَنَزَعَتْ المَفَاصِلَ كَنَزْعِ الأُوتَادِ :
إِنَّ الطَّرِمَاحَ يَهْجُونِي لِأَشْتِمَهُ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ أَعِيلَتَ - دُونَهُ - القَضِيبُ

* * *
وَأَمَّا « الفَرِيدُ »^(٦) ، فَأَفْرَدَهُ مِنْ كُلِّ خَلِيلٍ ، وَأَلْبَسَهُ - فِي الأَبَدِ - بُرْدَ
الدَّلِيلِ ، وَمَنْ أَنْفَرَدَ بِعِزِّهِ لَوْقَارَتِهِ ، فَإِنَّ « فَرِيدَ » ذَلِكَ الجَاحِدِ يَنْفَرِدُ
لِحَقَارَتِهِ ، كَأَنَّهُ الأَجْرَبُ . وَإِذَا جَدَلْتَ الغَانِيَةَ بِفَرِيدِ النُّظَامِ ، فَهُوَ

(١) هو اسم الكتاب الذي ألفه ابن الراوندي في إثبات أن الله محدث وأنه كان غير عالم ،
حتى خلق لنفسه علماً (٢) هو تَمَّار بالبحرين يضرب به المثل ، وحكايته أنه اشترى
« قوصرة تمر » وكان فيها بكرة ، فلحقه صاحبها واستردها ، واستخرج البكرة منها ، فقتل
(قضيب) نفسه لطفة عليها (٣) ناقة لم ترض (٤) أي ليلاً ، والناقة التي لم ترض ، إذا مشت
بالليل ، تحقق لراكبها الويل . . . ! (٥) شجر صلب له شوك كالإبر (٦) هو اسم
الكتاب الذي ألفه ابن الراوندي في الطعن على النبي صلوات الله عليه

قِلَادَةُ مَا تَمَّ عِظَائِمِ . وَأَمَّا « الْمَرْجَانُ » فَإِذَا قِيلَ : إِنَّهُ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ ، فَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ « مَرْجَانُهُ »^(١) ، صِغَارَ حَصَى ، بَلْ أَحْسَنُ مِنْ أَنْ يُذَكَّرَ

ابن الرومي^(٢)

وَأَمَّا « ابْنُ الرَّومِيِّ » فَهُوَ أَحَدُ مَنْ يُقَالُ : « إِنَّ أَدَبَهُ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ

(١) « المرجان » هو اسم الكتاب الذي ألفه ابن الراوندي في اختلاف أهل الإسلام

(٢) ابن الرومي — ٢٢١ — ٢٨٣ هـ

اسمه على بن العباس بن جريج (أوجور جيس) مولى عبید الله بن عيسى بن جعفر ،
وكنيته أبو الحسن ، ويعرف بابن الرومي (نسبة إلى أصله)

كانت ولادته بعد طلوع فجر يوم الأربعاء ليلتين خلتا من رجب سنة ٢٢١ هـ في الموضع
المعروف « بالعقبة ودرب الختلية » في دار بازاء قصر عيسى بن جعفر — ووفاته يوم الأربعاء
ليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٢٨٣ هـ فدفنوه في مقبرة البستان . وكانت ولادته وموته
في بغداد .

وعلى ذلك يكون « ابن الرومي » قد أظلمت تسع خلافات ، وهي خلافات : « المعتصم^(١) »
و « الواثق^(٢) » و « المتوكل^(٣) » و « المنتصر^(٤) » و « المستعين^(٥) » و « المعتز^(٦) »
و « المهدي^(٧) » و « المعتمد^(٨) » و « المعتضد^(٩) » .

وكان شعره غير مرتب ، رواه « المتنبى » عنه ، ثم جمعه « أبو بكر الصولي » ورتبه على
الحروف ، وجمعه « أبو الطيب » وراق بن عبدوس ، وزاد في جميع النسخ نحو ألف بيت

« سلب موته »

وصل « ابن الرومي » في الهجو والتصريف بمعانيه وأساليبه ، والإفحاش في ذلك ، إلى حد

(١) « ٢١٨ — ٢٢٧ هـ » (٢) « ٢٢٢ — ٢٣٢ هـ » (٣) « ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ »

(٤) « ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ » (٥) « ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ » (٦) « ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ »

(٧) « ٢٥٥ — ٢٥٦ هـ » (٨) « ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ » (٩) « ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ »

عَقْلِهِ « وَكَانَ يَتَعَاطَى عِلْمَ الْفَلْسَفَةِ

خافه معه معاصروه ، فلم يكذب يسلم أحد من خوفه ، حتى لقد خافه « أبو الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب » وزير الإمام « المعتضد » مع ما اشتهر به هذا الوزير من الاستبداد ، والجرأة على سفك الدماء !

اشتهر ابن الرومي بالجرأة على هجاء الأمراء — بلا هوادة ولا رفق — واشتهر الوزير « القاسم » بالميل إلى الانتقام ، وعدم التردد في قتل من يناوئه ويناصبه العدا ، وكان يخشى فلتات لسان ابن الرومي ، ويعلم أنه لن يسلم من هجائه أو سلاطته يوماً ما . فلما هجاه « ابن الرومي » استشاط غضباً ، وفكر في قتله انتقاماً منه . فدس إليه « ابن فراس » — وهو ممن أخش « ابن الرومي » في هجائهم — فأطعمه « خشكنايه » مسمومة — وهو في مجلس « القاسم » — فلما أكلها « ابن الرومي » أحس بالسم ، وأدرك المكيدة ، فقام ، فقال له الوزير : « إلى أين تذهب ؟ » فأجابه : « إلى الموضوع الذي بعثتني إليه ! » فقال له : « سلم على والدي » فقال : « ليس طريقى على النار ! »

وخرج من مجلسه ، وأتى منزله ، وأقام أياماً ، ومات

« دقة ابن الرومي وتغلغله في المعاني »

« يفوس على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها في أحسن صورة ، ولا

يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » « ابن خلكان »

قال أحد كتاب الانجليز : « ليست الصعوبة التي تعترض الكاتب أو الشاعر هي أن

يكتب أو ينظم في موضوع ما ، ولكنها في أن يقول كل ما يعنيه بالضبط في هذا الموضوع ! »

وأبدع الشاعر العربي في صوغ هذا المعنى ، فقال :

وفضلتني في القول والشعر أننى أقول على علم ، وأعلم ما أعنى

*

* *

هذا في اعتقادنا هو أكبر فارق جوهرى بين الكاتب الجيد أو الشاعر الفحل المطبوع ، وبين

غيرها من الكتاب أو الشعراء الكثيرين ؛ وهذا الفارق هو أول ما نبحث عنه حين نشرع في

مطابته مع أبي بكر بن السراج

وَاسْتَعَارَ مِنْ « أَبِي بَكْرٍ بْنِ السَّرَاجِ » كِتَابًا ، فَتَقَاضَاهُ بِهِ « أَبُو بَكْرٍ »

تعرف شاعر أو كاتب قديم أو حديث ، وإن هذا الفارق هو أول ميزة تبهك من شعر ابن الرومي الحافل بالميزات الكثيرة ...

*
* *

خصائص ابن الرومي هي : الدقة التامة في أداء المعنى الذي قام بنفسه ، واستقصاؤه ، وتحديد ما يعنيه بالضبط ، والغوص على أخفى خفاياه ، والتمشي معه إلى أبعاد مداه ، وسبر أقصى أغواره ، وإظهار كل ناحية من مناحيه المختلفة ، في كلام واضح جلي ، والتوفيق في الاهداء إلى كل ذلك ، والوصول إليه بلا كلفة ولا تعمل . فهو فطن - دقيق في فطنته - إلى كل ما تتطلبه صورته الشعرية من الألوان والأصباغ ، ينشر ظلالها وأضواءها ، ويلائم بين ألوانها وأصباغها ، حتى إذا انتهى منها ، وجدت ما قام بذهنه من المعاني ماثلاً أمامك في صورة ناطقة ، مكتملة الحياة ، مشرقة بها في كل جزء من أجزائها

*
* *

ذلك هو أول ما يسترعى انتباهك حين تقرأ شعر ابن الرومي ، وهو من الصفات التي لازمته فصارت له كالطبع ، واتسم بها تفكيره ، فأصبح نثره - على ندرة ما وصلنا منه - مشتركاً مع شعره في هذه الميزة الباهرة ، كما ترى ذلك في الرسالة التالية :

« ترفع عني ظلمي - إن كنت بريئاً ، وتتفضل بالعفو - إن كنت مسيئاً ؛ فوالله إني لأطلب العفو من ذنب لم أجنه ، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولاً ، وأزداد تذلاً ، وأنا أعيد حالي عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله - تعالى - أن يجعل حظي منك ، بقدر ودي لك ، ومحلي من رجائك بحيث أستحق ، والسلام . »

فَقَالَ لَهُ « ابْنُ الرَّومِيِّ » : « لَوْ كَانَ « الْمُشْتَرَى » حَدَّثَنَا ، لَكَانَ عَجُوبًا ! »

تشبيعه

وَالْبَغْدَادِيُّونَ يَدَّعُونَ أَنَّهُ « مُتَشَبِّعٌ » وَيَسْتَشْهَدُونَ عَلَى ذَلِكَ بِقَصِيدَتِهِ
الْجَمِيَّةِ (١) :

فانظر ملياً، هل ترى فرقاً بين شعره ونثره في طريقة الأداء وأسلوب التفكير؟ وهل تتردد لحظة واحدة في الحكم على هذا الكلام بأنه شعر لا ينقصه إلا الوزن والقافية؟ هذه - في نظرنا - هي أكبر ميزات ابن الرومي وأجدرها بالذكر، فلنكتف بها في هذه الإلمامة الآن، تاركين الكلام في بقية النقط الأخرى - مثل تأثر « المتنبى » بشعره، وفساد عصره، وأثر ذلك في نفسه، ووجوه الشبه والاختلاف بين تفكيره وتفكير « المعري »، والعنت الذي لقيه من معاصريه، وأثر ذلك في شعره، وإقذاعه في الهجاء، ورأيه في الجبر والاختيار، وعشور جده، وشراسته ونهمه في الأكل، وإطالته القصائد مع المحافظة على الإجادة، والأمن - في أكثر الأحيان - من السقط والتكرير، وما إلى ذلك من المباحث - إلى رسالة خاصة نعلها عن ابن الرومي، ونرجو أن نوفق في إظهارها قريباً. ونحب أن يرجع القارئ إلى كتابنا « صور جديدة من الأدب العربي » ليقراً الفصل الذي كتبناه عنه وعنوانه: « ابن الرومي، كيف أغفله صاحب الأغاني؟ »

(١) هي قصيدته الخالدة التي رثى بها « أبا الحسين يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن علي » وأبدع فيها ما شاء له إبداعه وافتنانه وعبقريته الفذة، التي يراها القارئ ممثلة في كل بيت من أبياتها، والقصيدة هي:

أمامك فانظر : أي نهجيك تنهج	طريقان شتى ، مستقيم وأعوج
ألا أيهنا الناس : طال ضريركم	بآل رسول الله ، فآخسوا ، أو ارتجوا
أكل أوان للنبي محمد	قتيل زكي - بالدماء مخرج ؟
تبيعون فيه الدين شر أئمة	فله دين الله ، قد كاد يبرج !
لقد ألجؤكم في حبال فتنة ،	وللملججوكم في الحبال ألحج

بنى المصطفى ! كم يأكل الناس شلوكم ؟
أما فيهم راع لحق نبيه ؟
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم
ألا خاب من أنساه منكم نصيبه

لبلواكم - عما قليل - مُنرَّج
ولا خائف من ربه يتحرَّج ؟
كأن كتاب الله فيهم ممجَّج
متاع من الدنيا قليل وزبرج

أبعد المكثي بالحسين شهيدكم
لنا وعلينا - لا عليه ولا له -
وكيف نبكي فائزاً عند ربه
وقد نال في الدنيا سناء وصيته
فإلا يكن حياً لدينا ، فإنه
وكنا نرجيه لكشف عمائة
فساهمنا ذو العرش في ابن نبيه
مضى ، ومضى الفراط من أهل بيته
فأصبحت ، لاهم أبسووني بذكره (٤)
ولا هو نسائي أساي عليهم
أبيت - إذا نام الخلى - كأنما

تضىء مصابيح السماء فتُسرج ؟
تسحسح أسراب الدموع وتنشج
له في جنان الخلد عيش مخرفج (١)
وقام مقاما لم يقمه مزلاج (٢)
لدى الله حى ، في الجنان مزوج
بأمثاله أمثالها تتبلج
فهاز به ؛ والله أعلى وأفلج (٣)
يؤم بهم ورد النية منهج
كما قال قبلى في البسوء مؤرَّج
بلى ! هاجه ، والشجو للشجو أهيج
تبطن أجفاني سيال (٥) وعوسج

أيحي العلى ! لهفى لذكراك لهفة
أحين تراءتك العيون جلاءها
بنفسى - وإن فات الفداء بك الردى -
لمن تستجد الأرض بعدك زينة
سلام وريحان وروح ورحمة

يباشر مكواها الفؤاد فينضج
وأقذاءها ، أضحت مراثيك تنسج ا
محاسنك اللأى تُسج فتنهج
فتصبح في أثوابها تتبرج ؟
عليك ، وممدود من الظل سَجسج (٦)

(١) واسع (٢) الناقص المروءة (٣) أغلب (٤) أسونى بذكره
(٥) السيال (مفرده سيالة) نبات شائك (٦) السجسج : المعتدل ، لا حر فيه ولا قُر

ولا برح القاع الذي أنت جاره
ويا أسنى ألا ترد تهيئة
ألا إنما ناح الحمام بعدما
يرف عليه الأقحوان المفلج
سوى أرج من طيب رمسك يارج
ثويت، وكانت - قبل ذلك - تهزج!

أذم إليك العين أن دموعها
وأحمدها - لو كففت من غروبها
وليس البكا أن تسفح العين، إنما
أتمنى عيني عليك بدمعة
فإني - إلى أن يدفن القلب داءه -
عفاء على دار ظمنت لغيرها
تداعى بنار الحزن - حين توهج
عليك، وخت لاعج الحزن يلعب
أحر البكا أين البكاء الموج
وأنت لأذيال الروامس مدرج؟
ليقتلني الداء الدفين، لأحوج
فليس بها للصالحين معرج

ألا أيها المستبشرون بيومه
أكلكم أمسى : اطمأن مهاده
فلا تشمتوا، وليخسأ المرء منكم
فلو شهد الهيجا بقلب أيكم
لأعطى يد العاني، أو ارتد هاربا،
ولكنه ما زال يغشى بنحره
وحاش له من تلكم، غير أنه
وأين به عن ذلك؟ لا أين - إنه
كأني به - كالليث يحس عرينه
كدأب « على » في المواطن قبله
كأني أراه - والرماح تنوشه
كأني أراه - إذ هوى عن جواده
أظلت عليكم غمة لا تفرج
بأن رسول الله في القبر مزعج؟
بوجه : كأن اللون منه اليرندج
- غداة التقى الجمعان - وانخيل تمعج
كما ارتد بالقاع الظليم المهيج
شبا الحرب، حتى قال ذو الجهل: «أهوج»
أبي خطة الأمر الذي هو أسمع
إليه بعرقه الزكيين محرّج
وأشباله - لا يزدهيه المهجج
أبو حسن، والغصن من حيث يخرج
شوارع - كالأشطان تدلى وتخلج
وعفر بالتراب الجبين المشجج

فَحُبُّ بِهِ جَسْمًا إِلَى الْأَرْضِ - إِذْ هَوَى -
أُردِيتُمْ « يَجِي » ولم يطو أياطل
تأتت لكم فيه منى السوء هينة ؛
تهتدون في طغيانكم وضلالكم
أجنوا بنى العباس ! من شأنكم
وخلوا ولاية السوء منكم وغيرهم ،
نظار لكم أن يرجع الحق راجع
على حين لا عُذْرَى لِعُذْرِيكُمْ
فلا تلقوا الآن الضغائن بينكم
غررتم ، لئن صدقتم أن حالة
لعل لهم في منطوى الغيب ثأرا
بمجر تضيق الأرض من زفراته
إذا شيم بالأبصار أبرق بيضه
توامضه شمس الضحى ، فكأنما
له وقدة بين السماء وبينه ،
إذا كرت في أعراضه الطرف أعرضت
يؤيده ركنان ثبات ، رجلة
عليها رجال كالليوث بسالة
تدانوا ، فما للنفع فيهم خصاصة
فلو حصبتهم بالفضاء سحابة
كأن الزجاج اللهدميات فيهم
يود الذى لا قوه أن سلاحه

وَحُبُّ بِهَا رُوحًا - إِلَى اللَّهِ تَعْرُجُ
طراداً ، ولم يدبر من الخيل منسج ؟
وذاك لكم بالغى أغرى وألهج
ويستدرج المغرور منكم فيدرج
وأوكوا على ما فى العياب ، وأشرجوا^(١)
فأحر بهم أن يفرقوا حيث لججوا
إلى أهله يوما ، فتشجوا كما شجوا
ولا لكم من حجة الله مخرج
وبينهم ، إن اللوايح تنتج
تدوم لكم ، والدهر لوانان أخرج^(٢)
سيسمو لكم ، والصبح فى الليل موج
له زجل^(٣) ينفى الوحوش وهرمج^(٤)
بوارق لا يسطيعهن المحمج^(٥)
يرى البحر فى أعراضه يتموج
تلم بها الطير العوافى قهرج^(٦)
حراج تحار العين فيها فتخرج^(٧)
وخيل - كأرسال الجراد - وأوثج
بأمثالها يثنى الأبي فيعنج
تنفسه عن خيلهم - حين ترهج
لظل عليهم حصبها يتدحرج
فتيل بأطراف الردينى مسرج
هنالك خلخال عليه ودملج

(١) شدوا على ما فى قربكم بالوكاء : (رباط القربة) وخطوا رءوسها حتى لا ينفذ شىء مما تحويه
(٢) الأخرج : ذو اللونين (٣) جلبة (٤) أصوات مختلطة (٥) المحدثى الفرع
(٦) تتحير أبصارها من شدة الحر (٧) تفور فيضيق عليها منافذ البصر

فيدرك ثار الله أنصار دينه ،
ويقضى أمام الحق فيكم قضاءه
وتظمن - خوف السبي - بعد إقامة ،
وقد كان في « يحيى » مدمر خطة
هنالك يشقى تبيغ جهلكم
محضتكم نصحي ، وإني بعدها

ولله أوس آخرون وخزرج
تماماً ، وما كل الحوامل تخدج
ظمان ، لم يضرب عليهم هودج
وناتجها ، لو كان للأمر منتج
إذا ظلت الأعناق بالسيف تودج
لاعنى فيما ساءكم وأهلج

*
* *

مه لا تعادوا غرة البغي بينكم
أفي الحق أن يمساوا خصا ، وأتم
تمشون مختالين في حجراتكم
وليدهم بادي الضوى ، ووليدكم
تدودونهم عن حوضهم بسيوفكم
فقد ألتهم خيفة القتل عنكم

كما يتعادي شعلة النار عرفج
يكاد أخوكم - بطنة - يتبعج ؟
ثقال الخطى - أكفالكم تترجج
من الريف ريان العظام خدلج
ويشرع فيه أرتبيل وأبلج
وبالقوم حاج في الحيازم حوج

*
* *

بنفسى الألى كظتهم حسراتكم
ولم تقنعوا - حتى استثارت قبورهم
وعيرتموهم بالسواد ؛ ولم يزل
ولكنكم زرق ، يزين وجوهكم

فقد عازوا - قبل المات - وحشرجوا
كلابكم منها بهم وديزج
من العرب الأحاض أخضر أدهج
بني الروم ! ألوان من الروم نعج

*
* *

لئن لم تكن بالهاشميين عاهة
بآية أن لا يبرح المرء منكم
بييت - إذا الصهباء روت مشاشه -

لما شكلكم - تالله - إلا المهلج
يُكبُّ على حر الجبين فيعنج
يساوره علج من الروم أعلج

وَمَا أَرَاهُ إِلَّا عَلَىٰ مَذْهَبِ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَمَنْ أُوْلَعَ بِالطَّيْرَةِ ، وَإِنَّمَا

فيظننه في « سبة السوء » طعنة
لذاك ، بنى العباس ا يصبر مثلكم ،
فهل عاهة إلا كهذي ، وإنكم
فلا تجلسوا وسط المجالس حسرا

يقوم لها من تحته وهو أفتحج (١)
ويصبر للموت الكمي المدجج
لأ كذب مسؤول عن الحق يلهج
ولا تركبوا إلا ركائب تحدج

أبي الله إلا أن يطبوا وتخبثوا
وإن كنتم منهم وكان أبوم

وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
أباهم ، فإن الصفو بالرنق يمزج

لعمري لقد أغرى القلوب « ابن طاهر »
سعى لكم مسعاة سوء ذميمة
فلن تعدموا - ما حنت النيب - فتنة
وقد بدأت - لو تزجرون بريحا -

ببغضائكم ما دامت الريح تنأج
سعى مثلها مستكره الرجل أعرج
تحش كما حش الحريق المؤجج
بوائجها من كل أوب تبوج

بنى مصعب ! ما للنبي وأهله
دماء بنى عباسكم وعليهم
يلي سفكها العوران والعرج منكم ،
وما بكم أن تنصروا أولياءكم
ولو أسكنتكم في الفريقين فرصة ،
إذن لاستقدتم منها وتر فارس ،
أبي أن تحببهم - يد الدهر - ذكرم

عدو سواكم - أفصحوا ، أو فلجلجوا
لكم كدماء الترك والروم تهرج
وغوغاؤكم - جهلاً بذلك - تبهج
ولكن هنات في القلوب تنجنج
لقد بينت أشياء تلوى وتجنج
وإت ولياكم فالوشأج أوشج
ليالي لا ينفك منكم متوج

وإني على الاسلام منكم لخائف

بوائق شتى ، بابها الآن مرتج

(١) ألا ترى إلى ابن الرومي لا يحجم عن الاغشاش حتى في مقام الرثاء ١١١

هِيَ شَرٌّ مُتَعَجِّلٌ ، وَلِلْأَنْفُسِ أَجَلٌ مُؤَجَّلٌ (١) ، وَكُلُّ ذَلِكَ حَذَرٌ مِنْ

وفي الحزم أن يستدرج الناس أمرهم وحبلهم مستحکم العقيد مدمج

*
* *

نَظَارٍ فَإِنَّ اللَّهَ طَالِبٌ وَتَرَهُ بَنِي مَصْعَبِ لَنْ يَسْبِقَ اللَّهُ مَدْلُجٌ
لَعَلَّ قُلُوبًا قَدْ أَطْلَمَتْ غَلِيظًا سَتَظْفَرُ مِنْكُمْ بِالشِّفَاءِ ، فَتُخْلَجُ

(١) الطيرة والتشاؤم

أبو العلاء متشائم شديد التشاؤم ، بل هو من أشد من عرفناهم تشاؤماً ، ولكنه — مع تشاؤمه الذي لا يقف عند حد — ليس من جماعة المتطيرين ، بل هو أبعد من عرفناهم عن التطير وإنما نعى بالتشاؤم ذلك المذهب الذي يسميه الأفرنج (Pessimisme) ونرى أن نسميه بالعربية : سخطاً ، ونسب أصحابه ساخطين ، وهو مذهب جماعة المتبرمين بالعالم ، الذين لا يرون فيه إلا شراً مستطيراً ، لا يستطيعون حمله ، ولا أمل لهم في دفعة أو تهوينه ، ولا ينظرون إليه إلا بمنظار شديد السواد ، وعلى العكس من ذلك مذهب الرضا ، و يسميه الأفرنج (Optimisme) وهو مذهب من يحسنون الظن بالأيام ، وينظرون إلى العالم بمنظار رائق ناصع البياض ؛ فيرون كل ما فيه يدعو إلى الغبطة ، ويرونه سائراً في طريق التقدم والكمال ، وفي هذا مجلبة رضاهم وارتياحهم ، وقد أشبع « ما كس نورداو » جماعة الساخطين ، سخرية وتعنيفاً ، ورماهم بنقص في عقولهم ، في مقالته التي كتبها عن السخط والرضا (Pessimisme & Optimisme) في كتابه الفلسفي الذي سماه (الفرايب Paradoxes) وهي مقالة جميلة ، نحب ألا تفوت القارئ ، وقد نلخصتها مجلة البيان في سنتها الرابعة في جزئها الثاني والثالث ، تلخيصاً لا يخلو من الفائدة والنفعة ، لمن لا تتاح له قراءتها كاملة في الكتب الأفرنجية .

أما الطيرة (Manvais Augure) ، ونقيضها الفأل — أو التيمن (Bon Augure) ، فمذهب آخر يختلف في نظرنا عن مذهب السخط والرضا كل الاختلاف ، فقد يكون الإنسان

الموت الذي هو ربق في أعناق الحيوان ، حكم لقاءه في كل أوان !

ساخطاً أو راضياً ولكنه لا يتطير ولا يتفائل . وعلى العكس من ذلك ، قد يكون من المتطيرين والمتفائلين ، ولكنه في الوقت نفسه ساخط على الحياة أو راض عنها .

*

* *

وإنما الطيرة مذهب أساسه ربط الحوادث بغير أسبابها الحقيقية ، وتعليل النفس بما لا يفيد ، وترقب المناسبات والمصادفات ، لاستنتاج شيء وهمي لا أساس له من الصحة ، ولا قيمة له — عند العقلاء — وإنما يدعو إليها ، في نظرنا ، عدم اطمئنان القلب ، وخفة العقل ؛ ولعله لو رجع المرء إلى نفسه يسألها في أي ساعاتها تميل إلى التعلل بأشياء هذه الخرافات ، لرأى أن ذلك كثيراً ما يحدث في أوقات الهلع والذعر من جراء مصاب فادح مُذهل ، تملك على الإنسان قلبه ، وأطار لبه ، وحرمه طمأنينته ، فجعله كالغريق يتلمس أطفه الأسباب وأقلها غناء ، لينقذ نفسه من الهلاك . فأما في ساعات اطمئنانه فقلما يأبه لذلك ، اللهم إلا إن كان من هؤلاء الذين أصبح لهم التطير ديدناً وطبعاً ، وهذا غير السخط الذي أساسه سوء الظن ، وشدة الحذر ، والنقمة على الحياة ، والنظر إليها من جانبها الأسود !

*

* *

انظر إلى تطير الأمين — مثلاً — حين حاصره « طاهر » ولم نكن سمعنا بتطيره من قبل — قال « إبراهيم بن المهدي » وكان حينئذ مع الأمين :

« خرج الأمين ذات ليلة يريد أن يتفرج من الضيق الذي هو فيه ، فصار إلى قصر له بناحية « الخلد » ثم أرسل إلى فحضرت عنده ، فقال : « ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر في السماء وضوءه في الماء على شاطئ « دجلة » ... فهل لك في الشرب ؟ » فقلت : « شأنك » فشرب رطلاً وسقاني آخر ، ثم غنيت ما كنت أعلم أنه يحبه ، فقال لي : « ما تقول فيمن يضرب عليك ؟ » فقلت : « ما أحوجني إليه ! »

فدعا بجارية متقدمة عنده ، اسمها « ضعف » فتطيرت من اسمها ونحن في تلك الحال

فقال لها : « غني » فغننت بشعر الجعدي :

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الشَّيْءَ - إِذَا قِيلَ - جَازَ أَنْ يَقَعَ !

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرج بالدم
فاشدد ذلك عليه ، وتطير منه ، وقال « غنى غير ذلك » فغنت :

أبكى فراقكم عيني فأرقها إن التفرق للأحباب بكاء
ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا - وريب الدهر عدا.

فقال لها : « لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غير هذا ؟ » فقالت : « ما تغنيت إلا ما ظننت
أنك تحبه » ثم غنت آخر :

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل والنهار ، وما دارت نجوم السماء في الفلك
إلا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك
وملك ذى العرش دائم أبداً ليس بفان ولا بمشرك

فقال لها : « قومي ، غضب الله عليك ولعنك ! » وكان له قدح من بلور حسن الصنعة ،
وكان موضوعاً بين يديه - فعثرت الجارية به فكسرتة ، فقال : « ويحك يا إبراهيم ، أما
ترى ما جاءت هذه الجارية ، ثم ما كان من كسر القدح ، والله ما أظن أمرى إلا قد قرب »
فقلت : « يديم الله ملكك ، ويمز سلطانك ، ويكبت عدوك »

فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتاً : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ! »

فقال : « يا إبراهيم ! أما سمعت ما سمعت ؟ » قلت : « ما سمعت شيئاً » وكنت قد سمعت ،
قال : « تسمع حساً » فدنوت من الشط فلم أر شيئاً - ثم عاودنا الحديث ، فعاد الصوت
بمثله ؛ فقام من مجلسه مغتماً إلى مجلسه بالمدينة

قال : « فما مضى إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل »

*

**

فانظر إلى هذه الحكاية المحزنة ، وتأمل قليلاً ، ألسنت ترى أن ضعف نفسيهما وحده هو السبب
الأكبر في كل هذه الاستنتاجات ؟ ومثل لنفسك أن كل ما حدث في تلك الليلة المروعة قد
حدث في ليلة أنس وطرب ، بل في ليلة عادية - إن شئت - فهل كانا يهتمان به كل هذا الاهتمام؟

وهذا الروع الذي أحسه إبراهيم المهدي — حين سمع اسم الجارية « ضعف » هل كان يحس مثله — إذا تبدل الموقف وكان انتصاراً وفوزاً — أو لم تكن هذه الجارية متقدمة عند الأمين ؟ فإله لم يتطير من اسمها قبل هذه المرة ؟

وهل تحسبها غنت إلا ما حسبت أن مولها يحبها — وكم غنته — هي أو غيرها — مثل هذه الأبيات ، فطرب وانتخى ، ومن يدري فر بما كان الأمين يميل إلى هذا النوع من الشعر المشجى ، وكان هذا الميل مغرباً للجارية على غناء تلك الأبيات ! وتمثل الأمين عاقب مسيئاً بالقتل ، على جرم فرط منه ، فخامرته شيء من الندم . وإنه كذلك — إذ غنته هذه الجارية نفسها هذا البيت بعينه :

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرج بالدم
ألم يكن فيه حينئذ راحة يثلج لها فؤاده ، وتمثل الجارية تغنيه هذا البيت قبل أن يقتل ذلك المسيء وهو يفكر في ذلك ، أكان يتطير منه — إذ ذاك — وأي أثر يكون له في نفسه حينئذ من سماعه ؟ ألا يكون فيه إغراء بقتل ذلك المسيء ؟

*
* *

وتمثل البيتين الآخرين قد غنتهما الجارية في موقف غير هذا ، في موقف غرام مثلاً ، في ساعة يفكر فيها الأمين في معشوق له ، مات ولم ينعم به طويلاً ، فكيف يكون أثرها في نفسه ، وكيف يتمثل قولها : « إن التفرق للأحباب بكاء ؟ » ولكن تغير الموقف ، فتغير المعنى واعكس الآية ، فتمثل الأمين — في مكان المأمون — وأنه قد أوشك أن ينتصر على أخيه ، وأنه قد سمع الأبيات الأخيرة وهو يحاصر مدينته ، فأى أثر يتركه في نفسه قولها :

« ما اختلف الليل والنهار وما دارت نجوم السماء في الفلك

الا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه الى ملك ! »

وهكذا غير الظروف ، وتمثل آثار تلك الأبيات في نفسيهما ، تجدها مختلفة يصل اختلافها إلى مسافة ما بين الضد والضد أحياناً

ثم ماذا في هذه الجملة التي غمت الأمين : « قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ؟ » ألم يكن فيها متأول حسن — لو شاء ! ألم يسمعها عقب دعاء له بدوام ملكه ، وإعزاز سلطانه ، وكبت عدوه ، فإذا قضي هذا الأمر ، فقد تم له ما أراد ؟ . . .

(ارجع الى كتابنا مصارع الخلفاء ، واقرأ فيه مصرع الأمين)

ولكن إخوان هذه الخليفة — كما يقول أبو العلاء — لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة ! ومن أجل ما رووه عن التطير والتفاؤل قول الرسول — عليه الصلاة والسلام — : « ثلاثة لا يسلم منهم أحد — الطيرة ، والظن ، والحسد » ، قيل له : « فما المخرج منهم يا رسول الله ؟ » قال : « إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ »

*
* *

إذا أقررنا ذلك ، سهل علينا أن ندرك ، كيف كان أبو العلاء ساخطاً ، ولم يكن متطيراً . أما « ابن الرومي » فقد لا يكون شديد السخط على الحياة ، ولكنه كان — على الرغم من ذلك — إماماً من أئمة المتطيرين ، وإذا أضفت هذا الفصل إلى ما في رسالة ابن القارح ازدادت اقتناعاً بطيرته ، وحسبك أن تعلم أنه كان لا يلبس ثيابه الا بعد أن يتعوذ ، فإذا وصل الى الباب نظر من خلال ثقب المفتاح ، فإذا رأى ذلك الأحذب الذي تعود مضايقته ، جالساً ؛ جبن فلم يخرج ، وخلع ثيابه ثانية ، وقد عرف « ابن الرومي » كيف ينتقم منه ، ويثأر لنفسه ، بيئته اللذين وسمه بهما آخر الأبد ، وهما قوله :

« قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ ، وَطَالَ قَدَّالُهُ فَكَأَنَّهُ مَتْرَبِصٌ أَنْ يُصَفَّعَا

وَكَأَنَّمَا صُفِّعَتْ قَفَّاهُ مَرَّةً وَأَحْسَنَ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجَمَّعَا

ولابن الرومي — في تطيره — أخبار شتى . منها أن أبا الحسن الأخفش ، غلام المبرد ، كان كثيراً ما يقرع بابه ، فإذا رد عليه ابن الرومي مستفسراً ، أجابه : « مرة بن حنظلة » فيتطير من ذلك ، ولا يجسر على الخروج بقية يومه ، وقد هجاه في ديوانه مراراً هجاء مؤلماً مقدحاً

ولما كان هذا المقام أضيق من أن يحتمل شيئاً من الإسهاب في تفصيل هذه النزعات وتحليلها والموازنة بينها ، فإننا نكتفي بهذا القدر على إيجازه — ونشير إلى رأى أبي العلاء في مذهب المتطيرين والمتفائلين ، وتهكمه اللاذع بأصحابه ، وسخريته الشديدة منهم ، علاوة على ما ترى في هذا الفصل من حججه الباهرة وبراهينه القوية التي دلل بها على فساد ذلك المذهب . ثم تتبعها بنخبة مختارة تبين لك نزعة ابن الرومي إلى التطير . وإليك نخبة من كلام أبي العلاء في ذلك :

نخبة من شعر أبي العلاء في الطيرة

تروم قياساً للحوادث ضلة وتلك أصول ليس يجمعها الحصر
تعرض للطير السوانح زاجراً أما لك من عقل — يكفك — زاجر؟
أغربانك السُّخْم استقلت مع الضحى سوانح؟ أم مرت حمامك الورق؟
لا تفرحن بنال — إن سمعت به — ولا تطير ، إذا ما ناعب نعبا
فالخطب أفضح من سراء تأملها والأمر أيسر من أن تضر الرعبا
آليت لا يدري بما هو كأن متفائل بالأمر أو متطير
كالدار صَبَّحها سوى سُكَّانها فثَوَّوا بها ، وتحمل المتدير
زجر الغراب تطيراً ، وتقيضه . ديك لأهل الدار أبيض أفرق
شاهدت قُبْرَةَ فحفت تطيراً ما كل ميت — لا أباك — يقبر
لا يتطير بناعب أحد فكل ما شاهد الفتى طيره
وما طير اليمين بمهجاتي فأخشى الهم من طير الشمال
وقد سمى المرء « الهزبز » تفاؤلاً وليس يباق في الليالي هزْبُرُها
وما أسر لتعشير الغراب أسي ولا أبكى خليطاً حل نشارا
ولا توهمت أنثى الأنجم امرأة ولا ظننت سهيلاً كان عشارا

أى لا أضمر حزناً إذا سمعت الغراب يصبح عشرة أصوات متتابعة ، ولا أبكى جمعاً ذهب
إلى ذلك البلد المسمى « نشارا » ولا أتوهم أن الزهرة امرأة ، كما يفعل العرب ، ولا أن سهيلاً
كان عشيراً باليمن

وهل لحق التثريب سكان يثرب من الناس ؟ لا ، بل فى الرجال غباء ا
وذونجب - إن كان ما قيل صادقاً - فما فيه إلا معشر نجباء ا
وانظر إلى سخريته الدقيقة فى قوله :

رآنى - فى الكرى - رجل ، كأتى - من الذهب - اتخذت غشاء راسى :
« قلنسة - خصصت بها - نضارا كهرمز ، أو كملك أولى خراس
فقلت - معبراً : - « ذهب ذهابى وتلك نباهة لى - فى اندراسى »

أقت - وكان بعض الحزم يوماً - لركب السفن أن تلقى المراسى

نخبة مختارة

من شعر ابن الرومى فى الطيرة والقال

وإلى القارى نخبة مختارة من شعر ابن الرومى تبين منزعه واعتقاده فى الطيرة والقال :
لا تهاون بطيرة أيها النظار ، وأعلم بأنها عنوان
قف - إذا طيرة تلقتك وانظر واستمع - ثم - ما يقول الزمان ا
قلما غاب من أمورك عنوان مبین وللزمان لسان^(١)

لا تصدق عن النبیین ، إلا بحديث - يلوح فيه البيان

(١) قال ابن رشيق :

« وكان ابن الرومى كثير الطيرة . ربما أقام المدة الطويلة لا ينصرف - تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه -
حتى إن بعض إخوانه من الأمراء افتقده وأعلم بحاله فى الطيرة ، فبعث إليه خادماً اسمه إقبال ليتفاهل به . فلما
أخذ أهبطه للركوب . قال للخادم : « انصرف إلى مولاك فأنت ناقص ، ومنكوس اسمك » لا بقا »
وابن الرومى القائل : القال لسان الزمان ، والطيرة عنوان الحدثنان . وله فى ذلك احتجاجات وشعر كثير »

قد أتى عن نبينا حبه الفأ ل ، مضيئاً بذلك البرهان
فدع الهزل والتضحك بالطيرة رة ، فالنصح مثنى مجان
أترى من يرى البشير بشيراً يمتري في النذير ، يا وستان (١)

*
*
خبر الله أن مشامة كما نت لقوم ، وخبر القرآن
أفزور الحديث تقبل ، أم ما قاله ذو الجلال والفرقان ؟
وقد تفاعلت له - زاجراً كنيته ، لاجراً ثعلبا
إني تأملت له كنية - إذا بدا مقلوبها - أعجبا
يصوغها العكس « أبا سابع » وذلك فال لم يعد معطبا
بل ذلك فال ضامن سبعة مثل الصقور استشرفت أربنا
يأتون من صلب فتى ماجد لا كذب الله ولا خيبا
وقد أتاه منهم واحد فليتنظر ستة غيبا
في مدة تغمرها نعمة يجعلها الله له تربيها
حتى نراه جالسا بينهم أجل من رضوى ومن ككببا
كالبدر وافي الأرض في نوره بين نجوم سبعة ، فاحتبي
يعدى على الدهر - إذا ما اعتدى ويؤمن الناس - إذا استرهبها .

تفاعلت والفعال لي معجب فقلت - وما أنا بالعابث - :
« أبو حسن وأبو مثله كنيئاً أبي حسن ثالث ! »

(١) كان ابن الرومي يحتج للطيرة ويقول : « إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة . أفتراه كان يتفائل بالمعنى ولا يتطير من ضده ؟ » ويقول : « إن النبي صلوات الله عليه مر برجل - وهو يرحد ناقة ويقول : « يا ملعونة » فقال : « لا يصحبنا ملعون » وأن عليا - رضي الله عنه - كان لا يغزو غزاة - والقمر في القرب ! »

أحذر أهل الأرض شؤم ابن طالب
وقد جربت منه على « آل مخلد »
أزيرق مشثوم ، أحيمر قاشر
وهل أشبه المريح - إلا وفعله
أعوذ بعز الله من أن يضني
شبيه « قدار » بل « قدار » شبيهه

فما زال مشحوداً على من يصاحب
تجارب . ليست مثلهن تجارب
لأصحابه ، نحس - على القوم - ثاقب
لفعل شبيهه السوء - شبه مقارب
وإياه في الأرض البسيطة جانب
وإن قيل: « كليم » وإن قيل: « كاتب »

وهل يتارى الناس في شؤم كاتب
ويدعى أبوه « طالباً » وكفاكم
ألا فاهربوا من « طالب » و « ابن طالب »
قل لغراب البين - تبا له -
أو رفع الصوت - بشدو له
« اسكت ، لحاك الله - من قائل
لا تنطقن الدهر في محفل
أنت غراب - خير أحواله
فاترك نعيها - شؤمه راجع
يا بين ، أنت البين في عزة
ينتقل الناس وأحوالهم
إذا جلا عن منزل أهله
أنت أئافيه وأناؤه

والقصيدة طويلة يحسن الرجوع إليها في ديوان ابن الرومي « في ص ٤٤٧ ج ٣ »

(١) من أبدع ما قرأناه في إنصاف الغراب وتبرئته من تهمة التفريق ، قول بعض الشعراء :
والناس يلحون « غرا
وهل « غراب البين » إلا ناقة . أو جل ؟
وما على ظهر « غرا
ب البين » تطوى الرجل ! «
(٢) الصرد (٣) جم راتب وهو الثابت

وَكَذَلِكَ قَالَتِ الْعَامَّةُ : « الْإِرْجَافُ أَوَّلُ الْكَوْنِ ^(١) »
وَيُقَالُ : إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَمَثَّلَ بِهَذَا الْبَيْتِ
- وَلَمْ يُتِمَّهُ - :

تَفَاءَلَنَ بِمَا تَهْوَى يَكُنْ ، فَلَقَانَا يُقَالُ لِشَيْءٍ : « كَانَ » إِلَّا تَحَقَّقًا ^(٢)
وَمَهْمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ اللَّيْبُ ، فَانْخَيْرُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ جِدًّا ^(٣) وَالشَّرُّ
يَزِيدُ عَلَيْهِ بِأَجْزَاءٍ لَيْسَتْ بِالْمُحْصَاةِ ، وَقَالَ عَلْقَمَةُ :
« وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْغُرْبَانِ يَزْجُرْهَا عَلَى سَلَامَتِهِ ، لَا بُدَّ مَشْتُومٍ »

وَكَانَ « ابْنُ الرَّومِيِّ » مَعْرُوفًا بِالتَّطْيِيرِ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي أُجْرِيَ عَلَى التَّخْيِيرِ ؟
وَقَدْ جَاءَتْ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ، تَدُلُّ عَلَى كَرَاهَةِ
الِاسْمِ الَّذِي لَيْسَ بِحَسَنِ ، مِثْلَ مُرَّةٍ ، وَشِهَابٍ ا

*
*
*

(١) وقريب من ذلك قول ابن الرومي في بونيته الجميلة :

وإذا ما ظننت شرًّا فخفه رب شر يقينه مظنونه

وكان « ابن الرومي » يقول : « إن الطيرة موجودة في الطباع ، قائمة فيها ، وإنها في
بعض طباع الناس أظهر منها في بعض ؛ وإن الأكثر في الناس - إذا لقي ما يكرهه -
قال : « على وجه من أصبحت اليوم ؟ »

(٢) ارجع الى ص « ٢٧٤ » في هذا الجزء (٣) وفي ذلك يقول أبو العلاء :

نعم ثم جزء من ألوف كثيرة من الخير ، والأجزاء - بعد - شرور
على أن هذا الجزء القليل جدًا من الخير ، لقد أنكره أبو العلاء في مكان آخر ، فقال :
لا أزعم الخير مازجا كدرًا بل مزعمى أن كله كدر

وَنَحْوُ مِنْ حِكَايَةِ ابْنِ الرَّومِيِّ الَّتِي حَكَاهَا النَّاجِمُ (١) مَا حُكِيَ عَنِ امْرَأَةٍ
مِنَ الْعَرَبِ أَنَّهَا قَالَتْ لِلْأُخْرَى : « سَمَّانِي أَبِي « غَاضِيَةٌ » وَإِنَّمَا تِلْكَ نَارُ ذَاتِ
غَضِيٍّ ، وَتَزَوَّجْتُ مِنْ بَنِي جُمَرَةَ رَجُلًا كَانَ اسْمُهُ « تَوْرَبًا » وَإِنَّمَا ذَلِكَ تُرَابٌ ،
فَسَمَّيْتُ بِي الْأَتْرَابُ ، وَكَانَ اسْمُ أُمِّي « سَوَّارَةَ » فَلَمْ تَزَلْ تُسَاوِرُنِي فِي الْخِصَامِ .
فَقَالَتْ الْأُخْرَى : « لَيْكِنْ سَمَّانِي أَبِي « صَافِيَةٌ » فَصَفَوْتُ ، وَزَوَّجَنِي
مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، فَبَكَرَ عَلَيَّ السَّعْدُ ، وَاسْمُ زَوْجِي « مَحَّاسِنُ » - جُزِيَّ
الصَّالِحَةَ - فَقَدْ حَاسَنَ وَمَا لَاسَنَ ، وَاسْمُ أَبِيهِ « وَقَّافٌ » - رَعَاهُ اللَّهُ - فَقَدْ وَقَفَ
عَلَيَّ خَيْرُهُ ، وَاسْمُ أُمِّي « رَاضِيَةٌ » رَضِيَتْ أَخْلَاقِي ، وَلَمْ تَجْنَحْ إِلَيَّ طَلَاقِي ! »

*
* *

وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ خُثَارِمًا (٢) ، لَمْ يَزَلْ فِي الْكُثْكُثِ (٣) آرِمًا ، إِنْ رَأَى
حَمَامَةً فَرِقَ مِنَ الْحَمَامِ (٤) كَمَا قَالَ الطَّائِيُّ :

هُنَّ الْحَمَامُ - فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً (٥) مِنْ حَاهِنٍ - فَإِنَّهُنَّ حَمَامٌ
وَإِنْ آنَسَ نَعَامَةً فَمَا يَأْخُذُهَا مِنَ النَّعِيمِ ، وَيَجْعَلُهَا بِالْهَلَاكَةِ مِثْلَ الزَّعِيمِ !
يَقُولُ مِنَ الْفَنَدِ (٦) : « أَوْلَهَا نَعِيٌّ » . وَإِنْ نَظَرَ إِلَى عُصْفُورٍ ، قَالَ : « عَصْفٌ
مِنَ الْحَوَادِثِ بُوْفُورٍ » فَهُوَ - طُولَ أَبَدِهِ - فِي عَنَاءٍ !

*
* *

وَلِهَذِهِ الطَّوِيلَةِ جَعَلَ ابْنُ الرَّومِيِّ « جَهْفَرًا » مِنَ الْجُوعِ وَالْفِرَارِ ، وَلَوْ هُدِيَ

(١) هي الحكاية التي رواها عثمان الناجم عن ابن الرومي ، وذكرها ابن القارح في رسالته

(٢) متطيراً (٣) التراب (٤) الهلاك (٥) العيافة : زجر الطير

(٦) الخطأ في الرأي

صَرَافَهُ إِلَى النَّهْرِ الْجَرَّارِ ، لِأَنَّ الْجُمْفَرَ : النَّهْرُ الْكَثِيرُ الْمَاءِ ، وَلَكِنَّ إِخْوَانَ هَذِهِ الْخَلِيقَةِ ، لَا يَحْمِلُونَ الْأَشْيَاءَ الْوَارِدَةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ (١)

وَأَرَادَ بَعْضُهُمُ السَّفَرَ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ ، فَقَالَ : « إِنْ سَافَرْتُ فِي الْمُحَرَّمِ ، كُنْتُ جَدِيرًا أَنْ أُحْرَمَ ، وَإِنْ رَحَلْتُ فِي صَفَرٍ ، خَشِيتُ عَلَى يَدِي أَنْ تَصْفَرَ » فَأَخَّرَ سَفَرَهُ إِلَى شَهْرِ رَيْبِعٍ ، فَلَمَّا سَافَرَ مَرِضَ فَلَمْ يَحْظَ بِطَائِلٍ ، فَقَالَ : « ظَنَنْتُهُ مِنْ رَيْبِعِ الرِّيَاضِ ، فَإِذَا هُوَ مِنْ رَيْبِعِ (٢) الْأَمْرَاضِ »

وَأَمَّا إِعْدَادُهُ الْمَاءَ الْمَثْلُوجَ فَتَعَلَّةٌ ، وَمَا تُنْقَعُ بِالْحَيْلِ غَلَّةٌ ، وَتَقْرِيْبُهُ الْخَنْجَرَ تَحْرُزٌ مِنْ جَانٍ ، وَتُنْقَضُ الْأَقْضِيَّةُ وَمَا بَنَى الْبَانِي . وَرُبَّ رَجُلٍ يَحْتَفِرُ لَهُ

(١) ومما يروونه عن تطير ابن الرومي ما حكاه عنه « علي بن عبد الله بن المسيب » قال : دخل علي ، يوم المهرجان ، وقد أهدى إلى عدة من جواري القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء ، وعجوز في إحدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ، ولم يظهر لي أمره ؛ وأقام باقي يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح فماتت ، وجفاه القاسم الوزير ، فجعل سبب ذلك المغنيتين ، وكتب إلى :

أيها المتحنفي بحول وعور أين كانت عنك الوجوه الحسان؟
لقد لعمرى ركبت أمراً مهيباً ساءنا فيك أيها الخلصان
فتحك المهرجان بالحول والعو ر ، أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذلك فقدك أبتك الحرّة ة مصبوغة بها الأكفان
وتجاني مؤمل لي خليل لج فيه الجفاء والهجران

إلى آخر القصيدة ، وارجع إلى ص « ٢٨٠ » من هذا الجزء ، فلقد أسلفنا نبذة مختارة من شعر ابن الرومي في الطيرة (٢) حتى الربع : تأخذ يوماً وتترك يومين ، ثم تجيء في اليوم الرابع . وذلك أنها تأخذ في الأيام الثلاثة ثماني عشرة ساعة - وهي ربع ساعات تلك الأيام الثلاثة - فسيت كذلك باعتبار الساعات .

قَبْرًا بِالشَّامِ ، ثُمَّ يُجْشِمُهُ الْقَدَرُ بَعِيدَ الْإِجْشَامِ ، فَيَمُوتُ بِالْيَمَنِ أَوْ بِالْهِنْدِ ،
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .
وَكَمَا أَنَّ النَّفْسَ جَهَلَتْ مَدْفَنَ عِظَامِهَا ، فَهِيَ الْجَاهِلَةُ بِالْقَاطِعِ لِنِظَامِهَا .
كَمْ ظَانَ أَنَّهُ يَهْلِكُ بِسَيْفٍ فَهَلَكَ بِحَجَرٍ ^(١) ، وَمُوقِنٍ أَنَّ شَجَبَهُ ^(٢) يُقَدِّرُ
عَلَى مِهَادٍ ، فَالْقَتَةُ الْأَسَلُ ^(٣) يَبْعُضُ الْوَهَادِ .

* * *

وَالْبَيْتَانِ اللَّذَانِ رَوَاهُمَا النَّاجِمُ عَنِ ابْنِ الرَّوْمِيِّ مُقَيَّدَانِ ، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّهُ جَاءَ عَنِ
الْفُصْحَاءِ هَذَا الْوِزْنَ مُقَيَّدًا ، إِلَّا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ، يَتَدَاوَلُهُ رِوَاةُ اللَّغَةِ ، وَالْبَيْتُ :
« كَأَنَّ الْقَوْمَ عَشُوا لَحْمَ ضَائِنٍ فَهُمْ نَعِجُونَ ^(٤) قَدْ مَالَتْ طُلَاهِمُ »
وَهَذَا الْبَيْتُ مُؤَسَّسٌ ، وَالَّذِي قَالَ ابْنُ الرَّوْمِيِّ بغيرِ تَأْسِيسٍ ، وَمَا
يَدْرِي النَّاجِمُ ^(٥) - وَلَعَلَّهُ بِالْفِكْرِ رَاجِمٌ - أَيْ الْجَنَّةِ حَصَلَ ذَلِكَ الشَّيْخُ
أَمْ فِي السَّعِيرِ ؟

أبو تمام ^(٦)

وَأَمَّا « أَبُو تَمَّامٍ » ، فَمَا أَمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بِرِمَامٍ ، فَإِنْ قُذِفَ فِي النَّارِ
« حَبِيبٌ ^(٧) » ، فَمَا تُغْنِي الْمِدْحُ وَلَا التَّشْيِيبُ .

(١) وهذا قريب من قوله :

بيننا امرؤ يتوقى الذئب عن عرض أتاه ليث - على العلات - يفترس

(٢) هلاكه (٣) أطراف السيوف (٤) المفرد : « نعج » وهو السمين ،

أو الذي أكل لحم الضأن حتى ثقل على قلبه ، وطلاهم : أعناقهم (٥) يعني : أبا عثمان الناجم

(٦) أرجع إلى ترجمته في ص « ١٤٣ » في الجزء الثاني (٧) هو أبو تمام

مناعة القصائد (١)

وَلَوْ أَنَّ الْقَصَائِدَ لَهَا عِلْمٌ؛ لَأَقَامَتْ عَلَيْهِ الْمَمْدُودَتَانِ اللَّتَانِ فِي أَوَّلِ دِيْوَانِهِ
مَأْتَمًا، فَنَاحَتَا عَلَيْهِ كَأَبْنَتَيْ لَبِيدٍ، وَقَالَتَا مَا زَعَمَهُ «الِكَلَابِيُّ» فِي قَوْلِهِ:
« وَقُولَا: «هُوَ الْمَيْتُ الَّذِي لِأَحْرِيْمَةَ أَضَاعَ، وَلَا خَانَ الصَّدِيقَ وَلَا غَدَرَ»
إِلَى الْخَوْلِ، ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَذَرَ»
وَكَأَنِّي بِهِمَا - لَوْ قُضِيَ ذَلِكَ - لَاجْتَمَعَتِ إِلَيْهِمَا الْمَمْدُودَاتُ، كَمَا تَجْتَمِعُ
نِسَاءُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَلَوْ فَعَلْنَ ذَلِكَ لَبَارَثُنَّ «الْبَائِيَاتُ» بِمَأْتَمٍ أَكْبَرَ
رَيْنًا. وَإِذَا كَانَ مَأْتَمُ الْمَمْدُودَاتِ فِي مِائَةٍ يَمُنُّ يُسْعِدُهُنَّ وَيُظَاهِرُهُنَّ، وَجَبَ
أَنْ يَكُونَ مَأْتَمُ الْبَائِيَاتِ فِي آلَافٍ، لِأَنَّ الْبَاءَ طَرِيقُ رَكُوبٍ (٢)، وَالْمَدُّ
- فِي الْقَصَائِدِ - سَبِيلُ مَنْكُوبٍ (٣). وَمَا نَظَمَهُ عَلَى «الْتَاءِ»، فَإِنَّهُ لَا يُعْجِزُ
عَنِ الْإِيْتَاءِ، وَتَجِيءُ الشَّائِئَتَانِ فِي حَالِكِ اللَّوْنِ - وَإِنَّ الشَّاءَ لَقَلِيلَةٌ فِي
شِعْرِ الْعَرَبِ - إِلَّا أَنَّهُمَا تَسْتَعِينَانِ كَلِمَةً كَثِيرًا:

« حِبَالُ السَّلَامَةِ أَضْحَتْ رِثَاثًا فَسَقِيًّا لَهَا - جُدْدًا أَوْ رِمَاثًا »
وَبِأَرَاجِيزِ رُوْبَةٍ (٤) وَمَا كَانَ نَحْوَهَا مِنَ الْقَوَائِفِ الْمُتَكَفِّفَةِ، وَالْأَشْعَارِ
الْمُتَعَسِّفَةِ، وَلَهُمَا - فِيمَا نَظَمَ «ابْنُ دُرَيْدٍ» (٥) - أَغْوَانٌ أ
فَأَمَّا الدَّالِّيَاتُ وَالرَّائِيَاتُ وَمَا بُنِيَ عَلَى الْحُرُوفِ الذُّلُّ، كَالْمِيمِ وَالْعَيْنِ وَاللَّامِ
وَمَا جَرَى مَجْرَاهُنَّ، فَلَوْ اجْتَمَعَ كُلُّ حَيْزٍ مِنْهُنَّ، لَضَاقَ عَنْهُنَّ الصَّدْرُ وَالْإِيرَادُ،

(١) تمثل أبو العلاء قصائد أبي تمام أحياء تندب صاحبها، كما تمثل من قبل في
(ص ٨٦ و ٨٧ في الجزء الثاني) أبيات لبيد الثلاثة قصورا في الجنة (٢) طريق
ركوب، أي مطروق مدلل (٣) يتنكبه الناس، أي لا يسلكونه (٤) ارجع الى
ترجمته في ص ٨٩ في الجزء الثاني (٥) ترجمته في ص ١٦ في الجزء الثاني

وَزِدْنَ عَلَى مَا ذُكِرَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ فِي جَنَازَةِ «أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ»^(١) مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ
وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا الْإِسْلَامِ جَمْعٌ أَكْثَرُ مِمَّا اجْتَمَعَ فِي
مَوْتِ أَحْمَدَ، حُزِرَ^(٢) الرِّجَالُ بِأَلْفِ أَلْفٍ، وَالنِّسَاءُ بِسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ، وَاللَّهُ الْعَالِمُ
بِيقِينِ الْأَشْيَاءِ |

وَإِنْ كَانَ «حَبِيبٌ» ضَيَّعَ صَلَوَاتِهِ، فَإِنَّهُ لَضَالٌّ، لَا يَبْلُغُ فِيهِ كَيْدُ الْعُدَاةِ،
مَا بَلَغَ مِنْ إِهْمَالِ غَدَاةٍ. وَإِنِّي لِأَضُنُّ بِتِلْكَ الْأَوْصَالِ، أَنْ يَظَلَّ جَسَدُهَا وَهُوَ
بِالْمُوقَدَةِ صَالٍ. لِأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ طَرِيقَةٍ مُبْتَدِعَةٍ، وَمَعَانٍ كَاللُّوْلُؤِ يَسْتَخْرِجُهَا
مِنْ غَامِضِ بَحَارٍ، وَيَفُضُّ عَنْهَا الْمُسْتَعْلِقَ مِنَ الْمَحَارِ، فَلَيْتَهُ كَالْجَعْدِيِّ^(٣)
أَوْ لَيْتَهُ لِحِقِّ زَيْدِ بْنِ مُهَلَّبٍ، فَقَدْ وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَطَرَحَ عَنْهُ ثَوْبَ النَّبِيِّ |

المنازير

وَأَمَّا «الْمَازِيَارُ»، فَحَلَالٌ بِالسَّفَةِ سَيَّارٌ، وَحَسْبُهُ مَا يَتَجَرَّعُ مِنَ الْحَمِيمِ،

(١) أحمد بن حنبل

توفي ٢٤١ هـ

نشأته ببغداد، اشتهر بحفظه وروايته للحديث، وكان من أصحاب الشافعي، صنف كتابه
«المسند» وجمع فيه من الأحاديث ما لم يتفق لغيره، وكان ورعاً، حسن الوجه، ينضب
بالحناء خضياً خفيفاً

وحدثت في زمنه المسألة المشهورة، وهي القول بخلق القرآن، فدعى إلى الموافقة عليها،
فلم يجب، فضرب وحبس

وروا: أنه لما مات حضر جنازته ثمانمائة ألف رجل، وستون ألف امرأة، وروى غير
ذلك كما يقول أبو العلاء (٢) أي قدرُوا (٣) ارجع إلى ترجمته في ص ٣٨ في الجزء الثاني

وَيَحْتَمِلُ مِنَ الْمَقَالِ الذَّمِّمْ ؛ وَقَدْ خَلَّدَ لَهُ فِي الْكُتُبِ مَا يُوجِبُ لَعْنَهُ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ .

ابو مسلم الخراساني

وَالْعَجَبُ لِأَبِي مُسْلِمٍ ، حَطَبَ لِنَارِ أَكَلَتُهُ ، وَقَتَلَ فِي طَاعَةِ وُلَاةٍ قَتَلَتْهُ ،
وَلَيْسَ بِأَوَّلِ مَنْ دَابَّ لِسِوَاهُ ، وَأَغْوَاهُ الطَّمَعُ فِيمَنْ أَغْوَاهُ ، وَإِنَّمَا سَهَرَ لَأُمَّ
دَفْرٍ^(١) ، وَتَبِعَ سَرَابًا فِي قَفْرِ ، فَوَجَدَ ذَنْبَهُ غَيْرَ الْمُغْتَفَرِ ، عِنْدَ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ
« أَبِي جَعْفَرٍ^(٢) »

وَكُلُّ سَاجٍ لِلْفَانِيَةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ النَّدَمِ ، فَذَمُّنَا لَهَا يُحْسَبُ مِنَ الضَّلَالِ ،
كَمَا تَمَنَّى الْقَنَعَ أَخُو الْإِقْلَالِ ، وَهَذِهِ زِيَادَةٌ فِي النَّصَبِ ، وَفَازَ بِالسَّبْقِ حَازِرُ
الْقَصَبِ ، يَذْمُهَا عَلَى غَيْرِ جِنَايَةٍ - وَلَمْ تَخُصَّ أَحَدًا بِالْعِنَايَةِ - بَلْ أَبْنَاوُهَا
فِي الْمِحْنِ سَوَاءً ، لَا تَسَاعِفُهُمُ الْأَهْوَاءُ !

أعباء الفقير وأسجانه الفقى

فَرُبَّ حَامِلٍ حُزْمَةٍ عَضِيدٍ^(٣) ، يَعْجِزُ ثَمَنَهَا عَنِ الْقُوْتِ ، وَيُكَابِدُ شَطَفَ

(١) الدنيا - وأبو العلاء يكتفي بهذه الكنية ، ومعناها « أم تنن » ، لنقمتها عليها ،
فهو لا يكاد يذكر الدنيا إلا كناها بها .

(٢) انظر إلى قول أبي العلاء في ذلك في لزومياته :

لو بعث المنصور ، نادى : « أيا مدينة التسليم ؛ لا تسلمى »

« قد سكن القفر » بنو هاشم « وانتقل الملك إلى الديلم »

لو كنت أدرى أن عقباهم كذاك ، لم أقتل أبا مسلم »

ونحب أن يرجع القارئ إلى مصرع « أبي مسلم » في كتابنا « مصارع الأعيان »

(٣) العصيد : الحطب من الشجر اليابس يقطع بالمعصد

عَيْشٍ مَمْقُوتٍ ، يَلْبِجُ سُلَّامًا^(١) فِي قَدَمَيْهِ ، وَيَخْضِبُهُ الشَّائِكُ بِدَمِهِ ، وَهُوَ أَقْلٌ أَشْجَانًا
مِنَ الْوَائِبِ عَلَى السَّرِيرِ . يَنْعَمُ بِرَشَاءٍ غَرِيرٍ ، يُجْمَعُ لَهُ الذَّهَبُ مِنْ غَيْرِ حِلٍّ بِاعْتِنَاتِ
الْأُمِّ ؛ وَإِذَا مَلَأَ بَطْنَهُ مِنْ طَعَامٍ^(٢) وَسَبَّحَ فِي بَحْرِ مِنَ التَّرَفِ ، فَتِلْكَ النِّعَمُ
وَلَذَاتُهُ ، تَحَدُّثُ لَهَا أَذَاتَهُ ؛ يَخْتَلِجُهُ الْقَدَرُ عَلَى غُفُولٍ ، وَغَايَةُ السَّفَرِ إِلَى قُفُولٍ .

وَمَا يَدْرِي الْعَاقِلُ - إِذَا افْتَبَكَرَ - أَيُّ الشَّخْصَيْنِ أَفْضَلُ ؟ أَرَيْبٌ عُقِدَ
عَلَيْهِ إِكْلِيلٌ ، أَمْ أَرْقَشُ ظِلُّهُ فِي الْمَكِّ ظَلِيلٌ ، كِلَاهُمَا بَلَّغَ آرَابًا ، وَأَحَدُهُمَا
يَأْكُلُ تَرَابًا ، وَالْآخَرُ يُعَلُّ بِالرَّاحِ ، وَيُجْتَهِدُهُ فِي الْأَفْرَاحِ .

وَمَا عَلِمْنَا النَّسْكَ مُوقِيًّا ، وَلَا فِي الْأَسْبَابِ الرَّافِعَةَ مُرْقِيًّا . وَالْعَالَمُ
بِقَدَرٍ عَامِلُونَ - أَخْطَأَهُمْ مَا هُمْ آمِلُونَ - وَمَا آمَنُ أَنْ تَكُونَ الْآخِرَةَ بِأَرْزَاقٍ^(٣)

(١) شوك النخل ، واحده سلاة (٢) وفي هذا المعنى يقول أبو العلاء في لزومياته :

ساس الأنام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خص الناس كلهم إن بات يشرب خمرًا - وهو مبطلان

(٣) الجد

ذكر أبو العلاء هذا المعنى على لسان أوس في (ص ١٦٧ ج ٢) وذكره في مكان
آخر من لزومياته فقال :

والبخت في الأولى أنال العلاء وليس في آخرة بخت
كذاك قالوا ، وأحاديثهم بين فيها الجزل والشخت
وكرره في قوله :

أأخشى عذاب الله ، والله عادل وقد عشت عيش المستضام المذبذب
نعم ! ، إنها الأرزاق ؛ والمرء جاهل يهذب من دنياه ما لم يهذب
ولأبي العلاء أشعار أخرى كثيرة في الجد ، نجتزئ منها هنا بقوله :

عَلَى أَنَّ السِّرَّ مُغَيَّبٌ ، وَكُنَّا - فِي الْمُلْتَمَسِ - مُخَيَّبٌ ، وَالْجَاهِلُ - وَفَوْقَ

والسعد يدرك أقواماً فيرفعهم وقد ينال إلى أن يعبد الحجر
وشرفت « ذات أنواط » قبائلها ولم تباين - على علائها - الشجرا
سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد ، والدنيا حظوظ وإقبال
لا تطلبن بألة لك رتبة قلم الأديب ، بغير حظ ، منزلة
سكن السما كان السماء كلاهما هذا له رمح ، وهذا أعزل
إذا صدق الجد افتري العم للفتى مكارم لا تكرى - وإن كذب الخلال
الجد : الحظ ، والعم : الجماعة ، ولا تكرى : لا تنفذ ، والخلال : الخيلة .

موجز رأى الشعراء في الحظ

ويحسن في هذه المناسبة أن نذكر نخبة من آراء الشعراء في الجد ، ويمكن القول بأن آراءهم
جميعاً ، تكاد تجمع على أنه حليف الغباوة ، قال المتنبي :

هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يصير اليوم لليوم سيديا
وما الجمع بين الماء والنار في يد بأصعب من أن أجمع الجد والفهما
وقال أبو تمام :

ينال الفتى من دهره ، وهو جاهل ويكدي الفتى من دهره - وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تأتي على الحجا إذن هلكت من جهلن البهائم
وقال الضاللي :

إذا جمعت بين امرئين صناعة فأحبت أن تدرى الذي هو أحذق
فلا تتفقد منها غير ما جرت به لها الأرزاق حين تفرق
فحيث يكون الجهل ، فالرزق واسع وحيث يكون العلم ، فالرزق ضيق
وقال ابن وهبون :

وحيث ترى زند النجاة واريا فم ترى زند السعادة كايا

الجاهل - من ادعى المعرفة ، واللئنة على الكاذبين

وقال ابن الخياط :

وما زال شؤم الحظ من كل طالب
وقد يحرم الجلد الحريص مرامه
كفيلا بعد المطلب المتداني
ويعطى مناه العاجز المتواني

وقال المروزي الضرير :

تنافى العقل والمال
فما بينهما شكل
فالعقل حيث لا مال
ومال حيث لا عقل

وقال القاضي الفاضل :

وزيادتي في الحدق، فه
ى زيادة في نقص رزقي!

وقال ابن سناء الملك :

هو الجذ خذه إن أردت مسلماً
ولا تطلب التعليل ، فالأمر مبهم!

ومما نختاره من شعر ابن الرومي في « الجذ » قوله :

عزت مطالب دنيا كل ذى أدب
وقدر الله فيها أن يذلها
فليس ينفك ذو علم وثجربة
وذو الجهالة منها فى بلهنية
تبارك العدل فيها - حين يقسمها
بين البرية قسما غير متفق!

وقوله : لا تعجبين لمرزوق أخى هوج

فخالقُ الناس أعراء بلا وبر
ما زلت أعرف أهل العجز فى دعة
أما ترى هذه الأنعام قد كفيت
فكسى البهائم أو باراً وأصوافا
لا يكلفون ، وأهل الكيس كلافاً
فما تساوم بالأخفاف أخفافاً ؟

وقوله : دنيا علا شأن الوضيع بها

كالبحر يرسب فيه لؤلؤه
وهوى الرفيع - يحطه شرفه
سَجْلاً ، وتطفو فوقه جيفه

علي بن أبي طالب (١)

أَمَّا الَّذِينَ يَدْعُونَ فِي « عَلِيٍّ » عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا يَدْعُونَ ، فَتِلْكَ ضَلَالَةٌ

وقوله :

رأيت الدهر يرفع كل وغد ويخفض كل ذى شيم شريفه
كمثل البحر يغرق فيه حى ولا ينفك يطفو فيه جيفه
أو الميزان يخفض كل واف ويرفع كل ذى زنة خفيفه

ونختم هذا المختار بتلك القصة الجميلة ، التي يحكيها لنا أحد الشعراء عن نفسه ، وهي :

ولما لمست الرزق فأنجذ حبله ولم يصف لي من بجره العذب مشرب
خطبت إلى الإعدام إحدى بناته فزوجنيها الفقر - إذ جئت أخطب
فأولدتها الحزن الشقي ؛ فما له على الأرض غيرى والد ، حين ينسب
فلو تهت في البيداء - والليل مسبل عليّ جناحيه - لما لاح كوكب
ولو خفت شراً فاستترت بظلة لأقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
ولو جاد إنسان على بدرهم لرحت - إلى رحلى - وفي الكف عقرب
ولو يطر الناس الدنانير ، لم يكن بشيء سوى الحصباء رأسى يحصب
وإن يقترف ذنباً بيرقة مذنب فإن برأسى ذلك الذنب يعصب
وإن أر خيراً فى المنام ، فنازح وإن أر شراً ، فهو منى مقرب
أمامى من الحرمان جيش عرمرم ومنه ورأى جحفل حين أركب
وسيمر بك قول ابن الراوندى فى الجذ فى ص « ٢٩٦ » فى هذا الجزء

(١) لبعض الشيعة آراء متطرفة فى علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - ودعاوى لا تقف عند حد ، وقد ادعى قوم أنه لم يقتل ، وإنما الذى قتله « ابن ملجم » شيطان تصور للناس فى صورته ، أما علي فقد صعد الى السماء ، وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه .
وهى دعوى تشبه ما قيل فى عيسى .

وادعى قوم أن الله أرسل جبريل إلى علي ؛ فذهب إلى محمد خطأ - لشدة الشبه بين

قَدِيمَةٌ ، وَدِيمَةٌ مِنَ النَّوَايَةِ تَتَّصِلُ بِهَا دِيمَةٌ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ حُرِّقَ « عَبْدُ اللَّهِ

النبي والإمام علي ، وهذه الفرقة تقول : « العنوا صاحب الريش » أي جبريل
وادعى آخرون أن الله خلق محمداً ، ثم فوض إليه تدبير العالم وتعميره ، فهو الذي خلق
العالم دون الله ، ثم فوض محمد تدبير العالم إلى علي بن أبي طالب ، فهو المدبر الثالث
وزعم غيرهم أن علياً هو الله ، وشتموا محمداً ، وزعموا أن علياً بعثه ليثني عليه فادعى
الأمر لنفسه

ويدعى فيه قوم آخرون أن الرعد والبرق صوته ، ومن سمع منهم صوت الرعد ، قال :
« عليك السلام يا أمير المؤمنين » وفي هذه الطائفة يقول أبو إسحاق ابن سويد العامري :

برئت من الخوارج لست منهم من الحجاج منهم وابن باب
ومن قوم — إذا ذكروا علياً — يردون السلام على السحاب

ولا يزال كثير من العامة يعتقد إلى اليوم أن علياً راكب ناقة يطير بها فوق السحاب ،
ومما تذكره بهذه المناسبة — على سبيل التندر والفكاهة — أن أحد أشياخنا المعتمدين ،
المشتغلين بنظم الكلام ، أراد أن يتكرر . ليقنع الناس بأنه غير عاكف على أساليب التفكير
القديمة ، ويدفع عن نفسه معرفة الجمود والجهل بحقيقة الشعر الحى ، الذى يتطلبه هذا العصر
المملوء بالحياة والتفكير ، فحسب أن كل ما يتطلبه ذلك التطور الفكرى العظيم — من الشاعر —
هو أن يستبدل وصف النوق والجياد بوصف قطر البخار والطيارات ، فورط نفسه فى الأخذ
بتلك الخرافة ، ودعا الله أن يهبه طيارة يسمو بها الى السحاب ، حتى اذا بلغه حظى بقليا
على بن أبي طالب ، فقال :

« فهب لى ذات أجنحة ، لعلى بها ألقى على السحب الإماما »

فلم يزدنا اقتناعاً بجموده ، ولكنه وفق إلى اثبات فنده وخرفه بهذا البيت الرائع !

*
* *

وقد نسبوا الى « علي بن أبي طالب » علم الجفر ، وهو ما يطلقونه على العلم الاجمالى بلوح
القضاء والقدر ، المحتوى على ما كان وما يكون كلياً وجزئياً ، وتدعى طائفة أنه وضع الحروف

ابن سبأ ، لما جاهر بذلك النبأ ١ - واعتقاد « الكيسانية » في « محمد بن الحنفية » عجيب ، لا يصدق بمثله تجيب ١

الهجائية في جلد الجفر ، وأنه يمكن استخراج - ما يأتي به الغيب - منها بطريقة خاصة ، ويدعون أن هذا علم انفرد به آل البيت ومن ينتمى إليهم ، وأنهم يتوارثونه . وادعى آخرون أن فهم أسرار هذا الجفر مقصور على المهدي المنتظر ، وأنه - دون غيره - يستطيع أن يفقه حقيقة ما في هذا الكتاب الذي سموه بهذا الاسم ، لأن علياً كتبه حروفاً متفرقة في ورق مصوغ من جلد البعير ، وقد اشتهر بين الناس ، لاحتوائه ما حدث للأولين والآخرين ، وفيه يقول أبو العلاء :

يقولون : « مسك الجفر » أودع حكمة إذا كتبت أطراسها ملأت جفرا (١) «
ولا يزال بعض العامة يعني بهذه الخرافات وأشباهاها ، ويأخذها بلا تدبر ولا روية .
ونحو من هذه الخرافة ما يروونه عن الخضر ، وعن المسيح الدجال ، وغير ذلك من الترهات ؛ وقد وقف أبو العلاء قسماً كبيراً من رسالة الغفران واللزوميات ، على محاربة أشباه هذه البدع ، والتشنيع على من يقولون بها . وحسبنا أن نستدل بقوله مندداً بتلك الخرافة التي يشيعونها عن الخضر :

يقول الغواة : « الخضر حي » عليهم عفاء ، نعم ليل من الفتن أخضراً
ولو صدقوا ما انفك في شر حالة يعانى بها الأسفار ، أشعث مغبراً
جنى قائل بالمين ، يطلب ثروة ويعذر فيه من تكسب مضطراً

وقوله مندداً بالمهدي المنتظر :

مجوسية وحنيفية ونصرانية ويهودية
تراقب مهديها أن يقوم فتلقى الى الحق مهديه

وقد ندد بظهوره في مكان آخر - في (ص ٢٣٥) في هذا الجزء - فليرجع من شاء

دعوى الربوبية

وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا بِالْبَصْرَةِ يُعْرَفُ « بِشَابَاسَ » تَزْعُمُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ أَنَّهُ
رَبُّ الْعِزَّةِ ، وَتُجْبَى إِلَيْهِ الْأَمْوَالُ الْجَمَّةُ ، وَيَحْمَلُ إِلَى السُّلْطَانِ مِنْهَا قِسْمًا وَافِرًا ،
لِيَكُونَ — بِمَا طَلَبَ — ظَافِرًا .

وَحَدَّثْتُ عَنِ امْرَأَةٍ بِالْكُوفَةِ يُدَّعَى لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ .

رجعة الى ابن الراوندى

وَقَدْ سَمِعْتُ مَنْ يُخْبِرُ أَنَّ لِابْنِ الرَّائِدِيِّ مَعَاشِرَ تَذَكُرُ أَنَّ اللَّاهُوتَ
سَكَنَهُ ، وَيَحْتَرِصُونَ لَهُ فِضَائِلَ ، يَشْهَدُ الْخَالِقُ وَأَهْلُ الْمُتَعَقُولِ ، أَنَّ كَذِبَهَا
غَيْرُ مَصْقُولٍ ، وَهُوَ — فِي هَذَا — أَحَدُ الْكُفَرَةِ ، وَقَدْ أَنْشَدَ لَهُ مُنْشِدٌ :
قَسَمْتُ يَيْنَ الْوَرَى مَعِيشَتَهُمْ قِسْمَةَ سَكَرَاتِ بَيْنِ الْغَلَطِ
لَوْ قَسَمَ الرِّزْقَ هَكَذَا رَجُلٌ قُلْنَا لَهُ : « قَدْ جُنِنْتَ ، فَاسْتَعِطِ ^(١) »
وَلَوْ تَمَثَّلَ هَذَانِ الْبَيْتَانِ ، لَكَانَا فِي الْإِضْرِ ، يَطُولَانِ أَرَمَى مِصْرَ ^(٢)

أبو جوف

وَقَدْ ظَهَرَ فِي الضَّيْعَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالنَّيْرَبِ ، رَجُلٌ يُعْرَفُ بِأَبِي جَوْفٍ ،

(١) أى أدخل السعوط في أنفك لتفتيق ، والسعوط هو ما يدخل الأنف من مسحوق
دقيق كالتبغ . ولابن الراوندى فى هذا المعنى ، بيتان آخران ، أقل شناعة من هذين البيتين ،
وهما قوله :

كم عاقل عاقل ، أعيت مذاهبه وجاهل جاهل ، تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم التحرير زنديقا !

(٢) أى هرمى مصر

كَانَ يَدْعِي النُّبُوَّةَ، وَيُخْبِرُ بِأَخْبَارِ مُضْحِكَةٍ، وَكَانَ لَهُ قُطْنٌ فِي بَيْتٍ، فَقَالَ
إِنَّ قُطْنِي لَا يَحْتَرِقُ، وَأَمَرَ ابْنَهُ أَنْ يُدْنِيَ سِرَاجًا إِلَيْهِ، فَأَخَذَ فِي الْقُطْنِ،
وَصَرَخَتْ النِّسَاءُ، وَاجْتَمَعَتِ الْجِيرَةُ .

*
*
وَحَدَّثَنِي مَنْ شَاهَدَهُ : أَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ الضَّحِكَ مِنْ غَيْرِ مُوجِبٍ ، وَلَا
عِنْدَ حَادِثٍ مُعْجِبٍ ؛ فَقِيلَ لَهُ : « لِمَ تَضْحَكُ ؟ » فَقَالَ كَلَامًا مَعْنَاهُ : « إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَيَفْرَحُ بِهِيْنِ قَلِيلٍ ، فَكَيْفَ مَنْ وَصَلَ إِلَى الْعَطَاءِ الْجَلِيلِ ! »
وَكَانَ بَيْنَ الْجُنُونِ ، لَيْسَ خَبْلُهُ بِالْمَكْنُونِ ، فَاتَّبَعَهُ الْأَغْيَاءُ ، وَكَذَّبَ
مَا تَقُولُهُ الْأَنْبِيَاءُ ، حَتَّى قَتَلَهُ وَالِي حَلَبَ

عودة الى علي بن أبي طالب

وَبَعْضُ الشُّعْبَةِ يُحَدِّثُ أَنَّ « سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ » كَانَ فِي نَفَرٍ جَاءُوا يَطْلُبُونَ
عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ - سَلَامُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي مَنْزِلِهِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ
كَذَلِكَ ، جَاءَتْ بَارِقَةٌ ، تَتَّبَعُهَا رَاعِدَةٌ ، وَإِذَا عَلِيٌّ قَدْ نَزَلَ عَلَى إِجَارِ الْبَيْتِ
فِي يَدِهِ سَيْفٌ مُخْضُوبٌ بِالدَّمِ ، فَقَالَ : « وَقَعَ شَجَارٌ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ،
فَصَعِدْتُ لِأُصْلِحَ يَدَهُمَا ! »

أَفَلَا يَرَى هَذِهِ الْأُمَّةَ كَيْفَ افْتَنَّتْ فِي الضَّلَالَةِ ، كَأَفْتِنَانِ الرَّيِّعِ فِي
إِخْرَاجِ الْأَكْلَاءِ ! وَاللَّكْذِبِ سُوقٌ لَيْسَتْ لِلصِّدْقِ . . .

*
*
وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ بُلُوغِ السَّنِّ ، فَإِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - خَلَقَ مَقْرَأًا وَشُهَدَاءَ ،
وَرَغْبَةً فِي الْعَاجِلَةِ وَزُهْدًا ، وَإِذَا اللَّيْبُ أَنْعَمَ النَّظَرَ لَمْ يَرَ الْحَيَاةَ إِلَّا تَجْدِيبَهُ

إِلَى الضَّيْرِ ، صُبْحٌ يَتَبَسَّمُ وَإِمْسَاءٌ ، كَانَهُمَا سَيِّدَا إِضْرَاءَ ، وَالْعُمُرُ ثَلَاثَةٌ ، وَهَمَّا عَلَى
السَّارِحِ يُغِيرَانِ ، فَيُفْنِيَانِ السَّائِمَةَ^(١) وَيُبِيرَانِ ।

الزواج

وَقَدْ تَحَدَّثَ بَعْضُ طُلَّابِ الْأَدَبِ ، أَنَّهُ ذَكَرَ التَّزْوِيجَ — يُرِيدُ الْخِدْمَةَ —
فَسَرَّنِي ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ دَلَّ عَلَى إِقَامَةٍ بِالْوَطَنِ ، وَفِي قُرْبِهِ الْفَرَحَةُ ، إِذْ كَانَ كَالشَّجَرَةِ
الْوَارِفِ ظِلَالُهَا فِي الْهَوَاجِرِ ، وَالطَّيِّبِ ثَمَرُهَا لِلذَّائِقِ ، وَالْأَرَجِ نَسِيمُهَا لِلنَّاشِقِ .
وَهُوَ يَعْرِفُ حِكَايَةَ الْخَلِيلِ عَنِ الْعَرَبِ : « إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السِّتِينَ فَأَيَّاهُ وَإِيَاءَ
الشَّوَابِّ ، وَلَكِنِ النَّصْفَ^(٢) »

(١) وفي هذه المعنى يقول أبو العلاء في لزومياته :

هل الناس إلا نظير السوام وأجالهم أسد تقترس ؟

(٢) كرر أبو العلاء هذه النصيحة أكثر من مرة في لزومياته ، فمن ذلك قوله :

إذا ما ابن ستين ضم الكعاب إليه فقد حلت البهله

هو الشيخ ، لم يرضه أهله ولم يرض في فعله أهله

فلا يتزوج أخو الأربعين إلا مجربة كعهله

رأى الشيب في عارضيه المسن ، فنعم القرين له الشهره

وقوله : إذا أنت زوجت العجوز ، على الصبا فأيامها صن عليك وصنبر

وقوله : كأنك — بعد خمسين استقلت لمولدك — البناء ، دنا ليهوى

وإنك — إن تزوج بنت عشر — لأخيب صفقة من شيخ مهو

وحكاية « شيخ مهو » مشهورة ، لا نطيل بذكرها هنا ، فليرجع إليها من شاء ، في

(ص ٣٥٨ جزء ٢) من اللزوميات

وَلَوْ نَشِطَ لِهَذِهِ الْمَارِبَةِ ، لَتَنَافَسَتْ فِيهِ الْعُجُزُ وَالْمُسْكَنَاتُ ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

« يَا عَزُّ أَهْلَ لَكَ فِي شَيْخٍ فَتَى أَبَدًا وَقَدْ يَكُونُ شَبَابٌ غَيْرُ فِتْيَانٍ »

فَلَيْسَ بِأَوَّلٍ مَنْ تَزَوَّجَ — عَلَى السُّنَنِ — عَجُوزًا ، كَمَا قَالَ :

« إِذَا مَا أَعْرَضَ الْفَتَيَاتُ عَنِّي فَمَنْ لِي أَنْ تُسَاعِفَنِي عَجُوزُ

كَأَنَّ مَجَامِعَ اللَّحْيَيْنِ مِنْهَا — إِذَا حَسَرْتُ عَنِ الْعَرَيْنِ — كُوزُ »

وَيُرَوَّى لِلْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ ، وَلَمْ أَجِدْهُ فِي دِيْوَانِهِ :

وَقَالُوا مَا نَكَحْتُ ؟ فَقُلْتُ خَيْرًا عَجُوزًا مِنْ عُرَيْنَةَ ذَاتِ مَالٍ

نَكَحْتُ كَبِيرَةً ، وَغَرَمْتُ مَالًا كَذَاكَ الْبَيْعُ مَرْتَحَصٌ وَقَالَ (١)

وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِمَّا قَالَهُ الْآخَرُ :

عَجُوزٌ لَوْ أَنَّ الْمَاءَ يُسْقَى بِكَفِّهَا لَمَا تَرَكَتْنَا بِالْمِيَاهِ نَجُوزُ

وَمَا زَالَتِ الْعُرْبُ تَحْمَدُ الْحِزْبُونَ وَالشَّهْلَةَ ، وَلَا تَكْرَهُ — مَعَ الشَّرِيحِ —

الْكَهْلَةَ .

زواج النبي بمحمدجة

وَقَدْ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ، وَهُوَ

شَابٌ ، وَهِيَ طَاعِنَةٌ فِي السُّنَنِ ، وَقَالَتْ لَهُ أُمُّ سَلَمَةَ ابْنَةُ أَبِي أُمَيَّةَ : « يَا رَسُولَ

اللَّهِ ، إِنِّي امْرَأَةٌ قَدْ كَبُرْتُ وَمَا أُطِيقُ الْغَيْرَةَ » فَقَالَ : « أَمَا قَوْلُكَ قَدْ كَبُرْتُ ،

(١) نذكر بهذه المناسبة قول بعض الشعراء :

لا تنكحن عجوزاً ، إن دعيت لها وإن حبيت على تنكيحها الذهبا

فإن أتوك ، وقالوا : إنها نصف فإن أطيب نصفها الذي ذهباً

فَأَنَا أَكْبَرُ مِنْكَ ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ فَإِنِّي سَوْفَ أَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُزِيلَهَا عَنْكَ»

هامة السبع الى الزواج

وَلَا أَشْكُ أَنَّهُ قَدِ اسْتَخْدَمَ فِي مِصْرَ أَصْنَافَ جَوَارٍ ، وَلَوْ لَا أَنَّ أَخَا الْكُبْرَةَ
يَفْتَقِرُ إِلَى مُعِينٍ ، لَكَانَتْ الْحَزَامَةُ أَنْ يَقْتَنِعَ بِوَرْدِ الْمُعِينِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ
قَوْلَ الْقَائِلِ :

« مَا الْعَيْشُ إِلَّا الْقُفْلُ وَالْمِفْتَاحُ وَغُرْفَةٌ تَخْرُقُهَا الرِّيحُ »
« لَا صَخَبُ فِيهَا وَلَا صِيَاخُ »

الخدم

وَحَدَّثَنِي « ابْنُ الْقَنْسَرِيِّ » الْمُقْرِي - : أَنَّهُ سَمِعَهُ يَسْأَلُ عَنْ غُلَامٍ
لِلْخِدْمَةِ . وَرُبَّمَا كَانَ اسْتِخْدَامُ الْأَحْرَارِ ، يَمْنَعُ مِنَ الْقَرَارِ ، فَقَدْ قَالَ أَبُو عُبَادَةَ :
أَنَا مِنْ « يَاسِرٍ وَيُسْرٍ وَنُجَيْجٍ » لَسْتُ مِنْ « قَامِرٍ » وَلَا « عَمَّارِ »
مَا بَارِضِ الْعِرَاقِ يَا قَوْمَ حُرٍّ يَفْتَدِينِي مِنْ خِدْمَةِ الْأَحْرَارِ ؟
وَأَنْ يَخْدُمَ نَفْسَهُ الْوَحِيدُ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَلْبِغَ بَيْتَهُ الْعَبِيدُ ، فَطَالَمَا أَحْوَجُوا
الْمَالِكَ إِلَى ضَرْبٍ .

لؤم الخدم^(١)

وَرُبَّ نَازِلٍ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ فِي خَانٍ ، يَخْدُمُهُ صَبِيٌّ هُوَ مِنَ الرِّقِّ حُرٌّ ،
وَفِي خِدْمَتِهِ السَّرْقُ وَالضَّرُّ ، إِذَا أَرْسَلَهُ بِالدَّرَاهِمِ لِيَأْتِيَهُ بِالْبَطِيخَةِ - حِينَ

(١) قال أبو العلاء :

ومن عناء الليالي خادم ضغن إن يؤمر الأمر يفعل غير ما أمرا

يَكْثُرُ الْبَطِيخُ - سَرَقَ فِي السَّبِيلِ الْقِطْعَ ، وَانْتَهَى فِي الْحَيَاةِ وَتَنَطَّعَ ، ثُمَّ
وَقَفَ بِالْبَائِعِ فَعَبَّنَهُ ، فَأَخَذَ صَغِيرَةً مِنْ بَطِيخٍ ، ثُمَّ انصَرَفَ بِهَا لَاعِبًا ، فَلَمْ
يَزَلْ يَتَلَقَّفُ بِهَا فِي الطَّرِيقِ حَتَّى كَسَرَهَا ، فَاخْتَلَطَ حَبُّهَا بِالْحَصْبَاءِ .

وَيَجُوزُ أَنْ يَحْمِلَهَا - فِي حَالِ السَّلَامَةِ - وَيَمْضِي لِيَسْبَحَ مَعَ الْفَتِيَانِ ،
فَإِذَا نَزَلَ فِي الْمَاءِ اخْتَطَفَهَا بَعْضُ الْعَرِمَةِ مِنَ الصَّبِيَانِ ، فَأَكَلَهَا وَهُوَ يَرَاهُ ،
لَا يَحْفَلُ بِأَدِيمِهَا إِذْ فَرَاهُ .

وَقَدْ يُرْسِلُهُ بِالْغَضَارَةِ^(١) يَلْتَمِسُ لَبَنًا ، فَيُقَابِلُ مِنْ سُوءِ الرَّأْيِ غَبْنًا ،
فَإِذَا حَصَلَ فِيهَا الْهَدِيدُ^(٢) ، عَثَرَ فَإِذَا هُوَ عَلَى الصَّحْرَاءِ مُتَبَدِّدٌ ، وَصَارَتْ
الْفَخَّارَةُ خَزَفًا لَا يُرَادُ .

*

**

وَأَمَّا أَهْلُ بَلَدِي - حَرَسَهُمُ اللَّهُ - فَإِذَا كَانَ الْحُظُّ قَدْ أُعْطَانِي حُسْنَ
ظَنِّ الْغُرَبَاءِ ، فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُعْطِيَنِي تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ مِنَ الرَّهْطِ الْقُرْبَاءِ ،
وَلَكِنَّهُمْ مَعِيَ كَطُّلَابِ الْخُطْبَةِ مِنَ الْأُخْرَسِ !

التوبة

وَأَمَّا إِشْفَاقُ الشَّيْخِ ، فَتِلْكَ سَجِيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ ، لَا يَخْتَصُّ بِهَا أَخُو الْجَبَنِ
عَنِ الشُّجَاعِ ، وَمِنَ الْقَسُوطِ تَعْرِضُ بِالْقُنُوطِ « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا
عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » .

*

**

كَمْ مِنْ أَدِيبٍ شَرِبَ وَطَرِبَ ثُمَّ تَابَ ، فَقَدْ يَضِلُّ الدَّلِيلُ فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ ،

ثُمَّ يَهْدِيهِ اللَّهُ ، وَكَمْ اسْتُنْقِذَ مِنَ اللَّجِّ غَرِيقٌ فَسَلِمَ .

الفضيل بن عياض

وَقَدْ كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ ، يُسَمُّ فِي أَوَّلِ رِيَاضٍ ، ثُمَّ حُسَيْبَ فِي الزُّهَّادِ ،
وَجُعِلَ مِنْ أَهْلِ الْإِجْتِهَادِ ، وَرُبَّ خَلِيعٍ وَهُوَ فَتَى ، تَصَدَّرَ - لَمَّا كَبُرَ -
وَأَفْتَى ، وَمُعَنَّ بِطُنْبُورٍ أَوْ عُوْدٍ ، قُدِّرَ لَهُ تَوَلَّى السُّعُودِ ، فَرَقِيَ مِنْبَرًا لِلْعِظَاتِ !

عمر بن عبد العزيز

وَلَعَلَّهُ قَدْ نَظَرَ فِي طَبَقَاتِ الْمُعَنَّيْنَ ، فَرَأَى فِيهِمْ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ
وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ ، هَكَذَا ذَكَرَ « ابْنُ خُرْدَادِزْبَةَ » فَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ !

ابو حذيفة وحماد عجرد

وَالْحِكَايَةُ مَعْرُوفَةٌ ، أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ (١) كَانَ يُشَارِبُ حَمَادَ عَجْرَدَ وَيُنَادِمُهُ ،
فَنَسَكَ أَبُو حُذَيْفَةَ ، وَأَقَامَ حَمَادٌ فِي النَّيِّ ، فَبَلَغَهُ أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ يَذُمُّهُ وَيَعِيبُهُ ،
فَكَتَبَ إِلَيْهِ حَمَادٌ :

إِنْ كَانَ نُسُكَكَ لَا يَتِمُّ بِغَيْرِ شَيْءٍ وَانْتِقَاصِي
فَأَقْعُدْ وَقُمْ بِي كَيْفَ شِئْتِ مَعَ الْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي
فَلَطَالَمَا زَكَيْتَنِي وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِي
أَيَّامَ تُعْطِينِي وَتَأْخُذُ فِي أَبَارِيقِ الرَّصَاصِ

(١) هو واصل بن عطاء ، تلميذ الحسن البصرى ، وصاحب مذهب الواصلية ، ورئيس

تلك الطائفة المعروفة المنسوبة إليه . وكان في زمن عبد الملك وهشام ابنه ، ومذهبه مبين

في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، فيرجع إليه من شاء .

عمر بن الخطاب

الْيَسَّ الصَّحَابَةُ - عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللَّهِ - كُلُّهُمْ كَانَ عَلَى ضَلَالٍ، ثُمَّ تَدَارَكَهُ
الْمُقْتَدِرُ ذُو الْجَلَالِ ؟؟

وَفِي بَعْضِ الرُّوَايَاتِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ يُرِيدُ تَجْمَعًا
كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ لِلْقِمَارِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ أَحَدًا، فَقَالَ لِأَزْهَبَنَّ إِلَى الْخَمَارِ لَعَلِّي
أَجِدُ عِنْدَهُ خَمْرًا، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ شَيْئًا، فَقَالَ لِأَزْهَبَنَّ وَالْأَسْمَانَ...
وَالْتَّوْفِيقُ يَحْيَى مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ !

عودة الى النبي

وَفِيمَا خُوطِبَ بِهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى »
وَذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ الْمَدَنِيُّ، فِي كِتَابِ « الْمُبْتَعَثِ » حَدِيثًا مَعْنَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَبَحَ ذَبِيحَةً لِلْأَصْنَامِ، فَأَخَذَ شَيْئًا مِنْهَا، فَطَبَخَ لَهُ،
وَحَمَلَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَمَضِيَ لِيَا كَلَاهُ فِي بَعْضِ الشُّعَابِ، فَلَقِيَهُمَا « زَيْدُ بْنُ
عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ » وَكَانَ مِنَ الْمُتَأَلِّهِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِيَأْكُلَ مِنَ الطَّعَامِ، فَسَأَلَهُ عَنْهُ، فَقَالَ : « هُوَ شَيْءٌ مِنْ ذَبْحِنَا
لِإِلَهَتِنَا » فَقَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو : « إِنِّي لَا آكُلُ مِنْ شَيْءٍ ذَبِحَ لِلْأَصْنَامِ، وَإِنِّي
عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَمَرَ النَّبِيُّ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِالْقَاءِ مَا مَعَهُ.

تميم بن أوسى الدارى

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ - وَقَدْ سَمِعْتُهُ بِإِسْنَادٍ - أَنَّ تَمِيمَ بْنَ أَوْسِ الدَّارِيِّ (١)

(١) نسبة إلى « الدار » وقال أبو العلاء : والدار قبيلة من « نخم »

كَانَ يُهْدِي إِلَى النَّبِيِّ — فِي كُلِّ سَنَةٍ — رَاوِيَةً مِنْ خَمْرٍ ، نَجَاءً فِي بَعْضِ
السَّنِينَ ، وَقَدْ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ ، فَأَرَاقَهَا .

أحمد بن حنبل والخمر

وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَ ثَعْلَبٍ ، أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، وَإِنْ كَانَ شَرِبَ النَّبِيذَ قَطُّ ،
وَالنَّبِيذُ — عِنْدَ الْفُقَهَاءِ — غَيْرُ الْخَمْرِ ، فَقَالَ ثَعْلَبٌ : « أَنَا سَقَيْتُهُ بِيَدِي ! »

الخمر

وَإِنَّمَا لَذَّةُ الشَّرْبِ فِيمَا يَعْزُضُ لَهُمْ مِنَ الشُّكْرِ ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ ، لَكَانَ
غَيْرُهَا مِنَ الْأَشْرِبَةِ أَعْدَبَ وَأَدْفَأً^(١) ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ قَدْ شَرِبَ ، فَلَهُ

(١) رأى أبي العلاء في الخمر

يعد أبو العلاء الخمر من اللذائذ ، ويعرف لها مزاياها ؛ ولا يمتري فيما تحدته في نفس شاربها
من نشوة الفرح والطرب ، ويعلم أن ذلك هو السر في تهافت الناس على شربها — على
اختلاف العصور والأمكنة .

فهو من أعرف الناس بمزايا الخمر ، وإن كان لم يذق لها طعمًا ، وقد قرأ جل ما كتبه عنها
شعراء العربية — جاهليين وإسلاميين وعباسيين — ودرسه ، كما درس غيره — فأصبح من
أعلم الناس بها — وليس ذلك مستغربًا ، فقد أبدع أبو العلاء في أشعاره كثيرًا من التشبيهات
الرائعة التي تعتمد على البصر

وحسبك ما أتى به من الأوصاف الكثيرة الدقيقة ، في وصف الدروع وغيرها . ونكتفي
من ذلك كله ببيتته المشهور ، الذي وصف به سهيلًا فقال :

« وسهيل كوجنة الحب في اللون ، وقلب الحب في الخلقان »

ولم يقصر « بشار » في كثير من تشبيهاته عن شأو المبصرين ، وإجادة الأوصاف

أُسْوَةٌ بِشَيْخِ الْأَزْدِ « مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ » إِذْ قَالَ :

التي كان من حقهم أن ينفردوا بها دون سواهم ، وآية ذلك ، بيته الرائع المشهور :
« كأن مشار النقع فوق رموسنا وأسيافنا - ليل تهاوى كواكبه »

*

* *

إذن فقد كان أبو العلاء يعرف الخمر ، ويدرك مزاياها حقاً ؛ نعم ، وقد تمنى شربها في كثير من أشعاره ، وود لو أنها أصبحت طليقة محللة ، ولكن لم يفته أن يعقب - في كل موضع تمناها فيه تقريباً - بالسبب الرئيس الذي يدفعه إلى المزوف عنها ، والإحجام عن شربها ، وهو : « إزراؤها باللب » وقد عرفت أن أبا العلاء كان يعتز بالعقل كل الاعتزاز ويجله ، ويفتن في تقديسه « انظر إلى ص ٢٥٦ في هذا الجزء » حتى تضائل أمامه كل اعتبار قيس إليه ، وقد أظهرنا أن من أكبر الأسباب التي أزججته من لقاء الموت - رغم حنينه اللئيم إليه - هو خوفه أن يسلبه الردي ذلك العقل الذي يحرص عليه ، ويضن به . (ارجع إلى ص ٢٠٨ من هذا الجزء)

ولهذا السبب نفسه ، ارتاع من الكبر ، فقال :

وما أتوقى ، والخطوب كثيرة من الدهر ، إلا أن يحل بي الهتر
ويمكننا أن نتخذ البيت التالي مفتاح فلسفته في الخمر ، وهو :

ولولا أنها باللب تزرى لكنت أخوا الندامة والنديم

*

* *

والخمر - بعد ذلك - قد حرمها الإسلام ؛ ولو حلل شربها ، لما شربها أبو العلاء :

أبأتى نبي يجعل الخمر طليقة فتحمل ثقل من همومي وأوزاري ؟

وهيات! لو حلت - لما كنت شاربا مخففة في الحلم كفة ميزاني

وليس ذلك يدع على من حرم على نفسه أكل اللحم ، مع إباحة الشرع ذلك .

فهو إذا كان قد دفعته الشفقة على الحيوان ، فلم يأكله ، فقد دفعه الإشفاق على عقله

أن يجرم على نفسه الخمر - ولو حللها دينه - وهو لم يحللها بعد !

ومن ثم تدرك السرفى رغبته عنها ، بالرغم من تمنيه إياها أحيانا ، فقد تمناها في لاميته

بَلْ رُبَّ لَيْلٍ جَمَعَتْ قُطْرِيَهَ لِي بِنْتُ ثَمَانِينَ - عَرُوسٌ تُجْتَلَى !

التي قالها - وهو بالعراق - وأظهر فيها حنينه ووجدته الشديد إلى بلده « المعرة » فقال :

« تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطأنت بي الحال
فأذهل أنى - بالعراق - على شفا ، رزى الأمانى ، لا أنيس ولا مال
مقل من الأهلين يسر وأسرة كفى حزنا بين مُشت وإقلال ! »

على أنها أمنية اليأس الذي يفضل الموت على الحياة !

وإليك نخبة مختارة مما قاله في الخمر ، نستدل بها على ما ذهبنا إليه :

لو كانت الخمر حلا ، ما سمحت بها لنفسى الدهر ، لا سرا ولا علنا

ويهجر طيب الراح خوفا من السكر

هي الراح أهلاً لطول الهجاء وإن خصها معشر بالمدح
فلا تعجبك عروس المدام ولا يطر بنبك مغن صدح
ومن يفتقد له ساعة فقد مات فيها بخطب فدح

وقد شرح في الأبيات التالية ، ما ينجم عن الدهول ، الذي تحدثه الخمر في نفوس شاربيها ،

فقال :

البابلية باب كل بلية فتوقين هجوم ذاك الباب
جرت ملاحاة الصديق وهجره ، وأذى النديم ، وفرقة الأحباب
هتكت حجاب المحصنات ؛ وجشمت هن العميد تهضم الأرباب
وتوهم الشيب المدالف ، أنهم لبسوا - على كبر - برود شباب
وإذا تأملت الحوادث ، ألفت صهب الدنان أعادى الألباب

*
* *

وجماع القول أن أبا العلاء أكثر من ذكر الخمر والتشنيع عليها ، في أشعاره ، وكما

تستطيع أن تفرد لبعض الشعراء - كأبي نواس مثلاً - ديواناً في مدح الخمر ، تستطيع

أن تفرد لأبي العلاء كذلك ، ديواناً في ذمها !

يُمْ قَالَ فِي آخِرِ الْقَصِيدَةِ (١)
فَإِنْ أُمْتُ فَقَدْ تَنَاهَتْ لَدُنِّي وَكُلُّ شَيْءٍ بَلَغَ الْحُدَّ انْتَهَى
وَمَا أُخْتَارُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِقَوْلِ الْحَكَمِيِّ :
قَالُوا: «كَبِرْتَ» فَقُلْتُ: «مَا كَبِرْتَ يَدِي عَنْ أَنْ تَسِيرَ إِلَى فَمِي بِالْكَاسِ (٢)»
* * *
وَقَدْ أَنْ لِمَوْلَايَ الشَّيْخِ أَنْ يَزْهَدَ فِي شَيْمَةِ حَمِيدِ الْأَمْجِيِّ، قَائِلٍ هَذِهِ الْآيَاتِ:
« شَرِبْتُ الْمُدَّامَ فَلَمْ أَقْلِعْ وَعُوتِبْتُ فِيهَا، فَلَمْ أَرْجِعْ
« حَمِيدُ » الَّذِي أَمْجُ دَارَهُ أَخُو الْحَمْرِ، ذُو الشَّيْبَةِ، الْأَصْلَعُ
عَلَاهُ الْمَشِيبُ عَلَى حَبِّهَا وَكَانَ كَرِيماً فَلَمْ يَنْزِعْ ! »
وَقَالَ آخِرُ :

(١) يعني مقصورة « ابن دريد » المشهورة التي أولها :
يا ظبية أشبه شيءاً بالله ترعى الخزامى بين أشجار النقا
وقد مر بعض أبياتها في (ج ٢ ص ١٨ ما ١٩)
(٢) الحكمي : هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته في (ج ٢ ص ١٠ ما ١١) وهذا البيت
من سينيته الجميلة التي يقول فيها :

كيف النزوع عن الصبا والكاس
وإذا عدتُ سني « كم هي ؟ » لم أجد
قالوا: « كبرت » فقلت: « ما كبرت يدي
صفراء ، زان رواءها مخبورها
وكان شاربها - لفرط شعاعها
فأراح طيبة ، وليس تمامها
قس ذا لنا ، يا عاذلي بقياس !
للشيب عذراً في النزول براسي
عن أن تسير إلى فمي بالكاس ! »
فها المهذب من ثناء الحاسي
بالليل - يكرع في سنا مقباس
إلا بطيب خلائق الجلاس !

تُعَاتِبُنِي فِي الرَّاحِ أُمٌّ كَبِيرَةٌ وَمَا قَوْلُهَا - فِيمَا أَرَاهُ - مُصِيبٌ
تَقُولُ: « أَلَا تَجْفُو المُدَامَ ، فَعِنْدَنَا مِنْ الرِّزْقِ تَمْرٌ مُكْشِبٌ وَزَيْبٌ ؟ »
فَقُلْتُ: « رُوَيْدًا ، مَا الزَّيْبُ مُفْرَجِي وَلَيْسَ لِتَمْرِ فِي العِظَامِ دَيْبٌ
فَإِنَّ « حَمِيدًا » عَلَيْهَا فِي شَبَابِهِ وَلَمْ يَصْحُ مِنْهَا - حِينَ لَاحَ مَشَيْبُ ! »

نوبة ابن الفارح

وَإِذَا تَسَامَعَتِ المَحَافِلُ بِتَوْبَتِهِ ، اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الشُّبَّانُ المُقْتَبِلُونَ ، وَالأَدْبَاءُ
المُكْتَهَلُونَ ، وَكُلُّ أَشْيَبٍ ؛ فَيَقْتَبِسُونَ مِنْ آدَابِهِ ، وَيُصْنَعُونَ المَسَامِيحَ خِطَابِهِ ،
وَجَلَسَ لَهُمْ فِي بَعْضِ المَسَاجِدِ بِحَلَبَ ، حَرَسَهَا اللهُ ، فَإِنَّهَا مِنْ بَعْدِ « أَبِي عَبْدِ اللهِ
ابنِ خَالَوَيْهِ » عُطِّلَتْ مِنَ الأَدَبِ

حديث طالوت

ذَكَرَ مَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ « المُبْتَدَأِ » حَدِيثَ « طَالُوتَ » لَمَّا أَمَرَ ابْنَتَهُ ،
وَهِيَ امْرَأَةٌ « دَاوُدَ » - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ تُدْخِلَهُ عَلَيْهِ - وَهُوَ نَائِمٌ -
لِيَقْتُلَهُ ، فَجَعَلَتْ لَهُ فِي فِرَاشِ « دَاوُدَ » زِقًّا خَمْرًا ، وَدَسَّتْهُ عَلَيْهِ ، وَضَرَبَتْهُ
بِالسَّيْفِ ، وَسَالَتْ الخَمْرُ ؛ فَظَنَّ أَنَّهَا الدَّمُ ، فَأَذْرَكَهُ الأَسْفُ وَالنَّدَمَ . فَأَوْمَأَ
بِالسَّيْفِ لِيَقْتُلَ نَفْسَهُ - وَمَعَهُ ابْنَتُهُ - فَأَمْسَكَتْ يَدَهُ ، وَحَدَّثَتْهُ مَا فَعَلَتْهُ ،
فَشَكَرَهَا عَلَى ذَلِكَ ا

عودة الى ذكر الحور

وَإِذَا صَحَّتِ الأَخْبَارُ المَنْقُولَةُ بِأَنَّ أَهْلَ الآخِرَةِ يَعْلَمُونَ أَخْبَارَ أَهْلِ
العَاجِلَةِ ؛ فَلَعَلَّ جَوَارِيَهُ المُعَدَّاتِ لَهُ فِي الخُلْدِ ، يَسْأَلْنَ عَنْ أَخْبَارِهِ مَنْ يَرِدُ

عَلَيْهِنَّ مِنَ الصُّلَحَاءِ ، فَيَسْمَعْنَ مَرَّةً أَنَّهُ بِالْفُسْطَاطِ ، وَتَارَةً أَنَّهُ بِالْبَصْرَةِ ، وَمَرَّةً أَنَّهُ يَبْغَدَادَ ، وَخَطْرَةٌ أَنَّهُ بِحَلَبَ ؛ فَإِذَا شَاحَ أَمْرُ التَّوْبَةِ ، وَمَاتَ نَاسِكٌَ مِنْ أَهْلِ حَلَبَ ، أَخْبَرَهُنَّ بِذَلِكَ ، فَسَرِرْنَ وَابْتَهَجْنَ ، وَهَنَّاهُنَّ جَارَاتُهُنَّ !

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ سَمِعَ حِكَايَةَ الْبَيْتَيْنِ الثَّابِتَيْنِ فِي كِتَابِ : «الاعتبار» :
أَنْعَمَ اللَّهُ بِالْخِيَالَيْنِ عَيْنًا وَبِمَسْرَاكِ يَا أُمِّمُ إِلَيْنَا
عَجَبًا ! مَا جَزَعْتِ مِنْ وَخْشَةِ اللَّحْدِ ، وَمِنْ ظُلْمَةِ الْقُبُورِ عَلَيْنَا

رجعة الى الخمر

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ قَوْمٍ يَحْتُمُّونَ الْمَشِيبَ عَلَى أَنْ يَسْتَكْبِرُوا مِنْ أُمَّ زَنْبِقٍ (١)
قَالَ حَاتِمٌ :

وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا أَرَادَ ثَرَاءَ الْمَالِ كَانَ لَهُ وَفْرٌ
يُفَكُّ بِهِ الْعَانِي وَيُؤْكَلُ طَيْبًا وَلَيْسَتْ تُعْرِيه الْقِدَاحُ وَلَا الْيَسْرُ
أ « مَاوِي » إِنْ يُصْبِحُ صَدَائِ بِقَفْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ - لَا مَاءَ لَدَيَّ وَلَا خَمْرُ
تَرَى أَنَّ مَا أَهْلَكَتُ لَمْ يَكُ ضَرَّرَنِي وَأَنَّ يَدِي - مِمَّا بَخِلْتُ - بِهِ صِفْرُ
وَقَالَ طَرْفَةُ :

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَدَعْنِي أَبَادِرَهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي (٢)
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ :
لَا تُطِلْ بِالْكَوْثُوسِ مَطْلِي وَحَبْسِي لَيْسَ يَوْمِي يَا صَاحِبِي مِثْلُ أَمْسِي

(١) هي الخمر (٢) ترجمة طرفة وحديث معلقته - التي منها هذا البيت - في ج ٢

لَا تَسَلْنِي ، وَسَلْ مَشِيْبِي عَنِّي مُذْ عَرَفْتُ الْخَمْسِينَ أَنْكَرْتُ نَفْسِي
فَهَذَا حَتُّهُ كَثْرَةُ سِنِيهِ عَلَى أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنَ السَّلَافَةِ ، وَمَا حَفِظَ حَقَّ الْخِلَافَةِ !
وَأَنَا أَضْنُ بِهِ ^(١) أَنْ يَكُونَ كَأَبِي عُثْمَانَ الْمَازِنِي ، عُوتِبَ فِي الشَّرَابِ ،
فَقَالَ : « إِذَا صَارَ أَكْبَرَ ذُنُوبِي تَرَكَتُهُ ! »

المعتصم و ابراهيم المهدي

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْمُعْتَصِمَ دَعَا إِبْرَاهِيمَ كَعَادَتِهِ ، فَعَنَاهُ وَبَكَى ، فَقَالَ لَهُ
الْمُعْتَصِمُ : « مَا يُبْكِيكَ ؟ » فَقَالَ : « كُنْتُ طَاهِدْتُ اللَّهَ إِذَا بَلَغْتُ سِتِّينَ سَنَةً أَنْ
أَتُوبَ ، وَقَدْ بَلَغْتُهَا » . فَأَعْفَاهُ الْمُعْتَصِمُ مِنَ الْعِنَاءِ ، وَحُضُورِ الشَّرَابِ !

الهيام بالخمير

وَكَانَ فِي بَلَدِنَا رَجُلٌ مُغْرَمٌ بِالْقَهْوَةِ ^(٢) فَلَمَّا كَبِرَ رَغِبَ فِي الْمَطْبُوحِ ، وَكَانَ
يُحْضِرُ مَعَ نَدَامَاهُ ، وَعِنْدَهُمْ قَدْحٌ وَاحِدٌ ، فَيَشْرَبُ هُوَ مِنَ الْمَطْبُوحِ وَيَشْرَبُ
أَصْحَابُهُ مِنَ النَّبِيِّ ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدْحُ إِلَيْهِ لِيَشْرَبَ ، غَسَلَهُ مِنْ أَثْرِ الْخَمْرِ ، وَشَرِبَ
فِيهِ ، فَإِذَا فَرَّغَ الْمَطْبُوحُ ، رَجَعَ فَشَرِبَ مِنْ شَرَابِ إِخْوَانِهِ

*
* *

وَأَمَّا مُخَاطَبَتُهُ غَيْرَهُ - وَهُوَ يَعْنِي نَفْسَهُ - فَهُوَ كَقَوْلِهِمْ فِي الْمَثَلِ : « إِيَّاكَ
أَعْنِي وَاشْمَعِي يَا جَارَهُ » وَلَا عُنْدَ ^(٣) عَنِ الْجَبَلَةِ ، يُرِيدُ الْمَتَنَسِّكَ أَنْ يَنْصَرِفَ
حُبَّهُ عَنِ الْعَاجِلَةِ ، وَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا لَا تَقْدِرُ الطَّيْبَةُ أَنْ تَصِيرَ لَبْوَةً

(١) أى بابن القارح (٢) الخمر (٣) فى اللغة : مالى عن ذلك عندد ، كجندب ،

وقنفذ ؛ أى مالى عنه بد ، والمعنى : لا سبيل إلى الخلاص من الفطرة التى فطر الناس عليها

وَلَا الْحِصَاةُ أَنْ تُتَّصَرَ لَوْلَا^(١) « يُوسُفُ: أُعْرِضْ عَنْ هَذَا . وَاسْتَغْفِرِي
لِدَنِّبِكِ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ »
لَقَدْ عَلِمْتُ ، وَلَا أَنهَاكَ عَنْ خُلُقٍ إِلَّا يَكُونُ أَمْرًا إِلَّا كَمَا خُلِقَ^(٢)

(١) الجبر

كرر أبو العلاء هذا المعنى في لزومياته ، وهو بلا ريب في مقدمة من يدينون بالجبر ،
ونجتزئ من أشعاره الكثيرة بالأبيات التالية ، للاستدلال بها على يقينه الثابت وإيمانه الذي
لا يتزعزع ، بمذهب الجبر ، وإذعانه للقضاء والقدر ، وهي :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر
وفي الأصل غش ، والفروع توابع وكيف وفاء النجل ، والأب غادر ؟
إذا اعتلت الأفعال جاءت عليلة كحالاتها ؛ أفعالها والمصادر
فقل للغراب الجون - إن كان سامعاً - « أنت على تغيير لونك قادر ؟ »
والعقل زين - ولكن فوقه قدر - فماله في ابتغاء الرزق تقدير
ويجري قضاء ما لكم عنه حاجز فألقوا إلى مولاكم بالمقالد^(١)
نهاب أموراً - ثم نركب هولها على عنت - من صاغرين قماء !^(٢)
ونحاذر الأشياء - بعد يقيننا ألا يرد الكائنات حذارُ
وجبيلة الناس الفساد ، فضل من يسمو بحكته إلى تهذيبها
يتحارب الطبع - الذي مزجت به مهج الأنام - وعقلهم ، فيفله
وقيل : نفوس الناس تسطيع فعلها . وقال رجال : « بل تبين جبرها »
ولا ألوم غيباً في غباوته فبالقضاء أتته قلة الفطن
لا تمدحن ولا تدمن أحرأ فيها ، فغير مقصر كقصر !

(٢) هذا يشبه قول ذي الإصبع العدواني :

(١) المقالد كالمقاليد : المفاتيح (٢) أي : يا لنا من صاغرين قماء ، على الحذف .

وَكَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ يَتْلُونَ آيَةَ : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » وَهُمْ بِهَا مُصَدِّقُونَ ، وَمِنْ خَشْيَةِ إِيَّاهُمْ مُشْفِقُونَ ، يَضُنُّونَ بِالْقَلِيلِ التَّافِهَ ، وَلَا يَسْمَحُونَ لِلسَّائِلِ (١) ؛ فَكَيْفَ تَكُونُ حَالُ مَنْ يُنْكَرُ حَدِيثَ الْجَزَاءِ ، وَلَا يَقْبَلُ عَنِ الْفَانِيَةِ حُسْنَ الْعَزَاءِ ؟

أبو طلحة واليهودي

وَقَدْ مَرَّ حَدِيثُ « أَبِي طَلْحَةَ » أَوْ « أَبِي قَتَادَةَ » وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ خَاصِمٌ يَهُودِيًّا إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَانَ لِأَبِي طَلْحَةَ حَدِيقَةٌ نَخْلٍ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْيَهُودِيِّ خُفٌّ فِي نَخْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْيَهُودِيِّ : « أَسْمَحْ لَهُ بِالنَّخْلَةِ حَتَّى أَضْمِنَ لَكَ نَخْلَةً فِي الْجَنَّةِ » وَنَعَمَتَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِنُعُوتِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : « لَا أُبِيعُ حَاجِلًا بِأَجَلٍ ! » فَقَالَ « أَبُو طَلْحَةَ » : « أَتَضْمِنُ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا ضَمِنْتَ لَهُ حَتَّى أُعْطِيَهُ الْحَدِيقَةَ ؟ » فَقَالَ : « نَعَمْ » فَرَضِيَ أَبُو طَلْحَةَ بِذَلِكَ ، وَأَخَذَ الْيَهُودِيُّ وَذَهَبَ إِلَى حَدِيقَتِهِ ، فَوَجَدَ فِيهَا امْرَأَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ جَنَاهَا ، وَجَعَلَ يَدْخُلُ إِصْبَعَهُ فِي أَفْوَاهِهِمْ فَيُخْرِجُ مَا فِيهَا مِنْ تَمْرٍ ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ : « لِمَ تَفْعَلُ هَذَا بَيْنِيكَ ! »

كل امرئ صائر يوماً لشيئته وإن تخلق أخلاقاً إلى حين
وقريب منه قول الآخر :

لا ترجع الأنفس عن غيرها ما لم يكن منها لها رادع
(١) افتن أبو العلاء في نظم هذا المعنى فقال :

دِتم بأن سيجازيكم إلهكم فما لأفعالكم أفعال إهمال ؟

فَقَالَ : « إِنِّي قَدْ بَعْتُ الْحَدِيثَةَ » فَقَالَتْ : « إِنْ كُنْتَ بِعْتَهَا بِعَاجِلٍ ، فَبَيْسَ مَا فَعَلْتَ ! » فَقَصَّ عَلَيْهَا الْخَبْرَ ، فَفَرِحَتْ بِذَلِكَ .

مرض الناس

وَلَوْ قِيلَ لِبَعْضِ عِبَادِ هَذَا الْعَصْرِ : « أُعْطِ لَبْنَةً ، لِتُعْطَى فِي الْآخِرَةِ لَبْنَةً مِنْ فِضَّةٍ » لَمَا أَجَابَ . وَلَوْ سُئِلَ أُمَّةٌ عَوْرَاءٌ ، يُعَوِّضُ مِنْهَا فِي الْآخِرَةِ بِمَحَوْرَاءٍ ، لَمَا فَعَلَ ؛ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ فَكَيْفَ مَنْ غَدَى بِالتَّكْذِيبِ ، وَجَحَدَ وَقُوعَ التَّعْذِيبِ ؟

سبته فادوه

وَأَمَّا « فادوه » فَلَقِيَ طَائِرَ الْحَيْنِ ، مُتَكَفِّيًا مِنْ بَيْنِ جَنَاحَيْهِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، مَا أَعِدَّ الْمِهْرَاسُ لِيُفْضَخَ^(١) بِهِ الرَّأْسُ ، وَلَكِنْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ! مَنَّهُ نَفْسُهُ التَّوْبَةَ ، فَكَانَتْ كَصَاحِبَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ - لَمَّا قَالَ لَهَا : « مَنِّيْنَا بَعْدِ ، وَبَعْدَ غَدٍ ، حَتَّى بَخَلْتِ كَأَسْوَأِ الْبُخْلِ »

أبو الهذيل العلاف

وَيُحْكِي عَنْ « أَبِي الْهُذَيْلِ الْعَلَّافِ » أَنَّهُ كَانَ يَمُرُّ فِي الْأَسْوَاقِ عَلَى حِمَارٍ وَيَقُولُ : « يَا قَوْمِ : اخْذَرُوا تَوْبَةَ غُلَامِي ! » وَكَانَ لَهُ غُلَامٌ يَعِدُ نَفْسَهُ التَّوْبَةَ ، فَسَقَطَتْ عَلَيْهِ آجُرَةٌ ، فَقَتَلَتْهُ . . .

بدء التعارف بين المعري وابن القارح

وَأَوَّلُ مَا سَمِعْتُ بِأَخْبَارِ الشَّيْخِ ، مِنْ رَجُلٍ وَاسِطِيٍّ ، يَتَعَرَّضُ لِعِلْمِ الْعَرُوضِ ،

(١) الفضخ : الكسر ، ولا يكون إلا في شيء أجوف نحو الرأس والبطين . ويقال :

فضخ عينه ، أي : فقأها

ذَكَرَ أَنَّهُ شَاهِدُهُ بِنَصِيْبِيْنَ ، وَفِيهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ ، مُعَلِّمًا
لِبَعْضِ الْعُلَوِيَّةِ ، وَكَانَ غُلَامٌ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ يُعْرَفُ « بِابْنِ الدَّانِ » وَقَدْ اجْتَاَزَ
الشَّيْخُ بِلَدِنَا - وَالْوَاسِطِيُّ يَوْمَئِذٍ فِيهِ - وَقَدْ شَاهَدْتُ عِنْدَ أَبِي أَحْمَدَ عَبْدِ السَّلَامِ
- رَحِمَهُ اللَّهُ - كُتُبًا عَلَيْهَا سَمَاعٌ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ حَلَبَ ، وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ الشَّيْخُ ،
وَهُوَ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْرِيفٍ بِالْقَرِيضِ ، كَمَا قَالَ الطَّائِيُّ :
تَحْمِيهِ لِأَلَاؤِهِ - أَوْ لَوْ ذَعِيْتُهُ - مِنْ أَنْ يُذَالَ بِمَنْ ، أَوْ يَمِّنَ الرَّجُلُ ؟

أساترة ابن القارح

وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ لَقِيْتَهُمْ ، فَأُولَئِكَ مَصَابِيحُ النَّاجِيَةِ ، وَكَوَاكِبُ الدَّاجِيَةِ ،
وَإِنَّ فِي النَّظَرِ إِلَيْهِمْ لَشَرَفًا ، فَكَيْفَ يَمِّنُ اعْتَرَفَ - مِنْ كُلِّ بَحْرٍ وَجَدَ -
غُرَفًا ؛ وَإِنَّمَا أَقُولُ ذَلِكَ عَلَى الْاِقْتِصَارِ ، وَلَعَلَّهُ قَدْ نَزَفَ بِحَارَهُمْ بِالْقَلَمِ وَالْفَهْمِ ،
وَسَهَّلُوا لَهُ مَا صَعُبَ مِنْ جِبَالِ الْعَرَبِيَّةِ

حجج ابن القارح

وَأَمَّا حِجَجُهُ الْخَمْسُ ، فَهِيَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - يَسْتَعْنِي فِي الْحُشْرِ بِالْأُولَى
مِنْهُمْ ، وَيَنْظُرُ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِدُ فِيهِمْ مَنْ لَمْ
يَحْجِبْ ، فَيَتَّصِدَّقُ عَلَيْهِمْ بِالْأَرْبَعِ وَكَأَنِّي بِهِ ، وَعَمَّا عِمُّ الْحَجِيجِ ، يَرْفَعُونَ التَّلِيَّةَ
بِالْعَجِيجِ ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي تَلِيَّاتِ الْعَرَبِ ؛ وَأَنَّهَا جَاءَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ :
مَسْجُوعٍ لَا وَزْنَ لَهُ ، وَمَنْهُوكٍ ، وَمَشْطُورٍ ... !

وَكَأَنِّي بِهِ لَمَّا اعْتَزَمَ عَلَى اسْتِئْلَامِ الرُّكْنِ ، وَقَدْ ذَكَرَ قَوْلَ الْقَائِلِ :
ذَكَرْتُكَ وَالْحَجِيجُ لَهُ عَجِيجٌ بِمَكَّةَ ، وَالْقُلُوبُ لَهَا وَجِيبٌ

فَقُلْتُ - وَنَحْنُ فِي بَلَدٍ حَرَامٍ - بِهِ - اللَّهُ - أَخْلَصَتِ الْقُلُوبُ :
« أَتُوبُ إِلَيْكَ يَا رَبَّاهُ - مِمَّا
فَأَمَّا مِنْ هَوَى « لَيْلَى » وَحَبِي
وَلَعَلَّهُ قَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْأَيَّاتِ فِي الطَّوَافِ :

أَطَافُ بِالْبَيْتِ - فَيَمُنُ يَطُوفُ وَأَرْفَعُ مِنْ مِثْرَى الْمُسْبَلِ
وَأَسْجُدُ بِاللَّيْلِ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَتَلُو مِنْ الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
عَسَى فَارِجُ الْكَرْبِ عَنْ يَوْسُفَ يُسَخِّرُنِي لِي رَبَّةَ الْمِحْمَلِ
وَذَكَرَ عِنْدَ تَفْرِيقِ النَّاسِ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

وَدَعَى الْقَلْبَ « يَا قَرِيبُ » وَجُودِي لِجِبِّ فِرَاقَهُ قَدْ أَحْمَا
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَرُدُّوا جِهَانَهُمْ قَتْرَمًا
وَكَأَنِّي بِهِ وَقَدْ مَرَّ بِأَنْطَاكِيَّةَ ، فَذَكَرَ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ :
عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةِ فَوْقَ عِقْمَةٍ كَجِرْمَةِ نَحْلِ ، أَوْ كَجَنَّةِ يَثْرِبِ

أبو الطيب اللغوي

وَأَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ ، وَاسْمُهُ « عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنِ عَلِيٍّ » وَلَا أَشْكُ أَنَّهُ
قَدْ ضَاعَ كَثِيرٌ مِنْ كُتُبِهِ وَتَصْنِيفَاتِهِ ، لِأَنَّ الرُّومَ قَتَلُوهُ وَأَبَاهُ ، فِي فَتْحِ
حَلَبَ . وَكَانَ « ابْنُ خَالَوَيْهِ » يُلقَّبُهُ « دُحْرُوجَةَ الْجَبَلِ » لِأَنَّهُ كَانَ قَصِيرًا .
وَقَدْ كَانَ « أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِيُّ » يَدِينُهُ وَيُنَادِيهِ ابْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ كِلَابٍ « الْبَكْتَمَرِيُّ »
مَوَدَّةً وَمُؤَانَسَةً ، وَلَهُ يَقُولُ :

يَا عَبْدَ (١) إِنَّكَ عِنْدَ الْقَلْبِ جَنَّتُهُ حُبًّا ، وَإِنَّكَ - عِنْدَ الطَّرْفِ - نَظَرُهُ

(١) يريد « يا عبد الواحد »

أَزْمَعْتَ سَيْرًا ، فَقُلْ مَا أَنْتَ قَائِلُهُ وَاذْكُرْ لِرَاعِي الْهُوَى مَا أَنْتَ ذَاكِرُهُ
لَا أَشْتَكِي سَهْرًا طَالَتْ مَسَافَتُهُ اللَّيْلُ يَعْلَمُ أَنَّي الدَّهْرَ سَاهِرُهُ
وَقَدْ كَانَ « أَبُو الطَّيِّبِ » يَتَعَاطَى شَيْئًا مِنَ النَّظْمِ .

وَقَدْ عَلَّمَ اللَّهُ أَنِّي لَا فِي الْعَيْرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ ، كَلَّمَا رَغَبْتُ فِي الْخُمُولِ ، قُدِّرَ
لِي غَيْرُ الْمَتَامُولِ . كَانَ حَقُّ الشَّيْخِ - إِذْ أَقَامَ فِي « مَعْرَةَ النُّعْمَانِ » سَنَةً - الْأَبَّ
يَسْمَعُ لِي بِذِكْرِي ، وَلَا أَخْطُرُ لَهُ عَلَى فِكْرِي ، وَالْآنَ قَدْ تَعَمَّرَ إِفْضَالُهُ ، وَأَظَلَّنِي
دَوْخُ أَدْبِهِ . وَهُوَ كَرِيمُ الطَّبِيعِ ، وَالكَرِيمُ يُخَدِّعُ ، وَمَنْ سَمِعَ جَزَانَ يَخَالُ !

ابن القارح في مصر

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ مَيْلِهِ فِي مِصْرَ إِلَى بَعْضِ اللَّذَاتِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ الْحَدِيثَ :
« أَرِيحُوا الْقُلُوبَ تَعِ الذِّكْرَ » وَقَالَ أُحَيْحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ :

صَحَوْتُ عَنِ الصَّبَا ، وَاللَّهُوَ غُولٌ وَنَفْسُ الْمَرْءِ - آوَنَةٌ - مَلُولٌ
وَقَدْ عَاشَرَ مُلُوكًا وَوُزَرَءَ ، وَقَدْ سَمِعَ أَنْبَاءَ النُّعْمَانِ الْأَكْبَرِ ، إِذْ فَارَقَ مُلْكَهُ ،
وَتَعَوَّضَ مِنَ الْحَرِيرِ الْمُسُوحِ ، وَإِيَّاهُ بَعْنَى الْعِبَادِي^(١) فِي قَوْلِهِ :

وَتَذَكَّرْتُ رَبَّ الْخُورْتَقِ إِذْ فَكَّرَ يَوْمًا ، وَلِلْهُدَى تَفْكَيرُ
سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْلِكُ ، وَالْبَحْرُ مَعْرَضًا ، وَالسَّيْرُ
فَارَعَوَى جَهْلُهُ ، فَقَالَ : « وَمَا غِبْطَةٌ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ » ؟

الهنود والخنزير

وَالشُّكْرُ^(٢) مُحَرَّمٌ فِي كُلِّ الْمَلَلِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ الْهِنْدَ لَا يَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ
رَجُلًا يَشْرَبُ مُسْكِرًا ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ مُسْكِرًا ، وَيَقُولُونَ : يَجُوزُ أَنْ يَحْدُثَ فِي

(١) هو عدى بن زيد، وترجمته في ج ٢ ص ٨ و ٩ (٢) ارجع إلى ص ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٠٦ في هذا الجزء

الْمَمْلَكَةِ نَبَأٌ، وَالْمَلِكُ سَكْرَانٌ « لُعِنَتِ الْقَهْوَةُ !

*

**

وَيَذْبَعُنِي أَنْ يُرْهَدَهُ فِي الصَّهْبَاءِ، أَنْ نَدَامَاهُ الْأَكْرَمِينَ أَصْبَحُوا فِي الْأَجْدَاتِ الْعَافِيَةِ،
كَمْ جَلَسَ مَعَ فِثْيَانٍ، أَتَى عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ مُكَلِّمَ الْإِثْيَانِ، فَكَانَ كَمَا قَالَ الْجَعْدِيُّ (١) :
تَذَكَّرْتُ وَالذُّكْرَى تَهِيجُ لِي الْهُوَى وَمِنْ حَاجَةِ الْمُخْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذِرِ بْنِ مُحَرَّقٍ فَأَصْبَحَ مِنْهُمْ ظَاهِرُ الْأَرْضِ مُقْفِرًا
وَهُوَ يَعْرِفُ الْآيَاتَ الَّتِي أَوْلَاهَا :

خَلِيلِي ! هُبَّأَ، طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا أَجِدُّكُمْ لَا تَقْضِيَانِ كَرَامًا
وَهَلْ يَعْجِزُ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ الْآخِرُ :

أَمَّا الطَّلَاةُ، فَإِنِّي لَسْتُ ذَائِقَهَا حَتَّى الْآقَى بَعْدَ الْمَوْتِ جَبَّارًا !

دنانير ابن القارح

وَسَرَّتَنِي فَيْئَةٌ (٢) الدَّنَائِرِ إِلَيْهِ، فَتِلْكَ أَعْوَانٌ، تَشْتَبِهُ مِنْهَا الْأَلْوَانُ، وَلَهَا عَلَى
النَّاسِ حُقُوقٌ، تَبْرُّهُ إِنْ خِيفَ عُقُوقٌ - قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِمُعَاوِيَةَ :
« رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ، وَجِيءَ بِكَ وَقَدْ أَلْجَمَكَ الْعَرَقُ ! »
فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : « هَلْ رَأَيْتَ ثُمَّ مِنْ دَنَائِرٍ مِصْرَ شَيْئًا ؟ ! »

وَهَذِهِ - لَأَرِيْبَ - مِنْ دَنَائِرِ مِصْرَ، لَمْ تَبْجِي مِنْ عِنْدِ الشُّوقِ، وَلَكِنْ مِنْ
عِنْدِ الْمُلُوكِ، وَلَمْ تَكُنْ مَهْرَ هُلُوكٍ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَّمَهَا إِلَى هَذَا الْوَقْتِ،
وَلَمْ تَكُنْ كَذَهَبٍ مَخْزُونٍ، صَارَ إِلَى الْخَمَّارَةِ مَعَ الْمَوْزُونِ، كَمَا قَالَ :

(١) هو نابغة بنى جمعة ، وترجمته في ج ٢ ص ٣٨ (٢) عودة

وَحَمَارَةٌ مِنْ بَنَاتِ الْمُجُوسِ تَرَى الزُّقَّ - فِي يَدَيْهَا - سَائِلًا
 وَزَنًّا لَهَا ذَهَبًا جَامِدًا ، فَكَالَتْ لَنَا ذَهَبًا سَائِلًا
 أَخَذَتْ مِنْ جَوَائِزِ كِرَامِ صَيْدٍ ، تَارَةً بِالْخِدْمَةِ وَتَارَةً بِالْقَصِيدِ ؛ وَلَمْ تَكُنْ
 فِي الْعِيدِيَّةِ مُرَهَّنَاتٍ ، وَلَا - عِنْدَ الْغَرَضِ - مُوهَّجَاتٍ ، وَهِيَ عِنْدَ الْبَلَاءِ
 وَالْكَيْسِ ، أَجُودٌ مِنَ الْخَاتِمِ الَّذِي ذَكَرَهُ « ابْنُ قَيْسٍ » ، فَقَالَ :
 إِنْ خُتِمَتْ ، جَارِ طِينُ خَاتِمِهَا كَمَا تَجُوزُ الْعَبْدِيَّةُ الْعُتُقُ (١)

بائع كبتة

وَلَوْ أَخَذَ مِثْلَهَا النَّادِمُ عَلَى بَيْعِ كَمِيَّتِهِ ، لَأَسْكَنْتِ الْبَهْجَةَ فِي خَلْدِهِ (٢) وَوَيْتِهِ ،
 وَلَمْ يَأْسَفْ أَنْ عُوضَ حِمَارًا مِنْ فَرَسٍ ، وَلَوْ جِدَّ - عَلَى الشُّكُوى -
 ذَا خَرَسٍ ، وَلَمْ يَقُلْ :

نَدِمْتُ عَلَى بَيْعِ « الْكُمَيْتِ » وَإِنَّمَا
 وَلَمَّا أَتَانِي بِالْذَّنَائِرِ سَامِعِي
 وَقَالَتْ : « أَيْمُ الْبَيْعِ ، وَاشْتَرِ غَيْرَهُ ،
 فَأَنْفَقْتُ فِيهِمْ مَا أَخَذْتُ - وَلَمْ يَزَلْ
 إِلَى أَنْ تَدَاعَى الْجُنْدُ بِالْغَزْوِ - وَأَنْجَلَتْ
 وَأَعُوزَنِي مُهْرٌ - يَكُونُ مَكَانَهُ -
 حَيَاةُ الْفَتَى هَمٌّ لَهُ وَخَسَارٌ
 أَصَاخَتْ ، وَهَشَّتْ - لِلْبَيْاعِ - « نَوَارٌ »
 فَوَلَّكَ - فِي الْمَشْتَا - بَنُونَ صِغَارٌ
 لَدَى شَرَابٍ رَاهِنٍ (٣) ، وَقَتَارٌ (٤)
 غُيُومٌ شِتَاءٍ - سُحْبُهُنَّ غِنَزَارٌ
 كَانَ لَيْسَ - بَيْنَ الْعَالَمِينَ - مِهَارٌ

(١) قال أبو العلاء : « أراد بالعبدية دنانير نسبها إلى عبد الملك بن مروان » وقد ضرب
 دنانير باسمه ، وفي عهده بنى الحجاج داراً للسُّكَّةِ في العراق ، فكانت ترسل منها الدنانير المضروبة إلى
 سائر المملكة الإسلامية (٢) الخلد : القلب (٣) معد حاضر (٤) الدخان من المطبوخ ، فهو دليل عليه

وَسَارَ - عَلَى الْخَيْلِ الْمُغَدَّةِ - صَاحِبِي، وَسِرْتُ، وَتَحْتِي - لِلشَّقَاءِ - حَمَارًا

وَلِلَّهِ الْمِنَّةُ كَمَا نَجَّاهَا - بِالْقَدْرِ - مِنْ بُكُورٍ، لَيْسَ مِنْ بَكْرَةٍ بِالشُّكُورِ،
يَحْمِلُ مَعَهُ دَنَائِيرَ، وَلَا يَصْحَبُ مِنَ الْقَوْمِ صَنَائِيرَ^(١)، فَيَقِيمُ بِهِمْ فِي الدَّسْكَرِ
أَيَّامًا، أَيَقَاطًا - فِي الشُّكْرِ - أَوْ نِيَامًا، فَتَفَنَى الذَّهَبَ، قَالَ الْجَعْدِيُّ^(٢) :

وَدَسْكَرَةٍ - صَوْتُ أَبْوَابِهَا كَصَوْتِ الْمَوَاتِحِ فِي الْحَوَابِ^(٣)
سَبَقَتْ إِلَيْهَا صِيحَ الدُّيُوكِ وَصَوْتُ نَوَاقِيسَ، لَمْ تُضْرَبِ
وَقَالَ آخَرُ :

وَقَبْضَةٌ مِنْ دَنَائِيرٍ غَدَوْتُ بِهَا لِلدَّسْكَرِيِّ - وَحَوْلِي فِتْيَةٌ سُمِحُ
وَلَمْ يَزَلْ - ثُمَّ - يَسْقِينَا، وَيَأْخُذُهَا حَتَّى اسْتَقَلَّ بِنَا فِي الصُّرَّةِ الْقَدَحِ

وَدَنَائِيرُهُ - بِإِذْنِ اللَّهِ - مُقَدَّسَاتٌ، وَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى الثَّمَانِينَ، فَقَدْ
أَوْفَتْ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ «مُوسَى» الَّذِينَ جَاءَ فِيهِمْ: «وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ
سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا» وَعَلَى عِدَّةِ الْإِسْتِغْفَارِ فِي قَوْلِهِ: «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» وَعَلَى عِدَّةِ أَذْرُعِ السُّلَيْلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
«فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا، فَاسْلُكُوهُ» .

وَلَوْ كَانَتْ سِنُو «زُهَيْرٍ» مِثْلَهَا، لَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالسَّامَةِ، وَلَوْ أَدْرَكَهُ
عُرْوَةُ بْنُ حِزَامٍ، وَهُوَ يَقُولُ:
يُكَلِّفُنِي عَمِّي ثَمَانِينَ نَاقَةً وَمَالِي يَا «عَفْرَاءُ» غَيْرُ ثَمَانٍ^(٤)

(١) الصنائير: البخلاء، جمع صنور (٢) ارجع الى ترجمته في (ج «٢» ص ٣٨)

(٣) اللو (٤) انظر قصيدته الجميلة التي منها هذا البيت في ذيل الأمل

لجَازَ أَنْ يَرِقَ لَهُ ، فَيُعِيثُهُ مِنْ هَذِهِ الثَّمَانِينَ بَعْضُهَا ، أَوْ يَسْمَحَ لَهُ بِكُلِّهَا ،
لأنَّهُ كَرِيمٌ طَبِيعٌ . وَلَوْ صَارَتْ فِي يَدِ عُرْوَةَ هَذِهِ الثَّمَانُونَ ، لَبَلَغَ بِهَا الْأُمْنِيَّةَ ،
لِأَنَّ النَّاقَةَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَانَتْ رُبَّمَا اشْتَرِيَتْ بِعَشْرَةِ دَرَاهِمٍ . وَفِي بَعْضِ
أَخْبَارِ الْفَرَزْدَقِ ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ مُلُوكِ بَنِي أُمَيَّةَ أَعْطَاهُ مِائَةَ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ ،
فَبَاعَهَا بِأَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ ، بَعْدَ مَا عُنِيَ بِهِ ، وَزِيدَ فِي الثَّمَنِ .

الجمل في زمن المنصور

وَقَدْ مَرَّتْ بِهِ الْحِكَايَةُ الَّتِي يَذْكُرُهَا أَصْحَابُ التَّارِيخِ : « أَنَّ الْجَمَلَ كَانَ يُبَاعُ
فِي زَمَنِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ بِدِرْهَمٍ ، وَأَنَّهُ صَادَرَ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَكَانَتْ لَهُمْ نِعَاجٌ ،
فَبَاعُوهَا ثَمَانِي نِعَاجٍ بِدِرْهَمٍ » هَذَا مَا وَجِدَ بِحِطِّ الْمَرْزُبَانِيِّ^(١) فِي تَارِيخِ ابْنِ شَجَرَةَ .

فضل الذهب

وَهِيَ أَنْصَرُ^(٢) مِنَ الثَّمَانِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا الْعُلُوِيُّ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ :
عَبَرْتُ إِلَيْهِمْ فِي ثَمَانِينَ فَارِسًا فَأَدْرَكْتُ مِنْهُمْ بُغْيَتِي وَمُرَادِيَا
لِلَّهِ دَرُّ الذَّهَبِ مِنْ خَلِيلٍ^(٣) ، فَإِنَّهُ يَفِي بِظِلِّ ظَلِيلٍ ، مَا هُوَ - كَغَيْرِهِ - بِأَلٍ .

(١) ترجمته في ج ٢ ص ١٠٤ (٢) أكثر نصرة (٣) من أجل ما قرأناه في

وصف الدينار مدحا وذما ، قول « الحريري » في مقامته الثالثة في مدحه :

أكرم به أصفر - راقص صفرة جواب آفاق - ترامت سفرته

مأثورة سمعته وشهرته قد أودعت سر الغنى أسرته

وقارنت - نجح المساعي - خطرته وحبيت - إلى الأنام - غرته

كأنما - من القلوب نقرته به يصول من حوته صرته

وإن تفانت - أو توانت - عترته !

والدرُّ إِذَا كُسِرَ ذَهَبَتْ قِيَمَتُهُ، وَرُبَّ ذَهَبٍ فِي سِوَارٍ، جُعِلَ فِي خَلْخَالٍ، ثُمَّ نُقِلَ
إِلَى جَامٍ أَوْ كَاسٍ، وَهُوَ - بِحَسَنِهِ - مَا تَغِيرُ لِبِشَارِ النِّيرَانِ !

ابنة أخته

وَأَمَّا ابْنَةُ الْأَخْتِ، فَإِنهَا أَدَّتْ عَلَى الْخَالِ - إِذْ كَانَ أَحَدَ الْوَالِدَيْنِ أَوْ لَا تَجْعَلُهَا
أَخْتًا لِلْهَجْرِسِ لِأَنَّهُ طَالِبَ خَالِهِ بِشَارٍ، فَلَمْ يَقْبَحْ مَا فَعَلَ مِنَ الْآثَارِ

يا حبذا نضاره ، ونضرتة وحبذا مغنااته ونضرتة
كم أمر ، به استتبت إمرته ، ومترف - لولاه - دامت حسرتة
وجيش هم - هزمتة كرتة ومستشيط ؛ تتلظى بخرته
أسرَّ نجواه - فلانت شرته ، وكم أسير أسلمته أسرتة
أنقذه - حتى صفت مسرتة

وحق مولى أبدعته فطرتة - لولا التقي - لقلت: « جلت قدرته! »

*
*
*

ثم ذمه - بعد ذلك - في المقامة نفسها - فقال :

تبا له ! من خادع ممدق أصفر - ذى وجهين - كالمنافق
يبدو بوصفين ، لعين الرامق زينة معشوق ، ولون عاشق
لولاه - لم تقطع يمين سارق ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا اشماز من بخيل طارق ولا شككا المطول مظل العائق
ولا استعيد من حسود راشق وشر ما فيه من الخلائق
أن ليس يعنى عنك في المضايق ، إلا إذا فر فرار الآبق

*
*
*

واها لمن يقذفه من حالق ، ومن - إذا ناجاه نجوى الوامق -
قال له - قول المحب الصادق - : « لا رأى في واصلك لى ، ففارق ! »

« فائل فاه »

ولكن تشبه أن تكون أختاً لابن مضرّس - حين فأتتها الأخوة من الهجرس ا
وهو المعروف بالحثوت ، واسمه « توبة » وكان له أخ يقال له : « طارق »
فقتله رهط خاله ، فرأى أن يقتل خاله ، وقال :

بَكَتْ جَزَعًا أُثْمِي « رُمَيْلَةٌ » أَنْ رَأَتْ دَمًا - مِنْ أَخِيهَا - فِي الْمُهَنْدِ بَادِيًا
فَقُلْتُ لَهَا : « لَا تَجْزَعِي ، إِنَّ طَارِقًا حَمِيمِي ، الَّذِي كَانَ الْخَلِيلَ الْمُصَافِيَا »
« وَمَا كُنْتُ - لَوْ أُعْطِيتُ الْفِي نَجِيَّةٍ وَأَوْلَادَهَا - لَنَوَا^(١) تُسَاقُ - وَرَاعِيَا »
« لِأَرْضِي بَوْتِرٍ مِنْهُمْ - دُونَ أَنْ أَرَى دَمًا مِنْ « بَنِي عَوْفٍ » عَلَى السَّيْفِ جَارِيَا »
« وَمَا كَانَ فِي « عَوْفٍ » دَمٌ لَوْ أَصَبْتُهُ لِيُوفِيَنِي - مِنْ طَارِقٍ - غَيْرَ خَالِيَا ! »

أدب الخوولة

ويجوز أن يكون قد وشج إلى هذه المرأة شيء من أدب الخوولة ، فليتنق
معرفة بيانها ، أكثر من اتقائه خلصة بناتها !

فهو يعلم أن الشعر ورثه « زهير بن أبي سلمى » من خاله « بشامة بن
الغدير » ولم يكن في « مزينة » شعر يذكر . وحضره « زهير » عند الوفاة ،
فأراد أن يعطيه شيئاً من ماله ، فقال « بشامة » : « أَمَا يَكْفِيكَ أُنَى وَرَثَتِكَ
غَرَائِبَ الْقَصِيدِ ؟ »

غريزة المرأة

وربما كان في نساء « حلب » شواعر ، فلا يأمن من أن تكون هذه منهن ،
فطالما كن أجود غرائز من رجالهن !

(١) اللغو : ما لا يعد في الدية ، قال جرير : « كما ألغيت - في الدية - الحوارا »

والحوار : ولد الناقة من حين يرضع إلى أن يفطم ويفصل عن أمه .

وَحَدَّثَ رَجُلٌ ضَرِيرٌ، مِنْ أَهْلِ « آمِدَ » يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، وَيَأْنَسُ بِأَشْيَاءٍ مِنْ
الْعِلْمِ، أَنَّهُ كَانَ - وَهُوَ شَابٌ - لَهُ امْرَأَةٌ مُقَيَّنَةٌ (تُزِينُ النِّسَاءَ فِي الْأَعْرَاسِ)
وَكَانَ يُنَجِّمُ عَلَى الطَّرِيقِ، وَكَانَتْ لَهُ قُرْعَةٌ^(١) فِيهَا أَشْعَارٌ - كَنَحْوِ مَا يَكُونُ
فِي الْقُرْعِ - وَكَانَ يَعْتَمِدُ خِفْظَ تِلْكَ الْأَشْعَارِ وَيَدْرُسُهَا فِي بَيْتِهِ - وَلَا غَرِيزَةَ لَهُ
فِي مَعْرِفَةِ الْأَوْزَانِ، فَيَكْسِرُ الْبَيْتَ، فَتَقُولُ لَهُ امْرَأَتُهُ الْمَاشِطَةُ: « وَيَلِي مَا هَذَا
جَيِّدًا! » فَيَلَاجُهَا - وَيَزْعَمُ أَنَّهَا مَخْطُئَةٌ! . . .

فَإِذَا أَصْبَحَ مَضَى، فَسَأَلَ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ الصَّوَابَ مَعَهَا،
وَعَرَفَهُ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ؛ فَإِذَا لَقِنَهُ عَنْهُ، عَادَ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، فَذَكَرَهُ
- وَقَدْ أُصْلِحَ - فَتَقُولُ الْمَاشِطَةُ: « هَذَا السَّاعَةَ جَيِّدٌ »

*

وَكَانَ لِي كَرِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يَعْرِفُ بَعْلُوَانَ، وَهُوَ امْرَأَةٌ، تَزْعَمُ أَنَّهَا مِنْ « طَى »
فَكَانَ لَا يَعْرِفُ مَوْزُونَ الْأَبْيَاتِ مِنْ غَيْرِهِ، وَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تُحْسِنُ بِذَلِكَ، وَكَانَتْ
تَتَأَسَّفُ عَلَى طِفْلِ مَاتَ لَهَا، يُقَالُ لَهُ: « لَاحِبٌ » وَكَانَتْ تَتَشَدُّ هَذَا الْبَيْتَ:

« إِذَا كُنْتُ مِنْ جَرًّا رَجِيْبٌ مُوجِعًا فَلَا بُدَّ - يَوْمًا - مِنْ فِرَاقِ حَبِيْبِ »

فَقَالَتْ يَوْمًا: « إِذَا كُنْتُ مِنْ جَرًّا رَجِيْبٌ مُوجِعًا » فَعَلِمْتُ أَنَّ الْوِزْنَ مَخْتَلٌ،

فَقَالَتْ: « إِذَا كُنْتُ مِنْ جَرًّا رَجِيْبٌ مُوجِعًا »، فَحَرَكْتُ التَّنْوِينَ، وَأَنْكَرْتُ

تَحْرِيكَهُ بِالطَّبَعِ، فَقَالَتْ: « إِذَا كُنْتُ مِنْ جَرًّا رَجِيْبٌ مُوجِعًا » فَأَضَافْتُهُ إِلَى

الْكَافِ، فَاسْتَقَامَ الْوِزْنُ وَاللَّفْظُ

وَفِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا

لَكُمْ فَآخِذْهُمْ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

أبو بكر الشبلي

وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ الشَّبْلِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ ،
وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ سَائِلًا مِنْ مَذْهَبِ الْخُلُوعِيَّةِ ، وَأُنشِدُنِي لَهُ مُنْشِدٌ :

« بَاحٌ مَجْنُونٌ عَامِرٌ بِهَوَاهُ وَكَتَمْتُ الْهَوَى فَفُزْتُ بِوَجْدِي
وَإِذَا كَانَ فِي الْقِيَامَةِ نُودِي : أَيْنَ أَهْلُ الْهَوَى ؟ تَقَدَّمْتُ وَحْدِي ! »

فَإِنْ صَحَّ أَنَّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لَهُ ، فَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَمْتَرِضَ عَلَيْهِ قَائِلٌ ، فَيَقُولَ :
« إِنَّ ادِّعَاءَهُ الْإِنْفِرَادَ مِنَ الْعَالَمِ ، لَا يُسَلِّمُهُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ ، إِنْ كَانَ هَوَاهُ لِلْمَخْلُوقِينَ
أَوْ الْخَالِقِ فَلَهُ فِي الْأُمَّمِ نُظْرَاءٌ كَثِيرٌ »

ختام الرسالة

وَأَنَا أَعْتَذِرُ إِلَى مَوْلَايَ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ ، مِنْ تَأْخِيرِ الْإِجَابَةِ ، فَإِنَّ عَوَائِقَ الزَّمَنِ
مَنَعَتْ مِنْ إِمْلَاءِ السَّوْدَاءِ ، وَأَنَا مُسْتَطِيعٌ بغيري ، فَإِذَا غَابَ الْكَاتِبُ فَلَا إِمْلَاءَ ؛
وَلَا يَنْكُرُ الْإِطَالَةَ عَلَيَّ ، فَإِنَّ الْخَالِصَ مِنَ النَّضَارِ ، طَالَمَا اشْتَرَى بِأَضْعَافِهِ - فِي الزُّنَّةِ -
مِنَ اللَّجَيْنِ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الثَّمَنُ مِنَ النَّفِيَّاتِ ^(١) اللَّائِي يَوْجَدُنَ فِي الطَّرْقِ مَرْمِيَّاتٍ ؟
وَعَلَى حَضْرَتِهِ الْجَلِيلَةِ سَلَامٌ ، يَتَّبِعُ قَرُومَهُ ^(٢) فَالَهُ ^(٣) ، وَتَلْحَقُ بِعُودِهِ ^(٤) أَطْفَالُهُ .

﴿ تمت رسالة الغفران ، وانتهى الجزء الثالث ﴾

(١) جمع نفية وهي ما تنفيه الحوافر من حصى وغيره ، ومعناها هنا الأشياء الخفية

التافهة (٢) جمع قرم وهو البعير أو الفحل (٣) جمع أفيل وهو صغير الإبل

(٤) جمع عائد وهي الناقة الحديثة العهد بالنتاج .

مكتبة الأطفال

بقلم كامل كيلاني

أشهر القصص للأطفال

- ١ - رحلات جعفر . ٢ - دون كيشوت .
- ٣ - الكوميديا الالهية . ٤ - شمشون الجبار .
- ٥ - رحلات ابن بطوطة .

قصص علمية للأطفال

- ١ - النحلة العاملة . ٢ - العنكب الحزين .

قصص عربية للأطفال

- حتى بن يقظان - عنزة بن شداد
- سيف بن ذي يزن - أبو زيد الهلالي
- الأميرة ذات الهمة .

ألف يوم للأطفال

ألف ليلة

مطبات يوم

جحا في بلاد الجن - ج

جحا وأصحابه - ج

قصص فطرية للأطفال

- ١ - عمارة . ٢ - الأرنب الذكي .
- ٣ - عفاريت اللصوص . ٤ - نعمان .
- ٥ - العرندس . ٦ - أبو الحسن .

قصص مبدرة للأطفال

- ١ - بابا عبد الله والدرويش .
- ٢ - أبو صير وأبو قير . ٣ - على بابا .
- ٤ - عبد الله البري وعبد الله البحري .
- ٥ - الملك عجيب . ٦ - خنبر وشاه .

قصص للأطفال

- ١ - السندباد البحري . ٢ - علاء الدين .
- ٣ - تاجر بغداد . ٤ - رو بنسن كروزو .

قصص فكسيرة للأطفال

- ١ - العاصفة . ٢ - تاجر البندقية .
- ٣ - يوليوس قيصر . ٤ - الملك لير .

Bibliotheca Alexandrina



0496509

